الرواية الحائزة على جائزة أدب الرحلات

جمال محجوب

السفر مع الجن

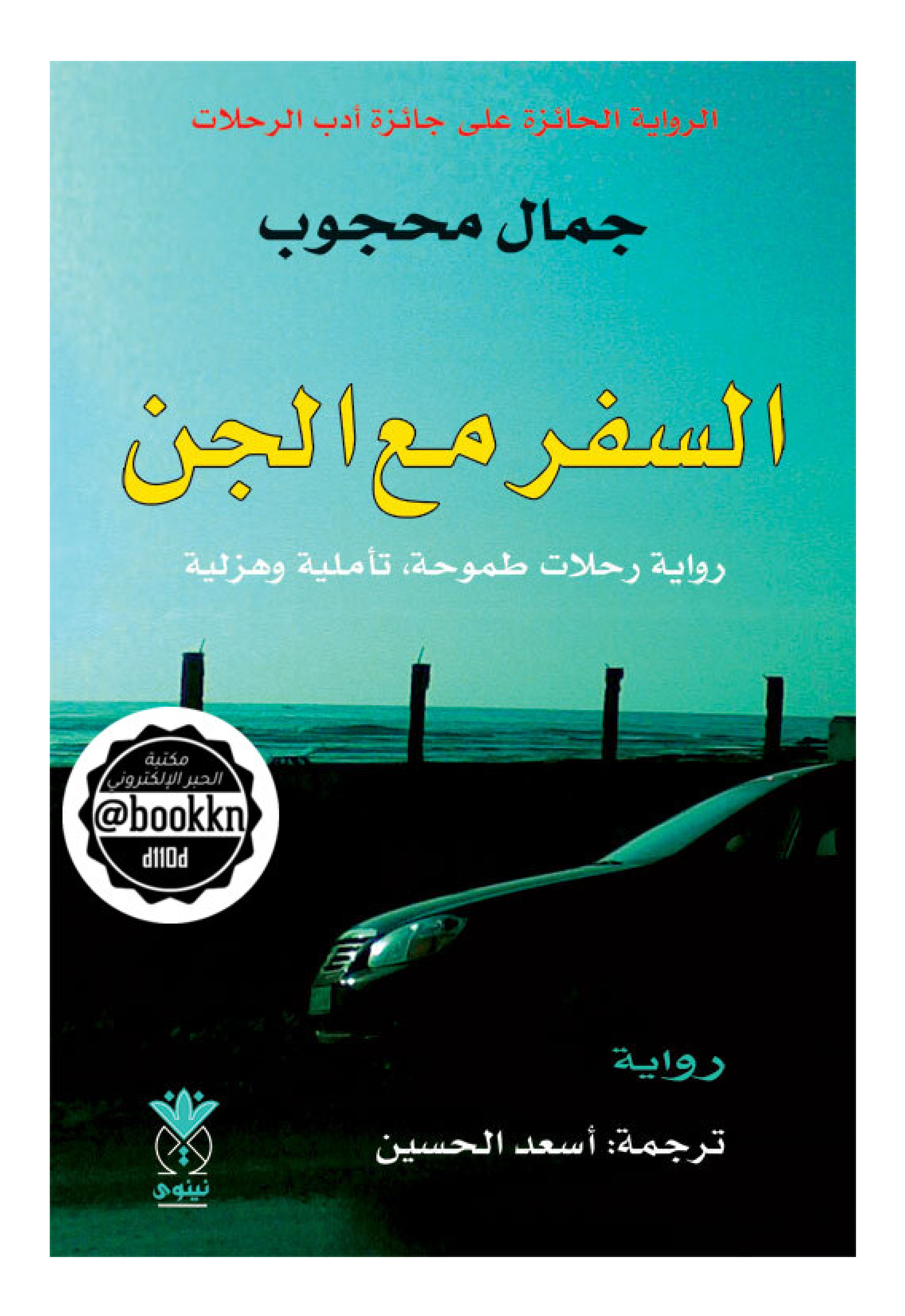
رواية رحلات طموحة، تأملية وهزلية



رواية



ترجمة: أسعد الحسين



الرواية الحائزة على جائزة أدب الرحلات
جمال محجوب
السفر مع الجن
رواية رحلات طموحة، تأملية وهزلية
رواية
ترجمة: أسعد الحسين
نينوى

السفر مع الجِّن

"الرواية الحائزة على جائزة أدب الرحلات"

جمال محجوب(*)

رواية

"رواية رحلات طموحة وتأملية وهزلية"

ترجمة: أسعد حسين

(*) روائي سوداني عاش في لندن- الآن في برشلونة.

ملاحظة المؤلف

الاقتباسات التي أخذت من رسائل ريمبود كانت من الأعمال الكاملة لارثر ريمباند، ترجمة بول شميدت، هاربر اند كولوفون بوكس 1976. تدين الإشارة إلى بروغيل إلى تحليل ريتشارد سينيت، اللحم والحجر، للمنظر الطبيعي الذي رسمه بيتر غروبيل سقوط ايكاريوس، فابر اند فابر 1994. كتاب جوزيف روث الذي أشير إليه طبعة اسبانية نشرته ايديتوريال مينيوسكولا2000. أما الكتب الأخرى فقد ذكرت بشكل عابر.

شكري إلى ريبيكا كارتر لأنها أعادت لي ثقتي بالناشرين عموماً ومهنة التحرير على وجه الخصوص. الشكر أيضاً إلى جيلون وسالي رايلي وكل الزملاء فيمن ج اتكينز لجهودهم الشجاعة. تحية عرفان إلى إيان هاملتون التي أطلق تشجيعها شرارة هذا الكتاب والتي افتقد رفقتها بمرارة. الشكر لليف جوريس لقراءتها المتمعنة وحماسها السخي. الشكر لجين ومادلين سيغري في فرنسا وإلى برنارد ماغنير. وفي اسبانيا الشكر إلى انطونيو موريلو وايما اسبيونيز في الفاغوار وربرت ولويس دائما والى روزا لصبرها القوي.

مراجعة الكتاب

السفر مع الجن، الكتاب الخامس لجمال محجوب، رواية رحلات طموحة، تأملية وأحياناً هزلية، ركّزت على العلاقة الممتعة بين أب وابنه الصغير خلال رحلتهم في أوروبا بسيارة بيجو زرقاء فضية موديل 504، يكتشف الأب الراوي المولود بين الصدوع القارية والطبيعة في أوروبا أنه من "المطلعين" و"الدخلاء: بنفس الوقت.

ياسين ظاهر، رجل يحمل جوازي سفر ويتكلم بأكثر من لغتين، على وشك الطلاق من زوجته الانكليزية-الانكليزية ايلين. بتشجيع منها يمضي بعض الوقت مع ابنه ليو بينما تظل هي في الدانمارك تتبادل الأفكار مع أبناء عمومة بعيدين في الدانمارك، ينطلق ياسين وابنه ليو ذو السبع سنوات في رحلة تعليمية دافعها فيها الخوف من فقدان ولده.

ياسين الذي ولد في الخرطوم من أب سوداني وأم انكليزية في السابعة والثلاثين من عمره الآن، مجبر على مواجهة تعقيد أصوله ويصارع لاختيار الطريقة المناسبة لنقل هذا لابنه. عندما سأله ليو من هم العرب النهابين في الحروب الصليبية رد عليه الأب "إنهم.....نحن." حين مط ياسين رحلته من الدانمارك إلى ألمانيا ولوكسمبورغ وباريس وبروفانس ثم اسبانيا تخيل بأن تظهر الصحف بعنوان "متعصب إسلامي يخطف ابنه"

إن كانت رحلته هروباً أم بحثاً غامضاً فقد أخذ ياسين جنه معه، علاقته بإبنه تستحضر علاقته مع ولده، ذلك الصحفي اللندني المثقف والمحارب الصلب في سبيل الحرية الذي خذله بقاء إبنه في لندن للعمل في إذاعة (BBC) بدلاً من العودة لبناء وطنه الأم. أخت ياسين، ياسمينة التي كانت من معجبات أوليفيا نيوتن جون تتحول إلى امرأة مسلمة تقليدية يكسوها السواد الكئيب وترثي حال ياسين لزواجه من إمرأة أجنبية وتعتبره "خائن ثقافي. عندما بدأ ياسين يتأمل في زواجه المنهار

تحولت الرحلة إلى بحث عن أخيه الضائع، مروج المخدرات والسجين السابق، ليلحق به في كوستا برافا.

"ليس لدي إفريقيا خاصة بي لأهرب إليها حين تفسد حياتي. أوروبا هي قارتي السوداء وأنا أبحث عن قلبها" قال ياسين. تحمل روايته صدى رواية موسم الهجرة إلى الشمال للكاتب السوداني المشهور الطيب صالح التي كانت رداً على رحلة كونراد إلى قلب أفريقيا في "قلب الظلام"."أقرباء ايلين يقطنون في جوتلاند".

يكتشف ياسين بأن حرس الحدود في أوروبا التي فتحت حدودها لم يسمعوا بالشينيغن حين وقعت عيونهم عليه وعندما انجذب إلى المسجد في باريس طرد ووبخ كسائح. بالنسبة لياسين هناك (أناس على كلا الجانبين يصرون على فرض الحدود التي يجب عليه عبورها مرة تلو أخرى ليبقي نفسه حياً." فوطن والده سممه المتعصبون الدينيون وغابت مثل وقيم والده الليبرالية حين فشلت بتسوية الخلاف.

يشرح ياسين لإبنه بأن (الكمير) وحوش أسطورية مكونة من نوعين مختلفين من المخلوقات. يقول ليو "مثلنا، أنواع مختلفة من الآباء والأمهات"، يدرك ياسين أن تعقيد عائلته جزء من حركة أكبر من الناس والأفكار. يعبر أوروبا ليكشف صلاتها مع العالم. حب غوته للشعراء الصوفيين وتعددية الأندلس وأبيات الرباعيات المنقوشة على الصخر. بلقائه مع عمه ميوك يستمتع ليو بحفلة عيد ميلاد جيدة تغنى فيها "عيد ميلاد سعيد" باللغات الانكليزية والعربية والاسبانية.

في الوقت الذي يبدو فيه بعض هجاء الرواية سطحياً فإن معرفتها ومدركاتها غنية جداً ومقنعة. ياسين رفيق سفر ساحر ومراقب ظمئ واسع الاطلاع وغير مغرور. دليله وملجأه مجلدات يحملها في حقيبة قماشية وكتب تشهد بعلاقته مع عوالم كثيرة، من عمر الخيام وابن عربي وأفلاطون إلى جوزيف روث وولتر بينجامين، طالب اللجوء الذي دفعه حرس الحدود الأسبان إلى الانتحار حين هددوه بإعادته في القطار إلى ألمانية النازية.

حين راجع وفاة والديه وعلاقته مع صديقة زوجته درو التي أجهضت طفلهما، يكتشف ياسين حقائق عميقة تعيد تأكيد قيم الصداقة والعائلة والحب. الأكثر تأثيراً هو الرصد اللصيق لطفل يتمسك بحطام عالمه. لحظات ليو اليائسة الحزينة تتلى بابتهاج منفلت وفضول. في وسط اتهاماتهما المتبادلة أدرك الأبوان الناضجان وقبلا بحاجة ابنهما إلى الآخر.

قبل عشر سنوات فازت "ملاك رسام الخرائط" القصة القصير لجمال محجوب بجائزة الغارديان للقصة الإفريقية القصيرة، واعتبرت روايته السابقة الأربع استكشافات حادة وناجحة، تنضح بمعرفة واسعة بالتاريخ السوداني والروابط بين أوروبا وإفريقيا. السفر مع الجن تعد بإيصال صوت إنساني أصيل إلى مجموعة أوسع من القراء.

مدخل

ارتفعت كرة غولف بيضاء صغيرة وتقوست في الجو لتصيب رأس والدي حين كان في التاسعة من عمره. لقد أخبرتني جدتي حبوبة بهذا فأنا لم أكن موجوداً في العالم آنذاك.

أتخيل المشهد بالشكل الآتي: أراهم يمطون أعناقهم للنظر عالياً وأبي يسند ذقنه بيده، وكوعه على الحقيبة الجلدية الضخمة التي تقف منتصبة بجانبه. فقد كانت وظيفته حمل عصي الغولف للخواجة الانكليزي، ساكن البلد الأصلي حمال لعصي الغولف. كان يحمي عينيه بحافة يده المسطحة حين اختفت الكرة في هالة الشمس الواسعة الشاحبة. تخيلت للحظة، أن تلك الكرة أسرته وهي تشق عباب السماء وترتفع عالياً عن الأرض. إن كان أبي أي شيء فهو حالم يقظة، كان يجلس في الصف المدرسي وهو يربت قدميه ببعضهما ويدمدم "تلألأي أيتها النجمة الصغيرة، أتساءل من تكونين" إلى أن صفعه المعلم الانكليزي خلف أذنه وهو يصرخ به " استيقظ يا صغيري يا وحيد القرن!" زودتني أمي بهذه التفاصيل عن وحيد القرن. أعطتني النساء كل القصص التي لها معنى في حياتي.

أتساءل ما الذي كانت تعنيه له الكرة في تلك اللحظة، هل كانت روحه المحلقة عالياً فوق الكوكب، أم كان إحساسه في التصميم أم رسالة حملها له ملاك همس بالتعويذات والرقى في أذنه؟ مهما كانت البورسلانية الصلبة فقد سقطت من السماء الصافية وضربته بين عينيه مباشرة فسقط على الأرض بلا حراك.

لكل شيء بداية أو نقطة ابتداء أو مكان مغادرة أو نقطة ترقيم، تنهي فيها القصة القديمة لتبدأ واحدة جديدة. تعودت الحياة على فعل ذلك. تعتقد بأنك تعرف كيف ستصبح ثم تضرب. بالنسبة لي تعلم كرة الغولف تلك مسار عائلتي الاهليلجي الغريب، ذلك المسار الذي أوصلني إلى ما أنا عليه اليوم. أي أنها كانت قدرنا الموحد، عائلة سرقت من مسارها في ذلك الصباح. لقد كنا دائما في تأرجح صرعي منذ ذلك الوقت.

أخبرتني حبوبة فيما بعد بأن والدي ظل في الخارج وفي البرد لمدة أسبوع وأنها كانت تذهب للجلوس بجانبه ليلاً ونهاراً في المستشفى العسكري الانكليزي في الخرطوم التي قبلته بناءاً على الرواية التي أفادت بأنه أصيب على خط الواجب وليس حين كان أجيراً يحمل عصي الغولف لضابطين من سلاح الجو الملكي. اعتقد الجميع بأنه لن يسترد وعيه أبداً وأنه سيظل هكذا حتى يتوقف قلبه عن الخفقان. كان الجيران يأتون ويجلسون في البيت طول اليوم، يتدحرجون للأمام والخلف مع مناديل معطرة ثبتوها على أفواههم ويهوون رقابهم بأصابعهم، متوقعين مهمة النواح القادمة. مرت ثلاثة أيام دون أن يحدث أي تغيير، لم يكن حياً ولا ميتاً بل معلقاً في مكان ما بين هذا العالم والعالم الآخر. هز النعاة المفترضون رؤوسهم في رعب ودمدم الأكثر تطرفاً منهم بأن استخراج العذاب بهذا الشكل وكيف يمكن لامرأة واحدة أن تتحمل كل هذا الحظ العاثر؟ طفلها الوحيد، ابن زوجها الوحيد ذلك الرجل المسكين الذي توقف قلبه بينما كان في مكان -لم يسمع به أحد أو يراه يدعي بالمسمار للعمل في قسم للسكك الحديدية والبواخر (ريلويز اند ستيمر) كان يديره البريطانيون أيضاً.

مر يوم آخر، ولم يحدث أي تغيير. بدت حبوبة معتادة على قائمة رعب الحياة وتعلمت أن تسلم نفسها لكل ما يرمى بطريقها وقالت أنها تعرف ومتأكدة بأنه لن يموت، قد يصحو لكن كأبله تماماً أو لا يصحو أبداً، لكنه لن يموت، أعرف ذلك. ابتسمت بدفء ذكرى ذلك الزمن البعيد وقالت " في عائلتنا رؤوسنا كالصخور لكن قلوبنا لينة".

كنت أجلس معها وأصغي إلى حديثها بتلك الطريقة البطيئة المتعمدة التي تنبئك بنعومة وثبات أن الاندفاع لا يوصل إلى أي مكان يجب أن نسمح للأشياء بأن تأخذ وقتها. في المساء كنا أنا وهي نحمل فراشينا إلى باحة المنزل (الحوش) لنستلقي على خيوط ألياف النخيل القاسية المفروشة على أسرّة قديمة تصدر صريراً. كانت تتكئ على جانبها وتطوي ساقيها تحتها، تضع رأسها بين راحتي يديها أما أنا فكنت استلقي أمامها وأصغي مفتوناً. لم أكن أرى وجهها، بل أسمع صوتها آتياً من الظلام فقط. في بعض المساءات كانت تتكلم لي وحدي وفي بعضها الآخر كان معنا آخرون في باحة الدار، كان البيت يمتلئ بالناس دائماً، قادمين وذاهبين. العمات والخالات وبنات الأخوة والأخوات اللواتي يعشن هناك مدة من الزمن ثم يرحلن، أو الجار الفضولي الغريب الذي يأتي.

كان بيتاً تملأه النساء فكل رجاله رحلوا منذ زمن بعيد، رحلوا من أجل نساء أخريات ومراع أخرى، رحلوا إلى خارج البلاد للعمل ولم يسمع عنهم بعد ذلك ثم ماتوا بانتظام مرعب لدرجة أنني عاهدت نفسي بأن أذهب لإجراء فحوصات طبية دورية. تلاشى الرجال ولم يبق منهم سوى نقاط مرجعية في سيرة تلك النسوة. كانوا هناك في شال الزفاف الذي طوي بحرص وخزّن في حقيبة محطمة منذ عقود من الزمن أو في صور باللونين الأبيض والأسود موضعة داخل الخزانة مع الأطباق الجميلة والأكواب الزجاجية التي لم تكن تستخدم أبداً. في إحدى الزوايا ثبتت صورة جواز سفر لشاب وحفظت مجعدة عرفت بأنه عمي أو ابن عمي الثاني وهناك صورة أخرى لرجل عرفت بأنه جدي، الذي لم أقابله أبداً لكن من خلال ملامح وجهه استطعت تمييز أثر من الشبه الواهن بأبي وخاصة الشوارب، كان نحيلاً أسمراً ورشيقاً في قميص أبيض وسروال واسع . كأن الرجال ضغطوا قبل أن تؤخذ لهم صورهم، يقفون أمام خلفية استديو مطلية رسم عليها نهر وقمر. هاهو هناك، خالد مؤبد يجمع الغبار وسط أطباق الحساء وفناجين الشاي الملونة. هذا ما يحدث للرجال، كما تخيلت: ينتهون في خزن زجاجية يجمعون فيها الغبار.

تناقلت النسوة المحيطات بي في فناء الدار أحاديث المساء وانشغلن بتفاصيل حياتهن القلقة، بينما اكتظت السماء فوقنا بالنجوم التي كانت تومض بدهشة مستمرة مطوقة مسرحنا بإضافات صغيرة. في الغالب، حين تصارع أعيننا النوم يتولد لدي شعور غريب بأنني أسقط وسط شبكة واسعة، شبكة معقدة محاكة من عدد غير محدود من القصص لم يكن لدي فكرة عن عددها أو أنها حقيقية أم مخترعة وأيها توارثته الأجيال ومن حمل في السوق ذلك الصباح بعينه حضناً من الباذنجان والخيار الملتوي. بدا الزمن يتدفق في تلك اللحظة فقط. كل شيء كان قديماً على شكل مرعب وجديد بنفس الوقت. لم أقدر أن أتخيل ما تحتويه كل تلك القصص لكنني أتذكر وبشكل جيد القناعة المسيطرة بأنها كانت لي وحدي لاكتشفها وعرفت أيضاً أنه مهما عشت وكان عمري طويلاً فلن أقدر على تعلمها كلها ولكن ذلك لم يكن مهما على أية حال.

بالنسبة لأبي، حسناً، لم يعان من ضرر دائم مرئياً لكنه منذ ذلك اليوم كما قالت حبوبة لم تعد تعرف ما الذي سيتلو ذلك، فقد انتزع شيء من داخله ونقل من مداره المرسوم بشكل دائم وإلا كيف يمكن تفسير ما حدث داخله ولحياتنا كلنا في الواقع.

أعتقد أحياناً بأنني أحسد هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون مكان انتماءهم، الكتّاب الذين لديهم لغة وتاريخ منحا لهم دون جهد أو تعب كطرائد جاهزة. مع أمة من الشركاء الراغبين، أبناء بلد يرون مصيرهم وتاريخ أمتهم وتقاليدها الأدبية تعكسه مرآة جهود كاتب محاكة بشكل جيد. يسعدني جداً هذا الامتياز طبعاً. أنا أنتمي إلى قبيلة بدوية، إلى الرعاع الكبار، إلى هؤلاء الأشخاص الذين ولدوا في الصدوع التي بين الجروف القارية، في الفواصل المنسية بين مناطق الزمن المربوطة بخطوط العرض، قبيلة ليس لها موضع ثابت، مشردون لا دولة لهم، لدي جواز سفر وعدد وافر من الوثائق الأخرى التي تعرف بي وتخبر العالم أين كنت دون أن تبين من أكون أو إلى أي مكان سأذهب، لغتي لسان غير شرعي للضرورة والارتجال والنحو الرديء وسوء التفاهم القاري، أنا غريب أينما أذهب، لم أمنح تاريخي بل علي أخذه واسترداده قطعة وراء أخرى، انتزاعه من بين أعمدة القرون ورفوف المعارف العاجية، كلماتي الورقية المهلهلة أبعدتها تلك المجلدات الضخمة المربوطة بالجلد والمكتوبة بالدم، أمتي قائمة عشوائية من أماكن موجودة على الخريطة مررت بها دون أن يكون لي أو عليها أي مطلب. قد يقول البعض أنني تشبهت بالغرب لكنهم مخطئون وقد يقول غيرهم أنني أبعدت وغربت واندمجت بهم لكن ذلك خروج عن الموضوع. هذه هي طريقة الأشياء. لا تخطئوا بالحكم علي،فأنا لا أبحث عن الشفقة وإنما ببساطة لم أستطع فهم هذا كله من قبل وليس علي ذلك في الحقيقة. كان هناك دائماً وقت آخر، إلى الأمام، حول اللفة الثانية. تلك هي الطريقة التي يسير غالبيتنا عليها في الحياة، حتى يأتي شيء يغير ذلك وفي حالتي لا الأشياء كانت كثيرة ولا الأشخاص أيضاً.

الفصل الأول

اسمه ليو، اختيار أمه وليس اختياري، لأن الاسم الذي اقترحته قوبل بابتسامات جوفاء وعبوس وعلامات أخرى من عدم الإدراك البليد مثلما قابل الأصدقاء والأقارب كوني المدافع عن أرضي، فقد تبولت على كعكة الحفلة. لم يكن إسماً صعباً كما توقعت لكنه حُرِّفَ بصورة بطيئة وأكيدة وغير مألوفة. حول إلى الشعبة الثانية باتفاق ضمني مشترك بالتدريج طبعاً، إعتاد أن نناديه بليو، أمه الانكليزية ووالديها ورفاقه في المدرسة ومعلميه كلهم نادوه بهذا الاسم. واصلت الإشارة إليه بعناد باسم حمدي حتى استسلمت إلى حقيقة أنني كنت أخدع نفسي واسبب له الألم والإرباك فكففت عن ذلك. "حمدي دمدي، جلس على الجدار، حمدي دمدي سقط من الجدار سقطة مريعة فأصبح ليو." كان الآمر بهذه السهولة ولم أتمكن من فعل الكثير إزاء ذلك. للأسماء تصميمها وعزمها وهذا الاسم ربط نفسه مسبقاً بشعوره المتنامي بنفسه. ففي عمر السابعة، أبحر في درب محتوم ومستحيل في محاولة أن ينشىء شخصاً كاملاً من الشكل الذي رآه حين نظر في المرآة. كنت أجده في الحمام أحياناً وهو يرشرش الماء في كل المكان ويحاول أن يسرّح شعره للأسفل والجانب كتلميذ انكليزي أنيق، كان الشخص الصغير الذي يراه بالمرآة كائناً بشرياً ناقصاً وإسم ذلك الشخص هو ليو. لكن حالما يبدأ الماء بالجفاف تبرز تجاعيد صغيرة مثل نوابض ملتوية لتفسد الأمر عليه. إن السبب الحقيقي لهذه الرحلة، هذا القرار، هذه الهجرة إن أحببت، هي رغبتي بأن يكتشف بأنه أكثر من مجرد هذا الليو لكنني في الحقيقة لا أعرف كيف سأنجز ذلك، لذا لا استطيع الزعم بأنني خططت هذا على الأساس المنطقي الذي يستحقه. فقد كان بلا أي أساس منطقي وحدث هكذا.

ماذا يمكنك أن تتعهد لطفل بعد كل ذلك سوى أن تكون هناك دائماً وأنك موثوق وجدير بالاعتماد وشراعه الذي يبحر فيه لكن تبيّن أن كل ذلك لن يتم ولم أعد متأكداً من قدرتي على الوفاء بتعهدي. حقيقة تسميته المزدوجة كانت مؤشراً على الفوضى القادمة. حين لا يستطيع الأبوان الجديدان الاتفاق على إسم مولدهما الأول فهذا تلميح إلى حالات أخرى من التنافر تترصد هناك تحت السطح الهادئ لنعمة العائلة.

لهذا أنا أقود سيارتي بالغريزة وحدها وليس في بالي وجهة محددة. صفحة الزمن الواسعة المتموجة تميل إلى الانتقال فجأة دون سابق إنذار وستختفي عوالم كاملة، أنا في وسط الانقسام العظيم، خط سيقطع الأرض مثل سكة محراث، تشوه تضاريس، صدع عميق لديه الإمكانية على هز قارات بأكملها وخلخلة قرون من النظام واستئصال أمم برمتها. يبدو أنني أعكس هذا الخط دون التأكد تماماً من السبب. أنا في السابعة والثلاثين من عمري، هذه نقطة المنتصف في حياتي، من هنا وبعد ستصبح انحداراً كما قيل لي.

نحن في سيارة نعبر جنوب ألمانيا في أواخر شهر آب حين بدأت المساءات تقصر ربما بسبب خطوط العرض والانتقال إلى الجنوب. كان هناك شعور بالإلحاح والاستعجال في الظلال المتطاولة الممتدة بين الأشجار وانتشرت بحيرات ضحلة غنية بالعشب الأخضر داخل الفجوات المشكلة بين الجزر الصغيرة لأشجار الصنوبر بمحاذاتي مثل أرخبيل غير مرسوم على الخريطة.

السيارة فرنسية زرقاء فضية من نوع بيجو 504 سيركا 1973 ، آلة هادرة لها شهية نهمة للوقود. سيارة لها قصة، فقد جمعها ميكانيكي هاو، واحد من هؤلاء المتعصبين غير المؤذين، فكرته عن المتعة هي في قضاء مساءات السبوت في المرآب، يولف الراديو على برنامج أغاني غولدن اولدز ويلمّع الأشياء الميكانيكية بخرقة مشبعة بالزيت. لقد أمضى عامين في تركيب هذه السيارة التي ظلت وقتا طويلا واقفة في الخارج على الطريق الخاص تحت قماش من المشمع قبل أن يعود إليها. هذه السيارة من زوجته، ذلك المخلوق العاجز عن الحركة بعيون خشبية وبلون دخاني. لم تكن تتحرك. أغلب الناس يفعلون. ولا إيماءة يد ولا هزة رأس أو نبضات عصبية خفيفة أو ابتسامات خرقاء. كان سكونها محيراً. يجعلك تنظر مرتين لترى إن كانت هناك أصلاً. لها قصة أيضاً. لقد أنهى السيارة ثم تركها بعد ذلك، مبحراً باتجاه القارة على سفينة عابرة للقنال مع امرأة ضجرت من تكديس الروايات الرومانسية على رفوف المكتبة المحلية. لقد هربا في سيارة (أوبل استرا) هذا التفصيل كان الدليل الأخير المطلوب للتأكد بأنه لم يأخذ إجازة من زوجته الملكية فقط بل من أحاسيسه أيضاً. تخلصت من كل شيء يدل على وجوده ورمت ثيابه. جيش الخلاص. اوكسفام من المضحك الاعتقاد بأن هجره لي قد يسهل معاناة العالم بطريقة ما. ابتسمت ابتسامة ساخرة. السيارات كان هناك خمسة منها، كلها في حالات متنوعة من البؤس، كانت تبيع منها لتدفع تكلفة إجازة. بعد اثنتا عشر سنة من الزواج أعتقد بأنني أستحق إستراحة أليس كذلك؟ نظرت تحت هيكل السيارة المعدني كما لو كنت أعرف ما أفعله وحاولت أن أحسم مئة جنيه من السعر لكنها لم تتركني أفلت إلا بخمسين جنيه.

تضفي الحدبة المستوية من الخلف والأنف المنحني قليلاً على البيجو نظرة رياضية، إنها تشبه إسفيناً طائراً بأجنحتها الطويلة وتبدو جاهزة للذهاب إلى أي مكان وفي الغالب تفعل ذلك. هذه واحدة من أكثر السيارات تحملاً في العالم. هنالك شيء صادق في السيارات القديمة، ليست موثوقة فقط طبعاً وإنما تملك ملموسية ميكانيكية مطمئنة. إرفع غطاء محرك سيارة حديثة وسترى شيئاً يشبه عدة أدوات ليغو، وحدات بلاستيكية منبسطة تفرقع معاً وتتساءل إن كنت قد فتحت الطرف الخطأ ويبدو لك داخلها مثل مجموعة من حقائب السمسونايت. لتصليح عطل، يعلق الميكانيكي السيارة عالياً إلى كمبيوتر يضيء بشيفرة رقمية عند الجزء المعطل. السيارات اليوم مصممة لتنسيك وجود أي شيء قذر في الاحتراق الداخلي أو حرق الوقود النباتي أو الغابات المطرية التي سويت بالأرض أو الأنهار التي لوثت أو ملايين الأميال المربعة من الطبيعة التي دمرت وضحي بها لكي تتمكن من السفر بصورة مريحة. تعطيك السيارات الجيدة قوة جر سلسة ونقية يتعذر تفسيرها. إنها الوهم في العالم المثالي الذي أعارضه. واجه الحقائق. الأشياء تتعطل، النفط يهرق والعاقبيل لم تدفع بعد. بعد أن قلت ذلك ، ظل هناك أنين مقلق نوعاً ما قادم من أداة تعشيق التروس حين أُعَشِقْ الترس الأول وهذا ينبئ باحتمال التعرض لمشاكل قادمة.

تبدو في هذا القسم من العالم مثل الركوب على ديناصور فقد أخبرت ليو بأنها مثل سيارة من العصر الحجري ووجد هذا مسلياً فبدأ بتحريك الدواسات بأقدامه. كان الناس يومئون برؤوسهم محيين وهم يتجاوزننا ويمطون أعناقهم لينظروا إلينا، أما الصغار فكانوا يشيرون بأصابعهم ويضحكون بصوت عال ويضعون إبهامهم على أنوفهم للتعبير عن ازدراءهم وهم يسبقوننا. لكن كانت هذه السيارة تذكار قديم أيضا من العالم الذي ترونه لو عبرتم إلى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. إنها سيارة العالم الثالث، تذكار من عصر آخر. البيجو 504 أسطورة في كل

من أفريقيا أو الشرق الأوسط وتتفوق على كل منافساتها لأنها صلبة كالدبابة. المصنع الوحيد في العالم الذي لا زال يصنعها هو في نيجيريا. في كل العالم الآخر يجري إعادة تدويرها وتخزينها بلا نهاية وبعناية ومحبة. هنا وسط كل تلك الآلات الناعمة ذات الوزن الخفيف والتي بقوة الورق المطلي بالشمع، هناك شيء في هذه السيارة يجذب اهتمام الناس، يبدو أنهم يروون فيها رمز ماضيهم ، شعورهم بالاستمرار، ربما ذكرى في الجلوس في حضن الجد وتعلم القيادة في صيف سنة ما حين كان للعالم أساس تحته وكنت تستطيع الشعور به قبل أن يصبح كل شيء فيه خفيفا بشكل متزايد ومن الصعب الاحتفاظ به. هذه السيارة هي ما أنا بحاجة إليه الآن تماماً، شيء صلب حولي، شيء يشعرني بأنني على علاقة بالأرض .

عبرنا الحدود الألمانية قبل الظهر وبدا لي على الفور بأن الطريق والهواء أصبحا ثقيلين بالقذارة الصناعية. بدا حرس الحدود كالنسور في ستراتهم الضيقة القصيرة، وطلبوا مني ركن السيارة جانبا وإطفاء المحرك وتفحصوا اسمي مع قائمة المشبوهين عالمياً. هل هي السيارة، تساءلت أم وجهي؟ الحدود الآن مفتوحة لكن يبدو بأن هؤلاء الحراس لم يسمعوا باتفاق شينغين أو لم يكترثوا لما أقره هؤلاء السادة الأذكياء في بروكسل. أخبرتهم لو أنني كنت أهرّب أشخاصاً أو مخدرات لفعلت ذلك في سيارة مرسيدس سياحية واسعة مع رباط أبيض على عجلة القيادة لكنهم كانوا يفتقدون إلى حس الدعابة ومن الواضح أنه ليس هناك من مهرب يحترم نفسه يحاول الهروب من الحاجز مثلي وبهيئتي ووراء مقود كومة صدئة مثل هذه السيارة.

جلسنا هناك وانتظرنا مهلة من الوقت بينما كان رجال الشرطة يتأكدون من بياناتي ومن أي عمل إرهابي دبر في الثلاثين سنة الأخيرة وأي جريمة أو جنحة ارتكبت في نصف الكرة الأرضية الغربي من قبل أي شخص أسمه مماثل لاسمي. كانت هذه بداية مثيرة للكآبة. هرت السيارات خلفنا، أصبح لون الأيكات التي على جانب الطريق رصاصيّاً بسبب قذارة الكربون والغاز. قد أكون متحاملاً على الألمان لكن لماذا شعرت أنني قد أكون ضحية هنا أكثر من أي مكان آخر. لاشك بأن ذلك نتاج أفلام الحروب تلك وروايات بيغلز التي صادفتها وأنا طفل. بشعور بالذنب، حاولت أن ابتسم بمودة حين أعادوا لي جواز سفري ونلت مقابل ذلك نظرة غريبة من الحارس.

قدنا سيارتنا بعد ذلك عبر أراضي المستنقعات المنخفضة الشمالية، حين يذوب الجليد القطبي ستكون هذه الأراضي واحدة من أولى الأماكن التي ستتبلل فيها أقدامكم، إنها بلاد الألبان والحقول القذرة العشبية التي تقطنها قطعان تراقب باهتمام وعبوس، السير المتواصل للعربات التي تتجاوزها بسرعة كبيرة.

(بماذا يفكر ذلك القطيع وهو يرانا كما تظن)، (يجب أن يكون مثل مشاهدة التلفاز) لوح ليو بيده للأبقار (هل رأيت تلك) قفز عالياً من مقعده ولوى عنقه لينظر (ماذا ، ماذا) انحرفت السيارة، لست سائقاً ماهراً ومن السهل تشتيت انتباهي. (إحداها ردت التحية")، (كيف ردت التحية؟). (بذيلها طبعاً، لوحت لها بيدي فلوحت لي بذيلها)،(هذا جيد)،(أنت لم ترها)، (أصدقك أنظر هناك واحدة تركب دراجة)،(أوه بابا) بصورة فظة وهو يشعر بالاستياء. إنه يرى أشياء لا أعرف إن كان هذا ناتج عن خيال مفرط النشاط أم علامة على خطر أعمق. رد فعل على الاضطراب العائلي الذي عانى منه مؤخرا ربما والذي لم أخففه بسلوكي الحالي على الأقل.

تصورت هذه الرحلة للحظة كتقليد لكل الرحلات العظيمة في الأدب، في التراث الرومانسي للطاويين الذين يلفون العالم ورجال الدين البوذيين المتجولين الباحثين عن التنوير وسجلات حقيبة سفر بالية لباشو أو طريق ضيق إلى الشمال العميق، مثل الصوفيين الذين حكم عليهم بالطواف في طرق العالم وكبحث ابن عربي القلق عن الكشف. إن كل من الطاوية والصوفية تتضمنان فكرة الثنائية، الأضداد في تداخل دائم في بعضها البعض، تكون ولا تكون ، الروح والجسد، المستور والمكشوف، المخبئ والبائن، المحجوب والظاهر. بدت لي فكرة الكينونة بين ضدين مفهومة وذات مغزى في هذه النقطة من الزمن.

الحرب العالمية الثانية لا تزال في رأسي وأتذكر أن شخصاً أخبرني مرة بأن بيت ايفا براون في مكان ما هنا ويجب أن يكون بيت العائلة. أنا أبحث عن بيت مزرعة خرب تهدمت دعاماته الخشبية وسقفه دون أن يكون لدي مرجع دقيق وكيف يمكن تحديد بقعة بشكل دقيق على طريق سريع يبدو متشابهاً كله. هذه هي طريقة السفر على الطرق الألمانية السريعة، الحياة معلقة، أنت لا تعرف أبداً أين أنت وفي أي نقطة بالذات، حياتك أمامك، خلفك، لتحلق بها.

(من هي ايفا براون؟)

(حسنا إنها عشيقة شخص حكم ألمانيا سابقاً)

(ماذا تعني عشيقة؟)

(أوه حسناً، مثل الحبيبة، غيرل فرند)

(أعرف من تقصد بذلك، إنه هتلر)

لقد انتهكت براءة طفولة إبني مسبقاً، شعرت بالإساءة لأن تلك الأشياء مرت دون علمي، ألا يجب على المدارس أن تطلب إذن الأهل قبل أن تعرّض الأطفال لمثل هذه المادة الحساسة؟ وتساءلت كم يعرف.

(أعرف كيف أرسم شعاره) رسم صليباً معقوفاً بإصبعه على الغبار المتراكم على حجاب السيارة الأمامي.

(أين رأيت تلك العلامة؟)

(في المدرسة، يرسمونها على جدران المدرسة الخلفية حيث لا يراها أحد)

ابني يداوم في مدرسة يديرها النازيون الجدد، كيف لهذا أن يحصل؟ ولماذا لم أعرف بهذا على الفور؟

(هل تعرف الأشخاص الذين يقومون بهذا؟)

(تحدث يا أبي، هيا، الكل يعرف)

ربما لا يكون هذا هو الموضوع المناسب ليشارك به طفل بعمر السابعة لكن لم أقلق فالناس يتمكنون دائماً من اكتشاف أشياء عن الجنس بطريقة أو بأخرى بالإضافة إن اكتشافهم جزء من النضوج أليس كذلك؟ أنا قلق من الجانب المظلم في الحياة، من يشرح له قواعد السلوك وآدابه وأننا لن نعيش إلى الأبد وعن الفشل والرفض والقدر الوجودي المشؤوم وكآبته.

(كيف ماتت؟) سأل

(نوع من الانتحار، أعتقد) لقد ندمت على التفوه بهذا الموضوع.

(أعتقد بأنهما أطلقا النار على نفسيهما)

(بالرصاص، حقاً !، بمسدس ، أين يا أبي؟)

(في برلين)

(لا أقصد أين) التفت ونظرت إليه متسائلاً إن كان من يجلس بجانبي شخص مريض عقلياً لكنه لا زال يبدو مجرد طفل فضولي. (في الرأس، أعتقد) دمدمت أخيراً وارتحت برؤية تكشيرة صحية من المقت والكراهية على وجهه. "يوك"

لقد اندثر البيت منذ زمن بعيد، لقد ضيعته ولم تكن لي نية في العودة لأجده، ربما اشتراه شخص وأصلحه لقد قيل لي بأنه لم يرد أحد العيش فيه لكن ربما تبدل ذلك، ربما حولوه إلى ضريح من نوع ما.

(ما رأيك بوجبة غداء) اقترحت قائلاً.

كسا وجهه بتعبير مختلف لإضحاكي (أنت لا تتوقع مني أن أتناول طعاماً بعد تلك القصة ، أليس كذلك؟)

الفصل الثاني

أكلنا سمكاً وسلطة البطاطس بنكهة الخل. خارج الحمامات، وقف رجل فَقَدَ اثنان من أصابعه يعزف لحناً حزيناً على هارمونيكا بالية وهناك رائحة قوية للمطهرات وفي الداخل سائق شاحنة كان يسرّح شعره أمام المرآة، لَكَمَ بقبضته موزع الواقيات وهو في طريقه إلى الخارج.

يجب أن أوضّح بأنني أكره قيادة السيارات، حسناً ليست القيادة وحدها بل الأشياء التي تصاحبها مثل الطرق ومستخدميها الآخرين والعربات السريعة وعلى العموم ترعبني أغلب أشكال النقل. شعوري الأساسي هو طالما أنك تعيش وتتنفس جيداً في مكان واحد فلماذا تخاطر بكل ذلك وتنتقل إلى غيره. كم عدد الأشخاص الذين يموتون جراء البقاء في مكان واحد؟ إنهم اقل بكثير من الأشخاص الذين يموتون وهم يحاولون الوصول إلى مكان آخر. الطيران طبعاً أسخف أشكال النقل جميعها. تلك المسرحية الإعلامية الكاملة التي نتحملها بالإكراه كي تبدو معقولة تماماً ليصبح من العادي جداً أن تقوم بربط نفسك داخل غمد رقيق من الألمنيوم مملوء بوقود عالي الأوكتان ينقذف في الجو بتسارع متزايد بالإضافة إلى المراحيض والحمامات الصغيرة المعطرة والحلويات والسكاكين والشوك البلاستيكية وكرات الخبز التي تحتاج إلى منجل لاختراقها، وهذه التمثيلية التحذيرية في شرح عمل أنظمة السلامة، حيث توجد المخارج: أربعة مخارج فوق الجناحين، اثنان في مؤخرة الطائرة واثنان آخران في مقدمتها. إن فقدت الطائرة ضغطها أجذب القناع نحوك وضعه على فمك وتنفس وتنفس بشكل عادي، تنفس بشكل عادي. ما هو العادي بأن تعض الهواء من خلال قناع بلاستيكي وأنت تسقط على الأرض من ارتفاع ثلاثين ألف قدم في كفن معدني محترق. عداك عن وظيفة سترة النجاة التي تحت مقعدك أو المقعد الذي أمامك وسحبها بقوة نحو الأسفل على الوصلة المفصلية-انتظر- وأنت تغادر الطائرة.

متى كانت آخر مرة سمعت فيها عن طائرة تعطلت وسقطت بشكل أنيق ثم خرج كل من فيها بسترات نجاتهم؟ لم يحدث هذا أبداً. لن تكون هناك مشكلة في العثور على المخارج لأنها ستكون مسدودة بالأشخاص المتدافعين. يصبح الناس عدوانيين لمجرد إيجاد حيز في الأدراج الداخلية التي فوق الرأس حين يحاولون حشو حقائبهم اليدوية التي لا يستطيعون رفعها إلا بصعوبة. يبدأ الناس العاديون والعاقلون بالاندفاع المفاجئ حين يسمعون نداء الرحلة كما لو أن الطائرة ستتركهم بلا حيلة في صالة الانتظار مع بطاقة الصعود الممسكين بها براحات أيديهم المتعرقة، بدافع الحقد يقطع الناس طريقك ويقفون على أصابع قدميك ويغرسون حقائبهم الظهرية بوجهك. إن كانت الطائرة ستخر ساقطة نحو الأرض هل يفترض بنا فعلاً أن ندّعي بأن هؤلاء الأشخاص سيتصرفون بشكل هادئ ولا يدوسون على بعضهم البعض حتى الموت في ممرات الطائرة وهل سيكون أحدهم بعقل متفتح لفتح أحد تلك المخارج وأن الطائرة لن تسقط مثل طلقة في المحيط المظلم، ربما، لكنني لست في عجالة لإكتشف ذلك.

هناك بدائل عن الطيران. هناك القطارات لكن حمولتها مفرطة وضجرها مفرط وتأخرها دائم، الرحلة التي مدتها ساعتان تتحول فيها إلى ثمان ساعات من العذاب وإلى محاولة لتجنب السيل المتدفق من شطف الحمامات وفيض من الصحف المبعثرة وعبوات الجعة الفارغة التي في

الممرات وحين يسافر القطار قد يكون الأكثر إزعاجاً. يظل الطريق أخطر وسائط السفر بمناظر المعدن المتشابك والشرارات المتطايرة والأطراف مقطعة التي تخفيها كل الطرق لكن الطريق الألماني السريع يحرض نبض القلب في فواصل منتظمة، فالسيارات عليه إما أنها تزحف وتسير ببطء أو تنطلق بسرعة الضوء وهي تتجاوزك. ليس هناك وضع وسط بينهما. تتأكد بالنظر في المرآة الخلفية مرتين ثم تشير بأنك ستستأنف السير وفجأة تملأ الأضواء الوامضة المكان وتحاول سيارة بورش فارهة الصعود على عادم سيارتك. إنهم لا يؤمنون بتقليل السرعة في هذه البلاد فقلت لنفسي بأن ذلك ضد قوانين الطبيعة لكنه تشريع قانوني وليس إرثاً جينياً.

يساعدني الحديث على إبعاد الخوف عن ذهني. عدنا إلى الموضوع المحبب أنا وولدي ليو، انه في الثامنة تقريباً، تمثل السنة الواحدة لحياته جزء أكبر بكثير مما تمثله لي فحين تكبر يعني لك الزمن أقل. بطريقة ما، له رأي صحيح في ذلك. تحدث الأشياء بوتيرة أسرع حيث تكون طفلاً، السنوات الخمسة عشر الأولى من حياتك تبقى معك إلى الأبد، زمن يزخر بكل عجائب وغرائب تغيرات الحياة، بعد ذلك حين تنتهي من حب الشباب والقلق تستقر في حالة ثابتة طيعة من الوجود ويستبدل التطور بشيطان الشياطين، الدراية العلمية الشاملة ويتحرك الزمن بسرعة أكبر دون أن نلاحظ ونصادف أحد معارفنا السابقين فنقول (آه هل مرت عشر سنوات فعلاً، عقد من الزمن مر وانصرم دون أن نلاحظ ذلك(ويصبح أثمن حين ندرك الدرجة التي يجب أن تستغله فيها. ما الذي حققناه؟ ما الذي حدث في كل ذلك الوقت؟ لا يظل بارزاً وثابتاً في ذاكرتنا سوى الطفولة، يبقى شعورنا بمن نحن متجذراً قي تلك السنوات الخمسة عشر الثمينة.

ليو في وسط ذلك الزمن، مهما يحدث له الآن سيكون حاسماً ومحدداً وفاصلاً في السنوات القادمة. إن كان سيتطور إلى شخص مصقول كامل أم سيتحول إلى حطام مكسر ويلقي فشله على طفولته ووالديه الأنانيين. كل ذلك يعتمد على الشكل الذي تنبثق فيه هذه السنين في ذهنه (إنها مثل الكلاب) قال لي مقاطعاً سلسلة أفكاري ثانية (سنوات الكلاب أقصر من سنواتنا، الكلب البالغ من العمر خمسة عشر عاماً يعتبر عجوز جداً، حسناً مثل جدتي.(. (أرجوك إن الجدة كبيرة جداً) طلبت منه. (على أن تقارنها بكلب من هذا الجانب). (بابا) تظاهر بتلك النظرة الباهتة التي تسأل كيف أعتبره شخصاً محتشماً بما يكفي لارتكاب مثل ذلك الخطأ الفاحش الخالي من الإحساس، لقد تعلم أن يكون مسؤولاً أمام الآخرين وهي حقيقة فاجأتني لسبب ما، ستة أشهر من حياة عمرها سبع سنوات ونصف هي جزء واحد من خمسة عشر جزء، لكنها في حياة عمرها سبع وثلاثين عاماً هي جزء واحد من أربعة وسبعين جزء. زمنه أثمن من زمني بخمسة أضعاف. نحن نعمل على حل ذلك بيننا ثم بعد ذلك نتساءل ماذا يعني هذا، هل يمكن أن يعتبر وقت شخص ما أكثر أهمية وأثمن من وقت شخص آخر غيره حقيقة؟

(لكل شخص إدراكه الخاص بالوقت والقيمة ولم تكن الحياة عادلة ومنصفة أبداً، بمعنى أن الطيبين أو هؤلاء الذين قدر لهم أن ينجزوا أشياء عظيمة، قل الذين كانوا بمنأى عن المصاعب والمآسي، كل ما يمكننا فعله محاولة إمضاء وقتنا في استخدام مفيد.) فكر بهذا لثانية منحنٍ وهو ويده على اللوح الأمامي للسيارة يحدق أمامه.

(لكن ألا يفعل ذلك كل شخص؟)

(حسناً، ربما ليس كل شخص لكن المغزى هو أن ما أعتبره أنا عملاً جديراً تراه أنت مضيعة للوقت. قال أفلاطون أن هدفنا الحقيقي في الحياة هو التأمل في الكمال)

(من هو أفلاطون؟)

(رجل إغريقي ذكي جداً من الزمن القديم جداً.)

لم أكن متأكداً لماذا كنت أفكر بأفلاطون لكن خطر لي أن هذا ما ينبغي أن نفعله. ماذا فعل مونتان، أعاد التدقيق في الماضي، أعاد النظر بما مر وحدث في السابق. أريد لليو أن يعرف الأشياء التي لم أعرفها أبدا وأن يستعد للعالم.

بين السيارة وابني لم يكن في تلك اللحظة شيء آخر في العالم ذو أهمية بالنسبة لي وهكذا تظاهرت العجلة بقوة سحرية كما لو أنني أملك شيئاً ثميناً يمر من خلال يدي، وما يجعلني استمر حياً كما أعتقد وهو هذا الطفل وهذه السيارة وهذا الطريق.

وصلنا إلى هامبورغ في وقت متأخر من العصر. لحسن الحظ كانت حركة السيارات كلها في الطريق الآخر، كانت ساعة الذروة وكان الناس كلهم يشقون طريقهم إلى بيوتهم. بيت بالنسبة لقلب العائلة، الزوج والشركاء والزوجات وكل التغييرات المعقدة للحياة العصرية، كل ما حولنا بيوت عادت لها الحياة، المطابخ أضيئت وامتلأت بالدفء والأصوات ورائحة الطبخ، أجهزة التلفاز اشتغلت والأحذية خلعت أما نحن فننساب على طول قوس طويل من الفولاذ والاسمنت المسلح لجسر الألب دون وجود سرير نمضي ليلتنا فيه. توقف وابل المطر فجأة كما بدأ وأطلقت الشمس المنحدرة للمغيب قوس قزح عبر السماء الصناعية. حبات مطر زرق تعلقت على زجاج السيارة الأمامي، أزت أشارات النيون الضوئية من أعلى السطوح وازرق لونها بدفء معدني، استلقت تحتنا متاهة من القنوات وصفوف لا تحصى من الأسنان الحديدية الصدئة التي ستتحول إلى حاويات شحن، واحد من أكبر الموانئ في العالم. وصلنا إلى نهاية الجسر وبدأ التعرج الطويل الصاعد إلى السطح في ظلام مخيم دون أن نتبادل كلمة واحدة.

أقلب أي صفحة من كتيبات علم النفس تلك لتتعرف بأنني أفرط في تعويض مشاعر الفشل والذنب نحو ولدي. أنا حاول أن أعوض عن عدم كوني أباً جيداً وعن عدم وجودي حيث وحين يجب أن أكون، ربما هي محقة. فأنا لم أكن هناك حتى حين ولد، فقد كنت في لندن ومن المفترض أن أعود بعد الظهر لكن ذلك لم يحدث ولم استطع الوصول، لم أكن في المكان الذي نويت أن أكون فيه. تركت لي أم ايلين ملاحظة على طاولة المطبخ تقول فيها أنهما لم يعد بإمكانهما الانتظار أكثر من ذلك وهما في الطريق إلى المستشفى ويجب أن أقابلهما هناك. في الوقت الذي وصلت فيه قررت ايلين بأنها لا تريد وجودي ولا تحتاجني وستقوم بالأمر لوحدها.

(هل ستأتي إلى غرفة الولادة؟) تساءلت أمها، كلير

(نعم طبعاً) أجبت فقد كنت رجلاً عصرياً، أبي ظل في البيت حين ولدت أنا، أرسل أمي في سيارة الإسعاف وانتظر بجانب الهاتف أما أنا فقد قرأت الكتب وحضرت دروس الاستعداد لما قبل الولادة.

(كلا) نخرت ايلين كالخنزيرة من زاوية الغرفة الجانبية المخصصة للأمهات اللواتي دخلن في مراحل المخاض الأولى، تكلمت وهي تتلمس وعاء قمامة بلاستيكي برتقالي اللون لتتقيأ فيه أو

تحاول ذلك. لم يكن هناك أكثر من قطرة من المرار الأصفر حتى الآن، تناولت الممرضة رداء المستشفى لارتدائه من قبيل الاحتياط (هيا يا عزيزتي) قالت أمها تتوسلها من أجل الوئام.(دعيه يدخل)

(على جثتي) زأرت ايلين وشعرها ملتصق بوجهها وقد هاجمها انقباض آخر حين حاولت اختطاف الرداء.

(هيا يا ايلين أنا آسف) قلت

(أين كنت، جنازتك، لا أسوأ من ذلك وتتأخر)

(ها أنا هنا الآن، انظري، أنا آسف)

انتظرت حتى هدأت موجة تشنج أخرى (كلا، ليس الأمر كذلك ولا علاقة له بذلك) كانت تدمدم وتزمجر دون اتساق. حاولت أن أهدئها.

(ايلين، إنه طفلنا. لا تثيري شجاراً بيننا فأنت بحاجة إلى قوتك)

(منافق، تريدني الآن أن أكون عقلانية)

التفت إلى أمها التي كانت تهز رأسها وكانت الممرضة تنقل نظرها بيني وبينها محاولة أن تعرف أينا أقل جنوناً، حاولت أن أبدو منطقياً.

حين أنظر للخلف تبدو كل الأوقات الطيبة قد انمحت من ذاكرتي وكل ما أتذكره هو الصراعات فقط. نفس المواصفات التي جذبتني إلى ايلين من تهور جامح وروح عالية أبعدتني عنها في النهاية. ربما تقول هي نفس الشيء لكن متى بدأت الأمور بالفشل؟ متى بدأنا بعدم مسامحة بعضنا وبدأنا بمحاولة فرض الألم؟

(هل سيكون المخاض طويلاً؟) قالت كلير بصوت يشبه صوت الدجاجة في حسرة كما لو أنها كانت تنتظر قطاراً تأخر وصوله ثم جلست لتنتزع إبر حياكة وكرة من الصوف من حقيبتها. كانت كلير راضية بما يكفي لكنها قلقة نوعا ما، كيف نجحت في نسيان كل ما تعلمته عن عمل الأم في الثلاثين سنة الغريبة منذ أن ولدت ايلين. المرات القليلة التي حاولت أن تكون فيها جليسة أطفال في السنوات السابقة انتهت بكوارث مدوية. خافت وقلقت واحتاجت إلى تعليمات مكتوبة لكل شيء-أين مكان الثلاجة وفي أي وقت تبث فيه مسلسلاتها المفضلة، استغرق ذلك منا وقتاً طويلاً للخروج من البيت لذلك كان تأخرنا محتماً و لم نجد سوى مقعدين تركا في الصف الأول من صالة السينما كل واحد منهما في طرف مختلف من الصف ولم نتمكن إلا بالتلويح لبعضنا بأيدينا حين أطفأت الأضواء. ووصلنا إلى البيت، كانت مخبلة ومضطربة، تذرع البيت ذهاباً وإياباً مع شرطي في صحبتها وتحمل طفلاً متسخاً ومتعباً وجائعاً بذراعها وتبعده عنها.

تصرفت الممرضة المقيتة كعادتها، نظرت إلى ساعتها وأخبرتني فجأة بأن دوامها انتهى. ايلين التي كانت تزحف على الأرض وتحاول أن تجد وضعاً مريحاً، انهارت الآن، زمجرت وبصقت وشتمت المهنة الطبية وسط موجات الألم بينما كنت أجاهد لأدخل ذراعي في الرداء الأخضر وأضع القبعة على رأسي بنفس الوقت لكن دون أن يكون لدي أي فكرة عما سأقوم به بعد ذلك.

(والآن ماذا بعد؟)

(لو أنك اهتممت بدروس قبل الولادة) تمتمت كلير، التي بدت دائماً مطلعة بشكل جيد على ما كان يدور بيننا بشكل أكبر مما توقعت.

عندئذ دخلت قابلة منتصبة لها ورك مربع وتولت المهمة بشكل جيد. لا أستطيع أن أتخيل بأن يصل أغلب آباء المواليد المنتظرين إلى تبادل اللكمات في غرفة الولادة. ازدادت الانقباضات في الشدة والتكرار وأصبحت ايلين أخيراً عاجزة عن منعي من حضور ومشاهدة مولد طفلي. مددت يدي بسهولة فأخذت بيدها المرتخية. لا يزال أمامنا ساعتان ونصف أيضاً. لكني أتذكر بأنها حدثت بسرعة كبيرة وبأسرع مما تخيلت. قمت بما أعددت نفسي له، مسحت جبينها وأمسكت بيدها وهمست بكلمات تشجيع. كانت عيونها بارزة ووجها ملتو من النوع الذي يمكن اعتباره حقداً بالخطأ بدلاً من جهد الألم المبرح. في النهاية، غابت عن الوعي لذلك التفت الممرضة إليَّ وقذفت بالمخلوق الصغير بين ذراعي لأعتني به.

(نحن بحاجة إلى مط أرجلنا) قلت

(هذه محطة وقود) قطب وجهه بقناعة شخص تشرب بمنطق العالم ويشك الآن بعقل دليله الموثوق. (لا يوجد هنا مكان نذهب إليه)

(هناك) أشرت إلى مكان خلف الأشجار

بينما كنا ماشيان عاد وسأل أين نحن ذاهبان. سؤال توقعته، لم يكن يقصد هذه اللحظة أو هذا المكان ولم يكن لدي جواب.

(دعنا نرى ماذا يوجد هنا)

غاب المكان الذي تركنا فيه السيارة عن النظر فوراً. دهشنا بأننا ابتعدنا كثيراً. توقعت بأن نفاجئ بسياج مكهرب أو قناة ري ملئت بمعدن صدئ لكن لم يكن هناك ما يعرقل تقدمنا لهذا تابعنا بدون صعوبة وانطلقنا إلى أعماق الأشجار. كان الهواء رطبا قليلا وتجمع سديم الماء وراء حافة الغابة. كان الإمساك بيد الصبي والتوغل أكثر في المكان المظلم مثل تخطي الأسطر الافتتاحية في قصص الجنيات وضربني بوزن حجر ساقط ببطء بليد بأن هذه الرحلة لن تكون ملحمة أدويسية رهيبة وسلسة من الاختبارات والامتحانات. لا، إنها فرصة رائعة للسفر عبر العالم معاً ولوحدنا. لسنا مجبرين بأن نكون في إي مكان في وقت محدد. أريده أن يتعلم عن هذا المكان، هذه القارة التي رسمت الكثير من مصيرنا بشكل أو بآخر. يجب عليه أن يتعلم كيفية التعامل معها بخاطره أم مرغماً، مع هذا الشيء الذي ندعوه أوروبا. لكي أجمع الحقائق في وعيه حول من هو ومن أي بلاد. إن قرر أن يعيش حياته هنا أم لا فهذا هو المكان الذي ولد فيه. أنا لست مثله فقد أتيت إلى هنا وارتبط مصيري بتراب هذه القارة بطرق لم أفهمها تماماً. أريده أن يتعلم وأن يتزود بالمعدات لكي تكون له سلطة فوق الأشياء التي لم استطع السيطرة عليها أبداً. أنا أهيم وأتجول بعقلية شخص عابر وغريب دون أن أرى نفسي في أي مكان. إنه ينتمي، ولديه مكان في العالم بقدر ما يملكه أي واحد منا.يجب عليه أن يعرف التاريخ ليرى ما هو ابعد من الأبراج المصنوعة من الزجاج والفولاذ والاسمنت المسلح. يجب أن يعرف كيف جئنا ووصلنا إلى ما نحن عليه اليوم. أنا أحاول أن أجهزه للمستقبل ومن أجل ذلك يحتاج إلى معرفة الماضي.

لكن لم أكن متأكداً ماذا سأعطيه بالضبط. ربما كان صغيراً جداً على ذلك. حسنا، حتى لو لم يفهم كل شيء يراه هنا وهناك فستظل معه لأنها خارجة عن المألوف، مغامرة ستبقى وستشكل جزء من حياته. قد ينظر للخلف ربما بعد أن أموت بوقت طويل ويدرك بأنه اكتشف شيئاً مهماً عن نفسه وعن العالم، شيء مهم وصغير يجعل للمغامرة قيمة.

مد يديه خارج أطرافه كما لو أنه يمثل شجرة. إلى أين؟ الى أين نحن ذاهبان؟ لا يزال يثق بي ضمنياً. أتذكر نظرة الاستسلام والبهجة حين كنت أقذفه في الهواء وهو صغير. وأنا أعرف أنه يثق بأنني لن أسقطه. لم أفعل ذلك أبداً. ولا أريد أن أسقطه الآن.

دعنا نجرب ونرى ما الذي يوجد في الطرف الآخر؟ قلت. شعرت بألم في عضلات ساقي وتعرقت قليلاً. أومأ برأسه مستسلماً كأنه لم يتوقع الحصول على إجابة مني بتلك السهولة. مشينا معاً إلى الأمام. انحدرت الأرض الوعرة ووجدنا أنفسنا نتسلق وأقدامنا تغوص بتراب ناعم داكن تساقطت منه بقع بيضاء صغيرة جداً. أحجار كلسية صغيرة، أو أبواغ فطر. كانت القمة مغطاة بطحالب الربيع وتلألأت حبات من الندى من بين وريقات العشب.

(ربما علينا أن نعود، هنا ظلام وقد نضيع)

(أعرف) أومأت برأسي (لكني أريد أن أصل إلى قمة هذا وأرى)

(ترى ماذا؟)

(أي شيء يرى هناك مهما كان)

تردد ثانية. دفعته إلى قطع بضع خطوات إضافية أخرى.

(هيا، لن يستغرق الأمر طويلاً) كنت أعرف بأنني لو وصلت السير فسيلحق بي. رأيت حزمة ضوء رفيع الآن بين أطراف أشجار الصنوبر المستقيمة. كنت أتنفس بصعوبة وقلبي يدق وكأنه يوشك على التوقف. كان عليه أن يركض ليلحق بي. وصلت إلى القمة. هب نسيم عبر الأشجار، جاذباً الغطاء النباتي النامي بين الأشجار حول أقدامنا. لم يكن المكان عالياً جداً لكن المنظر كان جديراً. كان هناك وهج في السماء ظننته ظاهرة جوية في بادئ الأمر ثم تأكدت لاحقاً بأنه خارج من أحد البيوت الزجاجية العملاقة. الضوء المتسرب من بين الأشجار أضفى على المشهد طابعاً وهمياً. بات يشبه خشبة مسرح معتمة تنتظر ابتداء مسرحية. بدا السكون محملاً بمقدار كبير ومبهم من الاحتمالات. بلاد لم تكتشف بعد. وراءنا كانت المحركات البعيدة تدمدم مثل حصى تشقلبها الأمواج على الشاطئ.

استطاع الشعور بالمنظر أيضاً ووقفنا هناك برهة صامتين. انتابني شعور مفاجئ بهشاشة هذه اللحظة وبنا أيضاً وبخلودها كلها. بعد ذلك شعرت بالتلهف ثانية وفاتت اللحظة. استدرت للوراء ونظرت إلى الطريق الذي جئنا منه. كانت البقعة صغيرة من الغابة مظلمة وكثيفة من الداخل، واستطعت في الضوء الباهت تحديد الملامح الغامضة لوجهه ورأيت شبهه الكبير بوالدي. كان مثل النظر إلى إحدى تلك الصور المجعدة التي كانت تحملها أمي في محفظة نقودها دائماً، والصور التي ثبتتها حبوبه في خزانتها الزجاجي.

مددت يدي بحثا عن يده. (هل أنت مستعد؟)

(مستعد)

أخذنا نفساً عميقاً وأطلقنا صرخة حين انطلقنا راكضين نحو أسفل المنحدر. بدا أطول وأشد انحداراً مما توقعت. لكن بطريقة ما وبثقة عمياء حافظنا على توازننا، أذرعنا ممدودة بأقصى اتساع وغطسنا مباشرة في قلب الظلام ونحن نصيح بحماس شديد.

الفصل الثالث

كان السبب الأول لرحلتنا إلى الدانمارك جد ايلين من طرف الأب، صوفيوس ميكلباك لحضور عيد ميلاده المئوي الذي دعا إليها كل العائلة تقريباً والبلاد على ما أذكر للاحتفال بهذه المناسبة من أبناء وبنات العمومة والأعمام والعمات والأخوال والخالات وبناة الأخوة والأخوات، أشخاص جاؤوا بالجو من أماكن بعيدة كاستراليا وأمريكا الجنوبية.

أحد الأشياء التي شدتني إلي ايلين في الحقيقة أنها كانت مثلي، إنكليزية غير كاملة فقد كسر ذلك الجزء الصغير القالب الأسطوري لتناسقها القومي وظل يمدني بذلك الشعور بأننا نتشارك في شيء ما رغم كونه موجوداً في فكري أكثر مما هو شيء حقيقي وأهميته أقل مما اعتقدت بكثير. إحساس مشوش بالانتماء واللانتماء، بامتلاك مكان آخر ناسبها. كانت إنكلترا هي كل ما تعرفه تقريباً، فقد نشأت في ليدز حيث كان والدها يعمل معلماً في ذلك الوقت في أكسفورد ثم انتقل إلى متحف ريفرز هاوس بعد ذلك. أما الدانمارك كما أخبرتني، فتتذكرها كبيئة ريفية نائية كانوا يترددون إليها في العطل الصيفية. تحدثت عن الشواطئ التي تعصف بها الرياح وبحر الشمال الهائج الذي كانوا يغطسون فيه ويسبحون كالأطفال. وهي لا تبدو كالدانمركيات، حسناً، ليس كما تخيلت، فهي سمراء ولها شعر أسود غزير جاءها من والدها أما أمها فكانت شقراء لكنها إيرلندية لهذا لم يضف إليها أي من هذه الصفات في الواقع. شعرت فوراً بالارتياح بكل هذه الخليط الوراثي فهناك شيء نشترك فيه. لم أقابل أي شخص من عائلتها الدانمركية في كل السنين التي كنا فيها معا ًمن العيش العرضي في البداية ثم الزواج المستعجل عندما تأكدنا بأن ليو على الطريق. لقد سافرنا إلى ايطاليا وإلى اليونان مرة وإلى فرنسا لكننا لم نسافر إلى الدانمرك أبداً. في السنوات الأولى على وجه الخصوص أحببت السفر معها. لقد كنت وايلين نتحدث بنصف دزينة من اللغات بسهولة مما أشعرني بأنني اكتسبت طبقة من الدراية العالمية الرفيعة. ربما كان ذلك نوعا من أكثر من عشرين اعتقاد ساذج بالإخوة الذي يجعلك تتوهم بأنك مرحب بك أينما ذهبت طالما انك تنجح في قول (بليز) و(ثانك يو) وتبتسم كثيرا. لقد كنت ابتسم كثيرا وأتذكر شعوري كما لو أنني تمكنت من اختراق أوروبا كلها بمساعدة ايلين. عمدّت نفسي بكتب التاريخ واللغة والعصور الوسطى وعصر النهضة والرسم الفلمنكي والهندسة الغوطية وادوارد غيبون. أشياء شعرت بأنني أحتاجها لتضيق الفجوة الواسعة في معرفتي بالطريقة التي يعمل بها العالم.

حين تأتي إلى مكان لا تعرف عنه شيئاً فإنك تنتهي في محاضرة تستغرق ثلاث ساعات للرد على كل من يسألك عنه ولا تفهم لماذا تبدأ عيونهم تتغطى بغشاوة رقيقة- يتظاهر الطرف الأخر بعدم المبالاة وأننا كلنا من نفس القاع. هناك ميل إلى امتصاص الاختلاف وتبديده ولتجريد الأشياء الجوهرية وتركها عارية ولا لزوم لها وهكذا يتحول السؤال من أي بلد أنت إلى وضع غير عملي تصارع فيه لترفق نفسك بسلسلة من الإشارات والسكتات المربكة والوصلات الجغرافية التي تختصر القارات- لم أتشوق لشرح نفسي لأقرباء ايلين النورديين المتشوقين. الشخص الوحيد الذي اقتربت منه كان والدها، كلاوس الذي لم يهتم بازعاج الآخرين والتدخل في خصوصياتهم إما لأنه كان أخرقاً أو قديم الطراز وقد يتعلق ذلك بكونه عالم آثار بالمهنة.

(بدو) كان يعلن كما لو أنه يقدم جواباً إلى سؤال الفوز في برنامج مسابقات مسائي. كنت جالساً في بيتهم في أكسفورد في زيارة نموذجية لتناول غداء الأحد حين اختفت ايلين وأمها في مكان ما وكنا أنا وهو بمواجهة بعضنا وليس بيننا سوى سجادة أفغانية سميكة يضيع وسطها كلب حضن متوسط الحجم، ونتساءل عما يمكننا أن نفعله لبعضنا.

(بدو؟) كررت قائلاً. لقد قمنا بهذه الأحاديث الصرعية المثيرة للأعصاب التي لم تُجْدِ فيها كل محاولاتنا مهما كانت جديتها بأن نفهم المعنى الدقيق الذي يقصده الآخر. كانت الجمل ترتد في الهواء من حولنا، بعيدة عن منالنا. كنا نجلس باكتئاب بانتظار الغداء، راجين أي نوع من المقاطعة. لقد طور عادة تذكر فعل شيء نسي القيام به فجأة لأتحول إلى شيء احتياطي بالنسبة لي، سمح لي ذلك بالجلوس صامتاً لتأمل نبتة اليوكا والظروف الغريبة التي أوصلتني إلى هذا الكرسي المجدول في هذه الغرفة وعند هذه العائلة.

كنت أشعر بالصغر في تلك الغرفة دائماً فقد وسعوا القبو عبر جدار الحديقة الخارجي وغطوه بسقف زجاجي يمكنك النظر عبره إلى السماء وشجرة التفاح وتشعر بأنك الجني القزم الذي يحرس الحديقة. في وسط الغرفة صينية نحاسية كبيرة عاد بها كلاوس حين كان في مهمة في اليمن قبل ثلاثين عام. لقد تمتع ببعض المعرفة في هذه القضايا.

(يأكلون كبد الجمل نيئا)

(بعض البدو يفعلون ذلك كما أظن) وافقته دون اقتناع. كرهت الأشياء التي يفعلها. كنا نضطر إلى اللجوء إلى الحديث وكانت محاولاتنا كئيبة. وجدت نفسي أُصف طقوسا قديمة لقبائل منسية منذ زمن بعيد وأؤلف التفاصيل على الأغلب لأنني لم أتعلمها في المدرسة. مهما كانت آمال أو طموحات علاقتنا فقد تركزت كلها على كوني مصدراً جاهزاً لمعلومات دقيقة وصحيحة حول أساليب وأنماط الحياة والعادات لكل المجموعات الأثنية التي تعيش شرق السويس. بذلت جهدي كله، مكرهاً، كي لا أخيب ظنه، بالإضافة إلى كونها وسيلة لإمضاء الوقت. لدي بقعة تعاطف نحو كلاوس، فقد كان رجلاً لطيفاً ضخماً يذّكرني دائماً لسبب ما بالأرنب الخفي العملاق الذي تحدث معه ستيوارت في فيلم هارفي، هادئ وغير متكلف لكن حضوره قوي وملح. في كل السنوات التي قضيناها معاً لم أستطع أن أفشي له بأنني كنت طفل مدينة وأنا لا استطيع التفريق بين مقدمة الجمل وخلفيته. لقد تربيت في بيئة مدينية وسط مشاكل البقاء من انقطاعات في التيار الكهربائي الذي يستمر أياماً واختناقات في أنابيب مياه الشرب التي تتحول إلى قطرات في دقيقة ثم تعود لتصبح مياه نهر بني متدفق في الدقيقة التالية.

(يطهون الطعام على الحجارة أيضاً)

(حقا؟) أعجب بهذا. أسند ظهره في الكرسي ورفع يديه للأعلى على شكل برج ضاغطاً أطراف أصابعه ببعضها في وضعية تأملية رأيته يتبناها مرات كثيرة (لم أر ذلك أبداً، لكن حين كنا في عدن ....) ثم انطلق مشكوراً في واحدة من حكاياته الطويلة النادرة التي الفتها بحميمية مع مرور السنين. تمكنت من إراحة أصابع قدمي التي تيبست داخل الحذاء بشكل مؤلم.

انتابني فضول دائم للالتقاء بوالد كلاوس لولا الخلاف الشائن بين الأب والابن الذي نشب قبل أكثر من ثلاثين سنة ومن السخرية أن يحدث هذا الآن ونحن نقف على حافة طرق، فراق دائم. وهكذا انكشفت الستارة عن الفصل الأخير لنجد نفسينا أنا وايلين نطفو في وسط بحر الشمال، محتجزان

في سفينة ليلية بالية من هارويتش، متفقان بأن الحل الوحيد لمشاكلنا هو الانفصال، في مشرب تغمره ضيافات الجعة ومصطافون يدمدمون بأغاني انغلبيرت همبردينغ التي كانت تبث من جهاز الجيوكبكس، استمعت إلى ايلين وهي تحاول أن تبدو مفهومة بعد أن تناولت ثلاثة كؤوس من الفودكا والمنشطات. ايلين لا تشرب في العادة لكنها قررت أن تستثني القاعدة لصالحنا الاثنين. (لقد وصلنا إلى نهاية شيء ما) قالت، وأنها عانت من وقت صعب لإدراك ذلك. استمعت بإحساس مستسلم لحتمية هذه المحادثة وبشعور غامض أشبه بالارتياح.

(لقد أضعناها، مهما كانت الثقة التي كانت بيننا. لقد تلاشت تماماً. الثقة) ضربت الطاولة بقبضتها بقوة لدرجة جعلت رجلاً بديناً كان يشخر بأمان بعيداً على طاولة أخرى يقفز هلعاً.(لم يظل لدينا أي منها بعد. لا،لا،لا) هزت إصبعها تحت أنفي. تفرض سفن النقل سحراً مخدراً على ركابها يسمح لهم بإمتاع أنفسهم في طرق يمتنعون عن القيام بها على اليابسة. في البحر تزول كل القوانين حتى يلوح في الأفق ميناء آخر. إنه نوع من تعليق الواقع أو ربما هي روح الإجازات لكن في كل الأحوال كان المكان منقوعاً بنوع من اليأس المعاصر. تخيلت بأن كل الأطفال ومن ضمنهم ليو نائمين في الأسفل كما رجوت أن لا يتجول على ظهر السفينة باكياً في ثياب نومه وتعجبت كيف تحول هذا الموكب الرزين من العائلات المحترمة التي تملأ ظهر السفينة إلى هذا السيناريو المتوحش. كان بعض الناس يضربون الطاولات بأحذيتهم وآخرون يترنحون من طرف إلى آخر يتلمسون بأصابعهم حاجز السفينة الذي لم يكن موجوداً أصلاً كأنهم كانوا في فورس تن غيل حين كان البحر ساكناً مثل بركة بط. استمرت الموسيقى وقتاً طويلاً وكانت الأغنية (وايتر شيد اف بيل) التي تغنى بلحنها رجل في حوالي الثلاثين من عمره بصوت عال. محبوسان في زاوية، انحنت ايلين مركزة وهي تحاول أن تجد الكلمات التي ستصوغ بها إحباطها.

(الثقة محور الأشياء. وأنت لم تثق بي أبداً.) كانت غاضبة جداً.

(هذا زواج وتحصل فيه أخطاء لكن أغلب الناس ينجحون في ترقيع الأشياء)

(ترقيع الأشياء؟هه!) هتفت بصوت عال حتى أن مجموعة الشبان كانوا على البار هتفوا رافعين كؤوسهم لها.

(ربما علينا إكمال هذا الحديث في مكان آخر)

(لماذا، أحب هذا المكان، وأريد أن اشرب كأساً آخراً)

(ربما عليك أن تهدئي من سورة غضبك قليلاً) قلت

مدت إصبعها نحوي (ذلك الشيء فيك، أنت ، أنت ورع جداً. هل تعرف ذلك؟ ورع قذر. لا تفعل هذا. لا تفعله)

وقفت وقلت (أنا ذاهب للنوم)

(لقد عرفت كل شيء، أنت تعرف كل شيء)

جلست مرة أخرى. كانت تجيش بالغضب وتلف مثل قرش أصيب في دماغه. عرفت ما أرادتني أن أخبرها به وفعلت ذلك أخيراً. راقبتها وهي تنهض على قدميها ثم ترنحت باتجاه البار. (اذهب أنت إلى السرير وأنا ممتازة هنا،)

ترددت لحظة، فكرت بجرها إلى الغرفة لكن بدت لي فكرة تخلو من المعنى. لم يعد هناك ما يكفي من الوقت للاهتمام ببعضنا لقد أصبح الشاطئ الصخري بمرمى النظر ونحن متجهان نحوه بأقصى سرعة.

في صباح اليوم التالي قدنا السيارة صامتين باستثناء الابتهالات والأنات الصادرة من ايلين، توقفنا مرتين بجانب الطريق لتتقيأ خلال الساعتين الكئيبتين اللتين استغرقهما البحث عن بيت جدها في مكان في وسط شبه جزيرة جوتلاند. مكان عاصف، بسمائه الزرقاء ومروجه العشبية وشجرات صنوبره التي تصدر صريراً. كتب فيه برلوت بريخت أفضل مسرحياته (شجاعة امرأة و حياة غاليلو) وهو ينظر إلى هذا المنظر بعد أن فر هرباً من هتلر وستالين إلى سفندبورغ التي تقع على بعد ساعة من المكان الذي كنا فيه ولم يغادره إلا بعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939 ونظم أفضل أشعاره أيضاً ومنها أسطورة النشء لكتاب (تاو تي شينغ) أثناء رحلة لاوتزو في المنفى. كنت استمد الثقة من هذه الفكرة ونحن نقود في المجهول.

كان البيت على بعد أميال عن الطريق وليس حولنا سوى المروج المنبسطة الجميلة والغابة. كان بناءً عصرياً، ذو سقف مستو بدا وكأن فان دير روهي نقشه في وقت فراغه. لقد أدخل في بنائه كثير من قرم الصنوبر، له نوافذ زجاجية طويلة على طول الجانب المطل على ضفة النهر وألواح حجرية خضراء زيتونية على طول الجانب الآخر من البيت. أثارني ذلك ووجدت نفسي في محادثة مع رجل تبدو عليه الغرابة ظهر بشكل شيطاني عند كوعي. صدف أنه كان يدعى كلاوس أيضاً. كان علي أن أتعلم خلال إقامتي القصيرة بأن الجميع في الدانمرك لهم نفس الاسم، لارس جينس، جينس لارس مما جعل الأشياء بسيطة إجمالاً كما أعتقد. توقفنا نحدق بالمنظر الملحمي والبيت الصغير في أيكة في غابة على الجبل وقرب الجدول.

(هذا هو البيت الجديد) أخبرني مخبري بتشوق.(لقد احترق البيت القديم منذ سنين،) له خدود تفاحية صغيرة وكانت إحدى عينيه أكبر بكثير من الأخرى كأنه يتلصص إليك عبر مرآة مكبرة.كان منجماً للتفاصيل القذرة. أولاً، أخبرني لماذا لن يكون كلاوس هنا. له أسنان حادة صفراء فقد بعضها في عدة نقاط أساسية. لاحظت هذا لأن فمه كان دائماً في وضعية ما يمكن تسميته بتكشيرة ممسوس. (الأب والابن لم يكلما بعضهما منذ أربعين سنة، بعد أن أغوى الرجل الكبير صديقة إبنه. كان كلاوس مجرد شاب آنذاك وكانت صديقته ممثلة رائعة الجمال في ربيعها التاسع عشر)

لم أكن متأكداً إن كان علي أن اسمع كل هذه التفاصيل التي يسيل لها اللعاب. على المرج الأخضر المبرقش وتحت الأشجار نصبت الطاولات على شكل نعل فرس وغطيت بقماش أبيض وزخرفت ببورسلين مصقول وزجاج مشغول. شعرت كأنني داخل أحد مشاهد تشيخوف أو ربما ستراندبيرغ السويدي طبعاً وكان الأقرب الذي وصلت إليه. كانت هناك ورود صفراء مرتبة على الطاولة وظهرت أكاليل صغيرة من القنطريون العنبري الأزرق هنا وهناك. كان الضيوف واقفين حول المكان في مجموعات يثرثرون بينما تحلقت نادلات يلبسن زياً موحداً ويحملن صينيات زجاجية مليئة بالكير، ذلك الشيء الدانماركي الذي يشبه الشراب.

كانت العائلة أكثر ثراء مما أدركت. حين كنا على حافة الطلاق علمت بأن زوجتي السابقة (قريباً) كانت وريثة جزئية لثروة هائلة. لقد اخترع الجد الأكبر آلة لوضع كرات معدنية في علب. حين

حدثت الحرب العالمية الأولى تحول إلى رجل ثري، كرات معدنية في علب معدنية (أعتقد أنها تنوعت لكن كان الجزء القصديري هو الفخ لكونه لا يمكن الاستغناء عنه في الخنادق. أكثر النقود تبددت فوراً في أدوات الرجل العظيم التي أصبحت عديمة النفع بعد انتهاء الحرب. كانت لديه موهبة في صرف كثير من المال على أشياء خاسرة في سلسلة من الاستثمارات غير الحكيمة التي كادت أن تضيع بقية ثروة العائلة المتضائلة لو لم تستثمر زوجته سراً بعض المال لنفسها. لقد سار إلى حتفه معتقداً بأنه فقير معدم لكن ابنه تربى وكبر دون أن ينقصه شيء وفي الحقيقة قيل عن سوفيوس ميكلباك أنه لم يعمل يوماً واحداً في حياته وهذا ما يفسر حالته النشطة في نهاية القرن. في الوقت الذي عاصر فيه الرايخ الثالث، كانت الشركة مستثمراً محترماً في الصناعة الألمانية وانتشرت إشاعات بأن جد ايلين حضر واحدا أو اثنين من الاحتفالات ذات المستوى العالي في برلين في زمنه لكن لم يتحدث بذلك أحد. كان لديه ولع خاص بالممثلات فقط وفي تلك المناسبة المميتة يبدو بأن كلاوس لحقه حاملاً بندقية وهناك من قال كان عليه أن لا يفعلها وجنب نفسه بذلك حياة من الندم.

كان لسوفيوس ميكلباك شكل تنتشر فيه بقع الكبد في كل مكان وسيجار من النوع الثمين يلتصق بيده اليسرى، ينظر إلى الموت بشزر ويتحداه دون أن يلحق به. عند النظر إلى الرجل العجوز يصعب عليك التخيل بأنه كان يمثل كل هذا القدر من الإزعاج. خلال تعارفنا الأولي لمحت البراجم الغضروفية تتوارى وراء السطح الخرف لذلك المعمر المئوي الطيع.

(هندرسون ملك المطر)

(سول بيلو) رفعت صوتي دون أن أكون متأكداً إن كنت قد سمعت بشكل صحيح أم كان هذا اختباراً. كنت مهتماً ليسمعه. ظل يحدق لعدة دقائق بطريقة مثيرة للقلق وكأن فكرة ما كانت تشق طريقها من مكان خفي وعال إلى شفتيه المرتعشتين لكنها أعيقت بشكل يتعذر تفسيره. كنا في غرفة المعيشة بعد أن مررنا بكل طقوس التعارف. أقرب شيء استطاع أن يسميني به كان سفاري (أفراد رحلة القنص من بشر وحيوانات- المترجم) وأعتقد أن ذلك ما قاله. اكتشفت أنه سافر إلى مصر العليا حين كان شاباً في ثلاثينيات القرن العشرين. حين نظرت إلى صور قديمة لأطفال يلبسون أسمالا بالية على ضفة نهر ويلوحون لزوار أوروبيين وجدت نفسي أتساءل إن كان أحد هؤلاء الحفاة الصغار الفقراء أبي.

(هل قرأته؟)

قلت بأنني قرأت كتاب بيلو وتمنيت فوراً لو أنني كذبت فقد كانت الأقل تفضيلاً من بين روايته بالنسبة لي . إن الادعاء بالجهل أفضل من الاضطرار إلى البحث عن شيء جميل أقوله حول شيء لم أر فيه جانباً ممتعاً قط. لم أستطع تتبع خط استجوابه وبدأت أشعر بالملل وبدأت أتساءل ما الذي أفعله هنا.

(ماذا قال؟) سأل سوفيوس ميكلباك الشخص الجالس قربه- زوجته الرابعة وهي طباخة معجنات ضخمة من بلدة قريبة تمثل النقطة الأخيرة في انحدار نجاحه المتدهور، حين قلد أفراد المجتمع البارزين وحوريات الأزمنة السابقة المصقولات بطريقة افتقرت إلى الذوق. أومأ لي برأسه بابتسامة يمكن الخلط على أنها سخرية. لم يصدق العجوز بأنني قرأت الكتاب إطلاقا. كان هناك همس بين الرجل العجوز وزوجته العجينية.

(إنه لا يبدو مثل شيوخ النفط)

(إنه ليس شيخ نفط، كان والده مرشحاً سياسياً كما أعتقد.)

(لم أكن أعرف بأن لديهم انتخابات)

أعتقد بأنني فهمت والد ايلين بشكل أفضل الآن. فقد تبرأ من تجارة العائلة وأسس تجارته الخاصة به ومن القليل الذي عرفته عنه من كتاباته. كان يكتب الشعر في أوقات فراغه (مجرد هواية) أخبرني قائلاً. لكن لم أتأكد إلى أي مدى كان محترماً، كما شرح لي مخبري كلاوس، نافخاً خديه حين كان يقرقر كالدجاجة ويضحك. كيف يمكن أن لا أسمع عنه؟ يبدو أن العالم مصمم كي يظهرني جاهلاً اليوم حصراً من بين كل الأيام.

(أعرف القليل عن الأدب الإسكندينافي.) اعترفت بصوت واهن.

هناك جمعيات مكرسة لأعمال كلاوس. لقد أُعتبر واحداً من بين الحفنة العليا ليس في البلاد فقط وإنما في القارة الاسكندينافية كلها. وأنا في الحقيقة لم أدرك ذلك. بما أن أعماله لم تترجم، لم يكن لدي ما أتابع به. لكن الآن، لقائي بعائلته ومشاهدتي للمنظر الطبيعي التي تربي تخيلت بأنني أستطيع رؤية المكان الذي اختاره طفل تفادياً لحضور والده بالتجول في الغابة لوحده وإيجاد العزلة لنفسه.

أشار كلاوس إلى مرج عشبي على الضفة المقابلة (في عام 1959 احترق بيت العائلة القديم وسوي بالتراب مع كمية كبيرة من الغابة المحيطة به. لم يعرف أحد كيف بدأ الحريق رغم وجود بعض الاقتراحات بأنه لم يكن حادثاً. في أيامه كشاب كان صبيينا الوليد الشيء المتوحش عينه، عاش حياة الأغنياء الكسالى فقد ورث موهبة والده في تضييع المال. رغم أنه لم يصرف الكثير في التفكير في السوق إلا أن أغلب أمواله ضاعت على موائد القمار. غير ذلك لم يفعل أي شيء. جاب أرجاء العالم واستثمر في مجموعة من السيارات الرياضية التي كان يتسابق فيها في أرجاء القارة من مونتي كارلو إلى باريس وكل الأماكن الأخرى التي بينهما. حين يكون في البيت يجعل من نفسه شخصاً مزعجاً ويمضي وقت فراغه في إغواء كل أنثى تطولها براثنه. لقد استخدم قائمة من الخادمات والعمال المنزليين تجعل قصر باكينغهام مزدحماً. أغوى صديقات زوجته بالإضافة إلى صديقات إبنه وبعد ذلك وعلى مر السنين بناتهن. لم يكن هناك أي تفاهم في البيت. في ليلة الحريق. استيقظ عامل الأرض الذي يسكن في الجوار من النوم على صراخ في ساعات الفجر الباكر. خرج من بيته ليرى ألسنة اللهب تتراقص عبر الأشجار. لم يضيع الوقت واستدعى النجدة وحين وصلوا وجدوا السيدة ميكلباك واقفة في ثوب نومها بهدوء تراقب بيتها وهو يحترق. بدأ الرجال بحفر قواطع النيران وإحضار الماء من الجدول لإطفائه.

(أين السيد؟) سأل عامل الأرض، معتقداً أن عجزها عن الإجابة هو عرض لصدمتها لكنه كان متأكداً بأن السيد كان لا يزال داخل البيت. ألقى معطفاً مبللاً على رأسه ودخل البيت فوجد سوفيوس ميكلباك مستلقياً على السجادة في غرفة النوم في البرد وبقايا مبولة متشظية وضعت قرب رأسه بشكل مريب. نجحوا في جره وإخراجه إلى الهواء الطلق وعادوا إلى اللهب لكنهم أعيقوا مرة أخرى عندما أصرت سيدة المنزل على إنقاذ البيانو الخاص بها أولاً.

(لكن الحريق يا سيدة ميكلباك، يجب أن نهتم بالحريق أولاً)

(لا يهمني الحريق، أريد البيانو، أخرجوه في الحال.)

يقال أن الناس يتصرفون بشكل مريب أثناء الكوارث، قرر عامل الأرض مسايرتها. احتاجت مناورة إخراج البيانو من النافذة إلى تظافر جهود كل الأيدي لإبعاده إلى مسافة آمنة عن البيت. بعد ذلك خرجت ألسنة اللهب عن السيطرة وانتشرت إلى قش السقف. لم يبق هناك ما يمكن فعله سوى الابتعاد عن درب النار والتفرج عليها. لقد احترق البيت. جلست جدة ايلين على البيانو الضخم وعزفت لشوبان حتى أشرق الفجر على قرم بيتها البيضاء التي تصاعد منها الدخان.

لقد طلب مني الجلوس إلى الطاولة الكبيرة في الخارج، لهذا استأذنت مخبري الذي وضع خارج مرمى السمع مشكورا. رسم مخطط الجلوس بدقة شديدة لتجنب أي صراع ولتشجيع البهجة. كان لنا بطاقات اسمية صغيرة تحدد أمكنتنا. اختيرت ايلين لتكون على رأس الطاولة وسط الضيوف. اعتبرت هذا علامة على إخلاصها وحبها العميق الجديد لجدها، أكثر مما هو للكدر والغم الذي سببه والدها. هذه هي عائلتها ويبدو أنها هنا لتصلحها.

أتذكر كم بدت جميلة في تلك اللحظة. الضوء المنعكس من غطاء الطاولة الساطع والزهور جعل وجهها يشع.هب نسيم ناعم لطيف عبر الأشجار فحبست بقع بيضاء من براعم الخمان في شعرها. الحزن ضرب جذوره آنذاك. لوحت بيدي لليو الجالس على طاولة جانبية أعدت خصيصاً للأطفال وبدا مرتبكاً قليلاً بهذه الرسميات ووجوده في الخارج وسط هذا العدد من الأطفال المحيطين به. كان يجلس بهدوء ويداه في حضنه، يتفحص الملاعق والسكاكين والشوك. رد على التحية بتلويح سريع من يده ثم أعادها تحت الطاولة. كان يراقبني وأنا انظر إلى أمه. ربما رأى الطريق التي كانت تسير الأشياء عليها بوضوح أكثر مما رأيت حتى الآن.

كانت الأطباق تأتي وتروح، والكؤوس تملأ وتفرغ. تعالى صوت النقاش أكثر فأكثر. ألقيت الخطابات ثم تلتها خطابات أكثر. إنهم يحبون إلقاء الخطابات. واجهت مشكلة في فهمها. حدقت بي المرأة النشوية التي على يساري لبعض الوقت حين ظنت بأني لم أكن انظر إليها ثم اتكأت للأمام وعرضت أن تترجم لي. كان عرضاً كريماً، إلا أنها بقيت ملتصقة ومهتاجة وانتهت الحالة بإرباك أكثر من قبل. كلاوس، مخبري الشبحي الرديء، ألقى خطبة طويلة جداً، بدت جيدة في البداية لكن بعد ذلك بدأ الناس بالتثاؤب والنظر إلى ساعاتهم. كان نسّاء ومن هؤلاء الاستعراضيين الذين تضطر إلى ضربهم بالرصاص لإنزالهم عن المنصة.

بعد ذلك حين عدنا إلى الكؤوس التي كانت تجلجل بلطف عرفت مندهشا بأن المتكلم الثاني هو ايلين. تكلمت باللغة الانكليزية: (أريد أن أخبركم عن مدى سعادتي لوجودي وسطكم. أشعر بأنني وجدت عائلة جديدة وبيتا لم أعرف أبداً بأنه لي) نظرت من وراءها حيث الأطفال الذين تخلوا عن فكرة الطعام وقرروا الإصغاء إلى الخطابات قبل زمن طويل ثم لم يرغبوا بالمزيد، فكانوا الآن يطاردون بعضهم البعض بشكل دوائر بين الأشجار. بدا ليو مستمتعاً في المجال الذي برع فيه. بدت ايلين مرتبكة ولم تكن هناك دائماً. هل كان ما يزعجها هي الشمبانيا أم شيء آخر؟ (مئة سنة مدة طويلة ليشهدها أي شخص وتجعله،) أراحت يدها على كتف جدها،(أكثر تميزا. أتيت إلى هنا وأنا لا اعرف ما الذي أتوقعه. اعتقد بأنني كنت فضولية لأتعرف على جزء مني ينتمي إلى هذا المكان، بينكم،) توقفت وسقط رأسها وكانت تنظر إلى الأسفل، إلى الطاولة. ربما لم أكن الوحيد الذي شك بأن هذه الرجفة التي في صوتها بسبب العاطفة فقط. ولم أكن الوحيد الذي فكر بأن هذه

كانت نقطة جيدة لتقطع خطابها القصير وتجلس. لكن لم أكن الوحيد الذي خاب ظنه عند سماعها وهي تستأنف لتواصل مرة أخرى لكنني كنت الشخص الوحيد الحاضر الذي كانت لديه فكرة بما سينتهي إليه هذا الخطاب. أصغيت بذلك الشعور الموهن بالهلاك الوشيك.

(لقد آمنت دائماً بأهمية العائلة ووجودي هنا يؤكد ذلك،) كانت تحدق إلى الأمام الآن في هيئة زجاجية، في بقعة ما في أعلى الأشجار حيث برزت أكواز الصنوبر ببراءة في النسيم. فكرت بأن هذا وقت مناسب للتوقف. كان التوتر ملموساً، أحس الجميع بأننا متجهين إلى مياه متلاطمة. تذكرت شجارنا على السفينة في الليلة الفائتة.

(من المحزن، أليس كذلك، أو ربما تلك إحدى المصادفات الغريبة،) أطلقت قهقهة خفيفة بدت في غير مكانها بشكل مخيف (في الوقت الذي وجدت فيه هذه العائلة الكبيرة- كلكم أشخاص رائعون- تكون فيه عائلتي الصغيرة على حافة التفسخ) أومأت برأسها لتتأكد بأن هؤلاء الذين ربما لم يسمعوا بشكل صحيح(أنا وزوجي سننفصل). استدارت كل العيون نحوي الآن. مذنب كما اتهمت. عرفت طبعاً ما سيؤدي إليه هذا ويفترض بي أن أعرفه منذ شهور وسنين. عرفت ما ستقوله. كان واحداً من تلك الإدانات المباشرة التي تتحرك ببطء في أعماق الأحشاء. هذا ما دار حوله مشهد السفينة.

(حاولت أن أضعه ورائي. اعتقدت أن الأفضل تجاهله.) حبس الجميع أنفاسهم في تلك اللحظة. تنشقت ايلين ثم رفعت رأسها(لكن هناك بعض الأشياء التي لا يمكن تناسيها أو التسامح معها. والآن، هنا، أنظر إليكم كلكم، أشعر بأنني يجب أن أشرع في بداية جديدة وسجل نظيف.) قلت لنفسي إنها لن تفعل ذلك أمام كل هؤلاء الأشخاص، لن تستطيع بالتأكيد الذهاب إلى ذلك المدى البعيد؟ لكنها قدرت وفعلتها واستمتعت بذلك. سمعتها وهي تنطق بالكلمات وأنا غير مصدق بأن ذلك حقيقي. كانت تبتسم لي كما لو أنها قطعت رسغها للتو:(منذ وقت وأنا أعرف بأن زوجي على علاقة غرامية بواحدة من أعز صديقاتي)

أطلقت المرأة التي على يساري شهقة مسموعة وتلفظت بشيء بذيء بدا أشبه بشتيمة قذرة بأي لغة تختارها.

الفصل الرابع

بعد ثلاث ساعات من قيادة السيارة وصلنا إلى شمال كاسل في حالة من الإنهاك. كنت متعباً إذ لم استطع أن أحول عيوني عن ذلك الشريط الضوء الأحمر المنوم المنطلق أمامنا ومن الجانب الآخر للطريق كانت السيارات تطفو قادمة نحونا من الظلام كالفراشات. كان الجو داخل السيارة بارداً وليو في الكرسي الخلفي يشعل مصباحاً ويطفئه في حالة من الضجر بعد أن يأس من السؤال متى سنتوقف.

كان الطريق مستقيماً يحاذي منحدراً طويلاً ويخترق سفح هضبة مشجرة. كان علي أن أجد مكاناً ننام فيه. في قاع المنحدر هناك مخرج لمحت بعده إشارة صفراء لواحد من تلك النزل، غير إنساني تماماً. عليك استخدام بطاقة ائتمان لدخوله ولا ضرورة هناك لترى فيه أي روح. في النزل كثير من السحر المنزلي مثل آلة القهوة، لكن إن كان هذا هو الخيار الوحيد فيجب أن أقبله. حين رفعت قدمي عن دواسة السيارة ضربتني موجة من الإجهاد. يمكنك القيادة لمدة ساعات باستخدام الطيار الآلي، كنت محطماً من التركيز والخوف. في اللحظة التي تخرج فيها من الطريق الرئيسي يتلاشى التوتر وتصبح بحاجة إلى إيجاد سرير بأقصى سرعة. كان المؤشر البرتقالي يومض خلف حاجز الصدمات حين نزلنا المنحدر. في القاع ترددت، كنت مجهداً جداً لاتخاذ قرار بالسير إلى جهة اليمين أم اليسار.أخيرا جذبت المقود واستدرنا واتجهنا تحت الجسر مبتعدين عن الإنسان الآلي. سوف نرى ماذا هناك غيره.

بعد دقائق أصبح طريق السيارات ذكرى بعيدة. لقد كان يخبو مع كل لفة من الطريق غير المعتاد وحملنا الحظ إلى قرية صغيرة فيها حفنة من البيوت المعزولة وراء الأشجار وفندق أيضاً معلم بجدار أبيض طويل وصف من أشجار الكستناء. اقتربت منه وأطفأت محرك السيارة وقررت أن ننام في السيارة إن لم يكن لديهم غرف. جلسنا لحظة هناك.

قدت ليو وهو يتثاءب ودخلنا إلى فتاة قامت بدور ركن الاستقبال وتفاوضت بالإشارة من أجل غرفة. قال الرجل أن لديهم كثير من الغرف وليس هناك مشكلة وشككت من عدد المفاتيح التي على اللوح خلفه بأننا النزلاء الوحيدين الفندق. لم يثر وصولنا أي اهتمام. كانت العيون مركزة على شاشة ضخمة مثبتة عالياً في إحدى زوايا الغرفة. بين الهتاف والسباب، يوحي المنظر بشرب كمية كبيرة جداً من الجعة- لقد قدم تحليل فني عن إستراتيجية بايرن ميونيخ التكتيكية. كان المكان يعج بأشخاص غير رياضيين كما يبدو، يرتدون ثياباً رياضية. حفلة اجتماعية غير رسمية لفريق هواة محلي اثر جهوده في مباراته الأسبوعية. طلبنا العشاء وكان ليو يحدق بفم مفتوح بالمنظر فجرح خده برقائق البطاطس المغطاة بالكاتش اب مرتين.

تناولنا طعامنا في صمت حذر. المزاج الصاخب جعل الحديث مستحيلاً إضافة إلى التعب الذي أصابنا لدرجة صعب فيها التلفظ بكلمة واحدة. فور نجاحنا في إنهاء أطباقنا صعدنا إلى الطابق العلوي ووجدنا بأن الضجيج الذي كان في الأسفل لن يصلنا ولا أعتقد أن أياً منا سيلاحظ وصوله. بينما كنت أفتح أشيائنا لاحظت ليو وهو يطوي ثيابه على الكرسي بشكل أنيق ويلبس ثياب منامته وينظف أسنانه بالفرشاة. كان هادئاً وانتابني شعور بأنه لم يكن متأكداً مما سنفعله. ليس لدي أجوبة

على أسئلته وتمنيت لو أنه نام مباشرة وظل على هذا الشكل. لا شيء يؤلم أكثر من صوت طفل يبكي في الليل. استدار إلى جانبه لكنه بعد خمس دقائق قال:

(هل تحكي لي قصة من فضلك؟)

لقد أطبقت عيوني وليس لدي النية في فتحها مرة أخرى. (لا يمكنني التفكير في قصة)

(هل تتذكر القصة التي عن دب في الكهف؟)

(نعم أتذكر.) وجلس على طرف السرير بحركة خاطفة وهو ينظر إلي.جفلت.

(أنت حكيتها لي) أصر قائلا.(دب صغير كان يعيش في كهف ويستيقظ بعد شتاء طويل ويبدأ في دراسة أكوام الورق لأنه ألف قصة في رأسه لكل ورقة ليمضي الوقت في تلك الليالي الشتوية الطويلة.)

(لا أتذكر تلك القصة)

(حسنا، إنها قصتك) أعلن معانداً، كما لو أنها كانت شيئاً تركته ملقياً على الأرض وعلي أن أقوم وأجلبه.

(انتظر) قلت. (توقف) تنحنحت محاولاً التفكير في استعادة موقعي (حسنا، سأروي لك واحدة غيرها مختلفة)

(هل هي جيدة؟)

نظرت نحوه عابساً. (جيدة بما يكفي.)

(حسناً.) سوّى نفسه وتمدد على السرير. أطفأ ضوء السرير الذي فوق سريره وجذب البطانيات فوقه حتى ذقنه إستعداداً للقصة.

(حسناً) بدأت (إنها عن بعض الطيور.)

(الطيور؟) قَلَّبها في رأسه محاولاً الحكم إن كان ذلك فأل حسن أم لا.

(إنها الأفضل التي لدي ولا تحتاج إلى تحضير، جاهزة)

(حسناً، حسناً، أنا جاهز)

(حسناً، جيد، حدث أن تجمعت كل طيور العالم معاً لعقد اجتماع سنوي كانت تعقده دورياً. على كلاً، هذه المرة تقدم أحد تلك الطيور للأمام وصرخْ بصوت عال بأن هذه الاجتماعات لا معنى لها حين لا لهم قائد أو ملك. وافقه الآخرون على حجته. حسناً، فأخبر المجتمعين بأنه سعيد لإخبارهم بأنهم في الحقيقة لديهم ملك، نوع مميز من الطيور إسمه سيمورغ. بدأت الطيور كلها بالثرثرة من الهياج وزعم كثير منها بأنها سمعت بهذا السيمورغ لكنهم لم يعرفوا أكثر من الاسم فقط. كان السيمورغ طيراً غريباً لا يعرف بوجوده إلا حين سقطت ريشة واحدة من ريشه من السماء في حادث.

(حسناً، أثارت الفكرة الطيور وأرادت أن تعرف كيف ستمسك بهذا السيمورغ وأين يعيش. لهذا شرح لهم الهدد أن الطريقة الوحيدة لرؤيته هي القيام برحلة طويلة وخطرة عبر الوديان السبعة.

وافقت الطيور الأخرى المتشوقة فوراً. واستعدت لكل ما هو ضروري للذهاب إلى أطراف الأرض إن كانت هناك حاجة لذلك. بدؤوا بطرح أسئلة كثيرة على الهدهد عن الرحلة المنتظرة. ثم حدث شيء غريب بعد ذلك: كلما أخبرهم أكثر عن طول الرحلة وصعوبتها ازداد إيجادهم للأسباب التي تمنعهم من الذهاب. واحد تلو الآخر، قدموا أعذارهم، بعضهم لم يكن بصحة جيدة وبعضهم الأخر لديه مشاكل في الريش وغيرهم في أحد الأجنحة. حاول الهدهد إقناعهم بأن الرحلة تستحق المخاطرة وليس هناك ما يضاهي تجربة مقابلة الملك العظيم ملك الطيور ملكهم سمبورغ. إنها فرصة لا تحدث سوى مرة في الحياة. إنه يعرف الطريق التي ستقودهم إليه. لم يقتنع سوى قلة منهم ورغم جهوده في تشجيعهم لم يظل معه سوى مجموعة صغيرة من الطيور المستعدة للرحلة.

(وهكذا انطلقوا عبر الوديان السبعة. لقد كانت رحلة شاقة وتبين أن كثير من الطيور كانت ضعيفة جداً للقيام بالرحلة، بعضها سقط على الطريق ومات وبعضها استسلم وعاد راجعاً. أخيراً لم يبق سوى ثلاثين طيراً. حين شقت الطيور الثلاثين التيَ ظلَتْ معه طريقها عبر الوادي الأخير رأت أمامها قصراً عظيماً متلألئا وحين وصلت إلى غرفة الملك وجدت أن جدرانها مصنوعة من الذهب، وتتوهج بنور ساطع كأنها في غرفة من المرايا. لكن لخيبتهم لم يكن هناك ملك في أي مكان، كانوا لوحدهم، التفتوا إلى الهدهد.

(حسنا) قالوا(أين سيمورغ العظيم؟)

(إنه هنا، يجب أن يكون هنا) قال الهدهد مشيراً إلى الجدران المحيطة بهم.

(أين) سألت الطيور الأخرى باستغراب.

(انظروا حولكم وأخبروني ماذا ترون)

(نرى خيالاتنا على الجدران، لكنها نحن وليست سيمورغ)

لم ير الهدهد سيمورغ أبداً في الحقيقة لكنه فهم الآن فجأة. (لكن انظروا، ألا ترون؟ إننا نحن السيمورغ.) معنى كلمة سيمورغ هو ثلاثون طير، نفس عددنا نحن، نظرت الطيور إلى بعضها البعض وأدركت بأنها هي ما كانت تبحث عنه طوال الوقت.

لم تكن القصة قصتي وإنما قصة كلاسيكية من الأدب الصوفي نسبت إلى فارض الدين العطار، صانع العطور كما عرف. كما أنها ليست من القصص التي تروى قبل النوم في الواقع ولم أكن متأكداً بأنها ستكون ذات مغزى لليو. عاش العطار في بلاد الفرس في القرن الحادي عشر لكن طغى على شهرته شخص آخر ولد في نفس البلدة، نيسبور إنه الشاعر عمر الخيام، ربما خطرت ببالي لهذا السبب فقد كنت أفكر بالخيام مؤخراً.

(إنها قصة جميلة) تمتم ليو قائلاً وبعد ثلاثين ثانية كان يغط في النوم.

حكت لي حبوبة هذه القصة منذ سنين بعيدة لأول مرة ولا أعتقد أنها عرفت من هو العطار. لقد كانت مجرد قصة، سمعتها حين كانت فتاة صغيرة كغيرها من القصص التي تعلمتها من ألف ليلة وليلة، عرفت هذه القصة دون أن تقرأها أبداً. لم تكن تعرف القراءة. بعد سنوات عثرت على ترجمة انكليزية لمؤتمر للطيور الذي ذكره العطار وحين قرأتها تأكدت بأنني أعرف القصة. ما كان بعيداً أصبح قريباً فجأة في واحدة من تلك اللحظات الغريبة حين يلتقي نصفا حياتك معاً وتتناغم الأشياء كلها ويصبح للعالم معنى.

نظرت إلى ساعة يدي، رأيتها تشير إلى منتصف الليل تقريباً. كان ليو نائماً بعمق. تلاشى أثر السيارات الأخيرة في جوف الليل وأنا مستيقظ منذ ساعات رغم الإجهاد. يا له من صمت مطبق. لم أكن اسمع سوى صوت خرير ماء عرفت بعد فترة بأنه صوت الجدول الذي يخترق الغابة التي خلف الفندق. استلقيت هناك وأنا أحدق في السقف وأتساءل عن السبب الذي دفعني وابني للنوم في هذا الفندق وفي هذه القرية الغريبة في وسط المانية.

الفصل الخامس

كان رد الضيوف على الأسرار التي كشفتها ايلين أقل قسوة مما هو متوقع، ربما لأن الناس يقفون دائماً ليعلنوا عن الفحش وتشويه العائلة والزنا وقد يكون هذا تفسيراً للشرب الكثير أو ربما لأن تجمع العائلة النوردية عبارة عن جلسة طقوس علاج جماعي يقذف فيها كل واحد منهم بأسوأ ما لديه على الآخرين ليغادروا وهم يكرهون بعضهم البعض أكثر مما سبق. في كلتا الحالتين سيتم نسيان مشكلتنا قبل أن نذهب إلى تناول الجبن والبسكويت.

جلست هناك بابتسامة بليدة على وجهي دون أن أكون متأكداً كيف سأستمر. رمتني المرأة ذات الوجه القاسي الجالسة على يساري بنظرة غاضبة طويلة فوجدت نفسي أستدير نحو الرجل الأخرق ذو الشعر الطويل الذي كان على يميني. لقد بدا مصمماً بأن ينتخبه الضيوف بالضيف الأسوأ سلوكاً في هذه المناسبة الاجتماعية. لقد مدد رجليه في كرسيه وهو يضحك ضحكات خافتة بينه وبين نفسه. كان صبياً عبقرياً، حسب ما جمعت عنه من معلومات، ورث شركة لتصميم الأثاث والأجزاء الخارجية للمعدات الالكترونية . لقد كان لدى هؤلاء الأثرياء طريقة مميزة وشائعة جداً سابقاً في دفع أسعار باهظة مقابل أشياء تضاف لشكل الشيء، لمجموعة ستريو من النوعية الممتازة- خطوط باردة نظيفة، سطح من الألمنيوم المصقول والزجاج المدخن. إفراط في الحداثة، فيه سحر زوج لماع من الجزم العسكرية. يمكن قول الشيء عينه عن الشخص الجالس بجانبي الذي أطلق ضجيجياً مجلجلاً كرد فعل حين أنهت إيلين خطابها ثم طرق كأسه بكأسي بمودة قوية لدرجة قلبته فوق الطاولة.

(كلنا وصلنا إلى ذلك، أنت تعرف. لاشيء جديد) هناك ومضة قاتمة في عينه الزجاجية. انتابني شعور بأنه قد يكون مزعجاً دون أن يفكر بذلك لكنني استأت من ذلك في الحقيقة. إن انفصال شخصين قضية معقدة ومحرجة مع كل العاطفة التي انتزعت من إطارها. لقد كانت آخر شيء أردت كشفه أمام العامة وفي العلن. شعرت كأنني معلق بسلسلة من الأسلاك التي تشدني في كل الاتجاهات.

بحثت عن ليو فوجدته يركض على العشب مع أطفال في الخارج. رأيته ينظر للأعلى حين ساعدوا الين في الابتعاد عن الطاولة والدموع في عينيها وأخذوها إلى داخل البيت ثم بعد ذلك نظر إلى البعيد بشكل مؤثر ثانية. أردت أن ألحق بها لكن أخبرني شيئاً ما بأن هذا سيزيد الطين بلة. فكرت في الذهاب بنزهة في الغابة والبقاء هناك حتى يحل الظلام. لكن لم أفهم لماذا يجب علي أن أهرب. الوضع ليس من شأنهم ولا يهمني ما يمكن أن تفكر به ايلين.

نجح الناس كلهم في تجنب النظر إلى جهتي ماعدا الولد الأعجوبة الذي كان يصب الخمر في حلقه بسرعة كبيرة لدرجة لم يلاحظ بأنه أفرغ كأس رفيقه، أشقر نحيل، عظامه شفافة، ذكّرني بسمك الشبوط لسبب ما. خطر لي بأنه يفعل هذا عمداً. فقد كان يستمتع بإزعاج الناس. بالرغم من ذلك سمحت له بأن يجرفني بعيداً عن الطاولة عندما نجح في الوقوف على قدميه وترنح وهو يلتقط قارورة أخرى مملوءة تقريباً، كان ذلك عذراً جيداً للذهاب بالنسبة لي. درنا حول البيت وعاد للقهقهة بين الحين والآخر وكنت ألحق به دون أن أعرف السبب. كان هناك بيت زجاجي صغير

على الجانب الآخر من المنزل، يطل على الجدول الصغير. كشف عن دافعه الحقيقي في الابتعاد عني فوراً وحين أخرج حقيبة تبين بأنها تحتوي على محصول نقي وكامل لغابة مطرية كولمبية صغيرة.

كان يصغرني بخمس سنوات ومليونير كبير سابق، بالإضافة للشركة التي كان يديرها، ورث أيضاً مزايا عائلية قليلة أخرى. والده كما علمت فيما بعد، كان شريراً وفاسداً، يستمر في حفلات سكر صاخبة تمتد إلى أسبوع من الزمن، كان خلالها يحطم السيارات ويهدد حياة المتفرجين الأبرياء ببنادق الصيد والسكاكين الضخمة وينتابه سعار إجرامي عموماً. كان السكان المحليون يحبسون زوجاتهم وبناتهم ويحكمون إغلاق نوافذ بيوتهم عندما يسمعون بأن هذا الدراكولا المتحضر موجود في البلدة بحثاً عن تسلية صغيرة. كما انتشرت إشاعة عن إعتدائه على ابنته وهروبه إلى اليونان مع صديقتها المفضلة التي لم تكن تتجاوز الخامسة عشر. ثارت ضجة كبيرة لكن المسألة سويت ودياً، فقد تدخلت النقود وتم إرضاء الفتاة لهذا لم تصل القضية إلى المحاكم. هذا هو الزواج الذي كرسوا له وثائق مرعبة حين يحدث في قرغيزيا.

جلست معه للحظة، أحاول جمع شتات أفكاري فقد كنت حزيناً لأننا لم نستطع أنا وايلين أن ننجح عائلتنا الصغيرة. كان في هذه الأثناء، يستنشق مسحوقاً أبيضاً بأنفه بصوت عال ويتحدث بسرعة في الوقت نفسه.

(إذاً، ماذا تعمل، ما هي مهنتك؟)

(أعمل في برنامج إذاعي)

(تعمل ماذا؟)

(أقرأ الكتب وأقابل الكتّاب)

بدأ يقهقه ثانية، تساءلت ماذا سيحدث لو ضربته بالكرسي الذي كنت أجلس عليه أم إن كان خطط لذلك فقد يعتبره عدالة شاعرية. بدأ يحكي لي عن رحلته الأخيرة إلى تايلاند، وكيف يمكن للمرء شراء أي شيء هناك.

(يمكنك شراء طفل عمره سنتان، ثلاث، أي شيء تريد) لم أدرك بأنه لم يكن يتحدث عن التبني إلا بعد دقيقة. حملقت به وحدق بي،عيناه مغطيتان وفتحتا أنفه متوسعتان إلى الخارج وشفتاه رقيقتان منتفختان بالنبيذ الأحمر، يتحداني بأن أذهب إليه.

تهيأت للنهوض.(من الأفضل أن أعود) لكن حين حاولت فتح الباب بدا مقفلاً. هززته مرتين. ضحك ضحكة خافتة مكبوتة من ورائي (لماذا تعود؟ هل تظن بأنهم افتقدوك؟) ترددت، لو أنني لم أصادف مثل ذلك الحقد المصفى من قبل لكنت مفتوناً، بنفس الطريقة التي تحدق فيها إلى أفعى مكورة. أطلق العنان لمشاعره وابتسم.(عليك أن تفعل كما فعلت أنا. لقد مارست الحب مع هذه الفتاة التي كانت مجنونة بي، تركتني أفعل بها ما أشاء. حتى أنني غرزت مسدس في فرجها ولا تزال تحبني. وأخيراً أخذتها في إجازة إلى الكاريبي، ذهبت إلى مشرب ووجدت رجلاً اسوداً ضخماً، عدت به إلى الفندق وأخبرتهم بأنني أريد أن أراها هي وهذا الرجل يفعلانها وتم ذلك ثم دفعت للزنجي أجره بعد ذلك وأخبرتها بأنها عاهرة وبأنني لن ألمس إمرأة كانت مع رجل أسود أبداً، تركتها هناك عالقة بدون مال!) ضرب ركبته بكفه وابتعد وهو يهلل ويضحك.

وجدت نفسي محبوساً في بيت زجاجي مع شرير يتساوى مع مينيغل، أو حتى ايفان الرهيب. هززت الباب بقوة أكبر فانفتح. حين استدرت عند زاوية البيت اصطدمت بالفتاة الشبوط التي كانت تجلس بجانبه.

(استديري وعودي للوراء إن كنت مهتمة بسلامة عقلك) رمتني بنظرة كما لو أنني قدمت اقتراحاً فاحشاً وتابعت طريقها. سمعت ضحكته مرة أخرى حين انفتح الباب. يجب أن أخرج من هذا المكان ومن هذا البيت ومن هذه الحفلة المجنونة ومن هذه البلاد كلها قبل أن يحدث لي مكروهاً. خيم الظلام سريعاً، ازدادت السماء قتامة وارتسمت خصل غيوم فوق قمم أشجار الصنوبر. كان ليو في إحدى غرف البيت يشاهد التلفزيون مع بعض الأولاد. وجدت ايلين في المطبخ الطويل الفارغ. كانت أصوات الضحك تتهافت من كل مكان في البيت وفي ركن فيه كانت تعزف موسيقى الماريياشي .

(أعتقد بأننا عالجنا ذلك بشكل مهذب)

(شعرت بأنني قد أهنت) قالت وهي تسقط على الطاولة.

(حسناً، لقد قمت بمهمة ناجحة في الخروج من هناك. ألن تتوقف عن الاهتمام بمشاعر ليو؟)

(لقد فات الأوان على القلق حول صالحه، أليس كذلك؟)

(لماذا تسترجع ذلك ثانية؟ لقد حدث منذ سنين. كان خطأً. بدأ وانتهى، هذا هو)

هزت رأسها نفيا(ليجعل الأمر يبدو مرتبا جدا. أنت تبحث عن مخارج سهلة دائماً.)

(ذلك ما كنت تعتقدين به)

(هناك أكثر من ذلك)

((ليس هناك أكثر من ذلك، كنا نبحث عن التعاطف واعتقدنا بأننا وجدناه معاً.)

(أعتقد بأنني سأتقيأ)

نظرت للأعلى ورأيت شخصاً يدخل المطبخ، رآنا واختفى مرة أخرى دون أي كلمة، وَفَرَّ ذلك لايلين وقتاً كي تتحكم بنفسها.

(هناك أشياء أكثر من ذلك،) قالت وهي مستغرقة في التفكير

(هل تقصدين أنا وأنت؟)

(أقصد كل شيء. هذه نهايته. لكنه كان ميتاً منذ زمن طويل،) وقفت ايلين على قدميها وذهبت باتجاه الحمام. دخل الضيوف من الخارج وتجمعوا الآن في غرفة الجلوس. اصطدمت الأصوات بالضحك ثم تلاشت في زبد موجة. عادت ايلين تمسح وجهها المنهك بيدها. كانت محقة تماماً. لم يكن هناك أي معنى للاستمرار. لماذا أصر على المطالبة بفرصة أخرى؟

(إننا ندين لبعضنا البعض في إنهاءه الآن وبصورة نظيفة. هنا والآن)

(ماذا بشأن ليو؟) سألت قائلاً

(ماذا عن ليو، ماذا يفعل الناس حين يطلقون برأيك، هل يتقاسمون الصغار مناصفة مثل خوخة؟) استندت إلى مدخل الباب ونظرت من فوق كتفها. لقد أضعت كل شيء. ليس لدي قضية. ليو سوف يعيش مع أمه. سوف أراه مرة كل أسبوعين إن أصلحت شأني. لكني لم أفكر بذلك. لقد كنت أفكر بالطريقة التي كانت تقف فيها في مدخل الباب والتي أعادتني مباشرة إلى المرة الأولى التي تقابلنا فيها منذ سنين. المرة الأولى التي عرفت بأنني أعشقها، كانت تفعل مثل ذلك في مدخل باب.

كنا نعمل معاً بوظيفة بدوام جزئي في مكان يدعى بورسالينو في أكسفورد. أنا كنت أدرس مقرراً في كلية للصحافة وايلين أنهت دراستها الجامعية لتوها وتريد أن تأخذ قراراً إن كانت ستكمل في علم الإنسان أم أنها ستحصل على وظيفة في العالم الحقيقي. في ذلك الوقت إعتقدت أن بإمكانها الحصول على بعض المال لتسافر ريثما تعتمد أحد الخيارين. تحدثنا عن الخوف من إقتفاء خطا آباءنا – كان والدها عالم آثار ومترددة بالانخراط في مهنة أكاديمية وكنت أنا قد أنهيت العمل الذي أقسمت بأن لا أمارسه أبداً-الصحافة، مثل والدي.

تلا ذلك عدد قليل من الأحاديث الليلية المتأخرة، عادة بصحبة الطباخ وواحد أو اثنان غيره، كنا نقلب المقاعد فوق الطاولات ونطفئ الأنوار. ثم بعد ذلك انطلقت هي لترى العالم الحقيقي واستلمت أنا وظيفتي الأولى في جريدة محلية صغيرة في الشمال النائي، حسناً ليس في البراري الجليدية تماماً، لكن بالنسبة لشخص مثلي لا يعرف عن بريطانيا شيئاً تقريباً، كانت شيفيلد بعيدة. لم نتبادل عناوين بعضنا البعض ولم نرسم خططاً للالتقاء مرة أخرى. لماذا سنلتقي؟ لم يحدث بيننا أي شيء لذلك بدا الأمر كأنه أكثر من مجرد مصادفة حين التقينا مرة أخرى بعد سنتين في حفلة في لندن.

تعرفت عليها بصعوبة آنذاك، بدت أكثر جموحاً بعد عودتها من رحلة إلى الشرق الأقصى. كان واحد من مساءات الصيف الطويلة التي تمتد إلى اللانهاية. كان الهواء مشبعاً برائحة الزهور المزهرة والأعشاب المقطوعة التي اختلطت بدخان الشواء المتضائل والشمس عالقة في مكان ما بين صف من أنابيب المداخن وقمم السطوح التي كانت مثل أسنان المنشار. تحدث الناس كلهم بشكل ضبابي كأن لديهم الكثير من الوقت وكان الجو محملاً بالأحاديث غير المنتهية والحياة في ضواحي لندن المورقة في أفضل حللها. لقد تحدثنا أنا وايلين بشكل مختصر سابقاً في غمرة الضجيج الصاخب لكن هدأت الأشياء بعد ذلك وكان الجميع يتنقل من مكان لآخر. وجدنا لخطة تجمعنا مرة أخرى. كانت تتفجر بالحياة والحيوية. أتذكر أغنية قديمة لفان موريسون كانت تنساب من البيت من خلفنا وقالت ايلين بأن هناك الكثير الذي يجب علينا أن نتعلمه. لقد كانت ترغب في العودة إلى الدراسة.

(كل شيء عداها مضيعة للوقت.) قالت. كانت تعد أطروحة في الدكتوراه عن هوية الجاليات التي أزيحت من مواطنها . لم يبدو ذلك غامضاً بل عملاً طموحاً وشجاعاً وكأنها تستعد لتحدي العالم. هذا ما جذبني إليها، قناعاتها. وهذا ما كانت تريده. وهكذا ضاعت الحفلة من بين أيدينا ودخلنا في حديث قصير خاص. كانت ترتدي أفرول أزرق قطني علقت حلية معدنية بأحد أطراف صدرتها دون اهتمام وبان خيط حمالة الصدر الأبيض على كتفها المسمر بأشعة الشمس .

الحب ، بالتأكيد مؤامرة يشترك بها شخصان يحاولان تحدي منطق العالم. نحن نعيد اختراع أنفسنا لأن الحب يعطينا الإيمان بأننا نستطيع أن نصبح ما نبدو عليه في عيون شخص آخر لهذا نحن نجعل أنفسنا تلف حول محور وجود شخص آخر. هذا ما يحرك الكواكب ويمسك بالكون بإحكام،

إنه نوع من شد الجاذبية وحين يزول ويفقد سيطرته نفقد التوجه لفترة ونصبح غير متأكدين من المسار الذي سنتحول إليه، مروعين بالقلق من ذلك الفراغ المظلم الواسع الذي يلفنا طول الوقت.

حين ابتعد آخر الضيوف المترنحين في أعماق جوتلاند وتهالكوا على المقاعد الخلفية لسيارات الأجرة ورددوا تحيات الوداع البهيجة، جاءت ايلين من البيت الرئيسي، تركتهم كلهم هناك في حفلتهم واستغلت موعد نوم ليو كعذر. لدى جد ايلين في ملكيته فدادين كثيرة من أراضي الغابات المنتشرة هنا وهناك مع بيوت ريفية صغيرة تبدو كما لو أنها خرجت من كتاب غريم حكايات الجن، سقوف منخفضة مسطحة ونوافذ صغيرة جميلة تختلس النظر من تحت الإفريز. لقد استعرنا واحداً للإقامة فيه.

بدت الأمور في الداخل، رائحة الخشب القديم والحجر والأثاث كأنها شيدت في الخمسينات.

بعد أن وضعت ليو في السرير وجدت بطانية وجلست عليها في الخارج في الشرفة الصغيرة. بدت لي السماء وهي تمتد في الجو الليلي والنجوم تنبض بالطاقة المشتتة للكون المتضائل. انجرفت خيوط واهنة من الموسيقى والضحك فوق الأرض المعشوشبة التي قطعت أشجارها وتمكنت من رؤية ايلين من خلال حزمة من أشجار الصنوبر تحت أضواء البيت الأساسي.

(ما الذي تفعله في الخارج هنا؟) سألت. قلت بأنني لم استطع النوم.

(أنظر) قالت، وهي تأخذ نفساً عميقاً (يجب أن نناقش هذا وندرسه بجدية)

(تقصدين بدلاً من أن نرمي أنفسنا تحت رحمة بيت يملأه الغرباء؟)

(أنا آسفة، لقد كنتُ بحاجةٍ إلى قوله لأخرجه من ذلك المكان من رأسي فقد كانت يدفعني إلى الجنون)

(لن يخرج أي منا فائزاً من هنا)

(ذلك صحيح، سنخرج كلانا خاسرين) أعتقد أن الفكرة نفسها مرت برأسها كما مرت برأسي، وجلست بجانبي.

(سيكون ليو هو الخاسر الحقيقي) قالت وهي تتكلم بصوت عال. لم تدر بيننا محادثة فعلية منذ شهور. فلم تتطاير الأطباق أو تصفق الأبواب أو تطلق تهديدات. بل مجرد محادثة عادية.

(أريد أن أبقى هنا لفترة، ربما ينبغي عليك أن تعود مع ليو إلى البيت، سأنضم إليكما لاحقاً.)

(تنضمين إلينا لاحقاً؟ تنضمين إلينا، أين؟ متى؟) كان هناك درجة من الثقة الضرورية التي لم يدخر كلانا منها شيئاً تغمر هذا العرض. لم أكن الطرف المذنب الوحيد. هل وجدت لها قريناً هنا من أسلافها الشماليين النورديين، واحد من تلك النماذج الشقراء والعيون الزرق؟

(لماذا أنت بحاجة إلى البقاء هنا؟)

(لا تبدأ، حسناً، لا تبدأ، كل ما في الأمر أنني أحتاج إلى وقت أكون فيه وحيدة.)

(أنا لا أحاول أن أبدأ بأي شيء. أنا أحاول أن أفهم لماذا تحتاجين إلى البقاء لتفكري بمخرج هنا.)

(هل يشكّل المكان الذي أكون فيه فرقاً؟)

(حسناً، إنه يَفْرِقْ كمكان يبدأ منه ليو)

(هذا ليس عن ليو) قالت وهي تخلع حذاء الحفلة وتفرك أصابع قدميها. (أنا لن أفعل هذا يا ياسين. ليس الآن. أنا بحاجة للنوم.) استدارت لتنظر إليَّ من مدخل الباب وقالت: (امض وقتا مع ابنك انه بحاجة إليك. ويعلم الرب إن كان سيرى الجزء القليل الثمين فيك في السنوات القليلة القادمة.)

أغلقت الباب وراءها وسمعتها بعد قليل تتحرك داخل البيت إلى الحمام والمطبخ من أجل كأس من الماء ثم فرقعة الأضواء وصرير نوابض السرير العتيقة حين دلفت إليه. أصغيت بانتباه إلى كل حركة وإيماءة صغيرة. أردت التأكد بأن ذلك لم يكن هدنة ولم يبق مجال لأي مصالحة. سحبت منضدة من غرفة المعيشة إلى الشرفة في الخارج، قطعة أثاث كنت متأكداً بأنها تحفة من التصميم النوردي، قاسية وخشنة وغير مريحة. إن ولاءهم لمهندسيهم كان مؤثراً وكبيراً.

خيم الصمت على البيت وأصبحت وحيداً مرة أخرى. تلاشى القمر وبدت النجوم مختلفة عن تلك التي أعرفها وهي مرمية في الأعالي مثل حبيبات زجاجية مكسرة في زبدية من الصباغ النيلي الأزرق. جلست أراقبها وهي تتسلل ببطء عبر الأشجار حتى داهمني النوم واستيقظت وأنا ارتجف وعضلات رقبتي متصلبة. كانت الطيور تغرد بابتهاج حين دخلت إلى البيت، صنعت لنفسي فنجاناً من القهوة، شربته وأنا واقف في المطبخ أحدق برف من الأدوات القديمة: مصفاة وقمع وإبريق قهوة مصنوعة كلها من معدن أزرق واحد. بعد ذلك ذهبت كي أوقظ ليو، أخبرته بأن يلبس ثيابه ويحزم أشياءه أي يرميها داخل حقيبة رياضية صغيرة مع تاز الشيطان التاسماني على أحد أطرافها. راقبني وأنا أتثاءب.

(ماذا سنفعل؟)

(سنذهب في رحلة،) لدي فكرة في الذهاب للتفرج على مزرعة بريخت القديمة لكن لم أكن متأكد بأن هذا سيشكل كثيراً من الاهتمام. وقرأت أيضاً عن كنيسة قريبة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قريبة فيها افريز متداخل بأقواس يفترض أنها مستوحاة من الهندسة العربية لكن بدت فكرة شاحبة وباهتة أيضاً.

(إلى أين سنذهب؟ ماذا عن أمي؟)

(تحدثت معها ليلة أمس. فهي تريد البقاء هنا لفترة من الوقت. لهذا سنذهب نحن الاثنان للاستكشاف، أدرك ليو بأنني جدي فحدق بي لحظة. أراد أن يذهب ليسألها.(لقد جاءت متأخرة إلى البيت، هيا ستكون متعة وتسلية. وحدنا الاثنان فقط.)

بدا ليو مشككاً ولمَّ ألمه على ذلك. ليس لديه أي فكرة عن المكان الذي يفترض بأن نذهب إليه. وضعت يدي على كتفه.(اسمعني، هذه فرصة رائعة. أنا و أنت، شيء بين أب وابنه. كم ولداً تعرفه فعل شيئا مثل هذا في حياته؟ كم صديقاً في صفك ذهب في مغامرة كهذه كما تعتقد؟)

(مغامرة؟)

(مغامرة. هذه هي بالضبط، مرة في العمر، لا تتكرر أبداً. مغامرة مضمونة تماماً.) مددت يدي من أجل إجابة (أليس هذا جيداً؟)

قفز على الأرض وبدأ بارتداء ثيابه بسرعة. كنا على وشك الخروج من الباب حين قال (انتظر يجب أن أودع ماما)

(حسناً)

انتظرت في الشرفة في الخارج. يبدو أن اتخاذ القرار احتاج إلى وقت طويل جداً. وفكرت، إن ظهر سنتدبر الأمر بطريقة ما، لكن إن لم يفعل فليس لدي فكرة عما سيتلو ذلك.

وفجأة ظهر مرة أخرى، ابتسم وسابقني إلى السيارة فعرفت بأن كل شيء سيكون على ما يرام أخيراً.

الفصل السادس

كانت الحانة مظلمة وكئيبة في الصباح وعلى الجدار المقابل قرون وعل ورأس خنزير بري معلق فوق الطاولة دون أي أثر لكحول الليلة الماضية. كانت الغرفة شديدة البرودة وتفوح برائحة التبغ. نهض ليو من السرير ثم لبس ثيابه قبلي وكان صامتاً وغير مستجيباً، لقد طرأ عليه بعض التغيير فقبل ذلك جعلته يستحم بعد إقناعه بأن قوانين السفر تقضي باستغلال المسافر للماء الحار كلما أمكنه ذلك إذ من غير المعروف متى يتوفر له حمام ثانية. ربما أصيب بنزلة برد أو نوع من حمى السفر.

لم يقتنع تماماً بالفكرة لكنه أدرك بأنها لا تخلو من بعض المنطق الذي لا يمكن تفنيده. وقلت لنفسي أنه سيكون أذكى مني في يوم من الأيام لكن الآن الأفضلية لي. لم تكن لديه فكرة أين سننام الليلة أو أين سنذهب ولا أنا أيضاً لكنه لم يعرف ذلك. كنت أنظر إليه حين خلع ثيابه وأسقطها في كومة بجانبه ووقف في ثيابه الداخلية وسرواله وقميصه بأعلى الكومة. نظرت إلى كومة ثيابه وحذاءه البالي كما لو أن الصغير خطف من قبل غرباء. وجدت نفسي أفكر بأفكار وبيلة عن الموت. جلست هناك وقتاً طويلاً وأنا أحاول تقرير ما سنفعله في الخطوة التالية. كان يغني لنفسه في الحمام الذي كان نظيفاً ومياهه ساخنة. اضطررت أن أطلب منه بأن يستعجل أكثر من مرة وإلا سنضيع الفطور .

سألني وأنا أجففه (هل كنتي تسافران أنت وأمي كثيراً؟)

(أحياناً). كانوا يعرضون توم اند جيري وهو برنامجه المفضل وكان في الألمانية لكن ذلك لم يشكل فرقاً. جلس يلبس ثيابه بينما كنت في الحمام. امتدت المناقشة إلى فجوات كبيرة وانتشرت هنا وهناك على شكل موجات من العنف. تشظت الأبواب الخشبية وتكسرت النوافذ الزجاجية وغنت الطيور الصغيرة.

(قبل أن أولد؟)

(قبل أن تولد)

في الوقت الذي كنا نتناول فيه طعام الإفطار خيم عليه مزاج قاتم. حاولت أن أشتت تفكيره بالحديث عن الديكور لكنه لم يرفع رأسه لينظر إلى رأس الخنزير المخيم فوقنا، زادت محاولاتي في إضفاء جو من الدعابة وأكدت غرابة وجودنا هنا.

تفاجئنا ببرودة هواء الصباح حين خرجنا من الفندق. شكلت الشمس حزمة ضوء عسلي على الطرف الشمالي من الوادي أما في الأسفل حيث كنا فكان اللون أخضراً ورمادياً حجرياً. بعد أشهر قليلة سيكون الصباح هنا صقيعاً. في النهر الذي يمر بمحاذاة المكان الذي أوقفنا فيه سيارتنا كان الماء ينتفح في أطباق زجاجية جميلة تنزلق فوق الأحجار الزيتونية. كانت السيارة باردة ورطبة وكئيبة والمحرك غير سعيد أو متكاسل ليشتغل. أقنعت نفسي بوجود صوت فرقعة يجب أن لا يكون هناك. لم يكن لدى ليو الصبر لتحمل خوفي وقلقي.

(يبدو لي جيداً)

(رغم ذلك علينا أن نبقي عيوننا على مرآب)

عدنا إلى الطريق مرة أخرى ووقعنا في أفكارنا حين انضممنا إلى موكب السيارات المنطلقة من والى الأماكن التي تجعل لحياتها معنى. كان الطريق يصعد ويهبط في منحدرات كبيرة ويتحرك السير في تشكيلات نشطة غريبة شبيهة بأسراب السمك. تمر فترة طويلة دون أن يكون حولك شيء ثم فجأة تهب من اللامكان موجة من الحركة السريعة تلفك لدقائق قليلة ثم تتبدد بعد ذلك ليعود الطريق إلى هدوءه مرة أخرى.كنت أقود السيارة بسرعة وجدناها أنا والسيارة معقولة لكنها كانت بالنسبة لأغلب رفاقنا المسافرين علامة شيخوخة. لمحت أشخاصاً يتجاوزونني وهم يقودون بسرعة مئة وثمانين كيلومتر في الساعة. وبناءاً على نظريتي لن يكسبوا وقتاً كثيراً على المدى الطويل لأن ضغط القيادة السريعة والتوتر سيجبرانهم على التوقف مرات كثيرة.

(الشدة والتوتر والقلق بسبب التركيز الشديد يخفضان سكر الدم لدى السائقين ويضطروا أيضا للذهاب إلى المراحيض.) أومأت برأسي عارفاً.

كان ليو بصفي لكنني لاحظت بأنه غير مقتنع. أشرت إلى سيارة فولكسفاغن صفراء تقل عائلة لا تبدو عليها السعادة. رأينا النمر يتمسك بإحدى نوافذها الخلفية بمخالبه البلاستيكية.

(أنظر إلى تلك السيارة مرة أخرى)

(لكن يا بابا، ربما تخلوا عن تلك الأشياء)

أنا لا أتفق معك، أنا مقتنع بأنها نفس السيارات التي كانت تسبقنا. ترى سيارة تتجاوزك ثم تراها تتجاوزك مرة أخرى والسبب أنها توقفت في مكان ما في الفاصل. ذلك يعني أنهم يسيرون بنفس السرعة التي نقطعها نحن. تنهد ليو.

تحولنا إلى حديث الغابات.

(كان الناس يعبدون الأشجار سابقاً) قلت. اعتدل ليو في جلسته وألقى نظرة أدق عليها. (لست أنا من اخترع هذا، أشجار الصنوبر التي على جانبي الطريق هي البقايا الضئيلة لمحيط هائل منها ما كان موجوداً في السابق، ففي أيام يوليوس قيصر كان المرء يستطيع التجول لمدة شهرين عبر الغابات التي كانت تغطي أوروبا دون أن يرى الشمس. هذا النوع من القياس أرعبنا وأدخلنا في صمت تأملي. لقد كانت الأشجار والغابات المعابد الأولى ، كما قال بلوتارك، وكان الناس في روما يهرعون بدلاء الماء إن لاحظوا ذبول إحدى أشجار القرانيا ليسقوها ويحيوها خوفاً من أن يتبدل حظهم وقدرهم إن ماتت وكانوا يطلبون المغفرة من روح عفريت الشجرة قبل أن يقطعوها وحين يولد طفل يزرعون شجرة لحمايته.

(وهناك علاقة بين أشجار النيم في طفولتي وبين غابات أوروبا القديمة. اشتقت كلمة نيم من نيموس اللاتينية التي تعني الأيكة المغطاة بالأشجار واستخدمها القدماء ليعنوا بها الحرم المقدس.) لقد زرع والدي شجرة نيم في حديقتنا حين ولد ليو. والآن جرى بيع البيت والشجرة معاً.

(نحن ندخل أرض الراين الآن) أخبرت ليو، (المكان الذي لم يكن لعفاريت الشجر فقط وإنما للمتصوفين والحالمين وأهل الرؤى أيضاً). قرأت له في الدليل حين توقفنا في إستراحة. كانت

هيلداغارد فون بينغن راهبة من القرن الثاني عشر ولها رؤى حين كانت بعمرك)

أَمَالَ برأسه جانباً وهو يحاول أن يتذكر إن كان قد جرب ما يمكن تصنيفه بعالم الرؤى. تابعت القراءة.(لقد حُبْسِتْ في دير لمدة ثلاثين سنة.)

(لماذا؟) سأل مذعوراً. قلبت صفحات الكتاب باحثاً عن إجابة مناسبة لكنهم لم يقدموا واحدة.

(لتكرس نفسها للرب كما أعتقد. كان يفترض بهم أن يكونوا أمواتاً بدنياً بالنسبة للعالم. في الحقيقة أجريت لهم نفس الطقوس قبل أن يضعوهم في داخل السجن، كما لو أنهم دفنوا فعلياً.) عبس ليو وقطب جبينه. كان محقاً فذلك أمر غريب.

(كانوا يمررون لها الطعام من خلال نافذة صغيرة)

(هذه ليست حياة)

جلسنا على منضدة خشبية ملتصقة بطاولة نزهات. كان العشب الذي حول أقدامنا متسخ بعلب مسحوقة وأغطية بلاستيكية ساقطة تركها مسافرون قبلنا. جلس ليو يركل الحصى الموجود تحت قدميه وهو يدحرج ساقه للأمام والخلف قلقاً. قلبت الصفحة لأريه صورة. صورة لهيلداغارد وهي تصلي، يداها مشبوكتان ووجهها يتطلع إلى السماء.

ويقول الكتاب بأنها (كرست نفسها للموسيقى أيضاً وأَلَفَتَ عدداً لا بأس به من الأناشيد الروحية وعارضت دعوة الكنيسة في شن حملة صليبية أخرى ولم تؤمن بالسيوف والقتال.) كما أتذكر بدأت الحملة الصليبية الأولى بمذبحة لليهود في مكان قريب من الذي نجلس فيه الآن في منطقة الراين. لقد عرفت هيلداغارد هدف الكنيسة ولم تحبه.

اعتدل ليو حين سمع بسيرة السيوف والقتال (الحملات الصليبية تكون حين يتوفر لديهم كل هؤلاء الفرسان المدرعون، أليس كذلك؟)

(ناشد البابا اوريان العاشر كل المسيحيين للقتال من أجل الأراضي المقدسة التي كانت بأيدي العرب المسلمين)

(ومن هم العرب المسلمون؟)

(حسناً، إنهم .... نحن) نظر إليَّ بطريقة غريبة وقرر بأن يعود إلى لعبة السيف والمناورة. (لقد استمرت حوالي أربع مئة عام وفي الحقيقة لم يكن لها أي علاقة بالدين وكانت من أجل النقود والسيطرة على الطرق التجارية.)

(ما رأيك ببعض الشوكولا بعد الطعام؟)

لمعت عيناه وهرول نحو السيارة وبدأ في العبث في صندوقها الخلفي حيث وضعنا مؤنتنا الغذائية. رميت كتاب الدليل جانباً. التاريخ ليس الموضوع الأسهل في أفضل الأوقات. عاد ليو محملاً بالبسكويت والزبيب والشوكولا. لقد نسي التاريخ.

(هل فعلت ذلك في حياتك سابقاً؟)

وأشار إلى رجل غريب المظهر كان واقفاً بجانب الطريق ويحمل لوحة كتب عليها باريس بأحرف غليظة مخربشة.

(منذ زمن طويل، في الماضي) قلت.(كرهت ذلك. لكنك تقابل بعض الأشخاص الممتعين، من النوع الذي لا تقابله إلا في هذه الطريقة ولا أعرف إن كنت سأحاول ذلك مرة أخرى هذه الأيام.)

(ربما علينا أن نقله معنا؟)

(ربما)

لكننا لم نحمله. توقفت شاحنة ونحن ننظر إليه. ارتاح جزء مني، أعترف وأنا خجل من قول ذلك، رغم أن المسافر المجاني لم يبدو عليه الجنون أو المس. ربما نصبح أكثر حذراً حين نكبر ونفقد ثقتنا بالناس. حين واصلنا القيادة وجدت نفسي أفكر بالرجل وبالإشارة التي كان يحملها. كم تبعد باريس؟

حسناً، كتاب الدليل لا يخطئ. استدرنا للغرب وسرنا لمدة ساعة أخرى. لقد قيل بأن الطرق الألمانية القديمة الممتدة من الشرق إلى الغرب شقت أثناء الحرب حين كانوا مستعجلين لتوصيل خطوط الإمداد إلى أمكنتها وهذا يفسر طريقة تنفيذها فقد كانت الصدوع التي بين صفائح الإسمنت تصدر أصواتاً تحت العجلات.

شعرت بأن فيض حلم لا يلين كان يمتصني تماماً، منذ سبع سنوات. والآن وفجأة أتساءل لماذا. لم أدرك إلى الآن بأنني كنت أرتجل حياتي ببساطة وأتنقل من خطة إلى أخرى تليها دون أن تكون لدي فكرة حقيقية حول ما ستؤدي إليه تلك الخطط. الآن وللمرة الأولى في حياتي توضح لي بأنني لا أملك خطة لما أفعله الآن. ليس لدي حلم أتشبث به . لا أشعر بأي طموح أو رغبة حارقة. لا أملك أي شيء ولا هذا الطريق حتى. كل ما أملكه هو هذا الصبي.

أضفى الضوء الأصفر الترابي الناعم على الجو رائحة التراب الرطب. خلافاً لشخصية هندرسون في رواية بيلو، لم يكن لدي أفريقييتي لأهرب إليها حين تفسد حياتي فأوروبا هي قارتي السوداء وأنا أبحث عن قلبها.

الفصل السابع

لقد ولدت بين تاريخين متنازعين: التاريخ الذي صاغ الإمبراطورية والتاريخ المضاد الذي تحداها. شكل هذان النصفان المتعارضان الأجزاء الأساسية للكل نفسه. والدي الذي أصبح موظفاً يحفظ الملفات في قسم (ستيمر أند ريلويز)، بعد أن تخرج من مطاردة كرات الغولف، انضم إلى الحركة الوطنية مبكراً. شاب صاحب مبدأ، كان يتنقل متسللاً في الليل في عبارة ليلية يشحن الدعاية الشيوعية (التي كانت تنسخ على ورق استنسل) لتخصيب الوعي المتنامي بالحركة من أجل التغيير ومن أجل الاستقلال. وضع الناشطون جانباً مخاوفهم من ستالين والشرور التي قد يرتكبها من مذابح منظمة والغولاغ والقطارات الباردة الطويلة إلى سيبيريا. عرفوا أنك إن أردت التعهد بشيء كبير وقوي مثل بريطانية فأنك تحتاج إلى شيء ملموس إلى جانبك. لهذا كان التصور، قوتان عالميتان وجهاً لوجه على شكل رزمة من الأوراق المحبرة ملفوفة في جرائد تدس تحت ذراع سترة شاب ضيق. لقد شكل ولاءه السياسي مسبقاً بالبدلة التي اختارها من كاتالوج لومبارد البريدي وطلبها من لندن لتتماشى مع الموضة السائدة. وكان الرأس أيضاً من علامات التحول إلى القضية الوطنية: جدائل طويلة من الشعر المجعد المغمور بالبيركلين والمسرح إلى ثلوم جيولوجية بمسار محوري مبتعداً عن جبينه. فضل مكتبه في ستيمر اند ريلويز (نفس المكان الذي أرسل إليه والده ليلاقي حتفه في نقطة اتصال نائية قبل ربع قرن)، شفرات المروحة تلف فوق عقله المخضوض، لم يكن يهجره إلا بعد ظهر كل يوم بعد تردد ليلحق بقطار الأنفاق ويعبر النهر إلى البيت حيث يخلع هناك أشياءه الغربية التافهة ويعلق سترته على مشجب حتى اليوم التالي ليبزغ مثل كلارك كنت وعيناه ترمشان من الشمس. عند العصر كان يرش الماء فوق باحة البيت يومياً وهو في جلابية مجعدة لترسل رائحة التراب الرطب المنبعثة في منخريه رعشة في حبله الشوكي. هذا ما ينتمي إليه، هذا التراب، مع تلك الماعز التي تثغو لكنه في الصباح التالي، يضع البيركلين على شعره ويضع حول رقبته الياقة القاسية وربطة العنق ليتجه إلى مكتبة عابرا النهر ثانيةً بحثاً عن العالم الحديث.

كانت الحركة السودانية بحاجة إلى صوت والى من يمكنّها من تشكيل نفسها بطريقة يفهم بها العالم ما تريد إنجازه ولماذا. كانت الطريقة الوحيدة للحصول على صوت هي تعلم الكلام والخطابة لهذا تصرف بطريقة مثالية وأكمل منهجاً دراسياً بالمراسلة وفاز بمنحة للسفر إلى البلاد التي سيتعلم فيها مهنة الصحافة.

كانت إنكلترا لغزاً بالنسبة له. لم يكن يعرف أي شيء عن وجبات الفطور المقلية وصاحبات الأراضي والمطر المصحوب بالثلج، المطر الذي يهطل لمدة أسبوع دون انقطاع والرطوبة التي تنخر العظام ووحشة السهر في السرير. كان يعرفها بلاد روسكين وجون ستيوارت ميل وكيتس، أي أن كل ما عرفه عنها جمعه من صفحات الكتب ووصل ليكتشف نفسه في بلد غريب يسخر الناس فيه من ملابسه التي طلبها بناء على كاتلوج لومبارد.

(ما الذي جعله يرغب بالذهاب إلى تلك البلاد؟) سألتني حبوبة بعد سنوات. (سوف أخبرك. سألته ما الذي كان سيفعله هناك باعتقاده؟ من طلب منه بأن يغيّر العالم؟ ولماذا؟ ومن أجل من؟ الأشياء

على ما هي عليه لأن الله خلقها هكذا. لم يكن لديه جواب أبداً. ما الذي جعله يقرر الذهاب؟ كيف دخلت الأفكار إلى رأسه؟ سوف أخبرك الآن، كرة الغولف تلك أفسدت دماغه بعد أن ضربته.) لقد انحرف خط مسار العائلة بشكل دائم بسبب تنقلات والدي التائهة. لو لم يذهب إلى انكلترا لما إلتقى بأمي ولا كنت أنا في تلك المنطقة، ولم تدر هذه المحادثة بيننا، أليس كذلك؟ تمطقت حبوبة بلسانها وقالت بأن الله أرسل لها أحفاداً بارعين وأنني كنت سأظهر بطريقة ما. ربما مختلف قليلاً، ربما بدون جزة الشعر الكثيفة تلك التي على رأسي، لكنني كنت سأأتي.

كنت طفلاً في الثالثة عشر من العمر، طالباً في المدرسة، أحاول أن أفهم المخطط الكلي للأشياء. المشكلة أن العالم الخارجي كان لغزاً بالنسبة لي، جزء من غرابته ناتج عن كوننا لا نملك تاريخاً على ما يبدو. لدينا قصص لكن ليس لدينا متاحف أو كتب نضعها فيها. كيف اجتمعنا هنا وهذا المجمع الهائل من الجداول المائية بدا سؤالاً لم يهتم أحد على وجه الخصوص بطرحه. ما الذي حدث أولاً؟ التاريخ، الأحداث التي زلزلت الأرض، الناس الآخرون المتورطون، الأماكن الأخرى. أي تسلسل غريب للقوى التي أدت إلى ظهور هذا الخليط الشعبي الذي يدعى بالأمة؟ لقد تعلمنا في المدارس بأن التاريخ يتألف من كلمات أجنبية مثل فيردوم ومعاهدة فرساي واوستشويتز وبيرل هاربور وهيروشيما وديان بيان فو، تلك المروج الخضراء والسرادق. هؤلاء الرجال أصحاب القبعات الواسعة والسراويل القصيرة. لقد حفظنا كلمات مثل السياسية الواقعية وفون بيسمارك والعملية العاجلة من أجل أفريقيا دون أن نفهم حقيقة أثرها علينا.

كنا نحدق من نافذة الصف المدرسي بالشمس القاسية، قطعة من جريدة مهملة تطايرت على الباحة الترابية وتساءلنا ما الذي يخططون للحصول عليه هنا. وبدا لنا أنه من الغرابة والسخف أن يكون لكل هؤلاء الرجال الغرباء الذين يضعون صفوفاً من الأوسمة والشوارب الضخمة علاقة بوضعنا الحالي. (إنكلترا بحاجة لكم) نقرأ في العناوين وكان الرجل ذو الشارب الكبير يشير إلي. كان (فاشودا) اسماً مهماً تعلمنا عنه أيضاً، إنه المكان الذي حضر فيه الرجل ذو الشوارب نفسه، اللورد كيتشنر إجتماعاً مهماً مع رجل فرنسي يدعى (مارشاند). هناك صورة للاثنين وهما يجلسان على متن باخرة في النيل عند الغروب ويقرران مصيرنا.

لم يكتب لتاريخنا بأن يكون سرداً خطياً مستقيماً، بل في سلسلة من الالتواءات والحوادث المنفصلة دائماً، أودت بنا ظروف عشوائية لنكون أخيراً مجموعة من الأطفال المزعجين من ذوي العادات البغيضة. لا أحد لديه الوقت الكثير كي يهتم بنا ولا حتى المعلم الذي كان يقف وهو يدير ظهره لنا لينكش أنفه دون أن نضايقه.

(وهكذا أراد فرانتس جوزيف أن يحمي إمبراطوريته هابسبورغ بالزواج من إليزابيث، أخت جوهان ستراوس. نعم ، ما هي؟ يدي، رغم ترددي بأن أجذب الانتباه إلى نفسي، ارتفعت من تلقاء ذاتها. قف ! من هي؟ انتهى من حفر أنفه بإصبعه الصغير وتفحص هذا التنقيب بدقة بينما كان ينتظرني كي أفسر له سبب قطعي لهذا الإيقاع وجذب انتباهه بعيداً عن النافذة إلى هؤلاء السبعة وأربعين مخلوق من الصغار البائسين.

(سيدي، جون ستراوس مؤلف موسيقي. زوجة الإمبراطور فرانتس جوزيف كانت أخت لودفيغ بافاريا.) لقد قرأت ذلك في كتيب مدرسي في البيت. لم يكن يطق الإجابات.

شعرت بالرضا من نفسي لثانية قصيرة بعدها ضربت رقبتي من الخلف كرة مصنوعة من الورق قذفت بقطعة مرنة من المطاط وتركت أثراً حاداً وطاعناً وكأنها لسعة دبور. يفترض بأنني تعرضت لهجمة، رفعت أكتافي للأعلى وعصرت وجهي ولطمت رقبتي. نظر إليّ المعلم عابساً. من الواضح أنني كنت أستغبيه. إن كنت معاقاً أم لا، فقد تناول ممسحة اللوح التي كانت عبارة عن قطعة خشبية بحجم القرميدة ثبتت عليها قطعة من اللباد بمسامير، وقذفني بها. اصطدمت بقوة وضربت الشخص الجالس خلفي، ولد أسمه جرجيس، الذي أشك بأنه أطلق كرة الورق علي. إن سيرتي المهنية كمؤرخ انتهت أمامي.

(وهل تفرق لك أخت من كانت هي على كل حال) سأل جرجيس حين حشرني في زاوية بعد ذلك، وهو يفرك الكدمة التي على عينه ويفتش عن صندويشتي التي صادرها تعويضاً عن الألم الذي سببته له. لقد كان محقاً. لم يكن للتاريخ الأولوية. علم الجبر وقانون فرداي لهما الأولية. نحن بلاد نامية لهذا ندرس علم التربية المدينية ونحفظ عن ظهر قلب كم طناً من الأسماك استخرج من النهر في السنوات العشرة الأخيرة وإحصائيات مشابهة للذرة الحلوة والحبوب والفول السوداني وقصب السكر والسمسم والقطن. تعلمنا عن أهمية الجسور والسكك الحديدة والسدود. كانت الرسالة واضحة، يجب أن نصبح مهندسين وأطباء لنساعد هذه البلاد لتقف على رجليها، ونحولها إلى سلة إفريقيا كما نص الشعار المطروح، ما الفائدة من النظر إلى الأحداث الماضية؟ لقد تم حذف كل المواد الإنسانية قبل أن نصل إلى المرحلة الثانوية بما فيها الجغرافية لهذا لم يكن لدينا أي فكرة عن كيفية وصولنا إلى هذا المكان الذي سنبدأ منه.

كان المكان الذي حصلنا على تعليمنا الحقيقي عن العالم منه منبع ضوء مترجرج يعرض على جدار مبيض في مسرح في العراء بأسفل طريق النهر. لم تكن أمي تدخن أو تشرب الكحول ولم تتعاطى المخدرات ولم يعرف عنها أنها قامرت ولعبت الروليت أو البوكر. كانت نقيصتها الوحيدة هي السينما.

في النهار، كانت سينما النيل الأزرق وهي عبارة عن شكل رباعي من القرميد المبيض تؤمه أوراق الأشجار الميتة والسحالي وعشرات المقاعد المعدنية التي خيطت بحبال بلاستيكية كانت ساطعة لكن لونها خبا منذ زمن بعيد ومطتها الشمس إلى حلقات متصدعة من السباغاتي المقسى. في الليل تتحول إلى نبع من السحر والإثارة، يومض في الظلال المورقة مختبئا بين أشجار النيم المخيمة. مقارنة بالمؤسسات الصاخبة في مركز المدينة، كان هذا المسرح هادئاً ومحترماً، وهي من الأماكن التي يمكن أن تأخذ إليه أطفالك. لقد استقطب نخبة من المشاهدين: طلاب من النزل الناعسة للجامعة القريبة وحرفيون مثقفون مع عائلاتهم يرتدون كلهم أفضل ثياب يوم الجمعة، بالإضافة إلى المغتربين غريبي الأطوار المتشوقين للاختلاط بالسكان المحليين، الذين كانوا يمسكون بعلب الايروسول الطارد للبعوض.

كانت أمي تعرف كل العاملين بالشكل والكثير منهم بالاسم وكانوا يسألونها عن زوجها بطريقة مؤدبة كل مرة، مرتجلين بطريقة مسرحية لمجاملة هذه المرأة الإنكليزية التي تأتي كل أسبوع مع أطفالها الثلاث ذوي الشعور الطويلة والفوضويين، أنا وأختي ياسمينة وأخي ميوك، إسمه الحقيقي محمود لكننا لم نخاطبه بهذا الاسم أبداً.

(ما شاء الله، مساء الخير سيدة ظاهر. ألن ينضم إليكم السيد ظاهر؟)

(ليس اليوم كما أخشى)

(إنه يعمل بجهد كبير، ليس لديه لحظة واحدة لنفسه)

كانت تبتسم وتقول ربما في المرة القادمة. لم تخبرهم أبداً بأنه في السجن رغم أنهم يعرفون مكانه على الأرجح. كان ذلك جزء من التمثيلية. المرة الوحيدة التي أتذكر بأن أبي ذهب فيها معنا ، إلى فيلم ايلدورادو بطولة النجم جون واين ودين مارتن وانقطع العرض بسبب عاصفة رملية هبت علينا من الأعلى وجعلتنا نسعل ونخرج لاهثين من السينما. لم نستطع رؤية الشاشة حتى حزمة الضوء الصادرة من جهاز العرض احتجزتها دوامة من الغبار كـأنها جنيات متشابكة.

بأمل ضعيف بعرض شيء جديد (جديد مصطلح نسبي لأن أغلب الأفلام تصلنا بعد خمس سنوات) كانت أمي تحشرنا في المقعد الخلفي للسيارة الفولسفاغن الخنفساء القديمة البالية. لونها أحمر باهت بلون الكركديه. كنا ننطلق بها في قعقعة بهيجة من صادتها المرتجفة. أزمنة البراءة. لم يكن هناك قلق من أن يحتوي أحد هذه الأفلام شيئاً يجب أن لا نراه أو بمعنى أدق لا نفهمه. لم توجد هناك هيئة رقابة أبوية بل آباء قرروا أن كل ما دخل إلى البلاد غير ضار. كانت هناك رقابة وطنية تقدر إن كان الفيلم قد دخل وجالت طبعاته في أغلب بلدان الشرق الأوسط مسبقاً. في الوقت الذي وصلنا فيه يكون قد قطع ووصل لدرجة تترنح من القرف في النهاية كأنك شاهدت الفيلم وأنت متمسك بعمود أفعوانية.

هناك عنصر منشق وفوضوي في جنون أمي. لقد افتقدت حركة الهيبيين. افتقدت روستوك وتجربتها مع الجنس والمخدرات وجيمي هندريكس وغيره، بسبب العمر والبعد الشاسع لم أعتقد أنها أرادت أن تتدحرج في الوحل وهي عارية ولم تدرك ما كان يجري فعلياً لكنها تعاطفت مع تفكيك الإجماع. كانت الخرطوم بعيدة جدا عن كاليفورنيا لكنها بذلت ما بوسعها. صبغت ملابسنا ووقفت مرة خارج السفارة الأمريكية تحمل لوحة إعلان كتب عليها (اتركوا فيتنام للفيتناميين) فتحلق حولها حشد من المتفرجين الفضوليين وهم يتعجبون من السبب الذي يجعل هذه المرأة البيضاء المجنونة تهتم بشيء يحدث في غابات جنوب شرق أسيا. حرق حمالة الصدر لم تكن قضية شرف في إفريقيا في سبعينيات القرن العشرين.

لقد قالت مرة أن (الناس الذين يخشون الله يخشون الحياة أيضاً.) لكني لم أتأكد مما قصدته بالضبط. كانت تلك واحدة من المناسبات النادرة التي شاهدتها وهي تشير إلى شيء له طبيعة دينية. كانت السينما كنيستها ورهانها الحقيقي في الحياة. كان الناس غير مثاليين ولديهم شكوك ويأخذون قرارات غامضة وضعيفي الإرادة ويعيشون في عالم غير عادل. للرب أسئلة كثيرة ليرد عليها ومنها الزوج الذي سُجِنْ لأنه عَبَرَ عن فكره (الأفكار لم تقتل أحداً أبداً، من يخاف من الأفكار هم الناس الذين يقومون بأعمال القتل.)

ليس هناك مكان لتوسيع الفكر أفضل من السينما. لقد شاهدنا فيها لأول مرة باريس وفينيسيا وروما وصوفيا لورين بشفتيها المغريتين. لم أتخيل بأن فيلليني أثار غضب ايطاليا الكاثوليكية بسبب صنعه لهذه الأفلام الجريئة. كانت هناك شوارع لندن وحافلاتها ذات الطابقين وسيارات الخدمة السوداء. تنزهنا في تلال سان فرانسيسكو مع ستيف مكوين في (بوليت) وتجولنا في نيويورك مع وودي ألان.

كان الأمريكيون مهووسين بالكوارث والزلازل وحرائق الأبراج وسقوط الطائرات. أما البريطانيون فقدموا دراما هادئة محملة بالأزياء الغربية والكثير من تاريخ القرون الوسطى وعدد كبير من القلاع الكئيبة التي لم تكن كافية للمبارزات. أردنا كابتن بلود وحصلنا على النسخة الايطالية. قام ريتشارد هاريس بدور كروموبل المخبول(تميز عرضه بزمرة من المغتربين الانكليز الجالسين على الشرفة فوقنا وظلوا يهتفون وهم واقفون (أطال الرب عمر الملكة) حتى نهاية الفيلم. أو بيتر اوتلي في فيلمه الكئيب أسد في الشتاء. كنا نأكل بذور البطيخ المحمصة بأسناننا ونكسر البندق بأعناق قوارير الكولا الطويلة ونصلي من أجل معركة ونسأل بعضنا البعض عن تطور الأحداث فيه، هل هناك حبكة؟

(هي ليست زوجته أيها الأبله، فهي متزوجة من الرجل الآخر)

(كلا، هي ليست متزوجة!)

كانت الأفلام الفرنسية مختلفة. شخوص تروفو الغريبة المألوفة التي تتحدث لساعات بلا معنى مفهوم وآلان ديلون المتأنق دائماً في بورسالينو أو الدائرة الحمراء. تجولنا وأكتافنا محنية وأيدينا في جيوبنا وتمنينا لو كان لدينا عذر للبس المعاطف المطرية. الأحجار المدورة الملساء المصقولة والأرصفة التي كانت تردد صدى أعقاب الأحذية الراكضة في الظلام والمسدسات المدسوسة في جيوب المعاطف والأشخاص الذين يقفزون على ومن سيارات الستروين المنطلقة بسرعة، طرق كؤوس الشراب المضحك والغريب في البارات الذي فسروه لنا لاحقاً بأنه مصنوع من عرق السوس لكن لم يصدقهم أي منا. كانت تلك الأفلام مثيرة وشكلت إنعطافاً وجودياً غامضاً، رغم أنها كانت قبل أن أتمكن من تهجئة كلمة وجودي بزمن طويل. كانت أفلاماً كئيبة مليئة بالدوافع المعقدة، تتركنا نفتح عيوننا ونغمضها في القسم الأمامي المضاء بمصابيح النيون في الفناء ونحن نتمتم،

(لماذا فعلها؟ لماذا قتلها؟)

(لا أحد يعرف، لكنه كان فيلماً جيداً، أليس كذلك؟)

(لا تتظاهر يا ياسين بأنك فهمت المحور الذي يدور حوله الفيلم)

ربما لم نفهم كل ما شاهدناه لكن لم يكن ذلك مشكلة بأي حال.

كانت السينما المكان الأقرب الذي يمكننا فيه مشاهدة أبو الغرائب كلها، الجنس (وهو يحدث). لم نشاهد الكثير من الصور على الشاشة لأن هذه القطع الصغيرة سلختها ومزقتها إلى أشلاء مقصات هيئة الرقابة السريعة والحادة الممتدة من طهران إلى تيمبكتو.(يقترب الممثل من الممثلة. تغمض عينيها وتقدم شفتيها. لقطة قريبة و ...وكلانك! ونعود إلى مطاردة القوارب السريعة). كانت السينما مكاناً محترماً يمكن الذهاب إليه في تلك الأيام. كان العازبان يأخذان غرفة كاملة من أربعة مقاعد علماً أنهما لا يستعملان سوى اثنين منها. أما البخلاء فيأخذان مقعدين فقط ويخاطران بالانضمام إلى اثنين من الغرباء وأسوأ من ذلك قد يجدان صبيين مزعجين معهما يشربان الفانتا بمصاصات القش ويصدران الأصوات. شاهدنا هؤلاء المبذرين وهم يطقطقون بأصابعهم ليأتي النادل متزحلقاً على طول الممر الذي بين المقاعد في جلابيته البيضاء الطويلة ليفتح لهم المشروبات الغازية التي يحملها في صندوق على ظهره ثم يضع القوارير على طاولة خشبية صغيرة متأرجحة بينهما. كان هذا يحدث وسط مشهد حاسم مما يوضح بأن الغرض الرئيسي لم يكن مشاهدة الفيلم أبداً وإنما

الجلوس معاً في الظلام. كنا نمط أعناقنا مفتونين. كانوا يتكلمون بأصوات ناعمة بين الفينة والأخرى ويميلون نحو بعضهم حين يهمسون مما كان يشتت انتباهنا أثناء الفيلم. من الواضح أنهم لم يكونا متزوجين فأبي وأمي كانا متزوجين ولم يرتقيا إلى هذا المستوى من الهمس والضحك فقد فضل والدي نوعاً آخرا من التواصل، الصراخ بصوت عال يبدو عاديا كما لو أن الشخص المخاطب كان في الطرف الآخر من البيت. كلا، لم تكن تلك النسوة زوجات. كن يلبسن ثياباً شفافة، يلفن طبقات من القماش حولهن بشكل أنيق كالغيمة ويسدلن شعورهن على أكتافهن، وكانت ملابسهن الداخلية بلون المنغا والرمان وحين يقتربن يمتلئ هواء الليل بانفجار قوي من الروائح العطرية المسكرة.

(توقف عن الحملقة يا ياسين) كانت أمي تتمتم، وهي تلكزني بإصبع قدمها من خلال الشرائط البلاستيكية للكرسي الذي أجلس عليه.

(هجوم غازي!) يصيح ميوك حين تندفع غيمة معطرة باتجاهنا. يشبك يديه فوق أنفه وفمه حتى يلتفت كل من في السينما وينظر إليه. كان يظن نفسه مسلياً دائماً وكانت ياسمينة تلتفت للمرأة بابتسامة اعتذار بينما ألكز ذراع أخي بحدة. لم يكن لدى ميوك لباقة أو ذوق.كان يحاول جذب الاهتمام إلى نفسه دائماً ولديه عادة غريبة في الهرب. كان يفعل ذلك في كل مرة تكون فيه الأشياء ضده. يذهب من البيت إلى الشارع بعد أقل تأنيب سواء كان الوقت ليلاً أم نهاراً. يبدأ بالركض فوراً ودون تردد. في إحدى الليالي، حين خرجنا من السينما، قيل له بأن لا يأخذ بوظة أخرى، لم يتردد وذهب. لم تكن في الطريق أضواء، فلم يكن خلف دار السينما سوى قليل من الأشجار والكثير من النباتات المثمرة وكانت إثيوبيا هي المحطة التالية التي نعرفها. كان علينا أن نطارده بالسيارة مسافة ربع ميل بهيئته النحيلة وسرواله القصير الفضفاض وشعره الأكث البادي تحت ضوء السيارة الأمامي المتراقص وأمي تقسم بأسنانها المصطكة بأن تخنقه عندما تمسك به وكنت أتساءل دائماً إلى أين سيذهب باعتقاده.

مهما كانت انطباعاتنا لما وراء العالم الذي عشنا فيه فقد جاءت من موشور جهاز العرض، من خلال ذلك الشريط السيليلوزي الذي يدور بسرعة، رأينا الحياة كما يعيشها الناس الآخرون البعيدون وتآلفنا معهم كلهم. ذلك هو المكان الذي إنتمينا إليه، هناك بجانب جاك نيكلسون وحفارات البترول، كنا نخوض في النهر مع جون فويت وبيرت رينولدز (وما فعلاه بالضبط مع الشخص الذي كان سرواله معلقاً على جذع شجرة). كنا نلعب لعبة. لعبة اللحظات الكلاسيكية، نحاول فيها أن نتفوق على بعضنا بتذكر مشاهد معينة من تلك الأفلام.

(أين ارتفعت الأيدي فوق الماء في فيلم الولادة؟)

(أف، راودني كابوس دام أسبوعاً بعد ذلك.)

(أين طفا الرأس من كوة السفينة في فيلم الفكوك؟). شاهدنا فيلم الرعب عن أسماك القرش قبل أن يسمح لنا بذلك بوقت طويل وكنا محظوظين لأنه لم يسبب لنا ضرراً على مدى الحياة. كان أحد الأفلام القليلة التي ندمت عليها أمي، فقد جلست طول عرض الفيلم وهي تدمدم لنفسها (كان يجب علينا أن لا نأتي، عرفت ذلك)

(غطسّه مرة أخرى يا سام، حيث رمى بشريط التسجيل في الغرفة.)

(أين خلعت باتش كاسيدي ثيابها؟)

(لا تكن مثيراً للقرف يا ياسين)

في الوقت الحاضر، حين أرى اللاجئين وهم يتمسكون بحياتهم في مياه البحر الباردة أو يعلّقون حياتهم بألواح خشبية أو يتدلون من سفينة صيد صدئة غارقة في البحر الإدرياتيكي أو تساعدهم أفواج الإغاثة وهم يرتجفون على شواطئ إسبانيا الجنوبية، أعرف أن ما يجعل هؤلاء الناس يضعون حياتهم على راحات أيديهم ويخطفهم بصورة سريعة ومنفلتة إلى العالم كالقنابل بدون شبكة أمان ليس مجرد الإغراء بحياة أفضل وإنما الحلم الملون الذي انغرس في رؤوسنا قبل أن نتعلم كتابة أسماءنا بوقت طويل.

الفصل الثامن

في ترير، أخبرت ليو عن اتيلا، ملك قبائل الهانس الذي نهب أقدم مدينة رومانية في أوروبا قبل خمسة عشر قرن. لقد سمع ليو باتيلا. جلسنا وأكلنا البوظة. حبس الإمبراطور فالنتاين أخته المشينة هونريكا حين اكتشف بأنها اتخذت عشيقاً من الخدم العوام (لم استفض بهذه النقطة) فانزعجت من أخيها وأرسلت خاتمها إلى عدوهم المخيف والخطير وخطبته لنفسها. عَبَرَ اتيلا نهر الراين متشوقاً وهتف جذلاً بأنه قادم من أجل ما وعد به فقط لكنه واصل لينهب القسم الأكبر من أوروبا الغربية.

لكن عَدَ ذلك لم يحدث الكثير في ترير، تجولنا في الشارع نبحث عن تحويلة مرورية. توقفنا أمام واجهة متجر ونظرنا إلى الملصقات، كانت عبارة عن نسخ لأعمال فنية تغطي كل شيء على ما يبدو، من أندي ورهول إلى الفنانين الانطباعيين. في الداخل، قلبت متأنياً الأوراق البلاستيكية التي وضعت بشكل كتب هائلة مفتوحة في وسط صالة العرض. كان ليو ينظر إلى الرجال الآليين وسفن الفضاء وأنا جدت نفسي أحدق بلوحة لسيزان، جبل النصر المقدس. كان المنظر الطبيعي منقط بنتوءات لونية أضفت عليه إحساساً بالانسجام. كان سيزان يحاول أن يرسم ما يلاحظه في المنظر ولم يصور ما كان موجوداً فيه فقط لكنه فعل ذلك بفرض إحساس بالنظام. كانت الخدعة في الطريقة التي وضع فيها مزيج الألوان مع بعضها البعض. في النظرة الأولى، يبدو وكأنه نثر حبيبات صغيرة من الألوان على القماش لكنك لا تدرك إلا بأنك تنظر إلى صورة متكاملة. هناك شيء في الطريقة التي أضاف فيها تلك القطع الصغيرة التي أوقفتني إلى أن شد ليو ذراعي.

(إنها تحدق بنا!) قال هامساً وأشار من وراء ظهره إلى حدبة المرأة التي كانت على طاولة الحساب. نعم كانت تفعل. قلبت صفحتين للأمام ثم توقفت.

(ايكاروس لبروغل)

أَمَالَ ليو رأسه جانباً ليرى بشكل أفضل (الذي ذاب جناحاه؟ لا أراه في أي مكان؟)

(كل ما ترى منه قدماه فقط) قلت مشيراً إلى الزاوية اليمنى للوحة حيث كانت هناك لطخة صغيرة. حبا ليو تقريباً داخل الكتاب ليلقى نظرة أقرب فقررت بأن وقت رحيلنا قد حان.

(لكن لماذا سميت بايكاروس إن كان لا يرى إلا بصعوبة؟)

(حسناً) أخذتُ يده، وقدته نحو الباب (عنوان اللوحة يخبرنا عما يفكر به الفنان.) نجحت في الابتسام لفتاة المحل حين تجاوزناها لكنها تظاهرت بعدم الاهتمام. (ربما كان المعنى أننا منشغلون جداً بما نقوم به لدرجة لا نلاحظ فيها شيئا مميزاً كسقوط رجل من السماء مثلاً)

(ذلك غريب تماماً)

(حسناً، بالضبط. لكن افترض بأن الحقيقة ليست أنهم لم يلاحظوه وإنما لم يريدوا أن يلاحظوه)

(لماذا لم يريدوا أن يلاحظوه)

(لأنهم يملكون كل ما يحتاجونه. الراعي ينظر إلى السماء، المزارع يحرث أرضه وهناك رجل يصيد السمك أيضاً، كما أعتقد. أنت مرتاح، حين يكون لديك كل ما تحتاجه فإنك غير مضطر لأن تعرف بمشاكل الآخرين. من الأسهل غض النظر.)

فكر بهذا برهة ثم التفت إلي.

(كيف يمكنك معرفة ما كان يفكر الفنان فيه قبل مئات السنين؟)

(أنا لا أعرف)، ضحكت قائلاً.(لا أحد يعرف. لكن المغزى هو بعد كل تلك السنين ونحن لا نزال نفكر فيها. لهذا يجب أن يكون هناك شيئاً)

قررنا عدم البقاء في ترير وبعد النظر إلى الخريطة معاً اقترحت لوكسمبورغ.

(لم أذهب إلى هناك قط) قلت.

(ولا أنا أيضاً) قال ليو. وهكذا اتفقنا عليها.

ما إن أصبحنا على الطريق حتى بدأ المطر بالهطول. خيَّمت غيوم ثقيلة فوقنا وكان الطريق ضيقاً ومتعرجاً لهذا قررت بأن نجد فندقاً قريباً حال وصولنا إليها رغم أن المسافة لم تكن بعيدة. هناك شق مفتوح في الأرض في مركز البلدة وهناك كهوف على جانبي الطريق كان سكان العصور القديمة يضرمون فيها النار حولت إلى مطاعم ونواد ليلية. اصطفت طاولات ومقاعد على طول مصطبة محاطة بحاجز فوق إشارة ضخمة ثبتت ببراغي على وجه صخرة. التجأنا هرباً من المطر الثلجي تحت شجرة لنأكل صندويشتينا ونحدق بالطقس الكئيب والهوة التي تحتنا. كان العيش في الكهوف في العصري الحجري شيئاً روحانياً كما يجب. توقف رجل ليسمح لكلبه بالتبول بجانب منضدتنا.

(تصور فقط) همس ليو، وتوهج وجهه بهالة مضيئة منعكسة من سترته الطويلة ذات القبعة (لو كانت الكلاب تطير كالطيور لأصبح للمكان رائحة كريهة).

كانت أرجلنا متيبسة وخرقاء بسبب السيارة مثل أرجل التطويل الخشبية. بعد الغداء، تمشينا ونحن نترنح بطريقة جامدة وسال لعابنا على الحلويات المعروضة فاستسلمت وذهبنا إلى الداخل لنخرج بواحدة بحجم حذاء رجل لكل واحد منها، محشوة بكريمة الفانيلا تكفي لخنق حصان. بعد أن مشينا مبتعدين، ضحكنا على محاولاتنا بأن لا نلطخ وجهينا بالكريما. إلتفت إليّ ليو وقال:

(ربما علينا أن نكلم أمي بالهاتف ونخبرها عن المتعة الكبيرة التي نحن فيها)

هززت رأسي وقلت (لكن ينبغي علينا أن نفكر أين سننام أولاً)

في الوقت الذي وجدنا فيه مكاناً نقيم فيه وبعد أن نقلنا أشياءنا إلى الغرفة حل المساء فشعرنا بالجوع مرة أخرى. قريباً من الفندق، هناك مطعم فطائر وحان دور ليو للاختيار، يفترض بأنها هولندية لكن طعمها عادي جداً. استعد ليو ليلتهم طبقاً كبيراً مغطى بأنواع مختلفة من المواد اللزجة، للكلام من الجانب الغذائي، ربما لا ينصح بها، لكنه بدا سعيداً وحين غادرنا بدا متعباً لذلك أظن بأنه للتساهل فوائد قليلة.

عند عودتنا إلى الفندق لاحظ ليو بأن محل الألعاب يحتوي على نفس تلك التي لديه في البيت. (أنا شكاك. هذا دليل آخر على رغبة الشركات المتعددة القوميات في محاولتها إلى حكم العالم، محاولة

إلى جعل كل أطفال العالم يرغبون بنفس الألعاب والدمى).

(ليس كلهم يا أبي، فبعضهم لا يستطيع توفير ثمنها)

(صحيح) توقفت لأصحح (ليس كلهم) شعرت بوهج مخزي، لدي ابن بضمير حي. لا استطيع الادعاء بمسؤولية هذا، لكن من الجيد معرفته. حين كنت طفلاً، كانت الدمى التي أتذكرها تنتج في الصين الشعبية. كان لدينا الطائرات والقطارات التي كانت ممهورة ب"صنع في الصين" وسيارات الشرطة المعدنية برجال شرطة مطاطيين بدو مثل الغرباء وليسوا كشرقيين. تنوح أبواقها مثل تلك التي في مسلسل الخمسينيات "المحظور لمسهم". كل ما رأيناه على التلفزيون وفي السينما كان قديماً ومهملاً. كنا لا نزال نشاهد آنذاك "اهرب بحياتك" بعد أن توقف بن غازارا عن العرض وأصبح المسلسل من التاريخ في كل مكان على ظهر الكوكب.

يمكن تفكيك الألعاب الصينية إلى صفائح مميتة من القصدير في دقائق وذلك بلي الرزات التي تثبت الإطار إلى الخلف. يمكن تهيئتها لكل أنواع الاستخدام. في كل لعبة محرك احتكاك وعجلة دوارة من الرصاص تصدر شرارات يمكن تحويلها إلى أداة تعذيب حين تقربها من وجه شخص آخر كأخيك الصغير أو صغير في الشارع يرمي الأحجار من وراء ساتر بابه الأمامي. إن بساطة وتنافر هذه الألعاب عرضها إلى إصلاحاتنا الخيالية.

(أفضل الألعاب تلك التي تصنعها بنفسك) قالت حبوبة وهي تحذرنا جدياً وتهز رأسها باشمئزاز من ذلك الاستخدام العبثي للنقود.

لقد كبرنا أنا وياسمينة وميوك ونحن نتلهف إلى كل أنواع الأشياء التي لم تكن بمنالنا. خزنا الكاتولوجات وسال لعابنا على البروشورات وأحببنا أن يذهب والدنا بعيداً في إحدى رحلاته ليجلب لنا شيئاً مختلفاً (كانت رحلاته عادة إلى السجن وليست إلى خارج البلاد طبعاً). كانت الألعاب الغربية نادرة حتى أنها أصبحت هاجساً لدرجة أن ياسمينة حولت لعبة أعطيتها لها إلى صنم مقدس، تركتها في علبتها مخبأة في خزانة الثياب لمدة سبع سنوات، كانت تخرجها كل مساء وتلمس العلبة حتى أصبح الغلاف ممزقاً في النهاية لكنها لم تستسلم وتنزله. كانت هناك فتحة في الغطاء يمكنها إدخال إصبعها منها لتلمس النسيج الاكليركي الأحمر بطريقة غير مواتية.

الآن، بالنظر إلى أسعار الأشياء التي كانت عين ليو عليها، بدأت أفهم جمال منطق حبوبة. إنَ دق عدد من المسامير وتثبيتها على قطعة صغيرة من الخشب لصنع بندقية ستان مُرْضياً ومقنعاً أكثر من أي شيء يصنعه هؤلاء الأشخاص الأذكياء في معامل الألعاب بقوالبهم البلاستيكية، كلما جاهدوا للوصول إلى الكمال زادت خيبتهم وفشلهم. لكنهم أولاً وآخراً هم يحاولون بيعك أحلامهم، التي ليست بالضرورة تتناسب مع أحلامك) أصغى ليو على مضض دون أن يقتنع تماماً.

نمنا في أسرة وعرة على نغم مياه جارية ظننت في البداية بأنها صوت المطر لكن تبين فيما بعد بأنها صوت حوض المرحاض. كانت أنابيب المياه تقرقر باستياء حين استلقيت مستيقظاً أشاهد نموذجاً برتقالياً عنكبوتياً من المطر وأنوار الشارع من خلال الستائر المبهرجة الرخيصة. فقدت الأثر المهدئ لخرير جدول الليلة الماضية وتساءلت عن عدد الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينظرون إلى نفس المنظر وأين يمكن أن يكونوا الآن.

تركنا أمر رحلة التفرج على الأماكن السياحية في اليوم التالي تابعاً للطقس. كنا متوترين ومشتاقين للتحرك. مشى ليو حول السيارة ورسم أشكالاً في الرطوبة التي على النوافذ التي يفترض به مسحها وكنت أشتم وأتمتم حين أنّ مُشَغِلْ السيارة دون أن يعمل. أخيراً نجحت أجزاء السيارة في إيجاد بعضها البعض في اللحظة المناسبة وبقبق المحرك وعاد إلى الحياة. شَعرت بإحساس من العرفان الديني تقريباً. لَكَمَ ليو الهواء تعبيراً عن النصر وصاح "نعم" إيماءة إلتقطها من التلفزيون.

بدت البلدة كئيبة وعليلة تحت ضوء النهار. تدفق الضوء مثل مياه البحر بين الأبنية القديمة المخيمة، ملمحاً إلى حياة أفضل في مكان آخر. تعرجنا عبر غابة من أشجار البتولا إلى طريق مستقيم ومستوي وبدأت بالاسترخاء. كان المطر يتوقف ويبدأ بالهطول ثانية والشمس تشرق في نوبات عامية للأبصار والطريق أملس بهسيس الإطارات المبللة.

قبل بلدة ميتز بمسافة قليلة تقع كاتدرائية سان ايتان الشهيرة بنوافذها الزجاجية الملونة-6500 متر مربع منه وقد أطلقوا عليها اسم "مصباح الرب". تحمل ليو ثرثرتي كدليل سياحي في صمت.

(أنت لا تبدو مهتماً فعلياً أليس كذلك؟) هز كتفيه. (لا ألومك. لكن هذا هو التعليم الذي لا يمكنك تعويضه والطريقة التي ننظر بها إلى العالم) كان الحديث صعباً وأنا أحاول التركيز في إيجاد الطريق الذي يوصلنا إلى المكان الذي نريده في نظام مروري يتضمن عدة مسارب لا معنى لها. عندما ركنا السيارة جانباً تأكدت بأنه تضايق من شيء آخر.

(لا افهم لماذا لم نستطع الاتصال بأمي من الفندق)

(أخبرتك بأن هواتف الفنادق باهظة الكلفة. سنهتف لها فيما بعد. أعدك بذلك)

متعشماً بهذه الفكرة قبض على يدي وركضنا عبر الساحة. كان أول شيء جذب انتباهه تماثيل الوحوش (كرغل-ميزاب) فقد كانت تلك الضيافة غير متوقعة. أمضينا وقتاً طويلاً في التجول في الكاتدرائية، رؤوسنا للوراء واصطدمنا ببعض الأشخاص الذين كانوا يحملون كاميراتهم. نظرنا للأعلى إلى الأشكال الغريبة

(كما لو كان القصد منها إخافة الناس وإبعادهم لكن لماذا؟)

(جاءت كلمة "كرغل-ميزاب) من كلمة "يقرقر") غامرت وقلت. نظر إليَّ بشزر لكنني رفضت تغيير رأيي (تلك إحدى النظريات. إن الضجيج الذي تصدره حين يفرغ ماء السطح عبرها وهي تشبه كائنات الكمير الأسطورية التي إعتقد الناس بأنها تبعد الأرواح الشريرة) فبدا يشك بأنني لم أكن أؤلف ذلك من عندي لقد سماها روسو "رافضو ذرائع البؤساء". إن الكمير وحوش أسطورية مهجنة من كافة أنواع المخلوقات.)

(مثلنا؟) قال ليو فجأة.

(كما تعرف أنواع مختلفة من الآباء والأمهات)-

احتجت إلى بعض الوقت للتفكير بهذا. هل نحن وحوش غير سعيدة؟ في مقال عن فيلم "ولادة أمة" لأي دبليو غريفين يخبرنا جيمس بولدوين أن "الخلاسي" جاء من الكلمة الاسبانية "مولو" التي استخدمت لوصف سلالة العرق المنحدر من ذكور قوقازيين وإناث زنجيات عبدات وظهرت الكلمة في القرن السادس عشر لتدل على وجود نظرية عرقية في تلك الأيام. البغل نتاج تزاوج بين

حصان وأنثى حمار، وهو عادة عقيم. بعد أن شعر أصحاب الرقيق المسيحيين بالذنب بسبب سلوكهم الوحشي والشهواني اتجاه ملكيتهم الوثنية المسلوبة الخيار في هذه القضية سعوا إلى غسل خطيئتهم والتشكيك بحصيلة انتهاكهم لقوانين الطبيعة والرب لذلك صوروا ذريتهم بتسميات مغلوطة، هجناء ومخلوقات غريبة وعقيمة لا تستطيع التكاثر أبداً. الخلاسييون في فيلم غريفين مخلوقات حزينة تتوق بشدة للشعب الأبيض ويشكّل وجودها تهديداً لشكل النظام الاجتماعي لذلك يجب أن تكون عقيمة. العرق هو آخر المحرمات الكبرى. أسطورة النقاء العرقي المقدس التي تجمع الكوكلاكس مع أمة الإسلام في تحالف غير مقدس. الشيء الوحيد الذي يطغى على كرههم لبعضهم البعض هو كرههم للأمة المهجنة المتزايدة التي تحيط بهم.

(هناك الكثير من الخرافات التي اختلطت بالأديان) قلت (رغم أن أغلب الناس في الكنيسة أو المسجد ينكرون ذلك. إن تلك الوحوش، الكمير ناتجة عن خوف سابق)

(أعطني مثالاً آخر)

(عصرت ذهني وأخبرته عن شيء تذكرته من زيارة لي مع ايلين إلى افيغنون. " البروبار" هي عصا اختبارية يستخدمها البابا للتأكد بأن طعامه غير مسموم فكان يجلس ويضع العصا على الطاولة بجانبه. تتكون العصا من قطعة من المرجان مثبتة على حامل ذهبي تتدلى منها قطع صغيرة من الصوان والعاج وزوج من أسنان القرش وقطعة من قرن وحيد القرن-من كركدن البحر فعلياً. حين يتعلق الأمر بالأكل والشراب لا تكفي كل تلك الصلبان والصلوات للحماية من الأعداء.

خطر لي أيضاً بأن هذه الكاتدرائية قد بنيت على أنقاض رومانية كغيرها من الكنائس. نحن نقف الآن على محور نشاط العالم القديم، حيث أفسح اضمحلال الحضارة الرومانية إلى ظهور أوروبا المسيحية. بقيت المسيحية نشاطاً هداماً حتى القرن الرابع- كانت الاجتماعات تعقد تحت الأرض في غرف في ملاعب السيرك الرومانية- فما الذي جعلها شعبية ومحبوبة؟ ربما لأن العقيدة المسيحية رفضت الأشياء نفسها التي كانت ترمز إلى كل ما هو خطأ في طريقة العيش الرومانية كالخطيئة والتطرف والشر. لم تكن هناك قرابين في المسيحية لأن الرب اتخذ هيئة بشرية وقدم قرباناً عن كل الخطايا البشرية.

في القرن الخامس كانت الإمبراطورية الرومانية تغرق في مستنقع قذر من التدهور والمرض. لقد حمّلت روما نفسها أكثر من طاقاتها. كانت الحدود التي أبعدت البرابرة تدفع للخلف دائماً مما أدى إلى زيادة عدد السكان الذي أدى بدوره إلى زيادة الطلب على المواد الخام والغذاء. أثيرت سلسلة من المكائد والمؤامرات السياسية لإبقاء المقاطعات في حالة حرب وعداء مع بعضها البعض. فقد كان الرومان وليس الانكليز من ابتدع سياسة "فرق تسد". لكن العفن استشرى في الإمبراطورية من الداخل، ودعم الفساد الاستغلال الواسع فلم يعد بقدرة المزارعين المستأجرين تلبية طلبات سادتهم من ملاكي الأراضي لإحراز التوازن مما أدى إلى رشي الجيش كي يستمر في تقديم الكثير من كل شيء. نتيجة لذلك كانوا يحاولون باستمرار توسيع الإمبراطورية لتوفير المزيد من العبيد والغذاء لإطعام المركز.

كان الهدف من السيرك تغييب عقول الناس وإبعادهم عن الهراء المزعج المستمر في الخارج. كانت التسلية مطلوبة لتهدئة الجماهير العاطلة وإشغالها. وفي الحقيقة لم تختلف الأشياء اليوم عما

كانت عليه في الأمس.

كانت الحمامات الرومانية بديلاً عن محلات التسوق الكبيرة (المولات)، فقد كان الناس يمضون كل يومهم هناك بحثاً عن التسلية. يقدم في السيرك المصارعة والعروض الجنسية وسباق العربات والتعذيب وكل ما تتخيله لإمتاع المشاهدين المخدرين بجرعتهم اليومية من الرعب الموجود في العالم إلى درجة خرجت فيها الأمور عن السيطرة فعندما حذر الناس من الانحلال لم يستطع أي واحد من الأباطرة وضع نهاية للسيرك. فقد روي أنه حين كانت قبائل الوندال الجرمانية على أبواب هيبو لم يكن بالإمكان التمييز بين صرخات الجنود الذي كانوا يموتون دفاعاً عن المدينة وبين صيحات المتعة الصادرة من حلبة السيرك. وأثناء عهد الإمبراطور كلاديوس كان هناك أكثر من مئة وخمسين يوم في السنة اعتبرت عطلات رسمية، وفي مئة منها أقيمت الألعاب الشعبية. لقد اعتقد الجميع بأنهم بأمان لأن البرابرة كانوا بعيدين ويفصلهم عنهم الجدار الذي كان حداً للإمبراطورية لكنهم كانوا مخطئين فقد كان الإنهاك يأكلهم من الداخل.)

انقشع المطر حين خرجنا من المدينة باتجاه الغرب، إلى تلال موسلس الكئيبة المنخفضة. بدت السماء كظل وردي مخضب بحزم زرق. نجح ليو في إخراج شريط كاسيت لفرقة البيتلز من تحت المقعد وصار بإمكاننا الاستماع إلى كل أغاني الشريط مرة أخرى ابتداء من "رجل اللامكان". من الصعب تخيل الحرب والوحل والموت في هذه البيئة الوديعة لكني قرأت في صحيفة الأمس أن بلدة قريبة كانت تغرق داخل الأرض. المنطقة كلها مثقبة بأنفاق حفرت خلال الحرب العالمية الأولى ولم تردم بالشكل المناسب ولا يزال المزارعون يستخرجون بقايا عظام بشرية بشفرات جرارات الحراثة. بمجرد أن تطأ قدمك الطريق لا تستغرق أكثر من خمسة عشر دقيقة لتجتاز العرض الكامل لخط الجبهة، كل متر واحد منها لم يتم الفوز به إلا بكلفة ملايين الأرواح بين عامي 1914 و1918.

نحن نسافر عبر الزمن بعبور وجه القارة من أقصاها إلى أقصاها وبالعودة إلى قرون خلت. اكتشفنا علامة ونحن نسير بالسيارة تشير إلى موقع مفيد. توقفنا بجانب الطريق وتسلقنا هضبة صغيرة مع حقائبنا ووجبات من الطعام وجلسنا لتناول غداءً مبكراً.

كان يوماً جميلاً وشفافاً، وضباب خفيف فوق الحقول، مناضد نزهات وخريطة تظهر عليها أماكن الدفاعات المثلمة التي امتدت بعيداً إلى الغرب، نحو فيردون وسان ميشيل. لو كان لدينا منظار يعمل بأشعة اكس لرأينا تحت السطح الوديع لهذه الحقول الندية أرضاً قاحلة موحلة ربض فيها رجال كانوا يرتعدون من البرد في خنادق مثقلة بالماء، انتفخت أقدامهم لدرجة لا يستطيعون تحريكها إلا بصعوبة. تصارع ليو مع سندويشة كبيرة صعبة المنال وهو يتصورها، بدا مستغرقاً في التفكير. بدت له بعيدة كالرومان.

(لماذا حدث ذلك؟) سأل. بحثت في قبضتي الهشة على الأحداث وخرجت باغتيال (الارشدوق فرديناند) في ساريفو الذي لا أزال أتذكر صورته وهو يركب سيارة مكشوفة قبل لحظات من تعرضه لرصاص أحد القوميين الصرب الذي إعتقد بأنه كان يقاتل من أجل الحرية. كان اليوم الذي اغتيل فيه هو الثامن عشر من حزيران وهو نفس التاريخ الذي قَهَرَ فيه العثمانيون الصرب عام 1389. أصبح اسم سراييفو مألوفاً إثر الأحداث الأخيرة الكثيرة. جلسنا هناك على منضدة

للنزهات نطحن بأسناننا التفاح ونصغي للطيور التي كانت فوقنا وإلى صخب السيارات خلفنا، نستمتع بهدوء المكان وسكونه.

عند العودة إلى الطريق بدأ السير يتحرك بهدف أكبر وبات من السهل الإحساس بأننا بدأنا في الاقتراب من مدينة عالمية. كنت أفكر باللافتة التي حملها المسافر المتطفل الذي رأيناه على الطريق يوم أمس وتساءلت إن كانت تلك رسالة ما. لا تبدو باريس فكرة بهذا السوء.

تابعنا طريقنا عبر منطقة أرغون، كان المنظر على جانبي الطريق مثل جبهة ناتئة من الأرض. بدت الصورة الظليلة الصارخة لشجرة متفحمة احترقت بشكل إعجازي دون أي تفسيرمثل خفير متحجر يحرس الطريق. كان التوقف الآن أصعب من مواصلة الذهاب بشكل مستقيم. هناك صف من أبراج الكهرباء يشبه ذيلاً عملاقاً يخيط السماء بالأرض معاً.

سوف تتساءل ايلين عن مكاننا الآن وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ولجأت إلى خدمات مجموعة من القتلة المدربين والقراصنة للعثور علي، كما أتخيل بأنها وفرت مبلغاً ضخماً بمساعدة جدها ودفعته لآي شخص يرغب في انتزاع إبنها من ذراعي والده المجنون وإعادته لها. أستطيع أن أرى العناوين :" مسلم أصولي يخطف ابنه" أو " عربي متطرف يُقْتَلْ بالرصاص في سباق إلى الحدود". ربما انجرفت كثيرا فقد تكون جالسة بهدوء بجانب الهاتف تنتظرني لأهتف لها.

لكنني لا أستطيع أن أهتف لها، ليس الآن، ماذا سأقول لها؟ ربما لم تقلق بعد وتهتف إلى البيت لترى إن كنا قد عدنا أم لا . هل أدين لها بتعليل أيضاً؟ لماذا وعن أي شيء؟ أنا أخذت ابني في نزهة في السيارة. لديَّ كل الحق في ذلك، أليس كذلك؟ لكن السبب الحقيقي لم يكن ذلك وإنما لأنني لا أزال غير متأكد بأنني أستطيع أن أشرح لها وأفسر ما أفعله الآن ولماذا. أشعر بأنني هربت أخيراً بعد سنين من حشري في نهر منتفخ عاجزاً عن الانتقال ومستسلماً لغرق ذاتي.

لماذا لم أكن قادراً على الفرار، الفرار الحقيقي، أن أنهض وأمضي؟ كل تلك الحركات الصغيرة وذاك الضياع عبر الأسيجة والتغزل بفكرة الهروب- أقصد العلاقة مع درو والمغامرات الأخرى الأقل لم تؤد إلى أي مكان سوى تأكيد الحقيقة التي لا جدال فيها بعدم التغيير وها أنا الآن أنجرف على السطح غير مصدق، لكن كم سيدوم ذلك وإلى متى أستطيع الاستمرار فيه؟

(ربما لديك الرقم غير الصحيح؟)

استند ليو على الطاولة ملوحاً بيده أمام وجهي. من المؤكد أنني كنت جالساً هناك أحدق بالفراغ منذ وقت طويل.

(هل الرقم غير الصحيح؟)

كان ينظر إلي بقلق لذا توقفت عن تحريك قهوتي وأخذت رشفة فاكتشفت بأنها باردة. كانت الكافتيريا فارغة تقريباً. هناك صف من الطاولات رصف بمحاذاة الواجهة. تحتنا كنا نرى منطقة وقوف السيارات والطريق وراءها الذي كان يطن غاضباً بالعربات المتحركة. الناس يأتون ويذهبون، يتدحرجون ببطء إلى أن يجدوا مكاناً. ينزلون من سياراتهم، يمطون أجسامهم ثم يبدؤون بالنظر حولهم ليرووا ما يمكن أن يفعلوه في هذه المحطة الصغيرة. كانوا يركضون بنشاط ويهبطون مسافة ياردات قليلة ليعيدوا دورتهم الدموية إلى أجسادهم. بعضهم يلعب بالكرة والبعض الآخر يشعل السجائر. الأطفال يتثاءبون والأمهات يبحثن عن حافظات الحرارة والقوارير. الآباء

يفتحون أبواب السيارات الخلفية ويتحركون بطريقة جامحة ليمسكوا بشلال يسقط للخارج. كل أصناف الناس والعربات: كبار وصغار، عائلات وأزواج، سيارات بِبابين أنيقة وسيارات رحلات مقطورة. كانت مراقبتهم تمضي الوقت وأنا لست في عجالة من أمري.

كان ليو يرسم المنظر في كراسة جميلة وكبيرة اشتريتها له من أجل الرحلة قبل أن نغادر انكلترا، ورقها من النوع الجيد والسميك ولديه علبة من أقلام الرصاص وأقلام التلوين الشمعية التي تبعثرت فوق غطاء الطاولة. حتى الآن كان رسمه عبارة عن مجموعة من الأشجار والخطوط المبهمة التي ترمز إلى السيارات العابرة. كان انتباهه يتشتت دائماً بوصول سيارات أخرى في الأسفل إذ كان يراقبها ويخمن ما بداخلها وما العلاقة القائمة بين الأشخاص الذين يظهرون منها. هو مُصِرٌ الآن لأن يعرف لماذا لا يستطيع التحدث إلى أمه.

(الرقم صحيح) قلت (يجب أن يكون السبب في الاتصال. حاولت مرات عديدة وفي كل مرة يكررون نفس الشيء) خرجت إلى بيت الدرج ونظرت إلى الهاتف برهة ثم عدت. نظر إليَّ لحظة ثم عاد لينظر إلى البعيد دون أن يتفوه بكلمة.

(عائلة تعيسة) صَرَحَ بثقة منهكة وهو يحدق من النافذة، ويمسك بقلم الرصاص في حالة من التشتت.(الولد يتمنى لو أنه ظل في البيت مع أصدقائه بينما الأب والأم لا يتوقفان عن الشجار. أوه أنظر، لديهم كلب.)

كان هناك رجل تحتنا، فتح باب السيارة الخلفي يعبث برأس كلب من نوع برنارد. برز لسان قرنفلي ضخم من فكيه وتدلى إلى مخالبه تقريبا. سقط الكلب بطريقة خرقاء على الأرض وبدأ يلعق الماء التي صبها له الرجل في إناء وكان يحدق حوله بين فينة وأخرى ويتساءل ما الذي يفعلونه هنا من بين كل الأماكن في العالم. رسم ليو بغضب وحاول أن يصور الكلب والرجل والسيارة فبدوا غير متناسبين مع العالم الآخر، لكن لا بأس.

من فوق كتفيه رأيت إمرأة تتحرك بين الطاولات نحونا بدت بأنها تبحث عن أحد وليس عن مكان تجلس فيه. كانت تتوقف متراخية ومشتتة لتنظر حولها وتدرس كل من في المكان.

(هل تعتقد بأن بلوتو يفضل لو أننا خطفناه وأخذناه معنا؟)

(من هو بلوتو؟) سألت وأنا أراقب المرأة التي كانت تقترب منا أكثر.

(ذلك الكلب) امسكني من فكي ودور رأسي في الاتجاه الصحيح.

(بابا، هناك في الأسفل. انظر لقد حبسوه مرة أخرى. الوداع يا بلوتو.)

(أوه، يا لها من صورة رائعة!)

نظرنا الاثنان. رمقها ليو بنظرة شك بسبب هيئتها ولم يقل شيئاً.

(مرحباً، أنا أنجيلا. رأيت سيارتكما في الأسفل هناك. عليها لوحة أرقام المملكة المتحدة، هل أنتم عائدون إلى الوطن؟)

كانت تتكلم بسرعة لدرجة لم تعطني فرصة للرد عليها

(رأيتك في الخارج) قال ليو (هل كنت تتبعيننا؟)

(أتتبعكم؟)ضحكت لكن بابتسامة متصنعة (كلا. رأيتكما تمشيان إلى الداخل وفكرت بأن آتي لأقول لكما مرحبا) نظرت من وراء كتفها. لاحظت بأن المرأة التي كانت على طاولة الحساب تشير إلى جهتنا.

(ليس لديك مانع، أليس كذلك؟) سألت وهي تجلس.

نظر إلي ليو وعاد إلى رسمه مرة أخرى. لاحظت ورقة شجر علقت بكم سترتها.

(هل لديك سيجارة؟)

(آسف) هززت رأسي. نظرت حولي لأرى إن كان هناك من كان يدخن وحين استدرت وجدتها تتفحصني مرة أخرى.

مالت للأمام باستعجال (أنت لست إنكليزياً، أليس كذلك؟) نظرت إليها.

هناك رواية مطولة وأخرى مختصرة ولقد تعودت على نظرة الشك تلك.(هل يمكنك أن تقلني في سيارتك إلى لندن؟) رغم لهجتها غير المنتظمة لكنها تكلمت بإنكليزية جيدة مما يوحي بأنها عاشت في بريطانيا فترة من الوقت ويبدو بأنها تحاول العودة إلى هناك الآن.

(نحن ذاهبان إلى باريس) قلت، متجاهلاً نظرة ليو. لم استشره في القرار بعد ولأنني اتخذت القرار لوحدي هكذا.

(أوه هذا عظيم! ستحب اللوفر كثيراً. هناك صور عظيمة وكثيرة. دنت من ليو وقالت (أنت تحب الرسم، أليس كذلك؟)

دُوَرَ ليو قلم الشمع بيده دون أن يقول شيئاً.

(إذاً باريس هي المدينة الأفضل في العالم بالنسبة لكما) نهضت ووقفت على قدميها فوراً، متلهفة للذهاب. (كم عمرك؟)

(ثمان سنوات تقريباً)

(نفس عمر ابني)

(انظري) قلت وأنا أشعر بالذنب (يمكننا أن نقلك بقدر ما نستطيع)

(كلا) هزت رأسها بشكل مقتضب. لم أكن ذو فائدة لها. باريس انعطاف وهي تريد الوصول إلى إنكلترا. تلاشى الأمل من على وجهها فوراً وتلاشت معه الإبتسامة أيضاً. عادت أعقابها وابتعدت بعد أن نجحت بصعوبة في قول تحية الوداع.

جلسنا في صمت. كنت أفكر بالحظ الجيد الذي وفر لي جواز سفر وسيارة وإبناً جالساً معي ينظر إلى العالم الذي يحاول استيعابه وتسجيله على الورق.

حين قدنا سيارتنا باتجاه المخرج الزلق شاهد ليو المرأة التي قالت بأن اسمها انجيلا وهي تقف قرب الأشجار وبجانبها مجموعة من الصرر وفتاة في الثانية عشر من العمر تحمل طفلاً صغيراً، غصن عائلة مهمل ومنكسر.

(أنا لا أرى صبياً) قال ليو (هل تعتقد بأنها كذبت بخصوص ابنها؟)

(ربما أو ربما حدث له شيء ما. لوح لهم بيدك) قلت. لوح لكنهم لمر يردوا التحية.

الفصل التاسع

قال ابن عربي: الحياة حلم، هذا النموذج الأصلي للمتجول الصوفي الأبدي الذي كَرَسَ جل حياته للسفر حول العالم سعياً وراء المعرفة من موريشيا في اسبانيا التي ولد فيها في القرن الثاني عشر إلى دمشق حيث قضى نحبه. لقد أكد بأن العالم الحقيقي أوسع بكثير مما يرسمه أي رسام خرائط :" الأرض ليست الشكل الحقيقي للوجود وإنما هي مجرد شيء وهمي. العالم الذي نعيش فيه (دنيا من العلاقات) تكتسي فيها الأرواح والملائكة والجن أجساداً. في الأحلام نتجاوز هذه الدنيا المادية إلى العالم الحقيقي الذي لا نراه إلا من خلال ذلك. انطلق ابن عربي في كل أرجاء العالم آملاً بأن يوقظ نفسه، أن يموت في المعنى المجازي ليرى.

هناك عدد هائل من النظريات عن أصل كلمة "درويش". إحداها مشتقة من الفارسية وتعني (الباحث عن الأبواب) كما لو أن العالم المادي غرفة مظلمة والصوفي يحاول أن يتلمس طريقه إلى الخارج. سبقتنا هذه الصور على الطريق المفتوح وهي تبحث عن إجابات. إنها توحي بأهمية الحركة، من البصيرة التي تكتسب من خلال الحركة. لكن هل هذا بحث صوفي أم هل أنا مجرد هارب فار؟

تصادفت لقائي الأول بالصوفية مع نوبة قلق المراهقة. قرأت حكايات الدراويش لإدريس شاه حين كنت أحاول أن أقرر من أنا وما الذي أريد فعله في حياتي. أدركت فوراً رابطاً بين الدراويش (لقد رأيت نسختنا المحلية منهم يرقصون على التراب عبر النهر في أم درمان) والطاوية التي وصلت إلينا عن طريق افتتاني (بالكونغ فو) بعد أن قامت صناعة أفلام الكونغ فو بغزو أفريقيا كلها آنذاك.

بدت الفكرة الطاوية عن الثنائية لا تقاوم، الأضداد المتداخلة التي تكمل بعضها وبنفس الوقت لا تنفصل. إحساسي بأنني مقسم وممزق وناقص يعود إلى ذكريات مبكرة من تعاليم أبي وأمي فوق مهادي وأنا طفل. واحد قاتم اللون والآخر شاحب باهت. هذا ما أتذكره على الأقل. لكن الصورة بقيت، سواء طفت من لاشعوري المكبوت أم كانت ومضة الهام.

إن النظرية التي ترى بأن العالم مكون من الأضداد، النهار والليل، الصلب والطري، الماء والرمل، الأسود والأبيض، تسعى وبشكل دائم إلى الانسجام نظرية جذابة. الحياة مكونة من خزان ثابت من الدوافع المتناقضة والشكوك التي نحاول جاهدين تحقيق توازننا فيه. نحاول أن نقنع أنفسنا بأننا نسيطر على حياتنا ومع ذلك نحن نأكل أشياء نعرف أنها مضرة لنا، نقع في حب الأشخاص الخطأ. نحن نشرع إلى المجهول بدلاً من البقاء محبوسين حيث نعرف بأننا في أمان لأننا نتوقع إيجاد شيء أفضل. إن الأمر يتعلق بالمتناقضات. نحن نقر بأن هذا لن يساعدنا فعلياً على حل المسألة التي أردنا القيام بها في حياتنا. بدوت أطفو عبر العالم في انبهار ويتعزز تصميمي الهش عند مقارنته بالاقتناع والتفاني الذين جسدهما أبي.

من اليوم الذي عاد فيه من انكلترا لم يكن لديه سوى معبود واحد هو الصحافة. لقد آمن بالقيمة المقدسة للحقيقة وليس بأي شيء باطني آخر غيرها. كانت مهمته المختارة في الحياة البحث عنها ثم طباعتها ونشرها. لم يؤمن بأي تسوية أو بإغلاق فمه والسكوت مهما كلفه ذلك من المرات التي

رمى فيها في السجن. حين كنا صغارا كانوا يقولون (رحل)، رحل إلى أين؟ لماذا؟ أتذكر الإرباك الذي كنت أشعر به حين اكتشفت بأنه كان في مكان يرسلون إليه الناس السيئين مثل المجرمين والقتلة وما شابه ذلك. ما الذي فعله حقاً؟ كنت أتساءل.

(لقد حبسوني ليسكتونني لكن لا يمكن وضع كمامة على الحقيقة)

(لماذا لا يستطيع إغلاق فمه ويبقيه كذلك؟) قالت حبوبة وهي تئن (من طالبه بأن يكون له رأي؟)

لكنه رجل له رسالة. حين يتعلق الموضوع بالكشف عن الحقائق كان يتابع هدفه بتشبث جون واين وهو يبحث عن ناتالي وود في (الباحثين). لم يضعف السجن من تصميمه وإنما أكد له بأنه كان على الطريق الصحيح. كان يلاحق من؟ كل ديكتاتور ووزير فاسد وكل قاضي غير شريف وإمام مستبد.

(لا تستطيعون كبت الحقيقة) كان يقول (أينما خبأتموها، ستجد طريقها للخروج) حتى لو استغرقت عمراً أو فستخرج عاجلا أم آجلا. كان وجهه يتسع كأنه تحت تأثير نداء محموم: الحقيقة مثل القوس المرتد، كلما قذفته بقوة أكبر، رجع إليك بشكل أقوى، وهي ترتد دائماً. في إحدى أقدم ذكرياتي عن زيارتي للجريدة رأيته منكبا على الطابعة اليدوية الضخمة، حبات من العرق كللت جبينه، انقطعت الطاقة الكهربائية وذهب كل من في الجريدة إلى البيت قبل وقت طويل لكننا بقينا إلى أن انتهى.

قوس الحقيقة المعقوف.

دع هؤلاء المهتمين بالأساليب المراوغة للشخص الذي يشغل مكتب وزير الطرق والأشغال العامة أن لا يقلق كثيراً. إشاعات عن رحلات مغدقة إلى خارج البلاد عززت بمشاهدة الموظف الحكومي وهو يرقص مع "مضيفات" فاتنات في ملاهي باريس الليلية. كانت هذه الاتهامات قوية وحقيقية لدرجة يصعب اعتبارها إشاعات لهذا كانت محاولات بعض الموظفين الصغار الواهية لسحق هذه الاتهامات مثل عدد كبير جداً من الذباب لا يفيدون سوى في إثارة اللهب تحت كرسي الوزير الساخن. قوس الحرية المعقوف يرتد دائماً، عزيزي القارئ، ونحن نعرف، المرات الكثيرة التي ندم فيها الوزراء لأنهم لم يسلكوا سلوكاً نظيفاً منذ البداية.

مثل تلك الحملات الجادة ضد الفساد جعلته غير محبوب. كان شرب الشمبانيا ومغازلة المضيفات يعتبر من المنشطات المشروعة لموظفي الحكومة. هذا السلوك وأمثاله مما رآه أبي دليل على الفساد السياسي وعلامة على الانحطاط الأخلاقي الذي كان ينهش جوهر مشروع الاستقلال نفسه.

في كل مرة يعود فيها أشعر وكأن غريب أتى ليعيش معنا وفي بيتنا، يجب علي أن اعتاد على شخيره في أوقات العصر وعلى جولاته في البيت وهو في سرواله القصير، أو ينادني من ملعب كرة القدم لأكتب واجباتي المدرسة. فترات السجن أنهكته بدنياً. كان يخرج من السجن في كل مرة أشد هزالاً وأضعف لكن بعزيمة أقوى وأصلب مما سبق.

لم يكسروه أبداً لكنهم كادوا يقتلونه مرتين. استسلمت أمي لقدرها، كانت تقود سيارتها وتعبر النهر إلى سجن كوبا يومياً وهي تحمل سلال الطعام لتبقيه على قيد الحياة. كان يمكن أن يموت في السجن لأسباب كثيرة أحدها طعام السجن.

آخر شيء أردته هو اقتفاء خطواته. كيف يمكن لأي شخص أن يقلد عملاً كهذا؟ التفاني والإخلاص والاقتناع. أقنعت نفسي وأنا في الثانية عشر من عمري بأن أكون رياضياً، سباح عالمي مثل بطلي آنذاك (مارك سبتز).

(سبيتز؟) صاح أبي (هل تبجل يهودياً؟)

نظرت للأعلى إلى الملصق الضخم للألعاب الاولمبية الملصق على الجدار، لقد أعطته لي روح أمريكية طيبة في المركز الثقافي الأمريكي الذي توجد فيه مكتبة مملوءة بالمجلات السينمائية وكانوا يعطون أشياء مجانية، رغم أنني قبل سنوات كنت أشك بأني سأكون مجرد بيدق متطوع جندي متطوع في حملة القلوب والعقول. على الجهة الأخرى من الغرفة هناك صورة تضاهيها لفدائي فلسطيني يقفز من فوق أسلاك شائكة ويتوشح بكلاشينكوف. حدقت في هيئة الرجل الذي يغوص في المياه الزرقاء.

(كيف تأكدت بأنه يهودي؟)

(إسمه سبتز. سبتز إسم يهودي)

لم يكن السبب غل لليهود أو شيء من هذا القبيل وإنما لأن ذكرى الحرب العربية-الإسرائيلية الأخيرة لا زالت جديدة وطازجة في عام 1976. لقد استعاد السادات سيناء لكن كادت غولدا مائير أن تبيدنا كلنا بالسلاح النووي. لم يكن هناك وقت للجلوس على الأسيجة.

لقد انضممت إلى الكشافة البحرية. لم يكونوا كشافة بحرية حقيقية بالمعنى الحرفي للكلمة لأنه لم يكن بحر قربنا. كنا كشافة نهرية. لدينا نهران، النيل الأزرق والنيل الأبيض وكلاهما موحل وغزير. كانت الكشافة البحرية قدراً قاسياً وصاخباً. عليك أن تعبر النهر لتتجاوز امتحان القبول. عارضت أمي الفكرة. فقد اتخمت بقصص الأفاعي والسمك الكهربائي الذي يصعقك وقتا يكفي لإغراقك وعن التيارات الغادرة تحت الماء وحتى التماسيح التي لم أرها منذ عقود من الزمن. الحقيقة أنني فضلت برك السباحة في المياه النظيفة الصافية التي تخلو من الأشياء المثيرة للشك الطافية بدلاً من أدفع نفسي للأمام والخلف عبر نهر قذر وأقفز بمجرد لمس غصن صغير ميت؟ ما الذي أحاول الابتعاد عنه؟ قرر أبي بأنني أمر بوقت صعب وبحاجة إلى الإرشاد.

(تعال لنتبادل الحديث) قال (حديث والد وولده. لم أحب الفكرة لكني ذهبت.استدعيت لأدخل مكتبه الخاص،غرفة صغيرة بين سور الحديقة والمبنى الرئيسي للبيت. كنت أراقبه حين صب لنفسه شراب الجن. لم أكن أحبه حين يشرب. لم أكن أحب التغيير الذي يطرأ على صورته بعد ذلك. تطلعت حولي ورأيت دليلاً آخر لما كنت أعرفه دائماً، إنه مركز جاذبية حياة والدي، إحساس قوي بالتوجه يخبره بما هو مهم وما هو غير مهم، الكتب وصناديق الملفات السميكة وأكوام من قصاصات الجرائد والخرائط وصور رجال الدولة الأفارقة، نيكروما وكاوند وعبد الناصر على الجدران.

مصير البلاد أعطى معنى لحياته-القناعة السخيفة بأن مجموعة غريبة من الاثنيات والأعراق والعقائد التي يجمعها معاً حكم استعماري ستتحول إلى أمة متماسكة. بينما كنت أراقبه وهو يسحب مكعبات ثلجية من مبرد بلاستيكي يشبه شكل ثمرة أناناس كونت فكرة عما هو آت فقد سمعت هذا الطقس الشعائري مسبقاً.

(إننا نعيش في أوقات صعبة يا ياسين. حين كنت بعمرك لم تكن لدي الفرص التي بمتناولك الآن. لم يكن لدي امتياز القدرة على الدراسة رغم رغبتي فيها فقد كان علي أن أعمل لأقدم الطعام للعائلة فقد توفى أبي وأصبحت رأس البيت وأنا في سنك)

بدا لي في تلك اللحظة عجوزاً فجأة. شكل رجل طويل كتفاه محدودبتان قليلاً ونحيل، كـأنه شريحة من الليمون، له شارب صغير ترك أثر وبر أبيض على شفته العليا وكأنه عب كأساً من الحليب تواً، ونسي أن يمسح فمه. كان في طريقه إلى الخروج للتحدث مع أصدقائه في السياسة كالعادة إلى ساعات الفجر الأولى كما كان يفعل في كل الليالي تقريبا. كان يرتدي بدلة زرقاء داكنة صدارة وربطة عنق دائماً أما الجلابية فيبقيها للنوم وليوم الجمعة حين يذهب لزيارة والدته.

(هل لديك أفكار عما ستفعله في حياتك؟)

(السباحة) أجبت بثقة رجل خبير بالأمور ادخر خططاً عظيمة، رأيت الميداليات ورأيت نفسي أعتلي منصات التتويج في أماكن نائية وأرفع قبضتي بتحية النمر الأسود.

(بمعزل عن السباحة التي تستطيع ممارستها في أوقات فراغك، كهواية،) كان يتحدث معي باعتباري رجل وأقلقني ذلك كثيراً. توقعت بأنه سيخبرني بأنني على وشك الزواج من ابنة عمي الثاني وسوف يرسلني لزرع النخيل في كاسلا لأتعلم شيئاً عن الأرض. خطر لي ذلك لأول مرة بأنه سوف يموت. ليس في تلك اللحظة تماماً وإنما في يوم ما وأنني سأرث كل أكوام الورق والكتب تلك وسأكون قادراً على الاستمرار حيث توقف هو.

(للرياضيين المحترفين عمر قصير جداً. عليك أن تراكم الممكنات فلا تعرف متى تكون مفيدة. يقضي الناس سنوات ليكتشفوا ما يريدون فعله في حياتهم. لكني أستطيع أن أخبرك بشيء واحد، الإعجاب بسبح يهودي لن يوصل إلى أي مكان) وقف وهو يرسم خططه للحياة التي حلم بها :(يجب أن تتعلم عن العالم قبل أن تشكل أي فائدة لنا هنا. لا يزال أمامك عمل كثير عليك القيام به. دعني أتحدث إلى عدد قليل من الأشخاص. يمكننا توفير منحة دراسية لك. جامعة أو كلية من أجل تعليم عالي ...ربما...) جلست هناك أصغي إلى حياتي وهي ترسل في طريقها إلى المستقبل. كانت هذه فكرته: أن أرحل بعيداً واحصل على التدريب وأعود لأساعد في بناء الأمة. كنت في الثانية عشر من عمري وبدا كل ذلك بعيداً جداً عني. بصعوبة حتى عرفت من أنا فكيف لي بمعرفة ما سأفعله في حياتي. أردت أن أكون(بروس لي وفرانسوا تروفيت) مندمجان في كيان واحد. أردت أن أتنزه في شوارع باريس بشال حول عنقي وقبة معطفي المطري مرفوعة مع (كليوباترا جونز) بطلة الكاراتيه في ذراعي.

وقف وعب شرابه.(الوقت لا ينتظر أحداً يا ولدي، إنه يمر وينتهي في غمضة عين.)

نظرت إليه وأومأت برأسي موافقاً دون أن أؤمن بأي كلمة مما قال.

لم أتخيل أن أجد نفسي بعد خمسة عشر عام ارتجف من البرد في ضباب تشرين الثاني الكثيف على سفح تل في شمال انكلترا أجري المقابلات مع المواطنين العجز، عن سبب خوفهم من الخروج من بيوتهم في عز النهار. لم أكن أعرف تهجئة كلمة يوركشاير إلا بصعوبة. على حافة منطقة صناعية كئيبة جثمت مثل حاجب متغضن فوق أرض مدينة شيفيلد الرملية ومداخنها. صناديق ملونة بالأصفر على الأرض تحدد البقع التي يجب أن لا يداس عليها للسلامة، أماكن حيث

السقوط يعني أنك قد تنتهي بتلفزيون يسقط عليك من ارتفاع كبير. كانت المصاعد ممزقة ومشبكة بأسلاك وبآثار الغضب، صلبان معقوفة شكلت معنى كبير كغيرها في بيئة كهذه- بيوت الدرج تفوح برائحة البول والجريمة والمخدرات والأعمال المخالفة للقانون. كان يمكن أن تكون منتزها رائعاً للسياح الفايكنغ كبقعة للاغتصاب والنهب. كان المكان يحكم من قبل قبائل جوالة من الأحداث والمراهقين المتوحشين المدمنين على استنشاق وقود القداحات ونترات الاميل. لم تكن هذه انكلترا التي تخيلها أبي والتي كان سيرسلني إليها.

(يجب أن تبدأ من القاع، من الناس العاديين، العمال، الذين لا صوت لهم. لن تندم على ذلك أبداً، لم أكن متأكداً تماماً بأنني أوافقه، لكن انتهى بي الحال في العمل في صحيفة ديلي كراو التي سأشير إليها لاحقاً، محرر الصحيفة رجل يدعى هارفي غرينباو، ألقى نظرة واحدة علي، صحفي متخرج حديثاً من كلية تدريب الصحفيين في أكسفورد وضعني في قسم الأخبار ذات "اللون المحلي". لهذا باشرت بإجراء مقابلات مع أصحاب المطاعم الباكستانية حول الحياة عموماً وفظاظة زبائنهم أيام الجمع. التقيت بفرق الراب التي ظن أفرادها أن الموهبة تتناسب مع حجم وعدد الحلق الذي يضعونه. بعد ذلك حدثت عاصفة الجحيم: الضجة العظيمة: صدام حسين يرسل قواته تتمايل في الكويت. ليس لجريدة ديلي كراو مراسل في الشرق الأوسط.

(ماذا غزا؟) ذعر في طابق التحرير. (أين هي؟ شخص ما؟ أي شخص!) أنتجت خريطة.(وجهة نظر محلية) أعلن هارفي غرينباو بحزم، طاعنا الهواء بإيماءة مميزة: ' هرفي غرينباو:' رجل الحسم في أوقات الحسم' هكذا كتب في الإعلانات التي ألصقت على جوانب الحافلات في كل جنوب يوركشاير. كان هارفي يشارك في انتخابات المجلس المحلي. حين وقف في غرفة التحرير وأعلن شيئا بتلك الطريقة ثم كانت (كما لو أنها كتبت على الصخر) أخبرني أحد الكتاب المجربين.

لهذا ذهبنا نبحث عن وجهة النظر المحلية حول حرب تحدث على بعد ثلاثة آلاف ميل. اندفع المصورون لأخذ صور مقاتلات قاذفة من وراء الاسيجة التي تطوق قواعد الولايات المتحدة الجوية. أجريت مقابلات مع أمهات على عتبات البيوت حول الفخر الذي يشعرن به لو كان أولادهن في الجيش. في الصفحة الثالثة نشروا صوراً لنساء شابات في ثياب عسكرية نصف مكسوات أو عاريات فذلك يعتمد على الطريقة التي ينظر بها) كانت علاقتهن بالقوات المسلحة ضعيفة جداً، هذا ما يمكن قوله على الأقل. الأهم من ذلك نصب جهاز تلفزيون ضخم في غرفة التحرير لكي نتمكن من الاطلاع والإلمام بكل الوقائع المهمة عن طريقة مشاهدة محطة (CNN) . بحثت عن كويتيين غاضبين في المنطقة ظناً بأنني قد أقدم سبقاً صحفياً فاكتشفت عدم وجود أي واحد. كما أن الأمر لم يثر اهتماماً كبيراً لدى الرأي العام. نجحت في تحديد رجل يمني كان يدير مكتبة في روثرهام له أخ عمل في الكويت سابقاً. مات أخوه هذا منذ سنين للأسف إضافة إلى ذلك ارتعشت لحيته الرمادية من الندم، فلم يكلما بعضهما منذ أن كانا أطفالاً. لم يرغب في ذكر اسمه لكي لا يسمع أقرباء له في سالفورد ويظنون بأنه ناجح ومزدهر ويغامرون بعبور بينينز ليطلبوا منه نقوداً.

بدأت الحرب على التلفزيون يوم خميس عادي دون أن تلفت إنتباه أحد في ساعة متأخرة صادفت وقت الذروة على الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة. كان للصورة التي على الشاشة تأثيراً منوماً. عقود من الأضواء النقطية شكلت أقواساً تتحرك ببطء في سماء بغداد، بدت مثل عرض للألعاب النارية لكنها أنقى وكأنها كانت تحت الماء. كان من الصعب التصديق أن تلك الشرارات قطع

ملتهبة من معدن حاد. قذائف تعقب قادرة على القتل والإعاقة. بعد سنوات قابلت رساماً عراقياً كان هناك في تلك الليلة. خلال القصف ، قال، كأنك في حلم لا يمكنك الاستيقاظ منه. يقطع الضوء مسافة أسرع من الصوت فأنت ترى الانفجار قبل أن تسمعه أو تحس به. كانت الأبنية والسيارات والناس يتلاشون أمام عينيك، ومضة ضوء ودخان ثم تصعقك موجة الصدمة. لقد قال بأن الرعب كان شيئاً مادياً سيطر على كل جسدنا، بعض الناس تجمدوا وبعضهم الآخر لم يستطيعوا التوقف عن التحرك، لكنهم اعتادوا ذلك بالتدريج. أصبحت الغارات الجوية جزء من الحياة اليومية مثل انقطاع التيار الكهربائي. لقد فقد ابنته البالغة الخامسة من العمر حين هوى عليها سقف البيت في إحدى الليالي.

" العالم وهم وهو غير موجود في الحقيقة" كتب ابن عربي، تذكرت هذه الكلمات وأنا أشاهدها تحدث في التلفزيون. دعابة قاسية وحيلة مريرة انخدع بها العالم. لأول مرة في حياتي بدأت أتساءل عن استقامة وصدق الصحافة البريطانية التي جعلتني أعتقد بأنها الأولى(بعد كلامات والدي طبعاً). كان موسماً مفتوحاً على العرب فأي شيء وأي مكان اعتبر هدفاً مشروعاً . بعد أيام بدأت تتضح لي. لقد أخبرني رجل في الحانة بأنني يجب أن أكون ممتنا لبريطانية لأنها خاطرت بأرواح جنودها قواتها لإنقاذ حياتي وحياة أمثالي. ساءت الأمور أكثر حين جاء القتلى والجرحى، هبطت الطائرات الأولى وبدأ الناس يهتفون لي لأتحدث عن متاجرهم التي لطخت بالرسوم السياسية وبناتهم اللواتي تعرضن للمضايقات بسبب ارتداءهن للحجاب. أصبحت غاضباً ودفاعياً. أردت أن أكون في خضم المشكلة، طلبت من هارفي غرينباو أن ينقلني إلى قسم الأجانب. (يمكن أن أكون مفيداً) قلت، لكن غرينباو حَوَلَ عينيه ونظر إليَّ مشككاً. "هارفي غرينباو رجل شكاك في ظروف شكاكة) قلت موضحاً بأنني أستطيع أن أقرأ الصحف الأجنبية وأعطي الوقائع الحقيقية المهمة عن رأي العالم العربي بكل ما يحدث.

كان هارفي ميال للشك(لكن ليس هناك من يهتم بما يرونه) نظر حوله باحثاً عن إلهام.(فكر بالمسألة من ناحية صبيانية، كيف هي الصحراء؟)

(حارة) جاء صوت ما من الغرفة.

(تماماً. حارة) أفلت ذراعه عن كتفي.

(كيف هو التواجد هنا، عرق يحرق مؤخرتك ويحولها إلى زبدة)

بالنسبة له كرجل صحافة لديه طريقة مع الكلمات.

(لكن يا هارفي نحن بعيدون جداً عن ذلك المكان)

(صحيح وخصوصاً تلك النقطة. نحن لسنا هناك. لهذا ماذا سنفعل؟)

نظرت إليه بغباء وقلت (لا أعرف. ماذا سنفعل؟)

(هيا، ليأتي شخص ما أو أي شخص) صاح منادياً من فوق رأسي (ماذا نفعل نحن؟)

(نحن نلفقها أيها النغل)

إلتفت إلي هارفي (هل تفهم ما أقصد، نحن نصنع الأخبار هل استوعبت ذلك؟ أنظر حولك يا بني إنها ليست صحيفة التلغراف اللعينة. يريد الناس أن يعرفوا إلى أي درجة ستؤثر هذه الحرب على

حياتهم الخاصة. أريدهم أن يستيقظوا وهم يطلقون صرخات هيبي-جيبي معتقدين أن صدام حسين اللعين وصل إلى المدخنة اللعينة.) وغمزني.

(حاول التفكير بقارئك العادي ولن تتوغل في الخطأ آنذاك)

لكن كلما تحدثت مع عدد أكبر من الناس أدركت أكثر أنني لم أفهم القارئ العادي لصحيفة ديلي كراو كما أوجزته السياسة التحريرية. شعرت بسحر مرضي في تلك الصور المجيشة: الطائرات في الصحراء وحاملات الطائرات وغيوم الدخان البطيئة المحتومة الصادرة عن بناية قوضتها قنبلة ذكية أخرى. كنت أجمع القصص والأخبار وهارفي يلغيها. لقد نصحني باستخدام اسم وهمي.

(المشكلة) تنهد قائلاً (في اسم مثل اسمك يصعب التأكد من الطرف الذي تقف إلى جانبه، إن أدركت قصدي، هارفي غرينباو يشبه الدمل الكبير المتورم الذي يؤلم عند لمسه. كان أحد أطراف قميصه يتدلى دائماً إلى الخارج، يعود من الحمام وهو يزر سحاب سرواله، تفوح منه رائحة العرق والمسحوق المعطر. كان محبوباً بطريقة فظة، لقد كان أحد الصبيان، ولد وترعرع في ستيل تاون ثم درس في المدرسة المحلية ويؤيد شيفيلد ونسدي. أمضى هارفي سابقا سنة في استرالية في صيد الكنغر وشرب الخمر (تضحية رهيبة بالنسبة له، لأنه فطم على تيلي بيست بيتر)- تلك السنة التي أمضاها هارفي في الخارج جعلته خبيراً في الشؤون الأجنبية وعرف كيف يسير العالم في الخارج. كل شيء، عني وعن لهجتي وعاداتي وتعليمي، أوحى له بأنني شاذ وأفاق وأسمي مثير للضحك.

(دعنا، نواجهها، أنت على الأقل في منتصف المسافة إلى جانبهم)

(إلى جانب من؟) سألت.

(هم، العراقيون، رؤوس المناشف، تفحصني هارفي بتمعن وهو يحاول أن يصل إلى جيب متجعد في بدلته الرمادية، تحول من القدم إلى بقعة لماعة متوهجة. أشعل سيجارة (ريغال) أخرى (لتكن قريبة من الأرض يا بني لتكن محلية)

لذلك عدت إلى تجميع القصص عن مواضيع محلية صغيرة دحرجتها بعيداً طبول الحرب عن الطريق: العجائز اللواتي يَخْشِنَ الخروج من شققهن بعد حلول الظلام أو حتى قبله، جامعوا الأموال الخيرية، جريمة قتل (مرة واحدة)، طالب ينام في مكتبة الجامعة، احتجاج ضد إغلاق مدرسة، الخ. كانت مثلما أكد لي والدي، تجربة لن أنساها قط. لم أشعر بأنني تنورت أو أثريت. هذه المهمة، هذا التجوال، جزء أيضاً من بحثي الشخصي عن العالم عموماً وبريطانيا بصورة أدق التي لم أعرفها أبداً وأشعر رغم ذلك بأنني ملزم باستكشافها. طورت بعض التعلق والود للمكان رغم المصانع القديمة المسكونة بالأشباح ورائحة المخللات المخيمة فوق المدينة. كان الريف نقياً. كنت أخرج كثيراً إلى البيكس حين يتوفر الوقت لي بعد الظهر أو في نهاية الأسبوع. كنت أطوف حول الحواف الصخرية الرملية المدورة التي تفرقع في العواء مثل منحوتات بدائية. يظهر في الأسفل ذيول رقيقة من الدخان تتصاعد من القرى الصغيرة المخبأة داخل الأودية المتعرجة الضيقة التي تلتف كالأفاعي عبر الصخور الكلسية.

لقد جمعت قصة ضعيفة عن الحرب لكن المضحك إنها انتهت قبل هذا الوقت. نقبت ووجدت عائلة تعيش في مانسفيلد وقد عاد ابن هذه العائلة لتوه من القتال مع الطرف الخطأ. جلسنا في غرفة المعيشة في بيت صغير له شرفة. كانت عائلة كبيرة ولم أستطع أن أتخيل كيف استطاعت العيش

فيه. كان الأب يدير محل جزارة ذبح حلال في الشارع العام و يعمل الولد سمكرياً، عمره واحد وعشرين عاماً، رأسه حليق وأذناه ناتئتان. كانت أمه تحوم حول المدخل ووقف والده بجانب الموقد الغازي أما أخواته الخمسة فقد اصطففن على طول الأريكة الطويلة وكن من مختلف الأحجام والإشكال. أحمرت أذنا الصبي من حرارة الغرفة الصغيرة المكتظة ومن الإثارة جراء سرد ما مر به مرة أخرى، وهذه المرة مع غريب: كان مركز الاهتمام.

(لقد ذهبت إلى هناك في شبه إجازة)

(ماذا حدث؟)

(لقد وضعني الملاعين، أسف يا أمي، في الجيش)

(لقد فعلوها) قال الأب وهو يهز رأسه.(والله، وزارة الخارجية اللعينة غسلت يدها من كل الموضوع، أشار نحو الصبي وقال (أنظر إليه. جواز سفر وكل شيء. أره الجواز)، تنقلوا بين اللغتين العربية والانكليزية بطريقة بدت لي مألوفة. جاهد الأب كي يستعمل الانكليزية حين أراد التأكيد على أهمية بعض التفاصيل. دس الصبي جواز سفره في جيب سرواله الخلفي. عبس الأب مستنكراً وهو يسوي التجعدات قبل أن يناوله لي لأتفحصه. فكرت بأن حماس الأب قد خمد لأنهم لم يرسلوا صحفياً انكليزياً (أصلياً). هاجر الأب وجاء إلى هنا في عام 1976، أخبرني، وكان يعمل بدوام كامل منذ ذلك الحين.

(لم أكن متراخياً أبداً. ولم يكن يهم نوع العمل الذي اشتغل به. أنا أعمل مثل عبد (قالها بالعربية)

(عبد؟) قلت بحذر. أومأ برأسه شاكراً. لقد قصد الشخص الأسود، أي شخص أسود، أفريقي. وكتبت في ملاحظاتي (السيد شفيق المجّد).

لقد أرسلت الصبي لزيارة عائلة والده في بغداد. لسوء الحظ، صادفت زيارته مع اندلاع (عداوات) وجمع كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخمسين المقيمين في الجوار. بعد أسبوعين وجد نفسه جالساً في ملجأ على الحدود السعودية الكويتية ويرتدي الزي الرسمي ويحمل بندقية لا يستطيع رفعها إلا بصعوبة. كل من في الملجأ كان مرعوباً حتى الضباط منهم. إذ لم يحتمل التبول عليه، قال الولد، بنظرة سريع نحو أمه، لكن لم يكن لديهم أي خيار، وحدات الحرس الجمهوري الصلبة كانت تجوس المكان في الخارج وتطلق النار على كل من يحاول الهرب أو الاستسلام. كان الحلفاء يقصفونهم كل ليلة. بعضهم فقد رشده وجن.

لم ينتبه إليهم أحد. كان النوم مستحيلاً وتعرضوا إلى قصف كثيف ليلة بدء الهجوم البري. في الصباح التالي وجد نفسه جالساً مصعوقاً حول بقايا الملجأ المنهار على شكل كوم وأذانهم كانت تطن حين ظهرت القوات الأمريكية بعد ساعات.

(لقد تأخرتم-اللعنة،) كان تعليقه الأول للجندي المندهش من وحدة المشاة الرابعة والعشرين الأمريكية.

(آسف يا أمي) ضحك ضحكة مكبوتة وكذلك والده.(لم يصدقوا أنني أتكلم الانكليزية بشكل صحيح)

(هو يتكلم إنكليزية جيدة) أكد الأب حين قادني إلى الخارج.(أنه ولد طيب، نحن سعداء بعودته إلى البيت. نحن لا نحب صدام) صافحته عند الباب. علا صوت قهقهة في الداخل حين بدأت الأخوات

اللواتي كن صامتات بحضوري في مناقشة زيارتي. (إنها تطبخ له كل الطعام الذي يحبه. لقد أصبح بديناً حيث لم ينتبه لنفسه. إنه لا يزال مجرد صبي.)

(لقد كان محظوظاً جداً)

(ليس الحظ. الله أعاده لنا لسبب، ربما السبب أن تكتب تلك القصة وتخبرهم، الشعب الانكليزي. ليس كل الشعب العراقي سيئاً.)

كتبت القصة بالشكل الذي أراده هارفي غرينباو بعنوان: " صبي مانسفيلد يتحدى جلاد بغداد"

لكن عندما رحل الصيف قرروا عدم اللجوء إلى خدماتي وذلك علامة على إنتهاء مهنتي كرجل صحافة. لم أعد أسبح أيضاً. لقد نسيت ذلك حين جئت إلى إنكلترا فالطقس هنا ماطر. لم تكن البركة المعقمة بالكلور نهراً ولا أنا مارك سبتز، لهذا توقفت. نسيت الموضوع برمته بعد فترة. للزمن عادة تدوير وقائع حياتك حتى تنسى من أين ابتدأت ولماذا؟

الفصل العاشر

كلما لاحت باريس في الأفق واقتربت أصبحت اقل تأكدا من سبب ذهابي إليها. في الحقيقة أنا لا أعرفها جيداً وكل ما لدي عن المدينة تصور رومانسي، كعاصمة للتعبير الفني تعج بالأفكار وملتقى للكتاب والفنانين والموسيقيين. لم يكن لدينا خطة حقيقية لما سنفعله فيها وتبين أيضاً بأن ذاكرتي للمدينة أقل دقة مما توقعت. خلال خمسة عشر دقيقة، ضربت بمقدمة سيارتنا متزلجة نجت بصعوبة من الدهس وانطلقت مرتبكة وإحدى مرايا سيارتي الجانبية تحت ذراعها. فقدت التوجه تماماً، كنت في حالة من الذعر المتصاعد، فبدأت بتحريك عجلة القيادة يميناً وشمالاً بصورة عمياء متتبعاً السير السريع. عبرنا المراعي الريفية الوقورة التي تركناها خلفنا للتو، جاء وجودنا كالصدمة وسط هذا الجهد الهائج الذي يجعل كل شيء يطقطق ويطن حولنا مثل صدمة.

أخيراً نجحت في التوقف في أرض خالية، وركنت السيارة. نزلت من وراء المقود وأنا أشعر بالتيبس والتجفاف وأرتجف بقوة وهياج. لم يكن لدي أي فكرة عن المكان الذي كنا فيه في المدينة ولا نية في التحرك.

(أين سنمكث؟) سأل ليو وهو يتطلع حوله.

(هذه المنطقة لا تبدو سيئة) اقترحت. بدا ابني مشككاً. بدأنا في المشي، وبعد أربعين دقيقة من المشي في دوائر، جررته إلى ردهة فندق متواضع وهو يتذمر ويتمتم. كان فندقاً صغيراً ضيقاً ومظلماً. بدت الستائر الثقيلة كأنها سترتفع لو لوحت لها بعلبة كبريت. لكن أشك بأن الغرفة نظيفة، إن لم تكن بالية حتى وذلك بسبب تدني السعر.

(تبدو مثل كهف دراكولا) كانت شهادة ليو بالغرفة، لم أكن متأكداً إن كان هذا جيداً أم سيئاً. كان المرحاض في نهاية الصالة وباب الخزانة يخرج من مكانه بيدك إن لم تكن حذراً. تركنا حقائبنا هناك واتجهنا إلى أقرب مقهى.

(ها نحن وصلنا الآن) قال (وماذا بعد؟)

(حسناً) بدأت (سيكون لك واحدة من أهم التجارب في باريس، فأنت تجلس في أحد مقاهيها وتراقب العالم وهو يمر من حولك) نظر حوله ثم عاد إليَّ وقطب جبينه.

(حسناً، حسناً) فتحت خريطة التقطتها من الاستقبال. نحن قريبان من قصر الجمهورية (الطريقة الوحيدة لرؤية المدينة بشكل مناسب التجول فيها على الأقدام)

(لا يعطيك شعوراً حقيقياً بالمكان سوى المشي وإلا فإنك ستندفع مستعجلاً من مكان لآخر دون أن تدرك تناغم الصورة الكلية)

(بابا ما هو المغزى من المشي حين يكون لدينا سيارة؟)

(أنت لم تقد سيارة في المدن. كثير من المشاكل والمسؤولية. تمضي كل الوقت في محاولة إيجاد مكان لركن سيارتك فيه ودفع الغرامات.) حدق ليو بي وقتاً طويلاً وبدأ يتساءل من يكون هذا

الشخص الذي يسافر معه.

(حسناً لنمشي) قال مستسلماً.

بعد أن تجاوزت عدد قليل من الأبنية، كان لا يزال يمشي خلفي متخلفاً عني مسافة، وهو يمضي كثير من الوقت في تفحص الدمى التي تعرض الأزياء في واجهات المحلات أو الخرائط المثبتة على مواقف الحافلات. لوحت لسيارة أجرة ووضعته في داخلها.

(باريس كبيرة وفيها أشياء كثيرة للتفرج. ليس لدينا وقت نضيعه.)

(تفكير جيد يا أبي) ربت بيده على عنقي.

وصلنا إلى النهر وجلسنا على الرصيف في الشمس غرسنا أرجلنا في الماء ولوحنا للناس الذين انطلقوا في نزهات بقوارب لها جوانب زجاجية.

(دعنا نضع مجموعة من القوانين) قلت.(سنختار الأماكن التي سنذهب إليها بالتناوب)

(لا مكتبات)

(لا أمكنة فيها طوابير ننتظر حتى ندخل إليها)

(توقف كل ساعة لتناول البوظة)

تجولنا باتجاه نوتردام فوجدنا حشوداً من الناس في الخارج تتحرك بشكل دائري كالقطيع للدخول. مددنا أعناقنا لننظر إلى البناء، كانت الواجهة قد صقلت مؤخراً وأصبحت بلون العظم المبيض. كل ما حولنا كاميرات تنفجر مثل أسلحة نارية سريعة. اقترب رجل تبدو عليه الفخامة وقف بجانبي، تحسر بصوت عال قبل أن ينظف أنفه بمنديل كبير ثم بدأ يلوح بمظلة مخططة بالهواء.(إلي، إلي !) أمواج من الأشخاص الذين يرتدون السراويل الملونة بدؤوا في الاقتراب منا. أمسكت بمعصم ليو وقدته وأنا ممسك به بقوة عبر الحشد إلى شارع جانبي. من السهل أن ترى كيف كانت السياحة ستضع نهاية لقصف الباستيل.

(أحدب نوتردام، هل تتذكر) قلت ونحن نجتاز مقهى بعلامة كتبت بالإنكليزية" الأحدب والفرسان الثلاثة؟"

توسعت عيناه من الإثارة. (هل يسكنون هنا؟)

تركته يطلق ضحكته الصغيرة قبل أن نواصل. (الرجل الذي كتبها، الاسكندر دوماس، دوماس كان إسم جدته، وهي عبدة من جزيرة سانت دومينيغو.)

(هل كانت جدته عبدة؟) لقد سمع ليو بالإسم ولا يعرف عنه سوى أنه شيء سيء.

(قاد والده قوات نابليون في معركة الإهرامات الشهيرة وحين رآه المصريون رجلاً ضخماً يحمل عليهم سموه بملاك الموت الأسود) وصلنا إلى وقفة.

لاحظت بأن سرواله بدأ يبلى وفردة حذائه مثقوبة فدونت بعقلي البحث عن علامة خصم في واجهات محلات الألبسة.

(أنت ألفت كل هذا أليس كذلك؟)

(كلا) هززت رأسي.(لكني لم أفكر بها منذ سنين) أومأ برأسه متفهما ثم أخذ يدي وقادني. أعرف من أين جاءت طبعاً، من أبي واعتناقه لحركة حقوق الإنسان في الولايات المتحدة، لم أكن متأكداً إن كان هذا يعود إلى قناعاته السياسية ومدى صحة زعمه بأنه رأى ديفيس الصغير مرة وهو يرقص الفالس في محطة بادينغتون في ثوب حريري ويتبعه نادل يحمل قارورة شمبانيا في سطل من الجليد.(قصة كان يكررها عند أول تلميح لوقوع القبعة الشهيرة). كل مجوعة أبي من التسجيلات كانت تتألف من ألبومين، الأول لبول روبنسون، كان يغني لنفسه اوول، رجل النهر (حين يعتقد بأن ليس هناك من يسمعه) والألبوم الثاني كان الخطابات الأبدية لمارتن لوثر كينغ الصغير. المرة الوحيدة التي حاولت بدافع الفضول أن أضعها في مسجل السانيو المحمول، تبين بأن الشريط البلاستيكي التف بشكل سيء بسبب الحرارة وانحرف للأعلى وللأسفل على القرص الدوار كأنه صحن فضائي متأرجح خرج عن السيطرة، ثم أخرجته مباشرة خوفاً من أن يطير بعيداً. ظهر دوماس في صالة والدي الخاصة عن الاستغلال والخداع:

(يتركونك تعتقد بأنه أوروبي مثلهم. لم يقل أي أحد أبداً إنه أفريقي في الحقيقة، عبد.)

(شبه عبد)

(لا يوجد شيء كهذا) قال أبي (عبد مرة عبد دائماً. إنه شيء يجري بالدم. بطريقة خاصة، كما تعرف.) كان دوماس أحد الروائيين القلائل الذين رأيت والدي يقرأ لهم. كانت روايته المفضلة شخصياً (الكونت مونتي كريستو)، اختيار واضح ربما. (يمكنك القول إنه أفريقي بمجرد قراءة أعماله، من الطريقة التي يمسك فيها بالحكاية)

(ما رأيك بديكنز؟) أنا، المراهق المشاكس لم أتحمل كل هذه الاهانات، مهما قال، أنا أعرف أفضل منه. وأعرف أيضاً أن جذور مزاعم والدي بولائه الإفريقي ليست عميقة، وخزة إصبع خفيفة ويكون هناك. خط أبيض من حبه للإنكليز. أحب اللغة وأقدس ديكنز وشكسبير ودبليو بي ييتس الذي كان يلفظ إسمه بشكل خاطئ رغم أن والدتي كانت تصححه له بصوت عال دائماً حتى بحضور عضو المجلس الثقافي البريطاني ذو الوجه المطاطي وزوجته المتعطشة للكحول، التي من دون شك انفجرت باستهزائها في تلك الليلة الجميلة من السكان الأصليين وحبهم الغريب لسادتهم السابقين.

(آه، ديكنز، كان قصاصاً جيداً)

عزيت هذا التناقض إلى كرة الغولف المميتة. كان يَكِنُ لهم الكره والحب بنفس الوقت لماذا، حتى أنه تزوج بواحدة منهم. لكن قد يفسر هذا بأنه وسيلة لاغتصاب تفوقهم فقد تسلل مثل غزاة العرب من تحت أبواب الخيمة لإغواء نساء قوم العدو. في السنوات السابقة حسب ما قالته أمي، لم يكن هناك شيء يثنيه عن الفطور البريطاني العظيم- شرائح لحم الخنزير المملح ونقانق لحم الخنزير الرقيقة لكنه رغم ذلك لم يعترف بهذا أبداً في حياته اللاحقة. لقد وصل إلى لندن في عام 1955 ،شاب في الخامسة والعشرين حصل على منحة دراسية في كلية ياردارم للصحافة في هولبورن والتقى بأمي في محل للشاي في تشانسري لين حين كانت تعمل لحساب محامي قريب من ذلك المكان.

في تلك الأيام السعيدة، والاستقلال على الأبواب كانت لندن تغص بالأفارقة المشتهرين بضيق بدلاتهم وربطات أعناقهم الذين ظهر منهم لاحقاً رؤساء دول مثل الدكتور هاستيفنس باندا، رئيس

مدى الحياة وزعيم دهماء سيء الصيت في مالاوي (كانت عيادته قريبة من سكن والدي في بادنغتون، الدكتور هاستيفنس باندا - ممارس عام.) عاد أبناء بلده المنحدرين من عائلات محترمة إلى الوطن كسودانيين يحملون شهادات البكالوريوس والدكتوراه يستعدون لليوم الذي يسلم فيه البريطانيون اللجام. كانوا منشغلين بتعلم تداول ومناقشة السامي والدنيء في الثقافة البريطانية بنفس الوقت. السامي هو التعلم والصراع مع لغة تحدت ألسنتهم (ساحة لاي-سيستر) والأدب (ما الذي قصده شكسبير بالضبط حين كتب "أخرجي أيتها البقعة اللعينة، اخرجي!؟" أما الدنيء فكان في المظاهر الحادة الغريبة في بريطانية. المناخ الصارم لأصحاب البيوت والغرف التي يستأجرها الطلاب ويشتركون مع الغرباء في ماء الحمام واستخدام دورة المياه. اللافتات التي تعلن "لا سود أو ايرلنديون". (لماذا وقع الاختيار على الايرلنديين؟). معايير السلوك الجنسي لصاحبات الفنادق. أهمية الحانات التي يمكنك أن تتدفأ فيها بجانب الموقد بدلاً من التجمد حتى الموت في غرفة باردة ومظلمة وكئيبة. هنا كان المكان الذي ولد فيه حبه للطبقة العاملة (البروليتاريا)، في الصالونات ذات الأجراس والصالات والمشارب الصاخبة بهتافات التشجيع، أشخاص يلتفون بمعاطف ثقيلة ويضعون الزيت على شعورهم التي مشطوها بطريقة وحشية بفرقها على أحد الأطراف (لدرجة إن واجهته أمه تجد صعوبة في التعرف عليه)، يقف كتفاً إلى كتف مع العمال في أمسيات متجمدة في مهرجان خطابات النقابات العمالية في هايد بارك، حركة العمال البريطانيين. نادي ويغان، كليمنت اتلي وهارولد ويلسون، هؤلاء (العبارة منقولة دون أي تعديل) هم الانكليز الذين يمكنك رفع قبعتك احتراماً لهم.

تابعنا أنا وليو رحلتنا المسلية. في رود دو تيمبل اكتشفنا أنه بالإمكان شراء أي نوع من الحلي العالمية تحتاجها لتجعل حياتك كاملة سحالي وتماسيح مصنوعة من خشب الأبنوس الأسود، قبعات دوغون، أقنعة سحرية تجعل من إمرأة من سكان ساحل العاج لبنية البشرة لدرجة تشك بها على أنها مونيكا ليفينيسكي(فاتحة فمها). تماثيل لبوذا بخديه السمينين تجلس بجانب ثعالب في سياط والجمة جلدية، محل سكاكين يعرض أنواعاً هندية ذات شفرات معقوفة وبجانبها خناجر متموجة من بالي. أنواع غير مألوفة من الخضار والمساحيق الغريبة وجذور أعشاب ترابية والمنيهوت. في كل مكان تذهب إليه في باريس تشعر فيه بأن العالم أصبح أكثر تداخلاً مع بعضه البعض.

خارج الأهرامات الزجاجية في متحف اللوفر وقف صف من الشبان النحيفين الطويلين الذين أتوا من أماكن بعيدة مثل دكار وكوناكري ولومي وابيدجان ونامكو. كل واحد منهم لديه قطعة مربعة من القماش مفروشة أمامه وعليها مجموعة مصفوفة من الأقراص المدمجة والنظارات الشمسية وأتساءل إن كان أياً منهم قد دخل المتحف لينظر إلى الأعمال الفنية المعروضة فيه. على كل حال أنا أعرف الإجابة. إن دفع المال من أجل الوقوف والتفرج على لوحات قديمة يأتي في أسفل الأوليات حين تحاول أن تقتصد في العيش من الأرصفة. في لحظة ضعف دفعت مبلغاً باهظاً لأشتري لليو سيارة صنعت من علبة سردين. فعلت ذلك بسبب الحنين لأنها ذكرتني بالسيارات التي كنا نصنعها ونحن صغار ولأسباب أخرى أيضاً.

هناك لافتات تعلن عن معرض خاص بعنوان "الفن الضائع من الذاكرة" عن الطرق المختلفة من الفن الحداثي للعصر الحجري القديم وبعده، دُوّنَ الإنسان حضوره: الرسومات اليدوية على الجدران، الثيران في كهوف لازكو، الصور الظليلة الغريبة لمخلوقات عجيبة وجدت في تامريت ويابارين في الصحراء. أشياء أغرتني جداً لكن حين دفعنا الطابور إلى الداخل شعرت باحتقار

متزايد حين لمحت الأسعار التي فرضوها. هذه ثقافة مثل معدات الموضة أرفض مجاراتها. بعيدة جداً عن شمولية الفن والتراث الإنساني وعالميته. إن الأساس والجوهر الإنساني للمجتمع يتشظى إلى صدوع عميقة. من الآن فصاعداً لن يقدر أحد دفع المال لمشاهدة هذه الأعمال الفنية سوى الأقلية ذات الامتيازات المتزايدة. ربما كانت الأمور على هذا الشكل دائما لكننا كنا نعتقد بأنها سوف تتحسن.

ذهبنا إلى الموناليزا مباشرة فوجدناها محاطة بقبيلة صغيرة من المراهقين الذين كانوا يثرثروا بلغات مختلفة عديدة كما كان هناك معلم ينشد لهم متحذلقا لكن اهتمامهم انصب على الإشارة إلى الزوار الآخرين والقهقهة. تابعنا جولتنا في المتحف ونحن نحاول تجنب الأسراب التي يقودها مرشدو السياحية. لقد تأكدت بأن الثقافة الجماهيرية أصبحت صناعة عالمية ضخمة. نفس الشركات المتسلسلة ذات الامتياز والبارات والمتاجر والمطاعم والأفلام والموضة والتسجيلات الغنائية والحب والكره والأحلام. إنها مثل حديقة ألعاب ضخمة تسمى بالعالم كل شيء فيها نسخة لمنتج في مكان آخر. إن فاتك استعادة رامبرانت في روتردام فستراه في مدريد أو براغ. بدأت مدن أوروبا في الاندماج في فضاء مديني متصل واحد، لم يعد مقسماً بالمسافات وإنما هو طبقة عمودية وفقاً للمنفذ الذي يمكن لثروتك أن تشتريه.

حين خرجنا وعدنا إلى ضوء النهار كنا قد اكتفينا من المتاحف فذهبنا لتناول الطعام في مطعم صاخب مزدحم مليء بأشياء وأناس كثر يمكن التفرج عليهم. كان ليو مفتوناً بالناس واعتبرت هذا علامة طيبة. لقد رأينا ما يكفي من الصروح وقررنا العودة إلى فعل ما نشعر بأننا نحبه. لهذا أمضينا الساعتين التاليتين في الاتجاه الذي كان يشدنا أكثر من غيره. أكلنا البوظة ووقفنا ليجلس ليو على إحدى المناضد للتفرج على المارة. اشترينا فطائر رقيقة مغطاة بالشوكولا واستلقينا على العشب المشمس في الحديقة وأخذنا غفوة بسيطة.

بعد أن شعرنا بالإرهاق في ذلك المساء اخترنا المترو وندمت على ذلك منذ اللحظة الأولى التي أصبحنا فيها على متن القطار. شعرت بدوار طائش وعادت مخاوفي حول ما نفعله هنا. جلس أمامنا زوج وزوجة كبيران في السن يرتديان سترات رياضية فضفاضة وسراويل قطنية زرقاء (دينم) وأحذية رياضية وفي الطرف المقابل رجل أسود متأنق في بزة كتانية وقميص ارجواني كان يحدق بصورته المنعكسة على النافذة الزجاجية. توهجت نظارته بالضوء المنعكس. التقارب البدني يجعلنا غرباء بدلاً من أن نكون جماعة ويؤكد على فرديتنا بدلاً من الإنتماء. وهج المصابيح الغازية يعري النهايات العصبية للمجتمع كاشفاً عن التوحد والخوف والهواجس والحب والرغبة والكره ويظهرها كلها على السطح. رجل أشعث يمسك بعلبة من الجعة دخل إلى العربة وعَبَرَ عن حقد غير مفهوم صَوَبَهُ نحونا كلنا. تظاهرنا بعدم وجوده، وأمدنا وجوده بشعور في اتحادنا. لم نُعِرْهُ أي انتباه. ظهر موسيقيان وعزفا لحناً سريعاً "تلك هي الأشياء" ثم دخلا مباشرة في شيء يشبه الموسيقى الغجرية ثم أسرعا في محاولة للانتهاء قبل أن تفتح أبواب المترو في المحطة القادمة. ربما هما والد وابنه، عندها قررنا أن نمشي ما بقي من الطريق، نزلنا من القطار وانطلقنا إلى المخرج ثم بدلت رأي وعدت راكضاً ورميت بقطعة نقدية في يد الرجل الكبير قبل أن يغلق الباب.

خرجنا من القطار ، حل المساء حين وصلنا للفندق. استدرنا إلى شارع آخر لنكتشف بأنه مزدحم بالنساء، أكثرهن ممتلئات وبدينات. بدت إحداهن كما لو أنها خرجت من إحدى لوحات تولوز-لوتريك، تضع طبقة سميكة من الحمرة على خديها. إمرأة عملاقة وقفت في المدخل وهي تبتسم

لي، متناسية وجود طفل بعمر السابعة ممسكاً بيدي،(مساء الخير يا سيدي) قالتها بطريقة رقيقة كما لو كنا جاران يتبادلان المزاح في الرواق ماعدا أنها كانت لا ترتدي سوى مشد رقيق حول خصرها دون أي شيء آخر غيره. تمتمت قائلاً (مساء الخير). جرني ليو وأبعدني ومشينا بسرعة. كانت النساء تتسكعن في الشارع دون هدف، بعضهن في ثياب غريبة لكن كلهن يلبسن ثياباً نقص منها أقسام ضرورية.

(أنظر، تلك المرأة مرتدية زي شرطي وهناك واحدة أخرى في زي ممرضة!) لم يعرف ليو إن كان عليه أن يضحك أم يغطي عينيه ولا أنا أيضاً. لكنها كانت صورة غريبة ومثيرة. كانت هناك فتاة شقراء ترتدي نظارة كبيرة ظهرت بملابس مراقب مرور حقيقية لكن حين استدارت تأكدت بأن التنورة كانت مقصوصة لتكشف عن عجيزة وردية مترجرجة. هناك جو من الفخامة والأبهة في كل شيء، مثل كرنفال أو عرض للملابس الغريبة لكنه افتتح للتجارة والعمل. ووجدت نفسي أتذكر ما الذي كنت أعرفه عن هذه الأشياء حين كنت بعمر ليو.

في الشارع الذي عشنا فيه كان هناك بيت متقوض في نهاية الطريق التالي تقام فيه حفلة كل ليلة. كانوا يعلقون مصابيحاً ملونة بأعلى الجدران وتعزف فيه موسيقى صاخبة كل الوقت. عند المتجر الذي في الزاوية كان هناك أشخاص يتحدثون مع فتيات بنوع من الألفة الحميمة التي تلمح إلى معرفة خفية مشتركة، أثناء النهار حين تكون الأشياء هادئة جداً، كان يشبه أي بيت عادي. كنا نعرف بوجود عالم سري خلف أسواره. سيل من الرجال الغرباء يمرون عبر تلك الأبواب عند العصر. كانت هناك واقيات كثيرة مبعثرة في الساحة القذرة أمام البيت حيث تُلقى القمامة، مثل أسلحة فتاكة حين تقذف بها شخص في طرف عصا.

وجدنا أنفسنا وسط حشد من الرجال المتجمعين حول باب خشبي واسع بالي وهناك علامة صغيرة تشير بأنه مسجد.

(دعنا ندخل) اقترحت، أنا غير مؤمن، لم أدخل مسجداً منذ اليوم الذي كانت فيه في جنازة والدي. استطاع ليو أن يخبرني بأن هذا غير عادي وقال (لماذا؟)، حين رأى مجموعة من الرجال كلهم من كبار السن بلحى رمادية التصقت بوجناتهم المجوفة ورجال أصغر عمراً في شعورهم المصففة بأناقة للخلف. يبدو أنهم جاؤوا من مختلف مشارب الحياة، بعضهم في بدلات وربطات عنق وبعضهم الآخر في وزرات أو سترات بقبعات أو جلابيات وآخرون خليط من القديم والحديث، أحد الرجال له لحية ضخمة كان يلبس بيجاما وغطرة تحت معطف رث.

(لألقي نظرة فقط)

(كلا) هز ليو رأسه متراجعاً للوراء. (إذهب أنت، أما أنا فسأنتظرك هنا)

(لا أستطيع تركك لوحدك في الخارج. إفترض أن شيئاً ما حدث؟)

حرك عينيه بنفاذ صبر.(ما الذي يمكن أن يحدث؟ سأنتظرك هنا. لن أذهب إلى أي مكان آخر. أعدك بذلك ولن أتحرك، إذهب) قال وهو يبعدني (سأكون هنا حين تعود)

لا يوجد أي عذر لترك طفل بعمر السابعة وحيداً في شارع في مدينة أجنبية ولو لمدة خمس دقائق فقط. لكن (عليك أن تعدني بألاّ تتجول بعيداً، ابق في مكانك هنا في المدخل، ولا تتحدث مع أي

شخص. حسناً، سألقي نظرة سريعة ، إن حدث أي شيء غريب تعال إلى هنا وادخل مباشرة ستجدني أمامك.)

أومأ برأسه ولوح لي بيده واستدار ليدس يديه في جيوبه ويحدق حوله كأنه يقف في زاوية شارع طيلة حياته.

هذا جزء من أعمال التسيب، السماح لطفلك بأن يكون بعيداً عن نظرك لفترة من الوقت. لقد كانت متوالية بدأت قبل سنوات من ذلك حين أخذناه إلى الحضانة لأول مرة في حياته وتركناه برعاية أغراب.

(إنهم ليسوا أغراباً) هتفت ايلين.(إنهم يتقاضون أجراً على هذا)

حدث هذا كله أمام باحة بيت أمامية، بيت شبه منفصل فيه حيوانات مصنوعة معلقة بالنوافذ ووجوه لعشرات الأطفال وبضع راشدين مهتمين يحدقون بنا من وراء النافذة حين كنا نجر ونسحب الطفل للإمام والخلف بيننا.

(إنه غير مستعد)

(المشكلة ليست به)

كان رأيها سليماً. كل ما كان يحيط بنا هم أمهات وآباء تركوا أبناءهم الأحباء دون أن يلقوا نظرة من وراء ظهرهم. في السنوات القادمة وجدنا أنفسنا أيضاً نلوح لهم مودعين حين ذهبنا بعيداً عنه إلى مخيم صيفي لمدة ثلاثة أيام لكن في تلك اللحظة وقفتُ هناك غير قادر على القبول به. أردت هذا. أردت أن أكون جزء من مجتمع الآباء العقلانيين ذاك الذين يستطيعون تسليم أولادهم ثم استعادتهم ليخصصوا يومهم للتركيز على سيرهم المهنية لكني لم استطع فعل ذلك. في الداخل كان الموظفون يبعدون الأطفال عن النوافذ ليتوقفوا عن التحديق في الشخصين المتقاتلين حول عربة طفلة في الخارج. صفقت أبواب السيارات بقوة من حولنا عندما خطفت النسوة أنفسهن بسرعة وجلسن في مقاعد السيارات ليسرعن بالذهاب إلى اجتماعات الهيئات الإدارية وغيرها. حكم علي بالبقاء مشلول إجتماعياً. سيبقى العالم مغلقاً أمامي لأنني لم أستطع أن أجلب ولدي وأتركه مع جماعة من الأشخاص المدربين لبضع ساعات.

والآن ها أنا أمهد لهجره في زاوية شارع يحيط به رجال غرباء وموكب من مدمني المخدرات يمشون ذهاباً وإياباً في استعراض بتشكيلات منوعة من الملابس الغريبة المصممة لإغراء نموذج غريب من الزبائن لكنني شعرت بأنني مجبر على الذهاب إلى الداخل دون أن أتأكد من السبب.

وهكذا مشيت عبر البوابة التي لا تتميز عن بوابة أي متجر آخر في الشارع لولا العلامة الصغيرة الملصقة على الجدار، وهي بحاجة ملحة إلى الدهان في الواقع. عبر باب معمل قديم صدئ وقذر شقيت طريقي وسط حشد كان يتجمع حول بيت الدرج. في الطابق الثاني اكتشفت قاعة ومجموعة من الرفوف البسيطة الموضوعة على الجدار لكي يترك الناس أحذيتهم عليها. رميت حذائي بسرعة قبل أن أستطيع تغيير رأيي ودخلت عبر المدخل.

شعرت بإحساس جليل من الطمأنينة والانسجام يغمرني مباشرة، نوع من الارتياح لكوني في حماية شيء أكبر من نفسي، شيء يعترف بي. بدت الزينة الداخلية غريبة للوهلة الأولى بالنسبة للبناء، الأقواس القرميدية التي كانت منذ سنوات ليست بعيدة، معمل ألبسة تتنصت راضية إلى أصوات

مكنات الخياطة والمكابس البخارية، أعارت نفسها الآن إلى صناعة الصلاة. على طول الجدران بين أنابيب البخار القديمة، علقت سلسلة من الرايات الحريرية السوداء التي طرزت بالذهب بمقاطع من القرآن كتبت باللغة العربية. في النهاية البعيدة من الغرفة باب خشبي نقش بشكل معقد، المحراب يشير إلى الجهة مكة. غطيت الأرض بسجاد فارسي متقاطع.

حسن الانتماء سلب توازني. لم أكن متأكداً مما توقعته. لقد فرغت من الكنائس، زرتها من أجل الهندسة المعمارية، للشعور بالتاريخ الذي يكسبه المرء من الجدران الحجرية والأقواس وليس من أجل العزاء الروحي أما هذا المكان فلم أدخله من أجل الهندسة المعمارية الصناعية في القرن التاسع عشر كما لم تكن العاطفة الدينية كبيرة في نفسي. لذا ما الذي افعله هنا؟

يفترض بأن الصلاة قد انتهت. تلكأ عدد من الناس وجلسوا على الأرض على شكل مجموعات صغيرة أو في عزلة تأملية. أخذت خطوات قليلة أخرى باتجاه وسط الغرفة. لقد مر وقت طويل على أول مرة حاولت أن أصلي فيها، قبل أكثر من سنة في الجامع الذي في ريجينت بارك. ركعت مع الآخرين ثم عدت بسهولة. كنت وسط حشد من الأقرباء والأصدقاء القدامى ماعدا أخي ميوك الذي لم يكن أحد يعرف مكانه. كانت ياسمينة ورائي، خارج مجال نظري، في صالة النساء. احتجت إلى محاولة كبيرة من التخيل للتصديق بأن والدي كان في ذلك الصندوق الخشبي الذي ادخلوه من باب جانبي. وجدت نفسي أتحرك مع الحشد الذي وقف متكاتفا معي كأنني في موجة بشرية. أنحني معه حين ينحني وأركع حين يركع. كانت رائحة الأجساد والتعرق تملأ المكان.عدد كبير من الكائنات الحية تعيش وتتنفس وتفكر ككائن واحد. فجأة تجد نفسك في قبضة هؤلاء الرجال كلهم، بأقدامهم التي لا يظهر منها سوى أصبع القدم الكبير من الجوارب. كان هناك صرير أطراف وألم مفاصل حين يسجدون لتلامس جباهها الأرض. كان هؤلاء في وسط وجودهم ، بين الولادة والأبدية. كانت هناك بضع دقائق شعرت بأنهم جزء من الإنسانية.

ظهر بجانبي رجل صغير الحجم وأنيق يلبس برنص مغربي طويل بلون القشدة مزين بتطريز ذهبي حول الصدر وله لحية مشذبة صغيرة. من ثيابه الأنيقة وأسلوبه افترضت بأنه يحمل نوع من السلطة. تمتم بشيء اضطررت للانحناء إلى الأمام لأسمعه وكرر قوله لي:

(لا صور ولا سياح) هز رأسه من طرف إلى آخر. بإحساسه بوجود شيء خطأ وقف رجل ضخم قوي البنية له لحية سميكة ورأس حليق بشكل ناعم بجانب الباب وبدأ يتحرك ببطء. انحنت ساقاه إلى الخارج تحت ثقل جسده مثل جذعي شجرة ثقيلة.

(لا، انتظر، أنظر، أنت لم تفهم. أنا مسلم) "قلتها بالفرنسية"

(مسلم) ارتفعت نغمة صوته وبدا مستاء. كانت عينا الرجل الضخم الصغيرتان تتنقلان بيني وبينه. (هل تود أن تصلي؟) قال بالإنكليزية ثم أضاف بالفرنسية (هل تريد إقامة صلاة المغرب؟)

هل أريد أن أصلي؟ وإن كنت كذلك فهل أريد أن أصلي أمامهم وهم يتفحصونني من أجل أي علامة أو زلة تشير إلى عدم التوقير؟ بدأت بالذعر.

(لا، أقصد نعم، أردت أن أجلس هنا لفترة بسيطة فقط. هل فهمت؟) دافع الصدق داخلي غسل الكذب. نظر الرجل الذي يرتدي البرنص إلي بثبات كما لو أنه يفهم بشكل صحيح رغماً عني.

كانت نظرة حزن أكثر مما هي نظرة إشفاق.مد يده للأمام ليقودني إلى المخرج وهو حريص بأن لا يلمس كتفي.

(لا يوجد سياح هنا، من فضلك) قال بالفرنسية.

(أنا لست سائحا)

ازدادت حدة صوته.(عدم احترام الأديان. أنت لا تريد أن تصلي. هذا المكان للصلاة.) كان يتكلم بسرعة الآن. اختلط حماسه بالنظرة الحادة اللئيمة لوجهه التي ذكرتني بزوج أختي عمر، عمل خيري قريب من وصفي الآن.

من فوق كتفه رأيت الرجل الضخم التي كانت عضلات ذراعيه بارزة في صدره المكتنز. كان هناك شق واضح في سروال بدلته الرياضية حين استدار ليقذف بي إلى الخارج.

(حسناً) قلت أخيراً.(أنا مغادر. السلام عليكم)

(وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)

ظل يراقبني عند مدخل الباب وأنا أخرج حذائي. جاء اثنان آخران يستفسران عن المشكلة. أشار إلي واستدار بعيداً. هبطت الدرج شاعراً بإذلال، لم يكن له الحق في منعي من الدخول ولا أن يحكم علي إن كنت جديراً بأن أكون مسلماً لم لا. كان يجب أن أصر، لكني لم أفعل.

اندهش ليو حين رآني أعود بسرعة. كان في المكان الذي تركته فيه، يتفحص رأس نعجة جالسة ولسانها يتدلى إلى الخارج في واجهة محل جزار الحلال.

(حسناً، هل كان الآمر يستحق؟)

(لست متأكداً، ربما بطريقة مختلفة عما توقعته)

هز رأسه متعجباً.(أنت تقول أغرب الأشياء أحياناً).

في ذلك المساء خرجنا لنلعب البولينغ. استدارت عينا ليو حين سمع الاقتراح. لم نذهب لنلعب البولينغ من قبل وأنا لم ألعبه أبداً، لكننا في إجازة وهذه هي الأشياء التافهة التي يفعلها الناس في إجازاتهم، أليس كذلك؟ قرأت العلامة التي في الشارع حين اقتربنا تأكدت بأنني كنت أخاف من مثل هذه الأماكن دائماً. لماذا؟ ما الخطأ في الذهاب إلى صالة البولينغ؟ من يذهب إلى هذه الأماكن على أي حال؟ أمسكت بيد ليو وقدته لنعبر الشارع ثم صعدنا الدرج. منذ دخولنا دُهِشْت حين وجدتها أكبر مما تخيلت بكثير. عالم كامل لم أره من قبل. لم نلفت انتباه أحد. الموسيقى الصاخبة والأضواء المبهرة وهتافات الإثارة الآتية من مسارات البولينغ جعلتني كلها أتساءل عن الحكمة من هذه المغامرة. أنا لست متأكداً بأنه في استطاعتي فهمها. كانت هناك موسيقى كانتري وموسيقى غربية تعزف عبر مكبرات الصوت تقطعها نداءات من طاولات الطعام السريع في مكان ما- فتيات ينطلقن بسرعة على زلاجات ويحملن أطباق طلبات الطعام السريع. إنه مكان أشبه بأفلام السينما.

(هيا، تعال) قال ليو.(ستكون متعة كبيرة)

نعم، ستكون كذلك في أغلبها. لقد مررنا بكل الطقوس من دفع السلفة، استلام رقم المسار، تبديل الأحذية، حين حصلنا على أحذيتنا الحمراء والبيضاء ولبسناها نظرنا إلى بعضنا وانفجرنا بالضحك فوراً.

تبين لي بأن العمل الفعلي، دحرجة الكرة في المسار وإصابة القوارير أصعب مما بدا عليه بكثير. واجه ليو مشكلة في تجميع قوته الدافعة وترك الكرة بطريقة لا تسقط فيها على قدميه أو تسقط في قناة الفرار التي على الجانب للتدحرج وراء القوارير دون أن تلمسها. لم يستطع رفع الكرات الصغيرة للبدء بها، كان بحاجة إلى التشجيع. لم أستطع رمي كرة واحدة في الاتجاه الصحيح عداك عن إصابة أي شيء. نجحت في قذف كرة بحماس كبير لذلك طارت إلى المسار المجاور، مما أثار ضحك وسخرية رفاقنا اللاعبين. فشلنا أنا وليو عدد مرات لكن مع ذلك نحن نلعب البولينغ وبدا ذلك إنجازاً.

قبيل النهاية نجحت في رمية منحنية تدحرجت على طول المسار أسقطت فيها القوارير الثلاث المتبقية دفعة واحدة. التفت نحو ليو بصيحة رضا. لم يلاحظ ضربتي أبداً. ذهبت إليه فوجدته جالسا وساكنا كالميت على المنضدة البلاستيكية التي بجانب لوحة تسجيل الإصابات. حين سألته عن المشكلة لم يستطع الكلام. هز رأسه دون أن يحكي ودس رأسه في صدري. شعرت بتشنجات تنبض عبر جسده وللحظة لم أفهم ما كان يحدث له. بعد ذلك رأيت بأن المسار كان مهجوراً الآن وخلفه عائلة، طفلان، الولد بعمر ليو تقريبا والفتاة أكبر منه بقليل ولديهم التكملة من الوالدين. أب واحد وأم واحدة.

الفصل الحادي عشر

نام ليو في اللحظة التي لامس فيها رأسه الوسادة أما أنا فقد تركت فريسة لأفكاري. أطفأت الأنوار واستلقيت على السرير بلباسي الكامل. بدت الغرفة باردة، خاوية وكنت أحدق باستمرار باتجاه ليو لأذكّر نفسي بأنني لست وحيداً. يجب علي التأقلم مع العالم وبدونه. حدقت بالسقف. سمعت صوت أناس يصعدون الدرج وأبواب تغلق وأصوات مكتومة تطوف في كل أرجاء البناء.

حين فتحت عيوني مرة أخرى لم يتبدل شيء في المكان سوى أنه كان أكثر هدوءاً. لاشيء يتحرك من حولي. نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الواحدة صباحاً تقريباً مما يعني أنني نجحت في النوم لمدة ثلاث ساعات. بقيت في مكاني مستلقياً في الظلام أحدق في الفراغ. شعرت بثقل عظيم يرزح فوق صدري وأصبح تنفسي أقصر، تساءلت إن كانت تلك إحدى علامات ذبحة صدرية مبكرة أم أنني أعاني من قلق حاد فقط. شعرت بالانقباض كما لو أنني كنت أختنق وبدا الهواء رطباً. بقيت حيث أنا أزفر بلهاث قصير وأحسست مثل سباح يرفس فوق السطح خائف بأن لا يصل إلى الشط.

حاولت أن أمشي في الغرفة لكن فضاءها لم يسمح بذلك كثيراً. نظرت من وراء النافذة إلى الشوارع الضيقة التي في الأسفل. كانت العمارة المواجهة للفندق هادئة وساكنة. خلف كل نافذة هناك أشخاص يعيشون حياتهم وينامون يومهم في طريقهم إلى يوم آخر. حين ضغطت رأسي على الزجاج رأيت لافتة ضوئية حمراء وزرقاء تغمز بأول الطريق. كان الضوء ينبض في النوافذ المظلمة المقابلة. استدرت للخلف إلى الغرفة ورأيت ليو نائماً بعمق ولن يحركه شيء في الساعات الثمانية المقبلة ولو كان زلزالاً.

على الكرسي المجاور للنافذة انتصبت حقيبتي القماشية الكبيرة البالية التي كنت أحمل كتبي فيها. هذه هي كتبي المفضلة التي كان أكثرها عندي منذ فترة المراهقة. جررت السحاب المعدني وبحثت عشوائياً عن مجموعة للقراءة. تفحصتها بواسطة خيط الضوء الرفيع القادم من النافذة باحثاً عن شيء يأسر انتباهي لفترة طويلة ويكفي لطرد اليأس الطوعي. أسماء كثيرة مثل دوروثي باركر وحرم فوكنر وبليز سيندرارس وكينزابورو اوي وهومر لكن لم يكن لأحدها الجاذبية الكبيرة. أودعتها على الطاولة التي على طرف السرير ثم جلست فترة أراقب ليو وهو نائم. كان يبدو مرتاحاً تماماً، وجهه مائل للأعلى وفمه مفتوح. بعد فترة نجحت في إقناع نفسي بأنه لن يقلق إن لم يوقظه حلم قوي فجأة لهذا التقطت معطفي واتجهت نحو الباب قبل أن ينهار منطقي على رأسي مثل بيت من أوراق اللعب. هناك دول تسجنك حين تترك طفلا بمفرده لكن لدي إحساس بأن هذه ليست من عدادها.

شعرت بأن توتري قد هدأ على الفور بمجرد أن أصبحت في الشارع ومشيت ببطء في اتجاه الطريق الرئيسي. كانت السيارات تلمع تحت أضواء الشارع وتتهادى على إيقاع نابض لصوت ستيريو .... مررت بجانب البار الذي رأيت أضواءه من نافذة غرفة الفندق، ألقيت نظرة في الداخل، كان شبه فارغ ومبقع بلون التبغ القاتم. نبضة وحيدة من الضوء الأبيض فوق البار أنارت مجموعة من رفوف الكؤوس التي اصطفت عليها مجموعة من القوارير، شهادة على براعة إنتاج

الكحول في أجزاء مختلفة من العالم. احتوى العرض على ملصقات في طبعات غير مألوفة وشعارات غريبة: حشرة من المكسيك مستلقية في قارورة تاكيلا ذهبية وبجانبها حيوانات متوسطة الحجم من نوع أبو بريص بأصابع عنكبوتية طويلة معقوفة داخل قارورة من سائل شفاف مغطى بحروف صينية. كنت على وشك متابعة السير حين شعرت بأن شعر رأسي قد وقف. الأغنية التي كانت تبث في البار "النهر الأصفر" أغنية لم اسمعها منذ عقود ، منذ أن كنت في الحادية عشر من عمري، حين كنت أرقص في الشرفة الخلفية لبيت إيمان خليفة ومع إيمان خليفة شخصياً.

كانت إيمان فتاة فارعة الطول، ممشوقة القوام تكبرني بسنتين. لم أكن أكمل جملة واحدة معها عادة، دون أن يتعثر لساني. لكنني كنت أرقص معها هناك. كان الرقص مع إيمان إحراز حالة سامية من النعمة الإلهية. لقد لاحقتها شهوراً برسائل (إخلاص لم أرسلها) ورميتها بنظرات شوق من مسافات بعيدة في المناسبات الاجتماعية النادرة التي كنا نلتقي فيها. في الوقت الفاصل كنت أفكر بها، أكرر اسمها لنفسي وأنا شبه نائم مثل تسبيحة، لدي ما يشبه الأمل بأن تتجسد من لجة الليل لتكون بجانبي في السرير. الآن، بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر، نجحت في لملمة شجاعتي وسألتها لترقص معي فقبلت. لم يكن هناك حاجة لأي حديث. تواصلنا بدون كلمات، بنظرات هادفة وابتسامات. تمكنت هي من مواصلة الثرثرة بسهولة تامة مع الأشخاص المحيطين بها، لم أعترض على ذلك، كنت مكتفياً بالتركيز على التحكم بتكنيك رقصتي الباردة التي لا تحتمل الذي تضمن وضع القدم اليمنى خلف الكعب الأيسر وتحريكها للأعلى وللأسفل قبل نقلها للأمام مرة أخرى، ثم تكرار الحركة من الجانب الآخر بعد ذلك، القدم اليسرى خلف اليمنى بنفس الطريقة، تمييل الأيدي بشكل مستقل بالتناغم مع الموسيقى. استطعت أن استمر لمدة ساعة أو أكثر دون تغيير. بين الأغاني كنت أتوقف لمدة دقيقة أريح فيها بطتي ساقيي الملتهبتين بالوقوف على جانب واحد، يداي في جيوبي أهوي بحذر قميصي القماشي الرقيق لتجفيف العرق، مُظهراً نفحة من الثقة المتحفظة، أنتظرها لتنهي ثرثرتها مع صديقاتها. من أجل مناسبات هامة كهذه، كنت أشد شعري وأحرره من التجاعيد بفرشاة معدنية ثم أسرحه للأعلى إلى أحد الأطراف لذلك كان يبدو مثل موجة متجمدة أو خلية نحل في فورس تن غيل. كان شعري طويلا وشورتي قصيراً جداً. كان الهيبسترز هم الموضة الدارجة وفقاً لما وصل من أخبار الهيبيين إلى أمي. ربما كان الأمر كذلك في هايت اشبيري، لذلك توجب علي تحمل مضايقات أصدقائي في المدرسة الذين كانت تصل شورتاتهم الفضفاضة إلى ركبهم: (هل نسيت أن تلبس سروالك هذا الصباح؟ تتلوها موجة من الضحك.)عرفت أن إيمان ستجد طريقها لتعود إلي عبر تلك الشرفة الواسعة التي تبلغ مساحتها سبعة أمتار مربعة مثلما عرفت بأننا لن نفترق أبداً. من الواضح أن قدرنا لن يصادف ما يمكنه تفريقنا لكن تبين بأنني كنت مخطئاً بالتأكيد فقد تزوجت إيمان من ضابط من فوج الدبابات وخلفت نصف دزينة من الأولاد الصغار ليدربهم زوجها في الميليشيا. كما سمعت مؤخراً أنها طلقت وانتقلت إلى نيفادا مع أمريكي في البحرية. كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ لا يزال سرا بالنسبة لي حتى الآن.

وهكذا دفعت الباب ودخلت قبل أن يبدل رأيي شيء آخر. مجوعة من الشبان في الزاوية، كانوا يتحدثون عن شيء قد يكون كرة القدم أما في النهاية البعيدة من البار هناك رجل له شعر طويل يتحدث مع فتاة ترتدي تنورة قصيرة وسترة جلدية. حين عاد طلبت جعة. علبة واحدة وأعود بعدها إلى الفندق لأنام.

حين وصلت إلى جيب معطفي من أجل بعض النقود وجدت بطاقة ميوك البريدية. كانت ممزقة وبالية بعد أن ظلت مطوية زمنا طويلاً. قلبتها بيدي وقرأت الخطوط السرية، بمعزل عن العنوان هذا ما قرأته عليها:

يكتب الإصبع المتحرك وكتب

تحرك: لا ورعك كله ولا فطنتك سيقنعانه بحذف نصف سطر

ولا دموعك كلها تزيل كلمة منه.

(شعر!) استدرت لأجد الفتاة ذات السترة الجلدية قد انتقلت من طرف البار. أشارت إلى البطاقة التي في يدي: (إنها شعر، أليس كذلك؟)

(عمر الخيام) أومأت برأسي.

دقت على صدرها بحماس وقالت (ولاّدة؟) نظرت إليها باندهاش.

(ألا تعرف ولاّدة؟)

(أظن بأنني لا أعرفها.) هززت كتفي لا مبالياً. (ولاّدة، ولاّدة) كررت القول بنفاذ صبر. ثم استدارت إلى مجوعة الرجال الذين كانوا في الركن البعيد ويصيحون بالفرنسية : (جميل! ألا تعرف ولادة؟)

قطع أحدهم حديثه وحدق: (ولادة؟ هي إمرأة قذرة تبيع الكسكس في قصر الحمراء، أليس كذلك؟) انفجر الرجال الطاولة بالضحك. تجاهلتهم الفتاة وعادت إلي.

(بلهاء."ولادة" قصيدة عن أجمل إمرأة في الأندلس)

(في اسبانيا)

(لا، قبل اسبانيا، مع العرب) استندت على البار ودورت أصبعها في شعرها وهي تحدق بالرفوف المضاءة بشكل ساطع فوق البار. (سمعت بأن شخصاً في الصين مات بعضة واحد من تلك الثعابين المحفوظة في تلك القوارير.) ارتعدت. (لم تكن ميتة فعلياً. تخيل ذلك. استيقظت وعضته. آخ)

(هل ولادة هو أسمك؟)

(كلا،) هزت شعرها والتفتت لتتفحصني (انه إسم أمي. اسمي هيا،) مدت يدها لتصافحني.

(ياسين) قلت وأنا أصافحها.

(هل تعيش هنا؟)

(كلا) قلت.

(أين تعيش؟)

تخيلت أنها في التاسعة عشر من عمرها، كانت تميل نحوي بشدة حتى أنها التصقت بي. كان ساقها يدفع ساقي وعطرها قوي وزهري جدا بطريقة لا تقاوم. قناع أسود طويل من الشعر الأسود يغطي

جانبا من وجهها. كانت ذكية حين منحتني فرصة لأتفحصها وهي تنبش في حقيبتها اليدوية عن سيجارة وقداحة. ثم دفعت جديلة من شعرها للوراء خلف أذنها مثل ممثلة بطريقة خجولة جداً.

(كنت أعيش في انكلترا)

(في انكلترا؟) نفخت دخان سيجارتها فوق رأسي.(لم تعد تعيش هناك بعد؟)

لم أكن متأكداً من سبب استخدامي للزمن الماضي.(أنا في إجازة)

(إذاً أنت تحب الرقص، أليس كذلك؟)

(في الحقيقة أنا لا أرقص.) قلت.

(لا؟) هزت كتفها ووضعت يدها على ذراعي. (هل تريد الذهاب إلى أي مكان هادئ؟) نظرت إليها. كانت جميلة لكنني شعرت بأن هذا الوقت غير مناسب لذلك.

(أنت متوتر، لماذا؟ ربما تريد اللحاق بالطائرة أم أن زوجتك تنتظرك؟ وركها يتحرك بصورة استفزازية. هناك ندبة بأعلى فكها، يبدو أن أنفها قد انكسر أكثر من مرة لكن وجهها لا يزال جذاباً.

(تركت زوجتي منذ ثلاثة أيام.)

(حقاً؟) جعلها الخبر أكثر اهتماماً وتفحصتني وكأنها تتساءل إن كان هذا يعني بأنها حالة خطرة من عدم الاتزان العقلي.

(إذاً أنت وحيد،أليس كذلك؟)

(أنا مع ابني.)

(إبنك؟) نظرت حولها في البار.(أين هو؟)

(تركته نائماً في الفندق.)

(آه) أومأت برأسها بأنها فهمت. أدركت بأن مهنتها قراءة الناس. تصنيف التائه من الوحيد، المجنون من الحكيم مثل طبيب نفسي، إنها تعالج الأشخاص الذين تفككت حياتهم. يمكنها اكتشاف العزلة بالغريزة وتعرف كيف تعتني بها وتدللها حتى يزول الألم. ليس إلى الأبد إذ ليس ذلك بمقدور أحد وإنما لبرهة، ساعة واحدة. أما القسم البدني فيأتي بعد ذلك. نادت ساقي البار وطلبت منه أن يضع أغنية. مالت كثيراً على الطاولة الطويلة لتعطيني فرصة لتفحص تنورتها القصيرة. تقدم للمساعدة وقال

(لمن الأغنية؟)

قطبت هيا جبينها وأخرجت قرصاً مضغوطاً لأتفحصه. كان واضحاً أنه لسيلين ديون. (يقول بعض الأشخاص بأنني أشبهها قليلاً.)

(حقاً؟) أمعنت النظر في الصورة التي على غطاء القرص المضغوط .(أنا لا أرى الشبه).

هزت شعرها إلى الخارج (يجب أن تنظر باهتمام. النور هنا ليس جيداً بما يكفي. في الداخل حين تشعل الأضواء يتلاشى الكل كالصراصير).

سألتها عن المكان الذي جاءت منه فقالت من باريس، لكني كنت أبحث عن شيء آخر.(كلا أقصد قبل ذلك.)

انتزعت زوايا علبة السجائر ومزقتها إلى أشرطة صغيرة جداً حين بدأت في التكلم. أنا من الصحراء الغربية. تربيت في مخيم للاجئين في الصحراء. لم تعرف والدها فقد كان يقاتل المغاربة.(هذا ما يبرع فيه الرجال، إشعال الحروب)

نظرت إلى ساعتي. يفترض أنني عدت فكنت على وشك تقديم اعتذاري حين جاء الرجل المدعو جميل ليستند إلى البار بجانبنا.

(إذاً أنت أحببت أختي أليس كذلك؟) قال لي.

(أختك؟) كان هناك تهديد غير قابل للخطأ في ابتسامته. وقفت على قدمي ببطء، (أنا آسف. لم أدرك)

(كلا، كلا أجلس)

طوق خصر الفتاة بذراعه وشدها بقوة نحوه.(يمكن الاعتناء بها، جميلة وصغيرة أليس كذلك؟). اتجهت نحو الباب فقفز جميل ليسد طريقي (هيه. لماذا الاستعجال؟) لاحظت بأن أصدقاءه الجالسين في الركن كانوا يراقبون كل ما يحدث. إنها قضية مبتذلة. ثم بعد ذلك ولدهشة الجميع اتخذت الفتاة، هيا القرار عنا كلنا فوقفت بيني وبينه والتفتت إليه وقالت:

(لماذا تأتي دائماً وتفسد الأشياء؟ كنا نطور علاقتنا بصورة جيدة أتركنا لوحدنا الآن، إن سمحت. ما هذا الهراء عن الأخت؟ ألم تبعها مع جدتك؟) شب ضحك على الطاولة التي في الزاوية. رفع جميل ذراعه للأعلى علامة عن استسلامه وعاد إلى أصدقاءه أما هيا فتمشت معي إلى الباب.

التفت إليها وقلت (أنظري لقد تأخرت وأنا في الحقيقة لا أريد أن .....)

(لا تريد ماذا؟) سألت، وهي تشعل سيجارة أخرى. (حسناً، سأتمشى معك قليلاً فقط حتى ينسى)

(هو لن يسبب لك مشكلة، أليس كذلك؟) وأشرت برأسي إلى داخل البار.

ضحكت وقالت (كلا). ذكرتني ابتسامتها بفتيات عرفتهن مثل إيمان خليفة. وقالت بعد فترة من الوقت (إذا أنت هربت من زوجتك وستهرب من ابنك بعد ذلك؟)

(أنا لم أهرب. لقد تركته نائماً في الفندق فقط)

(حسناً أنت لم تهرب منه) نظرت إلي بطريقة غريبة.(أخبرني عن إجازتك) علقت ذراعها بذراعي. (إلى أين أنت ذاهب؟)

(لا أعرف في الحقيقة)

(لا تعرف؟) اتسعت عيناها. (شمال؟جنوب؟ شرق؟ أليس لديك فكرة؟)

(ربما إلى الجنوب) هززت رأسي.(أنا غير متأكد)

(الجنوب أفضل. لدي أصدقاء في ايكسان بروفانس. يمكنك أن تحل مشاكلنا نحن الاثنان وتأخذني معك إلى هناك). ابتعدت عني خارج الفندق.

(شكراً لك) قلت

(من أجل ماذا؟) ضحكت.(لم أحظ بفرصة لأريك ما يمكنني فعله.) ثم لوحت بيدها ومشت مبتعدة وهي تهز وركيها على الأضواء الأمامية للسيارات القادمة.

لا زال ليو نائماً. عاهدت نفسي بأن لا اتركه لوحده أبدا بعد ذلك. نقبت في حقيبتي حتى وجدت المقتطفات الأدبية التي كنت ابحث عنها.

كانت ولاَّدة أميرة والقصيدة الشهيرة التي حملت اسمها كتبها الشاعر ابن زيدون الذي ولد عام 1003 في قرطبة وعندما أفصح عن حبه لإحدى عبداتها الأفريقيات الصبايا ألقت به في السجن لكنه نجح في الفرار ومات في اشبيلية وهو في حالة من العوز. دسست بطاقة أخي البريدية في الكتاب وحبوت إلى السرير مرهقاً ثم استسلمت لنوم طويل خال من الأحلام.

الفصل الثاني عشر

يبدو أنه من الصعب الآن التخيل بأنني وايلين مررنا بوقت صدقنّا فيه بأننا لن نكون سوى شخصين سعيدين معاً. لم نصرف وقتاً طويلاً في التفكير بذلك. طالما كل واحد منا لديه الآخر سنتمكن من التعامل مع كل ما سيحدث لنا. لكن ما الذي حدث وغيّر كل شيء؟ قالت بأن الناس يطلّقون بعضهم دائماً ويفترقون وهم على علاقة ودية ويتوصلون إلى اتفاقيات متحضرة يجلسون فيها مع استشاري الزواج ومحامي الطلاق ويتوصلون إلى قرارات عقلانية. لكن علاقتنا لم تعرف أي شيء عقلاني أو ودي إطلاقاً فقد تأسست منذ البداية على كل ما هو نقيض للعقلاني. لكن أليس هذا هو حال الحب دائماً؟ ألا يبحث الناس دائماً عن شخص يدمر حياتهم المملة ويخرجها من إطارها؟ أليس هذا ما تدور حوله كل الأغاني؟ الشيء الذي لم نستطع الحصول عليه، ذلك الحب المعتدل الذي يأتي بمرور الوقت ويتجاهل الأخطاء والعيوب، ذلك القبول بالتبعية والثقة. لقد أمضى أبي وأمي حياتيهما وهما ينفجران في وجه بعضهما البعض ويتناوشان في الكلام دون أن يستطيع أياً منهما على العيش بدون الآخر. حسناً لقد كنا أنا وايلين في طوق عاطفي انفعالي منذ البداية حتى النهاية. منذ لحظة اقترابنا الأولى هجمنا على بعضنا مثل حيوانين جرابيين يتشاجران على سجادة حريرية وكنا حتى الفصل الختامي مثل اثنين من مقاتلي الجوائز المنهوكين، يقفان بصعوبة ويحاولان رفع قبضاتهم.

لقد كان لدينا كل ذلك، من الأطباق التي تُحَطَمْ والأبواب التي تُصْفَقْ بقوة وصراخ الطفل في الخلفية، مسرحية مأساوية مرعبة، شيء لسترنبيرغ - كنا مربوطين ببعضنا ولم نستطع الإفلات لهذا كنا ندفع بعضنا إلى حافة الانهيار ببطء وبالتدريج.

في البداية لم نكن بحاجة إلى أحد آخر، لهذا حبسنا أنفسنا بعيداً عن العالم في مزرعة في ضواحي نهر التايمز. أصحابه عادوا إلى جنوب أفريقيا وأجروه لنا. شككت بأنهم متورطين في عمل بغيض أخلاقياً كتجارة السلاح أو الماس لكنه كان رخيصاً ولم ندفع فيه سوى أجراً زهيداً. أرادوا أن يكون فيه أحد يمنع المتطفلين من السكن فيه إلى أن يقرروا ما سيفعلونه به، ربما كانوا ينتظرون ارتفاع السوق لبيعه أو للتهرب من الضرائب. لم أطرح أسئلة كثيرة ولم يكن أصحابه مهتمين في البيت كثيراً. كان سقفه يرشح وبارداً جداً. في شتاءنا الأول فيه اضطررنا إلى سد أحد أطراف طابقه العلوي بصفائح من البلاستيك حيث لم يكن فيه تدفئة مركزية واكتفينا بمدفأة تعمل بالحطب وسخانات كهربائية. كان عيشنا بدائياً، وكأننا نعيش في العصر الحجري عبر نفق زمني لنرى كيف سيكون حالنا فيه إضافة لكوني معزول عن العالم أيضاً أصدقاؤنا الذين عرفوا مكاننا وجدوا أن قطع تلك المسافة لزيارتنا أمراً مزعجاً وهي كذلك بالفعل إن لم يكن لديك سيارة. هناك حافلات لكنها كانت نادرة وغير منتظمة خصوصاً في الليل أما سائقو سيارات الخدمة فكانوا مثل قراصنة جوالين على عجلات، يسلبونك كل ما تملك في تلك المنطقة.

عند استعادة الماضي يبدو ذلك جنونياً تماماً، أن نقضي على أنفسنا بتلك الطريقة. أولاً أنا من سكان المدن ولم أعش في الريف مسبقاً أبداً فقد استغرقت شهور قبل أن أتمكن من النوم في الليل ولم

أدرك السبب حتى خطر لي بأنه الهدوء. فأنا أحتاج إلى ضجيج من حولي، إلى صخب الأصوات القادمة من البيت المجاور والناس المارين بالشارع.

يفترض بأي شخص عاقل أن يتوقف ليتأمل الوضع أولاً لكننا لم نكن نفكر بطريقة صحيحة. وأعتقد أننا أخذنا الأمر كتحدٍ. ثم كان الطفل على الطريق بلا أي وسيلة دعم منظورة. أنا وهي فقط. هل يمكننا فعلها؟ حدث الأمر بسرعة كبيرة ولم يكن كل شيء بيننا مثالياً، فقد بدأت الخلافات في الظهور قبل ولادة ليو.

لم نخطط لأن يكون لدينا طفل فقد حدث الأمر صدفة ولم نكن على استعداد للتراجع. لهذا كانت الخطة بأن نحبس أنفسنا بعيداً ونثبت للعالم بأننا استطعنا التعامل مع الأمر وأننا سننتصر. كانت ايلين تخطط لإكمال دراستها وذلك بكتابة رسالة الدكتوراه حول المظاهر المدينية لولاء القرابة عند لاجئي التاميل. فكانت تأخذ القطار إلى بيرمنغهام كل ثلاثة أسابيع لتقابل بعض الرواة الذين يقدمون معلومات دراسية. لماذا بيرمنغهام؟ لماذا التاميل؟لا أدري، لكن هذه هي فكرتها التي أمنت بها إلى درجة بدا من المعقول فيها أن نبني حياتنا حول قدرتها في تقديم أطروحة كاملة عن الموضوع.

ما إن لاح ليو في الأفق حتى وجدت نفسي أقضي فترات طويلة من الوقت معه بينما ايلين تقفل غرفتها على نفسها بعد أن جعلتها مكتباً لها. نجحت في القيام بجولات طويلة من المشي في الطرق الريفية ووجدت بأنني قبلت العيش في ريف إنكلترا لأول مرة صاغراً. فتعودت على شد أشرطة الستائر حين ينظر السكان المحليون نظرة شزر إلى هذا الغريب الذي يدفع عربة طفل بيديه. كان شعري طويلاً جداً وجامحاً وكنت ألبس سترة طيار صوفية مخططة لم أفخر بها وإنما التقطتها من معرض للأبرشية بلا مقابل تقريباً، مرقعة بشريط لاصق وعلى الأرجح أني حرمت بذلك فقيراً ساذجاً من بطانة دافئة لسلته في ذلك الشتاء.

لم يكن والدا ايلين بعيدين جداً وكانا يقودان سيارتهما بحماس رواقي ويزوداننا بالطعام الذي تكهنا ــمحقين- بأننا سنقّدره. كنت أراهما عائدين وهما يهزان رأسيهما تعجباً من الإهمال والفوضى التي نجحت ابنتهما في وضع نفسها فيها. كانت أم ايلين تبتسم وتقول "هذه شجاعة كبيرة منك"-لكنها لم تكن شجاعة فقط وإنما غباء صرف. للحب عادة التآكل حين تترك النفس لعزلتها كان يمكن أن ننتقل إلى موقع متقدم في مجاهل شمال ألاسكا. قمرة الحمى. هذا ما كان لدينا.

تقادمت بدعة الزوار وحكاياتهم التافهة عن حياة العزوبية والتحرر من المسؤولية والالتزام والأطفال وأصبحت مزعجة نوعاً ما. أعتقد أننا فاخرنا قليلاً بما كنا نفعله، بطريقتنا الخاصة. ما كان يرويه ضيوفنا من قصص محبطة عن المغامرات الليلية وعن الذين يفعلون كذا وكذا من وراء ظهر فلان وفلان اكتسبت صفة ضبابية زائدة كانت تتركنا للتثاؤب والتفكير بعدد ساعات النوم التي بقيت لنا. كنا ندرك بأن كل شخص ندعوه للغداء سيظل لقضاء ليلته عندنا مما أربكنا كثيراً ولهذا أقتصر أصدقاؤنا على الناس الذين كنا نقابلهم في دروس ما قبل الولادة أو في المستشفى. من الآباء والأمهات الجدد. هناك صنفان من الأمهات، الأول: الأمهات المخبولات اللواتي ينفجرن بالبكاء بمجرد منظر تبديل منديل الطفل-شركاؤهن الذكور يربتون على أكتافهن أما النوع الثاني: الأمهات اللواتي ينتشين من الإشارة الأولى لحدوث أول حركة أمعاء والمثال النموذجي عنهن ليندا رويلي. فهي أم عزباء يعني أنها أرادت طفلاً دون عائق تملكّها لرجل يشاركها المتعة. اختارت هدفها ولاحقته وكان ضحيتها رجل متزوج حلو المظهر، له فكان مربعان، قوقازي ولاعب تنس ممتاز

في طريقه ليصبح نائباً لرئيس شركة التأمين التي يعمل فيها كلاهما. لقد كشفت عن نتائج امتحاناته في الجامعة حتى أنها زارت مدرسته القديمة مدعية بأنها باحثة اجتماعية تلفزيونية لبرنامج يجمع سيراً شخصية مفصلة ودقيقة وعادت بنسخ عن نتائج امتحاناته التي تعود إلى عشر سنوات مضت بالإضافة إلى صور عن انتصاراته في بطولة المدرسة الرياضية وهو بعمر الثالثة عشر وفوزه بسباق البيض والملاعق وهكذا. بدأت في وضع خطتها في العمل فوقتت فرص غداءها لتتصادف مع فرصه وسار ذلك بشكل جيد لمدة عام. التقت به خارج بارات الصندويش (مصادفة) تلا ذلك غداءات مطولة كانت تستفسر فيها عن عائلته أحيانا من أين أتى والديه وما هي زمرته الدموية وإن كانت هناك أي إعاقة بدنية أم عقلية. قامت بنقلتها الحاسمة في حفلة عيد الميلاد، تلك المناسبة التقليدية التي يكون الناس فيها مشوشين بالشراب وعرضة لأي رغبة شهوانية كانت تختمر في البناية في السنوات الماضية كلها. أمسكت ليندا برجلها في حجرة مرحاض في الطابق الثالث في فندق ماريوت في بارك لينز-المكان الذي أقيمت فيه الحفلة. لم تكن سوى مسكة مختصرة وضيعة، تقيأ بعدها رجلها المحترم ووالد مولودها المنتظر على حذائه الجديد. مع قدوم الخريف التالي كانت ليندا في إجازة أمومة مع ابنها الجديد، الغيرنون. طلبت من الشركة أن تنقلها إلى خارج أكسفورد لكي لا يظل لها أي اتصال بالأب الذي لم يعد لديه أي ذكرى عن المسألة التي حدثت في المرحاض وبالتأكيد لم يكن يعلم بوجود الغي الصغير.

أصبحت ايلين وليندا صديقتان مقربتان وأضحت ضيفة دائمة ومها الغي أيضاً. لم تكن ليندا بحاجة إلى زوج وكذلك الغي الذي أكد لنا واثقاً بأنه لا يحتاج إلى أب. الرجال عدوانيون ومتوحشون ويفتقدون إلى كل الأشياء الناعمة واللطيفة في الحياة، يدفعهم في ذلك التستيرون وضغط النظراء كما أن الغي لا يريد أن يخضع لهذا التلاعب، بل يريد أن يكبر في بيئة غير ذكرية، حر ليجرب العالم دون تحيز ودون اكتساب الرغبة في قهر وفتح كل شيء وكل شخص تقع عيونه عليه.
نظرت إلى الغي بأنفه الصغير وعينيه الكليلتين-فقد كان والده يضع عدسات لاصقة- وشعر بعطف ذكوري هائل نحوه. لم يكن الأمر أنني لم أقبل بهذه الأشياء فقط وإنما أكره العدوان والوحشية وكل ما تبقى بقدر ما تكرهها ليندا لكن الذي لم أكن متأكداً بأن غياب الأب يساعده. ألم ينشأ الخمير الحمر بغياب الآباء بفضل الحرب في جنوب شرق أسيا؟ إضافة إلى ذلك، ما هي الصفات الأنثوية التي سوف تُكتسب من إمرأة سعت وراء سائل منوي بنفس الطريقة التي يطارد فيها قرش هائم الدم؟ لم نكن أنا وليندا على علاقة جيدة. لفترة استسغت فكرة أنها وراء ايلين وتريدنا أن نشكل عائلة ثلاثية. أعترف بأنني كرست قدر من الاهتمام لهذه الاحتمالات في البداية لكن بعدها بدأت أتساءل إن كانت تريد إزالتي عن طريقها لتتمكن من الاستئثار بايلين لوحدها. أخيراً استقريت على فكرة أنها عدوانية فقط-كانت تحب إثارة شجارات متعمدة بيننا.

(أين تقف من الصهيونية يا ياسين؟) في الماضي السحيق الضبابي لأبوتها البدائية كان هناك بعض الدم اليهودي من طرف والدها كما فهمت، مما يعني أنه يقطع الخط الأمومي ويستثنيها وبدا لي بأن هناك لمسة خيالية في هذا. مع ذلك هذه النقطة من الدم العبري التي تعود إلى بركة الأسلاف كانت كافية لترى نفسها مدافعة عن الإيمان اليهودي والدولة اليهودية في الحقيقة. إنها تستغل كل الناجحين وكنت مجرد واحداً منهم. كانت إسرائيل أحد مواضيعها المفضلة والموضوع الثاني الختان الأنثوي.

(حسناً، من حيث المبدأ أنا ضد كل المذاهب والنظريات التي تشمل إلحاق الألم بالآخرين)

(هذا جواب مراوغ) رمقته بنظرة خبيثة من الأريكة التي كانت تتمدد فوقها واغليرنون بجانبها على الأرض يمزق في دفتر عناوين بقبضتين عمرهما عاماً واحداً. لم تكن تؤمن بأن تطلب من اغليرنون التوقف لأن الإنضباط شيئا فاشياً. مما يعني أنها كانت تنتظره حتى يتوقف من تلقاء نفسه وقبل أن يفعل ذلك ينفذ صبرها فتثور وتضربه.

(ما نوع الدولة الصهيونية التي في عقلك؟) سألت (هل ستكّون وطناً عرقياً؟ أم مخفر أوروبي ناء تحت أشعة الشمس والشواطئ المثالية ومكان غوص ممتاز وكل هؤلاء العرب المزعجين الخانعين الذين يبيعون الحلي الرخيصة في السوق الشعبية مثل محميات نافاهو؟ أنظري إلى ما فعله الأمريكان في السكان الأصليين الأمريكيين الذين لم يبقَ منهم سوى أسماء لفرق كرة القدم والمروحيات الحربية كالهوكس والاباتشي.

(أتسخر مني يا ابن الزانية؟)

(اهدئي يا ليندا أبعدي سهامك الأمازونية السامة. هذا ليس تخفيفاً عن ذنب عداء السامية إنه حول إلحاق الألم والعذاب. إنه ليس قتالاً عادلاً.)

(ما هو العادل إذاً؟ هل تظن بأن قصف المدنيين عادل؟ هؤلاء الناس إرهابيون)

(وهكذا ديفيد بن غوريون وشيمون بيريز أيضاً. ألا ترين؟ كل ما لديك حجة مبنية على أعمال المتعصبين. أنت تستثنين وتقمعين الأكثرية المكونة من المدنيين الأبرياء بالمناسبة.)

(لا أستطيع تصديق كم أنت عدواني. أنت عدواني جداً. هذه هي الصفة النموذجية للذكور. حالما تشعر بالتهديد تهاجم.)

كان الغيرنون يحدق بعينيه الكبيرتين المدورتين وهو يعلك بأسنانه حرف الكاف. تساءلت إن كان إرسال ملاحظة مجهولة الاسم إلى والده البيولوجي عمل أخلاقي أم لا. لقد مر وقت طويل على موعد نومه لكن أمه لا تؤمن بتقييد إحساسه بالزمن بفرض مثل هذه الأعمال البربرية على المخلوق. بدا مستيقظاً تماماً وهو يبصق الورق ولعابه يسيل على السجادة. لقد تحول إلى حيوان ليلي ترك لقضم أسلاك الكهرباء بعد أن أغمي على ما تبقى مني بسبب الإنهاك بوقت طويل. كانت ايلين نائمة في الطابق العلوي مع ليو وكنت أفتح عيوني بالكاد.

(إنها الطاقة الجنسية. أليس كذلك؟)

(ماذا تكون؟) سألتها.

(تلك العدوانية. أراهن بأنك تتخيلني وترغب بي. هيا اعترف)

(أنا آسف يا ليندا. كنت أحب الاستمرار في هذه المحادثة كثيراً لكن يجب علي الذهاب للنوم. بدأ سمعي يخدعني) حدق بي الغي وهو على الأرض. ربما مجرد رسالة خفية أو صورة مجهولة الاسم؟)

(أهرب، استمر، أخرج من هنا. سوف أخبرها بأنك حاولت مهاجمتي)

(يمكنك إخبارها ما تشائين –تثاءبت- في الصباح)

يتبدل الناس رجالاً ونساء حين يصبح لديهم أطفالاً وتحدث تبادلات كيمائية صغيرة جداً في الشخصية. بعض النسوة ينضجن بالقناعة بأنهن أنجزن إمكانياتهن الطبيعية وبعضهن الأخر يتمايلن في كل اتجاه وقد فقدن شجاعتهن ويحاولن القيام بما نقوم به كلنا في أغلب الأحيان: تجنب حقيقة تأثير الزمن علينا. كل الرجال الذين لم يجربوا آلام الولادة أو إعياء حمل مخلوق حي آخر داخلهم لمدة تسعة شهور، يلقون بأنفسهم في خضم مهنة الأبوة مع كل الفخر الحماسي الذي يشعر به صبي حين يرى السفينة التي صنعها من قطعتي خشب قديمتين تبحر مبتعدة في جدول مائي. يضربون الهواء بقبضاتهم فرحين ويلوحون بأوشحتهم الرياضية مهللين. لاشك بأنهم فخورين بانجازهم الكثير جداً من شيء قليل جداً " تسعون ثانية من اللهاث والنفخ حسب الإحصائيات".

وفي الحقيقة لا تصبح حياة شخصين أمتع لأنهما أنجبا أولاداً وإنما يعتقدان ذلك. يتحول الزوجان بين ليلة وضحاها من شخصين ممتعين وسهلين وهادئين لهما بعض الاهتمامات إلى فردين متوترين يرتكزان على شيء واحد-وجود طفلهما. يصلون بمعدات كافية لشن هجوم عسكري طويل، لديهما طاولات وكراسي قابلة للطي وحقائب من الأدوات المعقمة، بالإضافة إلى علب تحوي عشاء الأمس الذي يصنع في محضرات الطعام الكهربائية ومطربانات من عصير الموز المركز وحمولة كيس من الألعاب المتعانقة وحزمة ضخمة من المناديل التي تستخدم مرة واحدة وخمسة عشر غيار من الثياب. يمكنك التعامل بنجاح مع نوع واحد من تلك الأشياء لكنك تضيع وتفقد حس التوجه مع اثنين أو أكثر. أما بالنسبة للحديث فلا يرتفع عن مستوى مناديل الأطفال إلا نادراً. يتنازع الناس. هذه هي الأبوة التي لم يجربوها من قبل لكنهم يصبحون خبراء فيها فجأة.

مرت السنتان الأولى والثانية من زواجنا بنوع من الضبابية التي تستحضرها روائح الحليب الفاسد ومناديل الأطفال وذلك الجو من التفكك العضوي الذي يغطينا كلنا. فالبيت نفسه كان يعاني من رطوبة مزمنة واتسع منظر المستنقعات التي شقت طريقها عبر الألواح الخشبية للجدران والأرضية وذكرّني مرحاضه ببيت جدتي حبوبة القديم، فقد كان عبارة عن حفرة كيمائية هائلة في طرف الحديقة لأن البيت لم يكن متصلا بأنابيب الصرف الصحي المحلي. في بيتنا مراحيض تنظف بمياه جارية متدفقة أما في بيت حبوبة فيجب عليك أن تقرفص فوق حفرة تخفي دلوا يفرغ كل ليلة. بطريقة ما لم أتوقع التعامل معها في انكلترا.

حاولت التكلم بالهاتف مع أصحاب البيت والضغط عليهم لحل أهم مشاكله الملحة مثل رشح السقف لكنني شعرت بأنهم كانوا يستلقون على شواطئ دوربان ولم يكترثوا بالأمر فقد كنت أسمع صوت تدحرج الأمواج خلفهم حين كنت أتصل بهم.

(عزيزي إنه تلك........، أنت تعرف، الأشياء التي في البيت) ثم تأتي أمواج متكسرة تصدر أصواتا عالية.

(بالله عليك ماذا يريدون؟) بصوت يعبر عن الغضب والدهشة.

(بشأن البيت) كنت أغرق في المحيط الهندي. كنت أتحدث مع ورع يجثم على شواطئ فردوس ناء ليس لديه الوقت لمشاغلي التافهة في اكسفوردشاير الراشحة.

أخيراً ظهر مهني متعدد المهام يدعى هنري يقود شاحنة عبور ربطها بحبل معقد وأشرطة لاصقة. كان في التسعين من عمره تقريباً ويبغض فكرة تسلق السلالم. لقد شرح لي ذلك ونحن نتصافح وتفحص المشكلة من مسافة آمنة.

(لست بارعاً في الأماكن المرتفعة منذ أن تعرضت إلى حادث) تمتم قائلاً ووعد بأن يوفر لي بعض المواد الاحتياطية التي يملكها وبعض الأدوات القديمة التي يمكنني استعارتها منه. لقد كانت أدوات قديمة وصدئة فعلاً لكنها كانت الخيار الوحيد.

كانت حياتنا في ذلك البيت نوعاً من الوجود البدائي. فقد وجدت نفسي لأول مرة مهتماً بمهمة بدائية لتوفير ملجأ دافئ لعائلتي. بدا ذلك مخزياً مقابل لحظات ثمينة من اليوم لا أدعي البراعة فيها فقد أصبت أصابعي بالمطرقة ووضعت السلالم عبر إطارات النوافذ وغير ذلك لكن المهمة ظلت غير مكتملة وكنت أهجرها إما يائساً أو لحاجتي الطارئة إلى علبة الإسعافات الأولية.

اقتصرت وظيفة هنري الحقيقية على الاعتناء بالأرض التي هي عبارة عن عقار يقع على الطرف الآخر من المجرى المائي الجانبي ولم يعد متأكداً من الشخص الذي يملك المكان الآن فقد كانت الملكية تتغير بشكل دوري لكنه كان يعود إلى نجم غناء بوب اشتهر قبل سنين ليست بعيدة- يقصد هنري في الستينيات- وبغض النظر عن هوية المالك ليس هناك منهم من لديه فكرة عن حجم الأرض التي يملكها أو عدد الفدادين في الغابة. لقد تركوا هنري يهتم بالمسألة. بقي الحال كذلك لمدة نصف قرن- لقد قبل بأن آخذ القدر الذي أريده من الخشب الكثير لقاء التنظيف والمساعدة في قطع الأشجار الميتة القليلة هنا وهناك. كانت الغابة بحاجة إلى التقليم والتخفيف من حين لآخر كي لا تمنع عن بعضها النور والغذاء. علم الأشجار التي تحتاج إلى قطع بطلاء أحمر. أقنعته (ونفسي) بأنني أستطيع استخدام المنشار الآلي وعند استذكار ذلك أجد نفسي محظوظاً لأنني لم أسبب لها ضرراً كبيراً. أعترف بأنه من الصعب عليك التحكم بحياتك حين تجثم على سطح عالي في عاصفة هوجاء وحفنة من المسامير في فمك وألواح من البلاستيك ترفرف من حولك وصراخ طفل يصعد إليك من الأسفل، لكن هناك شيء مسلي في المشي بين الأشجار والريح فوق رأسك وأنت على قممها وبيدك فأس تلوح بها. هذه هي الطريقة التي نجعل فيها الأماكن لنا، بالسكن فيها والتعلم منها كيف نعيش معها ونذهب مسعورين ومنشار آلي بأيدينا للتخلص من اعتداء بدائي مكبوت.

بينما كنت منطلقاً بسرعة في الريف الانكليزي لتأسيس ما يشبه عائلة روبنسون السويسرية على بعد ثلاثة آلاف ميل بدأت عائلتي بالتفكك والانحلال فقد أصبح أبي إنعزالياً كما كتبت أمي (إنه منشغل بشيء ما. أنا متأكدة من ذلك) ووضعت خطين تحت الجملة الأخيرة. ما الذي يشغله؟ يفترض بأنه تقاعد. كانت المسألة من له الأولوية صحته أم الجريدة في حين كانت الحكومة تهدده باستمرار في إغلاقها. كتبت رسالة لعائلتي أخبرتهم فيها بأننا سنأتي لزيارتهم حالما يكبر الطفل لحد يمكنه من السفر. ردت أمي برسالة تفيد بأنها أصلحت غرفتي القديمة وزودتها بسرير للطفل ووجدت شخصاً يرسم نجوماً على السقف سيحبها الطفل كما أكدت لي.

بدأت أشك بوجود شيء خطير يتعلق بأبي من العبارات السعيدة المبطنة والكلمات اللاذعة. في المكالمات الهاتفية لم يتكلموا إلا عن المصاعب اليومية مثل انقطاع الكهرباء وشح المياه وأحداث الشغب بسبب السكر وخطط الحكومة اليائسة والعاجزة. كنت أتابع الأخبار وشاهدت المآسي المخيفة وهي تتكشف من بعد. مسقط رأسي والبلاد التي ستظل الوطن في عقلي دائما أصبحت مثالا للعذاب الإنساني بمقياس يفوق التخيل. في غيابي انتهى قوس قزح ونكست الرايات وجاع الناس وتحول الأطفال إلى جنود.

كنا نشهد آخر آلام موت الرقصة الغربية مع الديمقراطية. ناضلت البلاد مدة نصف قرن لكي يكون لتراثها ما بعد الكولنيالي معنى متماسكاً. خلال سنوات الحرب الباردة تنقلت البلاد إلى أطراف إيديولوجية بشكل دائم ومنتظم. أولاً إلى اليمين ثم بعد ذلك إلى اليسار ثم اليمين مرة أخرى، حتى لم يظل كلا الخيارين قائماً أخيراً. فقد تركت لأدواتها ، لم يعد لأحد الوقت من أجل مزيد من الديمقراطية. كانت كلها زيف ورياء: التعددية السياسية، التمثيل المتعدد للاثنيات، التعددية العرقية والدينية، لم يفلح أي منها ولم تكن كلها إلا طريقاً واحداً لتطبيق العبودية حدده العلي القدير. انحدر التبرير الأخلاقي والاستقامة إلى مستوى الانتقام. لقد ظهر تآلف آثم بين الرب والنفط الخام وزحف الجهاد إلى الأراضي الوثنية في الجنوب وحوّل الوثنيين إلى ذهب ورسل تجارة من أجل الربح. في ذلك الوقت ازداد اهتمام الحكومة في إسكات أصوات كل المنشقين ومن ضمنهم الصحافة.

لم تثر هذه المسائل والقضايا سوى قلقاً بسيطاً في بريطانيا. التعقيدات الضروسة للأماكن النائية لم تستأثر إلا بعمود صغير دس في صفحة خلفية إلا إذا أحتلها بشكل عابر نجم بوب أو ممثلة وبالإجمال لم تكن أخباراً. رقابة لا مبالية بدلاً من تلك التي وجد والدي نفسه ضدها. داخل البلاد، الطريقة الوحيدة للكتابة عن الفساد وحبس الناس والإبادة العنصرية والتعذيب هي أن تهرب مقالتك إلى الخارج وتنشرها تحت اسم مزيف في مكان آخر. لقد نجح أبي في هذا لمدة من الوقت ثم أمسكوا به. لم يتمكنوا من إثبات التهمة عليه لكنهم عرفوا بأنه هو فراقبوه وفتشوا مكتبه حتى أنهم داهموا البيت وفتشوه أيضاً ولم يجدوا شيئاً طبعاً لكن ذلك لم يوقفهم.

لم أعرف بأي شيء من هذا كله لكنني استنتجت من لهجة رسائل أمي ومن الأحاديث الهاتفية الغريبة المفككة التي كنا نتبادلها فكلما تحدثنا بأن الأشياء تغيرت، بإضافات صغيرة مهمة غير قابلة للعكس، كانت طرق العودة إلى العالم الذي تركته ورائي تحترق مثل الكثير من الجسور الورقية.

حصلت على أول تلميح عن الأزمة بوصول أختي ياسمينة في زيارة عائلية رسمية. في غيابي كبرت ياسمينة وأصبحت إمرأة متزوجة الآن وأم لصبيين مرحين. كانت في لندن مع زوجها عمر في إجازة: فهو يفكر في فتح عمل تجاري هنا. وتساءلت لماذا يريد أن يفعل شيئا كهذا؟ في ذلك الوقت لم يخطر ببالي طبعا بأنهم كانوا يحضرون للنزوح من سفينة غارقة.

تزوجت ياسمينة بوقت مبكر أثار الدهشة. فاجأت الجميع، خاصة الذين لم يتوقعوا منها أن تتصرف بهذه السرعة أو بهذه الطريقة التقليدية والقناعة. كان زواجاً من اختيارها ولم يحلم والدي قط بترتيب شيء كهذا. لقد تزوجت ياسمينة من ملك السردين أو بالأحرى من ابنه. لم يكن السردين المقصود إنتاجا محلياً وإنما كان يأتي من الصين في علب كتبت عليها حروف صينية حين كنا صغاراً كانت تلك العلب تأتي ملفوفة بورق لامع ومفتاح كبير. كان منظرها مألوفا في كل متجر في المدينة وواحدا من تلك الأشياء النادرة، مواد غذائية مصنعة تجدها مكدسة على رفوف كل متجر حارة، مكومة بجانب مساحيق الصابون والكبريت ومكعبات وردية من صابون الاكربوليك الكبيرة التي تكفي لغسل حصان. كان السردين مغطى بصلصة البندورة اللزجة وبرأي المتواضع لا يمكن تناوله إلا بعد غمره بعصير الليمون الحامض ورش الفلفل فوقه ورغم ذلك تظل رائحته عالقة بك لمدة أيام مثل سر أثيم. لقد تم اعتماده سلعة أساسية وضرورية. ففي كل بيت كان هناك مؤونة صغيرة من تلك العلب القصديرية، تخزن بعيداً تحسباً لفيضان أو شيء من هذا القبيل. بالرغم أننا كنا نكرهه الثلاثة، أنا وميوك وياسمينة إلاّ أنه كان لدينا منه كمية في خزانة أمي

المخصصة للطوارئ ما يكفي لإبقاء سرب من البطاريق سعيدة لمدة شهور. كانت أمي تدخر كل شيء في تلك الخزانة. لديها حقائب من الرز والدقيق (كلها تغص بسوس الحنطة كما اكتشفنا لاحقاً)، علب من القهوة الفورية (التي لا يشربها أي منا لكن لا بأس)، مطربانات من مسحوق عصير البرتقال تانغ، بطاريات مصابيح تكفي لإنارة قرية صغيرة، علب من الشموع (عليها آثار أسنان الفئران) علب من شرائح الأناناس (صينية أيضاً) وجدران من ألواح الصابون مكدسة مثل قرميد ماهجونغ العملاق في الجزء الخلفي من الخزانة. قد نجوع حتى الموت لكنهم سيجدون هياكلنا العظمية نظيفة. ما الذي كانت تتخيله أمي؟ جفاف ومجاعة يضربان الناس في أماكن بعيدة لدرجة أن أهل العاصمة اعتقدوا بأنها تحصل في بلدان أخرى. أم هو شيء خلقته تلك الحرب الأخرى التي لم تعرف عنها سوى القليل في طفولتها في لندن.

طبعاً لم يضيع ملك السردين الوقت في استيراد مخلوقات رقيقة معلبة فقط لكن اسمه ظل مرفقاً بالمنتج الأول الذي أدخله إلى البلاد. كان ذلك هو الجزء الوحشي من النجاح-يمكنك ربح الملايين من الأواني المصنوعة من المينا والأحذية البلاستيكية المنزلية ومصانع الحلويات أو حتى تجارة السيارات الفارهة ويمكن أن تمتد إمبراطوريتك إلى ألفي فدان من قصب السكر والسمسم وأشجار البطم وأن يكون لديك أسطول من الشاحنات باسمك لكن ما يعلق بذهن الناس شيء واحد وهو الشيء الذي بدأت منه-الأشياء الصغيرة النحيلة المعلبة.

تزوجت ياسمينة من إمبراطورية، حسب تعبير ميوك وهو يخبرني بالهاتف.

(سوف تعيش في دالاس أو ديناستي لا أعرف أيا منهما) لم يكن سعيداً بالوضع وأعتقد أن زواجها من أي أحد أمر مرعب. (إنها أختنا يا رجل) كان اعتراضه الرئيسي كما لو أن هذا سيضعها خارج رغبات أي رجل. لكن الشخص الذي تلقى ضربة بين عينيه كما يقال كان والدي. وهو الذي أمضى حياته في ذم ونقد الذين كرسوا حياتهم إلى المهمة غير المهذبة وتكديس المبالغ الكبيرة من المال. ماذا حدث للاستقامة والصدق؟ ماذا عن المبادئ التي حاول غرسها في أطفاله منذ اللحظة التي استطاعوا فيها الوقوف والإصغاء له وهو يتحدث لهم عن القادة العظام فرانز فانون وجمال عبد الناصر؟ ألا نتذكر مصير يورياه هيب وجعفر؟ وماذا عن شقيق علي بابا الذي حاكه الخياط مع أخيه بسبب جشعه؟ تلك الحكايات تطورت بعد ذلك إلى أخبار مرة عن الفساد المتفشي في أماكن رفيعة وبين مسؤولين حكوميين كانوا يقايضون سلطتهم مقابل عمولات تبلغ ملايين الدولارات في صفقات بيع الطائرات والأسلحة على اختلاف أنواعها.

(لقد فشلوا كلهم بشكل ذريع في النهاية) كان يفصح وهو يهز رأسه كلما أمسك بأحدهم متلبساً بالسرقة. لقد قام بواجبه في كشف المندوبين وتعقب دروب هؤلاء التعساء وهم يمسكون بحقائب مملوءة بالنقود، لاحقهم في أوروبا وأمريكا الشمالية والشرق الوسط ووصل مرة إلى اليابان ليكشف عن مذنب فتخفى في مصعد الفندق بعد أن وضع شعراً مستعاراً للتنكر وبرفقته زوج من الراقصات اليابانيات. لم يتم القبض على أحد أبداً ولم يقدموا للمحاكم فقد كان لديهم أصدقاء أنذروهم قبل الحدث، أداروا ظهورهم للسياسة. هربوا من البلاد إلى قصورهم في هامبشاير وحساباتهم المالية في زيوريخ ولديهم كل الراقصات الفتيات اللواتي أرادوهن.

كانت الأمور تدار بصورة خاطئة ومرعبة. عصر الاستقلال الوطني العظيم أثبت بأنه لم يكن سوى شبح كولنيالي جديد. من السهل جداً معرفة السبب الذي جعل والدي يعتبر القضية شخصية

حين رأى بأن المثل التي كرس حياته كراشد لها، منذ الأيام السود قبل الاستقلال إلى الاجتماعات العمالية الحاشدة في أيام الصبا في مدينة لندن، يخبط قدميه على الأرض بسبب البرد- قد ضاعت كلها، قبعة بالية كما يقال. المنادون بالتعددية والعلمانيون الذين بشروا بوحدة أفريقية/أمريكية وأمة من الأفراد المتساويين بغض النظر عن العرق والعقيدة أو أياً كان، والدك وكم مصنعاً يملك، أصبحوا الآن مجرد عصبة من العجائز المتذمرين الذين يدمدمون ويحنون إلى أشياء لم يعد يتذكرها أحد. لم يعد لأحد الصبر لتحمل ذلك.

لهذا كان زواج ابنته باختيارها من رجل يمثل كل شيء أمضى حياته في مقاتلته مثل مسمار المثل الذي دق في الكفن كما قال عنه:

(لقد وضعني في الأرض، لماذا لا؟ لم يعد يحترمني أحد)

(آوه، هيا يا أبي. كفاك مبالغة) قالت ياسمينة التي لم يتجاوز عمرها التاسعة عشر محتجة وهي تضع يديها حول وركيها. كانت لا تزال تضع ربطة رأس وردية اللون إجلالاً لمعبودتها القديمة (أوليفيا نيوتن جون) غير مدركة أن بانتظارها ذلك الانبعاث الورع الذي سيرسلها إلى باب بيتي الريفي بعد كل تلك السنين وهي مغطاة بقماش رمادي قاتم من رأسها حتى قدمها تلبسه الأنثى المسلمة في أواخر القرن العشرين، متحررة ورعة بنفس الوقت دون أي تناقض للحد الذي يقلقها ولم تكن تضع عصبة رأس لامتصاص العرق فهي لم تكشف عن رأسها أمام أحد حتى أنا أيضاً.

لم يكن ابن ملك السردين، عمر شاباً سيئاً. كان ضخم الجثة، أخرق وحسن النية. له وجه ممتلئ يبتسم بسهولة وشارب سخيف رفض بأن يتطور إلى أكثر من زغب. كان يقود سيارة ضخمة ويعبد ياسمينة. ما الذي يطلبه حم أكثر من ذلك؟

لقد جرى الزفاف مثل مسرحية هزلية سيئة الحبكة كما وصفه لي ميوك في رسالته. لقد أصر ملك السردين على دفع كل التكاليف، كل شيء. بما أن والدي كان شبه مفلس في هذا الوقت فقد نفذت أموال الجريدة منذ زمن بعيد ولم تعد تدفع اجر عمالها ولم يكن لديهم ورق طباعة في بعض الأيام وقلصوا العدد حتى أصبح أخيرا ورقة واحدة من القطع الكبير. كانت هذه إحدى الطرق لفرض الرقابة على الصحافة، تجويعها حتى تخرس. بناءاً على ما كتبه ميوك، أمضى والدي المساء كله وهو يتمتم بنغمات مبهمة بشكل متزايد، وحين كان يتجرأ ويخرج إلى الساحة المغبرة التي توقفت فيها السيارات بين الحين والآخر (هؤلاء الناس ليسوا ناسنا. نحن لا ننتمي إلى هذا المكان). لقد فرضت عائلة عمر حظراً على تقديم المشروبات الكحولية في حفلة العرس وذلك لأسباب دينية. وقد جرى نقل هذا التحذير الواضح عن طريق ياسمينة وحماتها إلى أبي لينقله إلى رفاقه الشيوعيين الحميمين بأن أي تسلل إلى خارج البيت من أجل جرعة من الشراب سيقابل بالاستنكار والغضب. لكن وَضَّحَ بأنهم لم يستجيبوا للطلب. إذ حولوا صندوق إحدى السيارات إلى بار متنقل بعد أن وضعوا فيه مجموعة مختارة من المشروبات الروحية والكؤوس إلى جانب كتلة كبيرة من الجليد على قطعة من الخيش. هل كان هذا هو العصيان المدني الذي يصنع الثورات؟ أن تفعل وتكرر كل ما يطلبون منك عدم فعله؟ تجمعوا متسللين تحت جناح الظلام مثل زمرة من طلبة المدارس أكثر مما هم ثوار. لكن يمكن معرفة مصدر الألم: لقد ضعف إيمان الناس بأهدافهم. لقد تقهقروا. لم يكن هذا الوقت ولا المكان المناسبين ليلعب فيهما دور والد العروس في زفاف فخم مقلدا فيه النموذج الثاني من الإنتاج الهوليودي.

لكن القدر قرر. فمشى موكب العريسين عبر الحديقة في تقاليد مختلطة غريبة. عمر يرتدي بزة رمادية كاملة بذيل وقبعة بينما تحول شكل ياسمينة إلى واحدة من أميرات الخرافات وهي تقف في ثوبها الأبيض الذي أعد لها خصيصاً في لندن. عزفت خطوات الزفاف على لحن مؤلف من نوع ياماها وكان هناك كعكة أيضاً، سارا نحوها وهما يحملان سكينا لقطعها.

عند هذه اللحظة وصل أقرباء والدي على ظهر شاحنة تستخدم عادة لنقل الخراف وأكياس الحبوب وهم يصفرون وينتحبون وكان عويلهم يسمع من مسافة أربعة شوارع حين أتت الشاحنة تهدر في الظلام من طريق مظلم. كان القصر الوردي الضخم مرئي من مسافة أميال وفيه ثلاثة أطواق مثل كعكة ذات طبقات.

لم يبق بجانب والدي سوى النسوة. حبوبة وأخواتها وبنات الأعمام والأخوال والعمات والخالات من الدرجتين الأولى والثانية والخالات غير المتزوجات واللواتي مات أزواجهن ولم يرجعوا إليهن أبداً. يعشن معاً في البيت الطيني القديم المسقوف بالقش، البيت الذي أمضى فيه والدي طفولته واستمعت فيه إلى قصص جدتي.

(ليس لنساء عائلتنا حظ في الزواج) قال أبي بحزن لميوك حين رآهن يتسكعن عبر المرج وهن يهتفن بتلك النغمة العالية المترجرجة التي تصاحب تلك الاحتفالات، ويضممن ياسمينة المرتبكة إلى صدورهن الجياشة المتعرقة.

لقد وضعت طاولات مخصصة لهن جانباً، بعيداً في الظلال تحت أشجار الخروب المخيمة حيث وقف أسطول من سيارات المرسيدس، بعيدا عن الضيوف الكرام وعن الأضواء. فهن لا يملكن أياً من ذلك. كسرن الحواجز ودبت الفوضى قبلهن. ففي أعقابهن زحف حشد من الأشخاص غير المدعوين إلى الداخل. كانت النتيجة جحيما ."فتحت أبواب الجحيم" اثر ذلك. وقع الخدم الذين كانوا يحملون صيان ضخمة محملة بالطعام والشراب البارد في العراك الصاخب فتطايرت الأطباق والفناجين. كما امتد الهجوم إلى المحيط المجاور حين اندفع أطفال الشارع الذين كانوا يتسكعون حول المكان آملين بقليل من الفتات ليخطفوا ما يمكنهم في هذا الانقضاض.

(هل كان ذلك هو السبب الذي منعك من العودة؟) سألني أبي في السنة التي مات فيها. (قلت لنفسي ربما يكون مثلي ولا يستطيع تحمل منظر الثروة وهي تتباهى أمام الفقر المدقع. هؤلاء الصغار وهم يبحثون في التراب عن لقمة طعام. تصورت بأنك ستكون معنا هناك ، تقاتل لمنعهم من أخذها وتبديدها كلها. لقد حولوا البلاد إلى حاوية فضلات للغوهم الديني الفارغ. أم أنك عرفت بأننا انتهينا قبل أن ندرك ذلك بأنفسنا؟

ها هما الآن ياسمينة وعمر زوجان سعيدان قادمان لإنقاذي من نفسي. لقد قطعا مسافة مسرعان بسيارة فضية ضخمة.

(ما الذي تفعله هنا؟) سألت ياسمينة بعبوس ثقيل غطى وجهها وهي تخرج من السيارة وكنت أدفع عربة يد مملوءة بأوراق أشجار ميتة لأفرشها فوق برميل روث. اتسعت عيناها من الرعب حين نظرت إلى كوم السماد الحيواني.

(هو مفيد للتربة) قلت مشيراً إلى البقعة التي زرعت فيها بعض الخضار.

(هل تقصد بأنك تأكل الأشياء المغموسة بذلك الهراء) رفعت يدها إلى رقبتها. اقترب عمر بالسيارة وهز يدي في مخلبه بعصبية للأعلى والأسفل. كلما أراه يبدو لي بأنه كبر للأعلى والجوانب. لم يبقى فيه شيء على حاله سوى رأسه لهذا تخيلت أنه سيكون في يوم ما مثل منطاد عملاق وحبة فول على قمته تمثل رأسه.

(هل هذه الأرض كلها لك؟) سأل وهو يتفحصها بعين رجل يعرف الفائدة التي تعود بها المساحات الفارغة.

(إننا نستأجرها) قلت (إنها ليست لنا في الحقيقة)

(خسارة) قال راثياً دون أن يحاول إخفاء خيبته. بالنسبة لعمر الاستئجار شيء يفعله الأولاد حتى يكبروا من أجل الشيء الحقيقي. تمشينا حول البيت لتفحص العشب الطويل الجميل الذي غطس ليلتقي بحزمة من الزعرور البري كانت تحدد الجدول. كان المكان موحلا هناك لهذا لم تكن لي نية في الذهاب ابعد من ذلك فوقفنا ننظر إليه برهة.

(الهواء جديد ونقي جداً، أليس كذلك؟) عَبَّر عمر عن ملاحظته مسروراً: العراء، الهواء المتجدد، لقد ضاع كل ذلك. كانت ياسمينة تنظر إلى طرف البيت. كان هناك غسيل على منصب التجفيف، بدلة حمراء مؤلفة من سترة وسروال معا لليو تتقاذفها ريح عاصفة.

(لديكم نار) لاحظت وهي تشير إلى خيط من الدخان يتصاعد من المدخنة. بما أنني كنت فخوراً نوعاً ما بقدرتي كجامع حطب ومشعل نيران بدأت اشرح عمل هنري والأشجار التي في الحقل. لكن نظرتهم الجامدة وتحديقهم أشعراني بعدم اهتمامهما.

(ذلك الدخان الذي في البيت مضر بالطفل) خمنت ياسمينة.

(ربما علينا أن نذهب إلى الداخل) اقترحتُ قائلاً. شعرتُ بأنها غير متحمسة للفكرة لكن لم يعد بمقدورنا الوقوف في الخارج بعد أن بدأ المطر بالهطول. مشينا عبر الباب الخلفي هلعين، وفد بابوي يدخل بيت الخطيئة.

(لقد صار لك وقتاً طويلاً وأنت بعيد) أوضحت ياسمينة رداً على سؤالي حول الأوضاع في البلد. نظرت بطرف عينها إلى الفرن والإدراج المفتوحة. لم يكن المطبخ حديثا.(لا تتذكرين شبيها له. الحرارة، الرائحة). اكتشفت إحساسا بالملكية في صوتها كأنه يقول ليس من شأني أن اسأل أو اقلق فقد غبت طويلاً جداً ولم أعد مخولاً بالقلق.

كان المكان في حالة من الفوضى رغم جهودي المحمومة في ترتيبه حيث أنني توقعت وصولهما. حين يكون هناك طفل في البيت تفقد الأشياء المادية قدرتها على البقاء في المكان الذي توضع فيه وكأن كل شيء أصبح مفعما بطاقة حركية عن بعد: بطانيات منشورة وممدودة على الأرض، خزانات مفتوحة تبعثرت محتوياتها في كل أرجاء الغرفة، فناجين وأطباق وملاعق تطايرت عن الطاولات في كل اتجاه. وكل ما هو غير مثبت بمسامير تحرك من مكانه كما أن هناك فجوات لا تلاحظها أبداً من قبل بين الجدار والخزانة وبين الثلاجة والفرن- تبلع الملاعق والأقلام وأشياء ضرورية كمفاتيح السيارة. كان هناك بقعة من الكاتش آب على السقف لاحظتها ياسمينة حين لوت عنقها للوراء ونظرت للأعلى. ظل وصولها إلى هناك سراً، شكلها مثل إصبع يشير إلى عجزي ككائن بشري ووالد وأخ وابن. كان ليو في الثانية من عمره آنذاك لكنه كبير بما يكفي لفك الأشياء

لكنه عاجز عن إعادة تركيبها وربطها ثانية. كان روحاً شريرة لا تهدأ، شبح شرير غرضه في الحياة إبقاء والديه في حالة دائمة من الإعياء والإجهاد. كانت الكتب شيئه المفضل في تلك المرحلة ويفتتني بطريقته في فصل الصفحات حين يشدها. إن ظل صامتاً لأكثر من خمس دقائق تعرف بأنه وجد طريقه إلى رف الكتب ثانية رغم كل العقبات التي كنت أضعها في طريقه من مقاعد وطاولات وقطع أثاث وشبكة من الخيوط والكابلات لإبعاده.

بركة من الحليب انتشرت على أرض المطبخ مثل فقاعات رسوم متحركة تنظر من يملأها بالكلمات. كانت القطة تشمها بصورة مريبة مما يوحي بأن الحليب كان فاسدا. كان ليو داخل الثلاجة مما يعني انه تسلق الكرسي بطريقة ما ونجح في فتحه بالقوة وكان منشغلاً في التسلق إلى الداخل. لقد تركته مع ايلين لكن لم يكن لوجودها أثراً. التقطته من الأرض قبل أن يسقط فوق زبدية بيض.

(كيف فعلت ذلك) سألت.

قهقه وأشار إلى القطة (فاوست فعل ذلك)

(لا يا ليو ، لا أعتقد أن فاوست فتح الثلاجة لوحده. وضعته في كرسيه وتحركت بسرعة محاولاً تصحيح الأشياء. (أنظر من جاء لزيارتنا) بدا الرعب على ياسمينة وعمر.

(كيف حال ابنيكما؟) لدى عمر وياسمينة تؤمان، عملاقان صغيران لهما نفس شكل عمر. يمضيان طول الوقت يتقاتلان إن لم يكونا يأكلان ويأكلان طول الوقت حين لا يكونا نائمين.

(إنهما يقيمان مع أمي في لندن) شرح عمر كما لو أن هذا هو الشيء المعقول للتعامل مع الأطفال.

قالت ياسمينة نعم لكن عمر تمتم بصوت منخفض وأومأ برأسه ولم أكن سريعا لأفهمه. ثم قالت ياسمينة (لا بأس لا تهتم).

(لا تكن سخيفاً، عليَّ أن أطعمه على أي حال) قلت وأنا أشير إلى ليو الذي كان يحدق بهما الاثنان. رتبت متسعاً على منضدة المطبخ ليجلسا. جرت ياسمينة دلفينا بلاستيكيا من تحتها ولوحت به لليو كأنها لم تر طفلاً في حياتها.

(هل أنت تقوم بذلك بنفسك حقيقةً؟) كان عمر يراقبني وأنا أحضَّر طعام ليو. (ذلك شيء جيد، أليس كذلك يا ياسمينة؟ شيء جيد أن ياسين يستطيع عمل كل هذه الأشياء لوحده) قذف بمفاتيح السيارة على الطاولة ولف ذراعيه ليراقبني بشكل أفضل وأنا أعمل.

(عليك أن تتعلم منه) نظرت إليَّ.(الحقيقة أن عمر ميئوس منه تماماً. لا يمكنه تدبر نفسه دون أن يكون حوله أناس في البيت يقومون بكل طلباته. في اليوم السابق كنت مضطرة للخروج من البيت، هل تتذكر؟ تركت كل شيء جاهز ومع ذلك نجح في تخريب الفرن.)

دغدغ ذلك عمر وانتابه الضحك وتدحرج للأمام والخلف وهو يرتجف طرباً. بدأ الاثنان في التحدث عن حماقات الحياة في لندن. كانا يستأجران شقة في بيكرستريت تكلف مبلغاً طائلاً. التفت إلي ليشرح.

(أنظر، لقد كان الأمر بسيطاً فقد تصورت أنه كان للفرن وليس للمايكرويف)

وقفت مع علبة من عصير البندورة وفتاحة علب أراقبهما كالأبله. كانا يتحدثان بمزيج غريب استعارا فيه كلمات من الانكليزية لوضعها في جمل عربية وبالعكس. لم أسمه بهذا منذ زمن بعيد. لم أهتم بما كانا يتحدثان به لكني كنت سعيداً بالاستماع فقط. تجمد ليو صامتاً.

(لهذا أخذ الوعاء الذي كتب عليه يستخدم للمايكيرويف فقط)

(لم أقرأها)

(إنهم ليسوا أغبياء في ماركس اند سبنسر أنت تعرف، ماذا كنت تفعل؟ تشاهد التلفزيون بنفس الوقت، أليس كذلك)

(كان برنامج انتبه للغتك) وانفجر بنوبة عالية أخرى من الضحك حين انكشف سره. كان برنامجه التلفزيوني المفضل على ما يبدو، إعادة لمسلسل يفترض أنه مات ودفن منذ السبعينيات وهو عن مجموعة أشخاص يحاولون تعلم الانكليزية، مسلسل نمطي عن العنصرية والجنس والغباء، الأسوأ في نوعه. لكن عمر يحبه.

(لقد ذاب الإناء في الفرن. اضطررنا إلى شراء واحد جديد غيره) فرن جديد، كانا يقرقان كالدجاج ويغردان كالطيور مثل شخصين تزوجا حديثاً. تذكرت التفكير بالبساطة الرائعة التي يمكن أن تكون بها الحياة.

ظهرت ايلين ونحن في هذه الحال وهي متخفية عميقا في بير بوردو وتفكيك ما بعد بنيوية الآخر بينما تتفحص فضائل الصوت المرتد لعالم الجنس البشري المطلع، ظهرت لتجد نفسها أمام تحدي مسألة التواصل البسيط اليومي مع كائنات إنسانية مماثلة. كان لهذا أثراً كابحاً على الحديث العادي. إما أنها لن تتلكم أو أنها ستدخل في نوبة من هذيان تداعي الشعور. حل صمت مطبق حين دخلت. استدرنا للنظر إليها. بدت شاحبة ومشوشة. شدت ياسمينة غطاء رأسها للأمام ووقف عمر على رجليه بأدب.

أتساءل الآن عما رأته ايلين حين دخلت المطبخ في ذلك اليوم؟ ثلاثة غرباء أجانب وابنها؟ غزو؟ اجتماع غريب لمخبرين غير موثوقين، عدم انسجام رصيدهم الثقافي ناتج عن تعرضهم الطويل لأكثر من مجموعة من التقاليد فأبطل بسبب ذلك؟ أم ربما لم تر سوى عائلته. على أي حال نجحت في التمتمة بكلمة (مرحبا) فقط ثم انتزعت ابنها من مقعده العالي وخرجت من الغرفة. بقيت واقفة هناك والزبدية في إحدى يدي وفي الأخرى ملعقة وأنا أحس بنظراتهما علي.

(إذ) قال عمر بعد فترة من الوقت (علينا أن نتمشى قليلاً). كانت فكرتهم عن المشي العودة إلى السيارة مباشرة فقد رأوا ما يكفيهم. حين كان عمر يصعد إلى السيارة ترددت ياسمينة.

(الجميع قلقون عليك يا ياسين، أمي وأبي قلقان عليك وأنا أيضاً)

(حسناً، ليس عليهم أن يفعلوا ذلك ولا أنت أيضاً)

(لكنهم قلقون، ما الذي تفعله بحياتك؟)

(هذه هي حياتي. لدي زوجة وابن ومكان أعيش فيه)

نظرت إليَّ طويلاً (وهل تصدق ذلك حقيقة؟ أنك لا تنتمي إلى هذا المكان يا ياسين، مع هؤلاء الناس، معها. كل ذلك خطأ. لماذا تفعل هذا؟ ألا تدري بأنك توجعنا حين نراك بهذا الشكل؟ لقد

بدأت بقصد الصحافة وكان عليك أن ترى وجه أبي. كان فخوراً جداً بك. لكن أنظر إلى نفسك الآن.) أومأت حولنا كما لو أن ذلك كان بادياً بحد ذاته-الفساد، السقوط من النعمة.(كأنك تفعل ذلك متعمداً)

(لم أقَدِرْ على تلبية طموحاته وأنت تعرفين ذلك. لا أحد يستطيع. بالإضافة إلى أنني لم أكن بارعاً فيها.)

(إنه والدك، عليك أن تحاول)

(لماذا؟ حين يتضح بأن الأمر لن ينجح)

(إذاً ما هو بديلك؟ أن تعيش هنا كفلاح قروي، أنت يا ياسين؟ أنت لا تعرف عن الزراعة أو الريف شيئاً. أنت تعتقد بأن الحياة هي فعل ما تريد لترضي نفسك. هذه لعبة من نوع ما، إنها .... أنانية. أنت تعرف ذلك)

(أنا أحاول استغلال كل الإمكانيات والفرص لتحقيق أفضل نتيجة)

(هل ستمضي حياتك وأنت تحاول تحقيق أفضل النتائج بهذه الطريقة. كيف سيكبر هذا الصبي؟ هل فكرت بذلك؟ من سيكون في المستقبل؟) استدارت وصعدت إلى السيارة وطبقت بابها بقوة بعد طلقة الفراق الأخيرة. (أنت لن تنتمي إلى هذا المكان أبداً. ستنتهي إلى غريب بالنسبة لكل شخص حتى أولادك.)

ذكّرتني الحقيقة القاسية ببيت أهلي، تركتني جامداً وساكناً لفترة طويلة بعد أن ابتعدت السيارة، شكل فضي غامض تعرج في الطريق ثم انزلق بين الأشجار وتلاشى في الغبار الذي كان في ذيلها. ما الذي فعلته بحياتي فعلياً. عدا أنني أدرت ظهري لكل شيء ولكل شخص وكل فرصة قدمت لي؟ الحياة لا تكافئك على محاولتك في تجديد نفسك لتفر من شراك الأجيال السابقة ولمحاولتك في عيش حياتك كما لو أنها كانت لك. ليس بطريقة أنانية لكن بطريقة تسمح لك بإيجاد إمكانياتك الحقيقية، موهبتك الحقيقية. أنا لم أجد حياتي بعد وإلى إن أجدها ليس لدي ما أقدمه لياسمينة كتعويض، لاشيء أبداً لأي شخص.

لقد ذكّرني ذلك بكتاب قرأته بنهم سابقاً في غضون ثلاثة أيام وأنا عاجز عن الحركة. كنت في جوالي الرابعة عشر من عمري والفصل صيفاً. كان الكتاب رواية (الرجل الصغير البارز) لتوماس بيرغر حوّلها آرثر بن إلى فيلم لكنني لم أحضر الفيلم فأنا لا أحب مشاهدة الكتب التي أقرأها كأفلام بالإضافة إلى دستن هوفمان. الشخصية جاك كراب، يجد نفسه يتحرك للأمام والوراء ويبدل الأطراف، بين حياة وسط هنود الشيني وحياة مع رعاة البقر البيض. كان يشعر بالارتياح في العالم المتلاشي الميت للخيام الجلدية المخروطية والطواف في السهول لكنه لا يستطيع المكوث هناك بالإضافة أن عالم هنود الشيني مهدد من قبل عالم البيض الذي كان يعتدي عليه. حياة جاك كراب مقيدة بهؤلاء الناس الذين كانوا على الجانبين الذين يصران على فرض الحدود التي يجب عليه عبورها ذهاباً وإياباً مرة تلو الأخرى كي يبقى حياً.

الفصل الثالث عشر

(إنها تلوح لنا بالتأكيد) قال ليو مصراً.

نظرت من وراء نافذة غرفة الطعام في شارع باريس الماطر. لقد ثبت بأن الفطور كان تجربة كئيبة. غرفتنا زُيِنَتْ بكاملها في ظل بني موحد-الستائر والأغطية والسجاد لها نفس اللون محولاً كل شيء إلى نوع من التجريد والآن القهوة الخفيفة والكعك المطاطي حتى المربى الخالي من النكهة له نفس التدرج اللوني الممل.

الشخص الذي في الجانب الآخر كان يرتدي نظارات شمسية رغم المطر وقبعة ربما بسببه.

(لا يمكن: هل تلوح لنا) قررت واستدرت نحوه (تناول فطورك). لكن ليو بقي حيث هو، يراقب حفنة من كسر الخبز التي توزعت فوق الطبق وغطاء الطاولة وعليه وعلى الأرض. ردا على كلامي، مشت المرأة التي ترتدي سترة جلدية حمراء وسروالاً مطاطياً عليه بقع نمر نحونا ودقت النافذة بجانب وجهي. كل من في غرفة الطعام نظروا إلينا. في الواقع كانت الغرفة أكثر من مكان للطعام لكونها مفصولة عن صالة الانتظار والباب الأمامي عبارة عن شاشة رقيقة. الرجل الواقف خلف طاولة الاستقبال كان يتفحصنا. دقت النافذة مرة أخرى بإصرار ثم نزعت نظارتها الشمسية ولوحت بيدها بشكل هستيري.

(قلت لك) قال ليو؟(لماذا تتظاهر بأنك لا تعرفها؟)

(لم أكن أتظاهر. إنتظر هنا). نهضت وخرجت لأقابل هيا. كانت تتفحص مجموعة غالية من حقائب لويس منيتون في واجهة بوتيك صغير مجاور للفندق. كانت حقيبتها تتألف من واحدة ثقيلة من النايلون تنزلق من كتفها دائماً وتربكها. توقف المطر فنزعت قبعتها أيضاً، مما تسبب في سقوط حقيبتها على الرصيف.

(هذا هو) ابتسمت وهي تقذف بذراعها للأعلى بطريقة مسرحية.(لقد قررت بأن أساعدك في مصاعبك. سوف أدلك على الطريق وتأخذني معك إلى الجنوب. نحن نساعد بعضنا البعض)

(لست متأكداً بأنها فكرة جيدة) كنت حذراً لأن ليو كان يراقبنا باهتمام من خلال النافذة.

(لماذا لا؟ أنت مغادر اليوم، أليس كذلك؟)

(حسناً. نعم. هذا الطقس ليس الأمثل لزيارة باريس)

وكان ذلك صحيح بالإضافة إلى أن ليو لم يكن يرغب في رؤية المزيد من باريس و اشك بأن عدم تحمله قد زاد.

(وما هذا؟) انحنت وشبكت يديها بطريقة العمات الكبيرات في السن اللواتي يقدم لهن جرو صغير كهدية.

(هذا ليو) قلت بالانكليزية متجاهلاً نظراته. لا تبدو هيا بأنها متأكدة من كيفية التعامل مع الأطفال، ربما لأنها بلا خبرة. تذكرت أنها قالت شيئاً عن رعايتها لإخوتها وأخواتها الصغار حين كانت

تعيش معهم في نفس البيت.

(قل مرحبا لهيا)

(ه-ي-ا، هيا) قال بصوت منخفض. وقفنا الثلاثة هناك ننظر إلى بعضنا البعض. تلكأ موظف الاستقبال عند الباب متظاهر بأنه يراقب الشارع وحين نظرت إليه كان ينظر إلينا من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس.

(كيف عرفت بأننا سنغادر اليوم؟) استدرت نحوها وسألت.

(آه، أنت ترى كم أنا ذكية.نظرت إلى السماء فرأيت المطر. يا للشفقة قلت لنفسي، الآن ياسين وابنه لن يستطيعا رؤية المدينة وزيارة الأماكن السياحية فيها. لهذا فهما سيغادران اليوم وليس غداً)

(كان يمكن أن تكوني مخطئة)

(جنيتي هي التي أخبرتني بأن أذهب) قالت وهي تلكم الهواء تعبيراً عن انتصارها.

(أبي، هل نحن مغادرون اليوم أم ماذا؟) قال ليو الذي عجز عن متابعة المحادثة وازداد قلقه.

(إننا مغادرون) أكدت له (بإمكانك وضع حقيبة الظهر خاصتك في السيارة)

(حقيبة الظهر؟)

كانت حقائبنا في ركن الاستقبال وكنا مستعدين للانطلاق المبكر. ناولته مفاتيح السيارة. نظر إلى هيا ثم إلي واستدار دون أن يقول شيئاً ودخل إلى الفندق. عبرنا الشارع ووقفنا خارج المدخل. ثم بدأت تمطر ثانية.

(لو تأخرت خمسة عشر دقيقة فلن تجدينا)

(هذا لن يكون مميتاً) قالت وهي تهز كتفيها كما لو أن الحياة مليئة بمثل هذا المجهول الخطر.

راقبنا ليو وهو يخرج من الفندق وحقيبته الصغيرة على كتفه واختفى تحت الطريق المنحدر إلى موقف السيارات الذي كان في القبو بجانب الباب: رجل صغير يثقل كاهله بحمل كبير. دفعت هيا يدها بذراعي.

(لا تقلق حول ذلك. سأجلس بهدوء ولن أصدر أي صوت).

(أنظري أنا لست متأكداً بأن هذه فكرة جيدة. ليو ....)

(لا تقلق بشأن الصبي) ظهر ليو في تلك اللحظة بالضبط ورآها تعلق يدها بذراعي. مدت يدها وداعبت شعره وهو يمر (أسدي الصغير).

رماني بنظرة قذرة وذهب إلى الداخل مرة أخرى ثم خرج بحقيبة وتجاوزنا وهو يترنح ماشياً نحو المرآب. كنت أفكر بمئة سبب. لماذا لم أقل لا، لكنني مجبر على الخروج بإجابة واحدة متماسكة وقوية.

(إننا لسنا ذاهبان إلى هناك مباشرة. يمكن أن نتوقف على الطريق، تعرفين)

تراجعت للخلف ورمتني بنظرة قوية.(إن كنت لا تريد أن تقلني معك، كل ما عليك فعله أن تقول لا)

لم أستطع أن أجمع شجاعتي وأفعل ذلك، رغم أنها كانت فكرة سيئة جداً. طلبت منها أن تعطيني دقيقة. مشيت في المنحدر في كهف المرآب المظلم لأتحدث مع ليو. كان متكئاً على السيارة، غير مستعجل للعودة، كما شككت.

(أنظر، إنها بحاجة إلى توصيلة وعرضت عليها ذلك. الفكرة سخيفة، لكن بما أن لدينا متسع كبير فأنت لا تعارض، هل تعارض؟)

(متى سنكلم أمي بالهاتف؟)

(قريباً، عندما ننطلق ونخرج من المدينة ونبتعد عن الزحام)

(لكن متى قابلتها كما قلت؟) سأل مشككاً وهو ينظر من ورائي إلى الطريق المنحدر حيث كانت تقف هيا تحت الأضواء الرمادية وهي تدخن.

(أمس، في صالة الفندق) كذبت عليه. كان لا يزال ينظر إلى الأرض. (لقد بدأنا الحديث فقط، لماذا؟ ألا تصدقني؟)

رفع رأسه ونظر إلي للحظة.(حسناً يا أبي) تمتم بصوت ناعم (أصدقك)

ربما لم أكن أفكر بشكل واضح، ربما حان الوقت لأقدم خدمة لشخص ما، ربما من كان يفكر ليس دماغي. هيا على أي حال لم تعجبها وسيلة نقلنا.

(هل هي هذه؟) أطلقت صفرة منخفضة. (هل ستقلني بهذه إلى اياكس؟ هذه السيارة أكبر مني عمراً. كان هذا صحيحاً (هل أنت واثق بأنها تستطيع فعل ذلك؟)

(يتوفر القطار دائماً) قلت

(ماذا قالت يا أبي؟) سأل ليو شبه ساخط.

(قالت إن السيارة قديمة وينبغي أن تكون في المتحف)

رفعت هيا يدها واعتذرت.(كنت أسأل فقط.)

مررت ظفراً أحمر على اللوح الأمامي للسيارة وابتسمت بطريقة خبيثة.(لا تستغرب إن أوقفتنا الشرطة. سوف تجذبهم السيارة مثل الذباب على قذارة دافئة)

كان تتوقع سيارة حديثة ورشيقة لكنها لم تكن كذلك بالتأكيد. من الصعب أن أفسر تعلقي بهذه السيارة. بالنسبة لشخص مثل هيا إنها تبدو حماقة غريبة الأطوار. ما الهدف من أمتلاك سيارة ليست أنيقة وجميلة؟ بالنسبة لي هي تذكار عاطفي لطفولتي، للماضي الذي مات منذ زمن بعيد، بالنسبة لها هي مثل الرجوع إلى عالم كانت تحاول الفرار منه.

على أي حال. منذ أن عدنا إلى السيارة شغلتني أمور أخرى. السير كان أحدها فوجدت نفسي أصغي بانتباه إلى المحرك مرة أخرى خوفاً من أن يكون فيه عطل ميكانيكي ما. في الوقت الذي كانت تستريح فيه في المرآب. تحدثت هيا عن نفسها بينما كانت ترشدنا للخروج من المدينة إلى الطريق العام باتجاه الجنوب.

تعتقد عائلتي بأنني أعمل كممثلة. قالت (أرسل لهم النقود. أنت تعرف، قليل من النقود تقطع مسافة طويلة للوصول إلى هناك. غالبية أفراد عائلتها لا يزالون هناك في المخيم الذي ولدت فيه. كل ما عرفته عن الحياة هما الصحراء والحرب فقط. رأت والدها مرة واحدة، أو ربما مرتين حين عاد إلى البيت من القتال. كل ما حلمت به هو الابتعاد عن ذلك المكان وبأسرع طريقة. قابلت رجلاً فرنسياً يعمل في منظمة خيرية. كان يكبرها بعشرين سنة، رتب الأمور ليأخذها معه إلى فرنسا ووعدها بالزواج لكنه بعد ستة أشهر وفي شقة صغيرة في بريتاني ضجر منها.

(لقد أخطأت في كل شيء) فهي لم تكن مهتمة بما كان يحدث في العالم ولم تشاركه غضبه من الاستغلال الذي تعرض له قاطفو القهوة في السلفادور أو انتهاك حقوق النساء في أفغانستان.(لماذا أهتم بهؤلاء الناس البعيدين، لدي مشاغلي الخاصة. ذوقها في الثياب عامي. كانت ترتدي مثل بغي وتشاهد البرامج التافهة في التلفزيون. تكره المسرح وخصوصاً النوع الطليعي من الإنتاج حيث يمضي الناس ساعات وهم على وشك تقتيل بعضهم البعض دون أن يقتنعوا فعلياً بعمل أي شيء. (يتحدث ويتحدث ويتحدث) هذا كل ما يريده. لا أستغرب من كونه شبه مجنون. (الحياة سيئة بما يكفي عداك عن الجلوس حتى انتهاء عرض ذلك النوع من التسلية.) لقد أحبت إنتاج هوليوود من الأفلام الخفيفة والتافهة ولم تفهم لماذا عليه أن يزعج نفسه بهذا. من يهتم بالسيطرة الثقافية؟ إن كان فيلماً جيداً أم كان خسارة للمال. أحبت أن تأكل طعاماً فرنسياً لائقاً وليس الكسكس المطبوخ بشكل سيء في أماكن قذرة تعج بأشخاص من ذوي الشعر البرتقالي والدبابيس التي تخترق شفاههم. أرادت الراحة والاحترام، لم تكن مجرد تجهيزات حديثة من أجل نمط حياة بديل أغرم به. ثم بعد ذلك وجد إمرأة أخرى، (إمرأة قبيحة. أقول لك بكل صدق. وماذا فعلا معاً؟ لا شيء. كانا يتحدثان ويتحدثان ويحدثان. هذا كل شيء. دعه ينال زوجته الفرنسية اللائقة) لهذا رحلت في أحد الأيام وهي لا تحمل سوى الثياب التي عليها واتجهت صوب باريس. الشيء الوحيد الذي كانت واثقة منه هو عدم العودة إلى الوطن. ليس لديها أوراقاً ثبوتية لهذا لم تستطع أن تعمل بمهنة لائقة ولم يكن لديها مكان تنام فيه أيضاً.(في البداية كان الوضع صعبا لكنني أسيطر على الأمور الآن. لدي مكان الخاص بي.) لم تتشرد في الشوارع فذلك أمر خطير جداً وعندما كانت تحتاج إلى النقود كانت تعرف الطريق إليها. لديها سلسلة من "الأصدقاء" الدائمين الذين يدفعون لها جيدا.(أنا أعرف أين أجد الرجل الذي يدفع مقابل ما يريد فذلك يقلل مقدار الهراء الذي يصدرونه.) الآن هي سعيدة كما تقول. مشاكل عرضية لكنها ليست خطيرة. تتدرب في رياضة الكيك بوكسينغ مرتين أسبوعياً. ضحكت وهي تقذف يدها بالهواء باتجاهي.

(أصدقك، أصدق)

نفخت شعرها عن وجهها ورأيت ليو يبتسم.(إسمع لم أتحدث كثيراً بعد. أين أمه كما قلت. أرى بأن وجهه يتجهم ويدرك بأننا نتحدث عنه، هل سنقابلها هناك حين تصل؟) لقد شرحت لها بأنها لا تحب قيادة السيارة، مزيد من الأكاذيب.

(آه) خفضت هيا ذقنها مما يعني أنها صدقتني أو لم تصدقني. جعلني السؤال أفكر بكل الأشياء وكان أغلبها حول سبب تحولها إلى شكلها الحالي. لم أكن أريد ترك ايلين لكني عرفت أنها لم تعد تتحمل بقاءنا معاً وأننا في عيشنا معاً نسبب ألما لليو أكثر من انفصالنا رغم ذلك لم أرغب بهجرها.

هجرها سيكون قبولاً بالهزيمة واستسلام لياسمين ومثيلاتها في هذا العالم. لم أدرك أنني كنت أبالغ في الأمر إلا حين مدت هيا يدها نحوي. كنت ممسكاً بعجلة القيادة. نظرت بالمرأة فرأيت ليو مثبتاً نظره على الطريق فرفعت قدمي عن دواسة الوقود.

(أين كنت، لم تكن تسمعني) قالت؟

كانت ايلين تناديني بالصبي اليتيم.(أنت لست بحاجة إلى أحد. لقد أمضيت سنوات طويلة جداً وأنت تحاول العيش بعيداً عن أهلك ونسيت بأننا كلنا بحاجة إلى شخص ما) كان هذا في السنوات الماضية، احمر وجهها بالهرمونات وانتفخ جسدها بسائل أميني في أعماق بطنها، وطفت مضغة هلالية من اللحم والدم كانت في طريقها إلى العالم. كل ما علي فعله الآن التمسك به، بالصبي الذي يجلس خلفي ويدير اذرع قرشه العظيم-اللعبة التي تعمل بالطاقة النووية، الواثق بأنني سأوصله ونفسي بأمان إلى أي مكان سنذهب إليه.

هيا، من بين كل الناس، يجب أن تفهم هذا. نظرت إليها، كنت ممنوناً لأنها رافقتنا. استدارت لتواجه ليو وبذلت محاولة لتشرح له بأن لغتها الانكليزية ضعيفة ومحدودة.

(صبي طيب) قالت. لم أتخيل العبارة، لكنها كانت معتادة على مخاطبة الصغار.

الفصل الرابع عشر

جهزت نفسي للتأقلم مع كل ما في الريف الإنكليزي، حاولت أن أحب أشجار السنديان والزان والسياجات الشجرية والناس الذين يجزون مروجهم الأمامية دائماً الذين حين تمر من جانبهم ويرفعون رؤوسهم ليومئوا بالتحية الجافة التي تقول القليل وتنطق بالكثير. أجبرت نفسي على نسيان تجاهل الناس للأسماء في المدينة وعيونهم المتفادية وأعقابهم المستعجلة ولا مبالاة بائع المحل الذي يعمل فيه بشكل مؤقت.

كلما كنت أشعر بطغيان الإحساس بحقيقة شرك تلك الإقامة والرغبة في التيه وسط الزحمة، كنت أركب السيارة وأتجه إلى مركز التسوق، وهو عبارة عن مجمع ممتد من مراكز المطاعم المفتوحة في الهواء الطلق ومخازن داي وسوبرماركت ضخم مجمعة في مكان واحد. كانت الموسيقى المزعجة المتواصلة تخدرني مثل نغمة المزامير المرقطة. كنت أشق طريقي في تلك الممرات المضاءة بأضواء غازية بيضاء مثل خبير متأهب دائماً لكل المتغيرات، أردت النظام والاستقرار. استأت من كل محاولات الإدارة في مراجعة وتحديث البنية. بمجرد أن تألف المخطط يقومون بتبديله. لماذا؟ كان يفترض بشرائح الخبز الأسمر أن تظل في المكان الذي كانت فيه وأن لا تحل البهارات أو تمباكس محلها، أو تنقل إلى جهة البضائع المجمدة. لقد ضجرت من الخنوع الذي يدب في قبعات البيسبول والزي الموحد، كما لو أن لكل واحد منهم دور مهم في برنامج وكالة الفضاء الأمريكية ناسا ولم يكونوا سوى مستخدمين لتكويم مطربانات المايونيز. كان بإمكاني أن اشتري الحمص الطازج وخبز السياباتا الساخن المحشو بالزيتون من الفرن. لماذا علي أن أهتم بنظرات الجيران الساخرة؟ لكن السوبر ماركت يقول لي بأن التنوع قد وصل إلى البلدة وهو هناك ليبقى.

كنت أدحرج عربة التسوق وليو مستند في المقعد الصغير فيها وهو يطلق صيحات الابتهاج. كان ليو يعرف تلك الممرات وكأنها شوارع مألوفة ويعرف أين كانت تخزن أطعمته المفضلة والأشياء التي يحبها مثل الشوكولا والبسكويت ورقائق الذرة والحلويات. كنت أصحبه معي كلما استطعت ذلك، لأعطي ايلين سلطة حرة في البيت ولأن ذلك كان جزء من الاتفاق. الذكور العزاب مشتبه بهم ومن جانب آخر اكتشفت بأن الآباء العزاب أشخاص يثيرون الإعجاب والثناء. قد أكون مفرطاً في إحساسي بهذه القضية لكن حين كانت تقع عيني صدفة وبصورة بريئة على أحد أفراد الجنس الآخر، كان رد الفعل المعتاد منهن الإمساك بطرف حقائبهن اليدوية بإحكام كبير وشدها إلى أطرافهن. لست متأكدا كيف يبدو شكل القاتل المتسلسل ولن أعرف واحدا منهم إلا بعد أن يخطف محفظة نقودي ويقطع نصف الشارع، لكن تلك النسوة يعرفن، بالتأكيد وأنا أناسب الوصف تماماً. حين أكون برفقة ابني أصبح مستوفياً للشروط المطلوبة. الصبايا اللواتي على طاولات الحساب يدغدغنه تحت ذقنه والأمهات الوحيدات يبادلنني الابتسامات من وراء العربات. كنت أشعر بأن المجتمع فتح لي أبوابه.

كنت أقوم بوظيفة أخرى سهلت علي الحياة أيضاً. رددت على إعلان يطلب مصححاً فوجدت نفسي في أكسفورد في أحد المساءات، خارج بيت واسع من العصر الفيكتوري، متراجع عن الطريق. تم تحويله إلى مكاتب، كتب على العلامة التي كانت بجانب الجرس مطبوعات بين غيز. (دق الجرس

وسر حول الجانب). اتبعت التعليمات ووجدت نفسي واقفا أمام باب صغير من الزجاج المقوى بالفولاذ، فتح بعد برهة للخارج كاشفا عن امرأة أنيقة وصغيرة ترتدي بدلة زرقاء غامقة وبلوزة قرنفلية حمراء بدون حقيبة يد. رشقتني بعبارة ترحيب صاخب واستدارت فورا لتقودني إلى ممر منحدر يؤدي إلى قبو البيت، أنابيب التدفئة المتدلية أجبرتني على حني رأسي. دخلنا في قبو واسع فيه ثلاث نساء كن يكدحن بقسوة وراء شاشات الحواسيب. وفي أحد أطراف الغرفة كومة من الصناديق الكرتونية، يفترض أنها مملوءة بالكتب. ثم أخذت إلى مكتب في الطرف البعيد. الرجل الضخم الذي جاء من وراء الطاولة ليصافحني كان الان وايكليف. قدم لي نفسه كمدير إدراي ومالك والشخص الذي يقوم بالأعمال التي يرفضها الآخرون، وانتهى بضحكة مربكة. كان شعره طويلاً أشقراً وأنيقاً ووزنه زائداً من النوع الريان من طراز متوسطي العمر غير المبالين. في البداية اعتقدت بأنه يكبرني بعشر ة أو خمسة عشر سنة لكن ذلك كان بسبب طريقة لبسه التي جعلته يبدو رزيناً أكثر مما تأكدت منه لاحقاً. تفحصني جيداً لبضع دقائق وأنا أتحدث عن رحلتي وكيف وجدت المكان ثم بعد ذلك بدا بأنه اتخذ قراره. ابتسم لهيلين. تطلعت للأعلى وأومأت برأسها موافقة ثم نظرت للأسفل مرة أخرى. كان ذلك علامة على الموافقة كما استنتجت مؤخراً. التفت إلي الآن وقال (هل أكلت؟) أجبته (كلا،) قال (حسناً، ما رأيك بأن نذهب لتناول الغداء؟) شككت بعدم وجود استجابة كبيرة لإعلان الجريدة لكني لم أستحسن السؤال. أنا بحاجة إلى الوظيفة.

(هل تسكن في المنطقة، التايمز؟ هذا جيد. هل قمت بذلك من قبل؟)

(لا)

(حسناً، لا تقلق بشأنه. أي شخص لديه النذر اليسير من الذكاء يمكنه فعل ذلك وأنت قمت ببعض الكتابات من قبل، كما فهمت.)

(هل تقصد في الصحافة؟)

(في هذا العصر كل من يستطيع تهجئة اسمه يفي بالغرض)

(ما هو نوع الكتب التي تنتجها؟)

(سؤال جيد. في الواقع نحن نتوسع في فرص تسويقية ممتعة جداً) ابتسم وفتح لي الباب.

كانت فكرة وايكليف عن الغداء عبارة عن دجاج ورقائق البطاطا في حانة محلية. اكتفيت بالمياه المقوية الهندية بينما ازدرد هو ثلاث باينتات من بست بيتر مثل رجل يخرج مترنحاً من كالاهاري. بعد ذلك بدأ يشرح عن عمله وعن تجارة الكتب عموماً.

(الأدب ميت. يقول الناس نحن لا نزال نملك هذا الشيء لكن أفتح عيونك جيداً وأنظر. ما هو آخر كتاب قرأته، شيء بقي في ذهنك؟ سأخمن، كافكا؟ فلوبير؟ تولستوي؟ هل أخفقت في الاكتشاف؟ واحد من هؤلاء على كل الأحوال، المادة الجديدة؟ حسناً إنها تأتي وتروح. آخر روائي أوروبي عظيم له القيمة كان كونديرا، بعده كل ما كان مجرد ضباب.)

(أنت لا تجعله يبدو كتجارة جذابة للعمل بها)

نظر إلي بشزر كما لو أنه يقيسني من أجل بدلة، (كنت أتحدث عن الأدب، تجارة الكتب بخير وبحالة ممتازة. ما يريده الناس اليوم هو التسلية. يوجد في العالم ما يكفي من الحزن والأسى

الحقيقيين، لماذا يريد الشخص قراءة رواية عنه؟ هل تحب أن نلعب؟ الفائز يدفع الجولة المقبلة، أومأ برأسه باتجاه طاولة بلياردو في الطرف البعيد من الغرفة ونهض دون أن ينتظر ردي. مشى حول الطاولة ببطء كأنه لم ير واحدة في حياته من قبل ثم هزمني بثلاث جولات متتالية. حين كنت أراقبه وهو ينحني للأسفل فوق النسيج الأخضر خطر لي من أين جاء بهذا الاسم الغريب لشركته. يفترض أنه أمضى وقتاً طويلاً في هذا المكان كما قررت.

(لم تقل لي بعد ما نوع الكتب التي تنشرها)

(سأصل إلى ذلك، هل تود بجولة أخرى؟ ما رأيك لو رفعنا الرهان؟)

نظرت إلى ساعتي وكنت قلقاً قليلاً حول القطارات، ولم يكن هذا بعيداً عن الحقيقة. لو ربح جولتين ثانيتين فسأذهب مشياً إلى البيت.

أخبرني عن نفسه حين عدنا إلى المكتب.(لقد ولدت في زيمبابوي في روديسيا، كما كانت تدعى سابقا. كان أبي يملك مزرعة وخسر كل شيء. على كل حال، أنت تعرف عما أتحدث الآن. لقد رأيت المصاعب لكني اتبعت حدسي وتعثرت وسقطت على وجهي ثم نهضت لأبدأ ثانية من جديد.)

(من يكتب هذه الأشياء لك؟)

(لدي قبيلة من المؤلفين الحقيقيين، نساء على الأغلب، زوجات سعيدات، من الطبقة الوسطى، في متوسط أعمارهن، نساء سعيدات وقانعات. لسن من النوع العصابي. يجلسن ويكتبن هذه القصص العاطفية الأنيقة المثالية.)

في القبو الذي عدنا إليه، التقطت بعضاً من كومة الأغلفة الورقية بعناوين مثل "المريض الأمريكي" ، "موسم الحب"، "عودة البحار"، "اختيار مولي" عناوين مثيرة للعواطف. كلها منتحلة بدقة.

(من يشتريها؟)

(نفس الأشخاص الذين يكتبونها) ضحك آلان. كان في التاسعة والثلاثين من عمره ولا يزال يعيش مع والدته في الطابق العلوي، منذ أن مات والده، منذ خمسة عشر عاماً، اشترى البيت من الأرباح. أجر غرفتين وأبقى البقية له. تنشر شركته، برين غيز أربعين عنواناً تقريباً في السنة وهذا جزء قليل جدا مما تنتجه الشركة المنافسة الرئيسية لكنها كانت رصيداً جيداً. يضخونها بأسرع ما يمكن دون إشباع السوق. كانت لها فترة صلاحية محدودة. إن بيعت فذلك جيد وإن لم تبع، هناك كتب أخرى دائماً غيرها جاهزة للتصريف.

كانت وظيفتي غريبة وتدر أجراً جيداً طالما أواظب العمل بها. دفع لي آلان بالكتاب وليس بالساعة.(تلك طريقة تبقيك متحفزاً. لا نوم ولا كسل على هذه السفينة.)

بدأت الآن أحب آلان رغم أنه كان متقلباً، لحظة تكون من أفضل أصدقائه وفي اللحظة التالية يمسكك ويقرعك على أقل هفوة. لقد حذرته من ذلك حين كان لا يصغي. كانت هيلين هي من يبقي كل شيء حيا ويعمل فهي الوسيط كما نجحت في تحقيق توازن متناغم بين المحاسبين والطباعين

وأصحاب المحلات ومدراء البنوك. إنه يعرف الخطأ في المخطوط فوراً ويضايق المؤلف بالأسئلة حتى يخرج المخطوط بالشكل الذي يريده هو.

كان منعزلاً لوحده وكثيراً ما كان يأتي إلينا بالتصحيح بنفسه أو يخبرني لأذهب ونراجعه في واحد من غداءات البليباردو. حيث يفرغ كآبة قلبه لساعة أو اثنتين قبل أن يعود إلى العمل المتراكم. وهكذا بدا كل شيء يعمل بنجاح وتقدم.

كانت ايلين حبيسة مع نظرية ما بعد البنوية أما أنا فكنت منشغلاً طول اليوم بأشياء مثل" إمرأته الجميلة"، وفي المساء بشيء مثل "تينتن في التيبيت" لليو. قلقت مِنْ أَنْ تُحَوِلُ عاداتي في القراءة عقلي إلى زبدة فول لكن بفضلها كان هناك طعام على الطاولة وأبقت جنية البيت في حالة مسالمة وهادئة في الوقت الحالي.

الفصل الخامس عشر

(قل لي ماذا يعمل أصدقاءك؟) سألتني هيا وهي تشعل سيجارة أخرى إذ لا يبدو بأن هناك طريقة تثنيها عن ذلك فقد حاولت مرتين وأرى الآن ليو ممسكاً بحلقه وينظر إلي بغضب في المرآة وهو مصر جداً لكن لم يفلح ذلك. كانت تسرف في الاعتذار ثم تتناول سيجارة أخرى سهواً بعد فترة قصيرة. لذا كان الأسهل فتح النافذة. من خلال محادثة اختلقتها نجحت بأن أنقل لها بأننا نخطط للبقاء في بروفانس مع درو ولوسيان وحين أخبرتها بأن لوسيان صانع أفلام أثار الخبر اهتمامها لكن ظنها خاب عندما شرحت لها بأنه لا يصنع أفلاما خيالية من النوع الذي في بالها وإنما أفلاما وثائقية واعتبرته غبياً لكنه ليس كذلك طبعاً. على كل حال يظل الفيلم فيلماً والساحة مفتوحة لموضوع واسع. لقد شاهدت هيا أفلام مصرية لعبد الحليم حافظ وعادل إمام لكن فيلمها المفضل دائما كان التايتانيك الذي أعترف بأنني لم أشاهده وكان هذا محفزاً لتروي لي القصة من بدايتها حتى نهايتها مشهداً تلو الآخر. لقد اقتنت شريط فيدو للفيلم وشاهدته سبع وعشرين مرة.

(هذا الفيلم مثل حياتي) قالت بحزن (اللحظة التي ألتقى فيها الحبيبان ثم أبعدهما القدر. تلك القصة قصة حياتي) وتزعم بأنها رأت ليوناردو دي كابريو في مقعد خلفي لسيارة أجرة توقفت عند إشارة مرور ضوئية في زاوية بوليفار سان ميشيل.

(بد الأمر وكأنني رأيت الجنة تمر من جانبي وكدت القي بنفسي داخل السيارة عبر النافذة، كما تخيلت ذلك)

لم يكن الحديث سهلا مع هيا فلغتي الفرنسية كانت وظيفية-المبادئ الأولية وكانت تتكلم بسرعة وتقذف بكلمات عامية في حديثها كما أن لغتها العربية صعب فهمها ومجاراتها. لقد فرغنا من الأفلام عند ديجون. كانت السياسة خارج الموضوع وقالت بأن كل السياسيين غير شرعيين. هدأ ليو مرة أخرى. حزمة من الغيوم عتمت الأفق أمامنا.

(هل تعتقد بوجود من يستطيع تنظيف هذه الفوضى التي ترتع في العالم؟) قالت هيا (لا فرصة. يأخذون ما يمكنهم أخذه ويشكرون نجومهم إن خرجوا أحياء.) سألتني ماذا أعمل لكسب عيشي وحين أجبتها اندهشت.

(هل تدفع لك الإذاعة أجراً لمجرد قراءتك للكتب والتحدث عنها؟)

(حسناً، نعم)

(هراء) تمتمت بصورة فلسفية وكأنها انتقلت إلى عالم آخر. لم أتشجع وأقول لها بأنني كتبت كتاباً بنفسي. شعرت بأن الإدعاء بكتابة رواية لم يسمع بها أحد مماثل للادعاء بمشاهدة السيد دي كابريو في سيارة أجرة.

(قرأت كتاباً واحداً فقط) قالت بعد التوقف فترة. (تركه شخص في الحافلة وصدف أنني جلست في المكان الذي تركه فيه فأخذته من المقعد. كان كتابا لفتاة صغيرة من هولندا كما أعتقد، على كُلّ هو

عبارة عن مذكراتها، تحكي فيه كيف كانوا كلهم مختبئين في هذا البيت ثم تتوقف فجأة حين جاء الألمان وأخذوها وعائلتها بعيداً)

(أوه، أعتقد بأنني عرفته)

(هل تعرفه) قالت هيا وهي غير مصدقة (هل تقصد أنك قرأته؟ نفس الكتاب؟ أنا لا أصدق ذلك) شرحت بأنه كان مذكرات أنا فرانك وهي كاتبة مشهورة جداً رغم ذلك ظلت بحاجة إلى الوقت للاقتناع بأنني لم أكن أخدعها.(إنه كتاب جيد) قالت، حين تذكرت أجزاء منه (لكن عرفت بأنهم سيمسكون بها في النهاية. إنهم يفعلون هذا دائما)

(ماذا, ما الأمر؟) سألتها. كانت تحملق بي.

(وظيفتك،) هزت هيا رأسها (مسلية فعلاً)

(ليس مسلية إلى ذلك الحد) استسلمت

(أراهن بأنها أفضل من الاستلقاء على الظهر تحت خنزير بري سمين)

نظرت في المرآة وأنا أفكر بأن الشيء الجيد هو أن عمر ليو لم يكن مناسباً لتعلم اللغة الفرنسية حتى السنة القادمة. لاحظت ذلك واستدارت إلى الخلف لتنظر إليه، لم يكن نائماً وإنما جلس بلا حركة.

(إنه هادئ جداً) قالت وهي تنظر إلي (إنه يفكر بأمه) وهذه حتمية مؤكدة وأتساءل إن لم تكن محقة قي ذلك.

بدأ المطر في الوصول إلينا فشغلت مساحات الزجاج.

(هل هي إنكليزية؟)

عرفت ما تقصده فأومأت برأسي بنعم، إنها إنكليزية إنكليزية. فأومأت هيا لنفسها (هكذا تتطور الأمور. ذلك النوع من الرجال (تقصدني) لا يتزوجون من النساء اللواتي من نوعنا وإنما من أوروبيات بيض) كان كلامها رثاء بدلاً من عدم الاستحسان الذي صدر عن ياسمينة لكنه ذكرني بما قالته أختي، حين تنبأت بما هو قادم.

(أوه يا ياسين كم حاولت تحذيرك) قالت وهي تتنهد

(تحذرينني ممن؟ إنه خطأي واستحق مساوئه وأعترف بأنه بيني وبين ايلين بعض المشاكل.)

(يجب عليك أن تجد نفسك مرة أخرى، تذكر من أنت ومن أي البلدان أنت. أشعر بالأسف من أجلك وسأكون صادقة معك فأنا لا أتوقع الاستمرار لهذا الزواج)

(الآن وبعد أن تناولنا هذا الموضوع على المكشوف) قلت (هل يمكنك أن تقولي لي ما الذي لم ينل استحسانك فيه؟)

(ياسين أنت أخي وأنا أحبك وأعزك لكن عليك أن تعرف بأنك خنت دينك وثقافتك بالزواج من واحدة مثل تلك)

(تقصدين أنها غير مؤمنة، مسيحية؟ مثل أمك؟ قولي؟)

(لا تبدأ بالنظر إلي بتلك الطريقة)

كانت الأمور التي تجري بها الأشياء في مطبخها في عقار خارج كانتربيري حيث اشترت لتوها هي وعمر بيتاً مؤلفاً من ثلاث غرف نوم في بيت شبه منفصل في عقار سكني في وسط مكان هادئ، كان لانكلترا بعض الفرص لكن ياسمينة كانت تمر بفترتها الخاصة بها من التعديل؟

(ما الذي تقولينه يا ياسمينة؟ وما هي الثقافة التي تتحدثين عنها؟ أين التسامح وماذا حدث للرحمة ؟)

(التسامح؟ هل تريد التسامح؟) بصقت وانتفخ منخراها (ألا ترى كيف يعاملوننا في هذه البلاد؟ نحن المسلمون والباكستانيون والأفارقة والبوسنيون أدنى من الدونيين. إننا قاع البرميل وهم يريدون قشطه وتنظيفه. ألا ترى الهراء الذي يرسمونه على الجدران هناك؟ جدار النفق المؤدي إلى الطريق الرئيسي: الآريون استفاقوا. ارحلوا أيها الحثالة الملونة وإلا سنبيدكم!!

(لم نتربى بهذه الطريقة يا ياسمينة)

(ياسين اسمعني أيها المسكين. هذه هي طريقة الأشياء.) أسندت كوعيها على الطاولة وبدأت تحصي الأفعال الغريبة التي ارتكبت بحقها على أصابعها الواحد تلو الآخر.(لقد سرقنا من تراثنا، أليس كل ذلك الهراء والسقط الذي ملأت به رؤوسنا ونحن أطفال - ديكنز ووردسويرث وشكسبير ليس إلا غسيلاً للدماغ؟ ما الذي أخبرنا به شكسبير عن هذا العالم الذي نحن فيه؟ لقد أخبرنا بأننا لا شيء.)

لا أعرف لماذا استوطن عمر وياسمينة في انكلترا. لقد كنت تحت تأثير أن التغيرات السياسية الأخيرة في الوطن العربي لن تؤثر على ملك السردين- فنظام الحكم الجديد بحاجة إلى أشخاص مثله، أناس منفتحون على التجارة ولا يهمهم من يعتلي العرش، أشخاص بلا ضمير، كما كان يغمغم أبي. على كل حال قرر عمر أنه بحاجة إلى التغيير وخرج بخطة. استيراد سمك الحوض المرجاني من البحر الأحمر مقلداً خطا والده كما يقال. لكنه كان حذراً بخصوص التمويل وأراد أن يبقي أمواله في حالة سيولة. حين سألته إن كان الناس يأكلونه بالفعل أم يربونه في أحواض. ضحك بصوت عالي كما لو أن ما قلته من أكثر الأشياء المضحكة في العالم ولم يعط إجابة مباشرة وواضحة. حكمة التجارة والحرص دفعاه إلى الانتقال إلى خارج لندن لأن أسعار البيوت كانت معقولة أكثر هناك. لم يكن عمر مغرماً بالنفقات غير الضرورية. لديه مستودع مملوء بالمعلبات تقريباً- إضافة إلى أن الجو المفتوح أفضل للأطفال. كان الديكور لا علاقة له بتلك الكاتولوجات التي يضعونها لك تحت بابك، فهم لم ينزعوا الأغطية البلاستيكية عن الأثاث ليتمكنوا من بيعه مرة أخرى إن تطلب الأمر ذلك وغطوه بقماش هندي فوق البلاستيك وفي الحقيقة بدا أجمل إلى أن تجلس عليه ليبدأ بالصرير من تحتك. الشيء الوحيد الذي لم يكن مغلفا بالسيلفون هو ببغاء استرالية كانت في قفص بجانب باب المطبخ- هدية من زبون لديه محل حيوانات. امتلاك ببغاء عادة انكليزية طبعاً.

كانت لهما عادات المهاجرين الواصلين حديثاً، فهما لم يستقرا في بيتهم الجديد ويشعران بأنهما لم يصبحا بعد جزء من المجتمع وللتعامل مع هذه الوضع توصلا إلى مزيج غريب من العالمين القديم والحديث، يجد عالم الاجتماع الموهوب صعوبة في فكه. كان المايكرويف الآلهة المكتشفة حديثا للحياة العصرية فوقراه كالوثنيين الحمقى، ليس لأنهما لم يراه قط سابقا بل لأنهما استطاعا بفضله شراء وجبات مصنعة خاصة ووضعها في داخله. كانا يملآن عربات التسوق وثلاجتهما ومطبخهما

بآلاف أنواع الرزم الملونة التي كتب عليها تعليمات سهلة التنفيذ. حساء جاهز وفوري، لازانيا مجمدة، بوشار، بيتزا، لقد كانت رفاهية حقيقة تفوق امتلاك سرب من الخدم المنزليين الجاهزين دائما لتلبية كل طلباتك الكثيرة. إنه ترف الوفرة. فكانا يمزقان الأغطية الكرتونية بنهم ويشقان الأغلفة السيليفونية بفرح وينتظران الأزيز! أزيز عداد المؤقت! بكل فرح وتقدير الأطفال المتوقعين هدية عيد الميلاد. ينحدران بنفسيهما إلى ثقافة العامة ويقرأان مجلة هالو! بإخلاص محموم. ويشاهدان برامج الأطفال ويتابعان كل الحيل والتبدلات التي تحدث في نصف دزينة من المسلسلات التلفزيونية ويعرفان أسماء كل الشخصيات ويسخران من درجة السوء التي يتكلم فيها الانكليز لغتهم. لقد وَفَّر المجتمع الحديث كل ما تحتاجه بواسطة جهاز التحكم عن بعد. لقد تقهقرا فرحين إلى فقاعة مريحة من العيش المعبأ وكأنهما لم يعرفا أي نوع مختلف آخر غيره.

حاولت فهم النفسية الغريبة التي شكلت خياراتهما كما يفعل علماء ايلين في علم الإنسان. أرادا أن يسكنا بيتاً ريفياً من طابق واحد في منطقة سكنية فيها عمارات وشقق. لكنهما يحتقران جيرانهما وطريقة عيشهم والطعام الذي يأكلونه والشراب الذي يشربونه والرب الذي يعبدونه. كانا يأكلان المارميت (لم أجد الشجاعة لأقول لهما أنه مصنوع من بقايا خميرة البيرة المتبقية في قعر الراقود) ويشويان الفول على جهاز تحميص الخبز ويقلقان لأن الحديقة لا تبدو بأفضل حلة. استأجرا جنايني ليجز عشب المرج ويرتب السياج. حين حاول عمر أن يقوم بهذا لوحده نجح في قص كبل المنشار الكهربائي وعرض نفسه لإصابة وصدمة كهربائية وشظي في وركه حين سقط من السلم.

(لماذا كل هذا الشيء) سألت ياسمينة قائلاً (أنت تبدين مثل مالكوم اكس في ثياب نسائية)

(الأخ مالكوم اكس كان في المسار الصحيح يا ياسين. العبودية الثقافية التي أوصلونا إليها، الفخ بعد الكولينيالي الكبير. نحن نريد السلطة الشرائية، حرية التسوق في المكان والزمان اللذان نختارهما، وتلك تعطيهم الحق في تشويه سمعتنا. لقد وضعونا في المكان الذي أرادوه لنا. ضربت الطاولة بقبضتها بقوة كبيرة فجفل الببغاء وجثم في قفصه. (لقد خاننا والدنا بأفكاره السامية عن الحضارة الغربية. هل تسمي هذه حضارة؟)

(إنك تخلطين الحضارة بالدين وهما لا يتشابهان)

(أنت المشوش، ولا تضيع أنفاسك في هذا الحديث الذكي. قد لا يعترفون بأنهم يتصرفون كمسيحيين لكن افتح أدراج أي فندق في البلاد وشاهد ما ستجده، الإنجيل. إنهم مجتمع سري، مثل الغرباء في اكس فايلز. كل شيء تحت السطح.)

(انتبهي لما تقولينه يا ياسمينة)

(يمكنك السخرية كما تشاء، لكن الحقيقة أن زواجك سينتهي بالخراب وسيصبح ابنك نكرة، شخص بلا هوية ولن يعرف من يكون والى من ينتمي ومن أين جاء.)

(ماذا تقترحين –هل أخذه إلى المسجد وأطلب منهم أن يتبنوه؟)

(إنها فكرة)

(فكرة؟ ألا تعتقدين بأن ذلك سيربكه، التظاهر بعدم وجود خيار آخر له؟)

(على الأقل سيكون لديه مركز ثقل)

(سيكون لديه صداع. لماذا لا نتركه يكبر ويقرر ما سيكون عليه بنفسه؟)

(لأن الأمور لا تنجح بهذه الطريقة. اقصد ، انظر إلى نفسك.)

كانت هيا تغط في نوم عميق. تابعت قيادة السيارة في صمت. كانت المسافة بين باريس وجبال لابيرون أكثر من ألف كيلومتر حيث يسكن لوسيان ودرو. سأحدثهم بالهاتف في مرحلة ما لأعلمهم بقرب وصولنا. لم أكن متأكدا إن كانا يرغبان برؤيتي.

كان مؤشر الوقود منخفضاً وكنا نشعر بالجوع أيضاً لهذا توقفت في محطة وقود لتناول الغداء. مددت ساقاي ولعبنا أنا وليو بالكرة بينما جلست هيا على غطاء السيارة وهي تراقبنا ثم اقترحت أن نذهب إلى الداخل لنأكل شيء ما.

(بابا هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟) ثبت ليو نظره على الأرض عمداً حين صعدنا الدرج معاً.

(طبعاً يمكنك ذلك) وضعت يدي على كتفيه.

رفع وجهه لينظر إلي (لن تتزوجها، أليس كذلك؟)

(من؟)

(أنت تعرف، هي) أخفض صوته وأشار إلى جهة هيا التي سبقتنا بخطوات في طريقها إلى المطعم الذي صمم على شكل مركبة فضائية لسبب ما، قرص دائري من الاسمنت مرفوع على أعمدة حديدية.

(لا يا ليو، أنا لن أتزوجها، أنا متزوج من أمك. ألا تتذكر؟)

(أوه) قال بنعومة واندفع راكضاً إلى الأمام. لحقت بهما إلى الطابق العلوي فقوبلت بموسيقى الروك الراشحة المصممة لتنزيل الضغط العصبي المتراكم أثناء قيادة السيارة. في الطابق العلوي كان أمامنا خيار-على اليمين باب ينفتح على صالة تشبه شيئاً من فيلم غودارد مملوء بوحدات ميكانيكية في فورميكا برتقالية وبيجية. لم يكن هناك عمال وإنما سلسلة من ماكينات القهوة وآلات ذاتية الحركة محشوة بالصندويش المغلف بالسيلفون والكعك الهلالي الشكل والكعك المحلى. إن الفرنسيين مهووسون بالآلات، أشياء بازرة وشقوق ورافعات. أما على اليسار فكان المشهد مختلف تماما. من خلال الأبواب الدوارة يمكن رؤية أسطول من الطاولات الخالية التي تمتد إلى الخارج نحو الأفق، منقطة بجزر مرجانية ونباتات بلاستيكية معترشة، لكن ليس هناك أي زبون. كان النادل الشاحب بلون الكرتون المبلل يحملق بنا من وراء كوة زجاجية.

(تعالا، سأدعوكما) قالت هيا وهي تصل إلى الباب.

(انتظري ثانية،) قلت. (هل أنت متأكدة من هذا؟). لقد علمتني غرائزي وأخبرتني بتجنب الأماكن التي تتنكر وتبدو مثل نزل متنقل، يكمله خدم ببدلات العشاء ودلاء الخمر. كل ذلك لتحريض الأوراق المالية المجعدة على الخروج من محفظة نقودك وليس لها علاقة بنوعية الطعام الذي يقدمونه لك. المطبخ نفس المكان الذي يحولون فيه الجبن إلى أشكال مستطيلة ضيقة ليحشوها في الآلات عبر القاعة. فيه كل إغراءات فينوس. ترددت لكن شدتني هيا من ذراعي.

(لا، تعال أنا مصرة،) إنها تريد أن تسدد نقلنا لها بالسيارة.

(لست مضطرة إلى فعل هذا، حقاً) قلت، لكنني رأيت بأن ذلك يعني لها شيئاً. استسلمت وقمت بانحناءة ساخرة حين أمسكت بالباب لندخل. قهقه ليو.

(صباح الخير أيتها السيدة وأيها السيد) قال النادل الذي كان مثل جندي من القصدير آلي الحركة ربط بشكل سيء وهو يخطف قائمتي طعام من جيب في الحائط وقادنا إلى ركن بعيد في مؤخرة الغرفة الواسعة الفارغة.

(كلا، كلا) احتجت هيا ملوحة بنظارتها الشمسية في الهواء مثل ممثلة حقيقية. أشارت إلى الطرف الآخر المؤدي إلى فجوة مرتفعة مقابل النافذة البارزة الكبيرة. كان هناك طاولتان فقط لكن من الواضح بأنه موقع أفضل من المكان الذي كان سيأخذنا إليه بكثير. تردد النادل. كان الشخصان الوحيدان في المكان على علاقة وكانا يجلسان بجانب الطاولة التي حطت هيا عينها عليها.

كان هناك لحظة ارتباك استطعت رؤيتها على وجه النادل. السيد ذو المنظر المميز والوجه الذي لوحته الشمس ينم عن إجازاته الطويلة في منحدرات التزلج واليخوت، نظر إلينا ثم أبعد بصره مباشرة. أما مرافقته فكانت إمرأة شقراء قوية البنية بنصف عمره تقريباً، أدارت نظارتها الشمسية ذات الأطراف الغريبة نحونا. كان الشخص الوحيد الغافل ظاهرياً عن إحراج هذا المكان المشترك المزدحم هو هيا. تقدمت وجلست ثم دعت ليو للجلوس بجانبها وهي تشير إلى الكرسي المجاور لها. نظر ليو إلي وهز كتفيه لا مباليا ثم جلس. كان العاشقان يتأملان المنظر بهدوء الذي لم يكن واضحا كله لكن الأشجار كانت مرئية والوادي الذي وراءها.

جلست على حافة مقعدي الذي كان بعد مقعد الرجل الآخر. نظرت هيا إلي وابتسمت عبر الطاولة. لديها طاولتها الآن. حين استدارت لتساعد ليو في الاستقرار وتظاهرت بترتيب منديله، اتضح لي ما كان يدور في ذهنها، تمثيل دور العائلة ولو لوقت قصير.

(أليس هذا عظيماً؟) صاحت وهي مسرورة.

طلبنا الطعام. لعبت هيا مع ليو لعبة التأشير على السيارات المارة وعلمها خدعة تحويل نكاشة الأسنان إلى أنياب مصاص دماء وصرخت وهي تسايره. شعرت بالاسترخاء. جلسنا صامتين برهة. بدا على هيا التفكير. ثم وصل الطعام بسرعة مريبة. ربما خلطوا بين الطلبات فصحت بالنادل:

(لحظة من فضلك. ما هذا؟)

(دجاج فريكاسيه)

(من المؤكد وجود خطأ. لقد طلبت دجاج سكالوب)

تطلع النادل حول طاولتنا كأنه أخطأ بطلب طاولتنا بواحد من الطلبات الكثيرة الأخرى التي كانت في رأسه. عد الأطباق على أصابعه. ليو هامبرغر، هيا باستا وأنا. واحد، اثنان، ثلاثة. ثم هز كتفه بلا مبالاة. يبدو أنه كان ينتظر أن نقول له لا بأس وحسناً. نظرت إليه بتمعن أكثر فلاحظت هذه المرة شيئاً قاسياً تحت بلادة وجهه السلبية وشعرت مثل شخص ينظر من فوق جرف عالي ثم ارتعد فجأة من المسافة الطويلة والظلام الذي في الأسفل.

أبعدت نظري غريزيا. ربما هو واحد من هؤلاء الخدم الذين تبدلت حياتهم فجأة، ربما مر بيوم سيء أو ضايقه رئيس عمله وراتبه شحيح، أو أن كلبه مات. لكن ربما هو لا يحب أهالي شمال أفريقيا.

(لا بأس هذا جيد) قلت لكنني ندمت على فعلتي هذه في اللحظة التي ابتعد فيها

دقت هيا الصحن بشوكتها (انتظر دقيقة. هل سمعت ما قاله؟). نظر إليها باحتقار.(لقد ارتكبت خطأ. لقد طلب سكالوب)

(يا آنسة الطلب هنا) مد يده إلى جيبه لكنه ارتكب خطأه القاتل بمخاطبته لها بتلك الطريقة (يا آنسة تلك). ضربت الطاولة بقبضتها بقوة فقفزت المرأة التي كانت تجلس على الطاولة الأخرى.

(لقد طلب اسكالوب وكلنا سمعنا ذلك). لم يكن النادل قلقاً أو منزعجاً.

(أنا لا أرتكب الأخطاء) قال وهو يبتسم قليلاً.(فأنا أسجل الطلبات هنا ويأخذها الطباخ ويحضرها. هذه هي الطريقة المتبعة في الأماكن اللائقة.) وأخرج فاتورة من الورق مغطاة بخربشة غير مفهومة. أخبرتني نظرته الخبيثة بأنه لا يخشى العنف البدني فقد كان هناك وفعل ذلك مرارا. إنه يتحدانا، يدس إصبعه عبر الغشاء الذي يحفظ النظام المدني ليرى إن كنا سنتلوى من الألم. إن العنف لا يقبل التفاوض، يجب أن تكون مستعداً لتقتل أو تقتل، مهما كلف الأمر. أن تتحضر لخسارة أي شيء. الناس يتعرضون للركل حتى الموت في مواقف السيارات، الآباء يضربون الأولاد، الأذرع تلوى في الكنائس، الجماجم تحطم، الرصاص يطلق. ليس للعنف حدود. بمجرد إثارته يستمر حتى يحرق نفسه ويلتقي بنده. إن ما يفصلنا عن غالبية عالم الأحياء هو قدرتنا على العنف الفارغ وهذا ما يجعلنا أيضاً على ما نحن عليه. لولا العنف لما كانت هناك موسيقى ماهلر أو لوحات غويا ولا كان لدينا مايلز أو ليدبيلي. أما هيا فقد رأت رجالاً عنيفين سابقاً.

(لا يهمني ما تطلقه من أسماء على هذا المكان) قالت بصوت ثابت ومنخفض.(إن قال لك زبون بأنك على خطأ يجب عليك أن تعتذر له وتعيد الطلب.)

(هل تريدين مني أن أعيد الطلب إلى المطبخ وأبدله؟) قال ساخراً ونظر بعيداً. كانت الغرفة صامتة. كنت منتبهاً للشخصين الذين كانا على الطاولة المجاورة وقد التفتا إلينا.

نظرت هيا بعينيه وابتسمت (أريدك أن تركع على ركبتيك أيها الغبي التافه وتحمل ذلك الطبق اللعين وتعيده إلى المطبخ على رأسك).

سمعت الرجل الذي خلفنا يرمي منديله ويستدير نحونا.

(بابا ما المشكلة) اتسعت عينا ليو. كان فمه مملوءاً بالهامبرغر الذي توقف عن مضغه.(ما المشكلة؟)

(كل شيء على ما يرام ،لا تقلق) لم يبدو مطمئنا. انزل الهامبرغر من يده واستند على الطاولة. في هذه اللحظة بدأ النادل يدرك ما الذي سيواجهه. قال وهو يحرك قدميه

(أخشى بأنني مضطر كي أطلب منك المغادرة)

(ليس عليك ذلك) قلت وأنا أقف على قدمي (نحن مغادرون في كافة الأحوال)

(أنا لن أغادر) قالت هيا. نظرنا كلنا إليها.(أنا لن أغادر حتى يعتذر) عادت للجلوس وأومأت لليو برأسها ليستمر في طعامه. نظر إلي. استدار النادل مبتعداً وسمعته يتمتم بصوت منخفض لنفسه لكنني سمعته وهيا أيضاً.

(هيه) صاحت من وراءه وعندما لم يتوقف رفعت مزهرية مملوءة بالزهور البلاستيكية والمياه المتعفنة وقذفته بها، اصطدمت بالطاولة وانكسرت. الرجل الذي بجانب الطاولة نال الكثير.

(هذا كثير جداً! ليست هذه هي الطريقة للتصرف في مكان عام)

(ذلك صحيح) ردت هيا (لذلك لماذا لا تعود إلى الحملقة بحلمتي الفتاة التي دفعت لها الكثير مقابل ذلك؟)

(عاهرة!)

(عليك أن تكون من نفس الصنف يا عزيزي لتتعرف عليه) ردت عليه هيا وعلى وجهها مسحة خفيفة من الجنون. قررت بأن هذا هو الوقت المناسب للتحرك. سحبتها نحو الباب وأنا ممسك بكوعها.

(بابا؟) أشار لي وإلى صحنه.

(اتركه. سنذهب إلى مكان آخر. عجل الآن، يجب أن نذهب بسرعة!)

(لا تتركه سنأخذه) خطفت هيا الطبق وقدتها باتجاه الباب. ركلت وجرت كل شيء صادفها في طريقها من نباتات وأغطية طاولات وأطباق وملاعق وشوك وسكاكين، حطمت كل شيء وراءها. أسرع ليو نحو الباب الذي فتحه لنا. هو يعرف كل شيء عن الهروب من خلال التلفزيون. أبقيت نظري على باب المطبخ الذي توقعت أن يظهر منه النادل بأي ثانية وهو يحمل فأساً حادة في يده. في طريقنا ومع صراخ وشتائم هيا على كل من كان في طريقها، أعتقد بأنه قد طلب تعزيزات عسكرية. وتساءلت إن كنت رأيت أي سيارة شرطة في الجوار؟

انكسر كعب حذاء هيا حين ضربت به السيارة. حملت الحذاء الأحمر وخلعته من قدمها. انطلقنا بسرعة في السيارة وكنت أراقب بالمرآة إن كان هناك من يطاردنا أو من سجل رقم سيارتنا.

(تفضل) قالت هيا حين ناولت ليو طبقه.(لقد تم تقديم الغداء) ضحك وقفز للأعلى والأسفل على المقعد الخلفي ثم ضحكنا كلنا.

(هل تعرف يا أبي، إنها مجنونة!) نظر إلي وإلى عيني في المرآة. ضحك كثيراً وبقوة وكانت الدموع في عينيه. ثم التفتت هيا إليه ولمست وجهه بيدها فهدأ ليو. رأيته في المرآة وهو يبدو فخوراً ومرتبكاً قليلاً.

هدئنا واستقرينا ولم تطاردنا الأضواء الزرقاء. كانت هيا تسب في ابتهالات متواصلة وتناولت علبة سجائرها. أغلب ما قالته لم يكن مفهوماً لي. لقد انجرفت إلى خليط من الفرنسية والعربية. بعد فترة قصيرة بدأ المطر بالهطول، تمدد ليو في المقعد الخلفي وغط في النوم. كانت هيا تحدق أمامها مباشرة وكأنها نومت مغناطيسياً بحركة مساحات الزجاج النواسية. ظلت ساكنة لمدة طويلة ثم لاحظتها وهي تمسح دمعة عن عينها.

وجه هذه القارة مثلم بعبور الناس. من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، من متجولين في بدايات العصر الحجري الحديث إلى قبائل المغول البدوية ومن الهوغون إلى الكالفانيين، حجاج ولاجئون وغجر. تاريخ من السكك الحديدة والطرق. تاريخ من التجاوزات، من التخوم والحدود التي عبرت وعبرت ثانية. رومان وقوطيون ويهود وبوسنويون وألبان وكوسوفيون، عميان ومرضى وعجزة ومعوقون. هؤلاء هم الناس الذين بتضحياتهم كتب تاريخ أوروبا وكتب مصيرنا الجمعي من خلال تلك الهجرات.

نحن جزء من ذلك الجسد الواسع غير المسمى للبشرية الهجينة التي لا تدعي بشيء بأنه لها ولا حتى بالطريق الذي نحن عليه. كان بإمكاننا الثلاثة العيش كعائلة. لم يكن فينا ما يثير الغرابة في تلك الهرولة المضطربة المشوشة، موكب الإشارات المرورية ومحطات الوقود، شريط رفيع من الإلحاح الذي يفصل الحقول والأشجار بأسفل الوادي وأعلى التلال، عدا عن كوابح الطبيعة. ليس هناك ما يثير الاستغراب فينا إطلاقاً.

الفصل السادس عشر

لقد كان الدرويش الحقيقي جدي الأكبر ظاهر عبد النور الذي قُتِلَ في معركة أم درمان في شهر أيلول عام 1898 . لم يكن جندياً محترفاً وإنما واحداً من أتباع المهدي، الرجل الذي زعم بأنه سيقود العالم إلى الخلاص ثم مات لأسباب طبيعية، تاركاً وراءه الحركة الإسلامية مكشوفة وبلا دفة. كان ظاهر أحد الأنصار أي الأتباع الذين سماهم البريطانيون بالدراويش نسبة إلى شعورهم الديني الغامض. وفقا لما جاء في إحدى الروايات عن المعركة بلسان ضابط شاب من الوحدة العسكرية الواحدة والعشرين، يدعى وينستون تشرشل، كان العدو المتقدم يشبه الصليبيين في أقمشة مطرزة في بابو. تماثل غريب، لكنه يعني للكاتب أنهم جيش من العصور الوسطى، احتشد يائساً ضد جيش حديث. تصرف الدراويش الذين تدل عليهم ثيابهم المرقعة على فقرهم واحتقارهم للأملاك المادية بمعرفة حربية غريزية ورثوها عن الشعوب الهمجية وتساقطوا قتلى أمام سفن مدفعية "الشيطان الأبيض الجميل"

تبعثرت عظام ظاهر العتيقة في مكان ما في سهول كيراري ولم تسترجع الجثة أو ما تبقى منها أبداً. حين كانت طفلة، قالت حبوبة بأنها وأمها كانتا تخرجان إلى أرض المعركة للم بقايا العظام التي تجدانها في أكوام صغيرة من الطين كنوع من النصب التذكارية.

بعد سنوات رويت قصة جدي الأكبر لكلاوس-والد ايلين، ونحن نعبر بالسيارة جبال شمال ويلز. فقد أدرجت لمساعدته في إحضار صندوق من السنديان من القرن السابع عشر اشتراه من تاجر أثريات في قادر إدريس. قالت كلير إن لم أذهب معه فسيحاول قيادة السيارة ويؤذي نفسه لهذا علقت معه في سيارة ستروين صغيرة جداً لمدة ثمان ساعات ولإمضاء الوقت وجدت نفسي ألقي عظة مطولة عن الصوفية والدراويش عموماً. لم يكن كلاوس غير معتاد على هذا الموضوع تماماً.

(غوته، طبعاً افتتن بكل ذلك، كما تعرف، لقد أعجب بالشاعر الفارسي حافظ إلى درجة العبادة)

كانت السيارة تئن تحت ثقل الصندوق الذي لم يتسع له صندوقها الخلفي إلا بصعوبة بعد أن أزحنا المقعد الخلفي وربطنا غطاء السيارة الخلفي بقطعة حبل قديمة وتسبب في رفع أنف السيارة في الهواء بشكل مرعب. إن قوة الجر في ذلك الطراز الخاص في العجلات الأمامية كان مثل محاولة السيطرة على حصان اسكتلندي، ظلت العجلات تنزلق في كل الاتجاهات على الطريق. تساءلت أي نوع من الخيول لديهم في القرن السابع عشر تستطيع جر ثقلاً كهذا الذي بدا بأطواقه الحديدية وزواياه مثل ذلك الشيء الذي يشدك لتغرق في أعماق البحر مع القراصنة والكنوز وكل شيء.

انحرف كلاوس عن غوته حين تحول إلى مقارنة الأساليب الرعوية لشعوب أسيا الوسطى المتنقلة، مدفوعاً بما نراه من خلال النوافذ الصغيرة الرطبة. فقد ذَكَرَته تلك الحقول المنحدرة بشمال إيران التي زارها مرة في بعثة للتنقيب عن الآثار في ستينيات القرن العشرين.

يتجول البدو ذهاباً وإياباً على نفس المسار الصعب فوق الجبال وهم يلاحقون المواسم في الأماكن العالية صيفاً وفي المناطق المنخفضة شتاءاً وحين يكبرون في السن ويعجزون عن القيام بالرحلة

يجلسون ويراقبون عائلاتهم وقطعانهم وهي تذهب قدماً وهم يعرفون بأنهم لن يروها ثانية.

ارتفع المنظر الكامبري حولنا في موجة من الخضرة الشعثاء التي تقطعها سياجات من الألواح الحجرية علقت بها خصل من الصوف مثل سارية ممزقة. كان الجو ضبابياً حين تلوت السيارة صاعدة نحو معبر لانبريس. جثمت فوق عجلة القيادة بينما كلاوس يشق طريقه في مضغ رطل من التفاح ويلقي بالبذرة من النافذة إلى نعجة تحدق به. قال بأنه يعرف الطريق ووثقت به. بعدة عدة ساعات من العودة إلى المكان الذي أتينا منه ومن الارتجال ظل يزعم بأنه على صواب وأن السبب هو تغير الطرق بشكل مستمر.

حين وصلنا إلى قمة المعبر، قررنا بأن الوقت مناسب للتوقف ومط أرجلنا. لم يكن أحد في موقف السيارات سوى زوجين في أواسط عمريهما كانا يأكلان السندوتش في سيارتهما. مسحت المرأة الغشاوة التي على زجاج نافذتها ونظرت إلينا بعبوس متعمد. لاشك أنها تساءلت عن نوع العمل المنحرف الذي سنقوم به.

كان هناك ممر بدا يلف طريقه صاعداً على طول الحافة. اقترح كلاوس أن نتمشى فيه.

(وماذا عن الصندوق؟) سألت. فقد بدا مهجوراً ومنبوذاً وبرز الخيط الذي كان يمسك فيه مثل ذيل في الهواء الجبلي البارد.

(أوه، يا الهي. لا أحد سيصاب بالجنون هنا ليأخذه،) لقد مشى كل هذه الهضاب في الأيام التي سبقت تخرجه من الجامعة وهو متشوق لتجديد معرفته بها ثانية ولو بنزهة قصيرة. لم استطع الرفض في الحقيقة بالإضافة إلى كون ذلك يوفر الراحة من أنين المحرك والصراع مع عجلة القيادة.

سبقني في السير على الممر بأقصى سرعة. كانت هذه الجبال تذكره بوصف غوته العلمي الدقيق لجبال الألب خلال رحلته إلى ايطاليا عام 1786.

(كنت متشوقاً جداً للسفر وتقليده في وصف ما أراه بشكل دقيق لكن حين كبرت أثخن العالم بالحرب.)

(لكنك سافرت قدراً جيداً)

(في وقت لاحق، نعم. سافرت بقدر ما استطعت. تركت ايلين مع كلير فهي لم تكن تحب السفر وأعتقد أنها تكن ضغينة لحد الآن.)

لم يستعص علي فهم ذلك. فقد كانت غارقة في مناديل الأطفال حتى أذنيها بينما هو يتنقل بعيداً من مكان إلى آخر في أفغانستان وتركيا بحثاً عن الفردوس-شانغزي. كان جزءاً من جماعة ريادية من علماء الآثار الذين وجدوا الترحيبب في كل المستعمرات السابقة من قبل طلابهم في الدراسات العليا الذين أصبحوا رؤساء أقسامهم الخاصة وكانوا سعداء في استقبال أساتذتهم القدماء الذين وصلوا مع صناديق تمويل أجنبية ومعدات. لقد فهمت بأن العالم الذي عاش فيه كلاوس آنذاك كان أبسط مما هو عليه الآن في بعض النواحي. بدا بأننا نجحنا أخيراً في التغلب على ارتباكنا من بعضنا البعض فقد شعرت بأنني أقرب إليه من ايلين بطريقة غريبة حين كنا نتحدث بهذه الطريقة.

قال كلاوس: كتب كافكا مرة عن وجود عنصر غير قابل للتدمير في جوهرنا، شيء نضع ثقتنا فيه، قد يكون إيماناً وقد يكون موهبة إبداعية فهذا غير مهم لكن المهم أنه يوفر مركزاً للجاذبية لا يتغير، يعطينا التوازن ويساعدنا على توجيه أنفسنا لنعرف من نحن ومن نكون. اعتبر دوق ايغلتون ذلك الشيء الحيوية، لكن عدد كبير من الناس يمضون حياتهم دون أن يجدوه ابداً.

وقال ربما هو العنصر الداخلي، هذه الغريزة التي وثق بها غوته حين أنطلق في تموز 1814 في رحلة لوحده، في راينلاند التي قضى فيها طفولته. لقد كان في الخامسة والستين من عمره. أغلب أصدقاءه ومعاصريه ماتوا. لم يكتب في العقد الأخير من حياته أياً من أعماله القيمة وبدلاً من ذلك حَسَّنَ أعماله السابقة الكاملة وحرر كتابات مجمعة وانتزع الكثير من الجوائز حتى أن نابليون بونابرت أعطاه وسام الشرف. في كل مكان ذهب إليه كان يحاط بتلامذته ومعجبيه وأسرى إطاره. "كانوا سيعانقونني حتى الموت لو سنحت لهم فرصة ذلك."

بعد ذلك زال نابليون بونابرت وكان يعيش في منفاه على جزيرة ايلبا وكانت أوروبا تستعيد عافيتها من الدمار الذي أغرقها فيه. قبل ستة عشر عاماً، غزا نابليون مصر ليس من أجل الأرض أو الثروة وإنما من أجل ما هو أكثر منهما معاً. لم يأخذ معه الضروريات المعتادة في الغزو كالجنود والسفن والمدافع فقط وإنما أخذ جيشاً من العلماء لكي يفهرسوا بدقة أسرار المشرق: علماء في علم النبات والأحياء والكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات واللغويات. لم يرغب برؤية الأهرامات وأبو الهول فقط بل دفعه اعتقاد غامض بأن أسرار الكون كانت معروفة للحضارات القديمة التي بنته. لم يهتم بالسكان. أقسم أن يعيد كتابة القرآن ولو كلفه ذلك هزيمتهم.

غوته أيضاً آمن بالفكرة المخبأة في مكان ما داخل تلك الآثار من المعابد القديمة والقصور المتداعية، تقدم مفتاحا للمادة الموجودة في لب الوجود الإنساني. بخلاف نابليون، أحس غوته أن المفتاح لفك أقفال ذلك المصدر كان في الشعر والتصوف وليس في الغزو المادي والفتوحات.

لهذا في رحلته عبر راينلاند، الشاعر الألماني وعالم التشريح والرسام وعالم النبات ومدير الطرق والمناجم العام، هرب من ضغوط الحياة العامة والشهرة ووجد الإلهام في البيئة الروحية العظيمة للشعراء الصوفيين. هناك أدرك رابطاً يمكن أن يثبت صحة اعتقاده في فكرة الأدب الكوني. كانت فكرة رومانتيكية، ابتدأت بأسطورة سيافاش للفردوسي في القرن الحادي عشر التي تنتمي إلى مشرق لم يعد له وجود. هذا أعطاه أيضاً نوع من الحرية.

كتب قصائده الديوان الغربي-الشرقي وهو يتكأ على طاولات المقاهي وزوايا المطاعم. لقد خطرت له كلها وهو يتنقل. خلال شهر راكم القسم الأكبر من قصائد مجموعته التي تقدم الولاء لحافظ، سيد الغزل الفارسي في القرن الرابع عشر. القصائد الغنائية العالية والمنخفضة التي تنتقل بسرعة عبر تبدلات لا نهائية في الترتيب دون أن تفقد خيط جوهرها أبداً. تعني كلمة غزل "النسيج" واشتهر حافظ بأنه سيد الغزالين في كل العصور.

كتب غوته، الأنبياء والشعراء تتملكهم نفس الروح. يبدد الشاعر إلهامه في نشرها في كل أنواع اللغة الخيالية ليخلق شعره أما النبي فيبري نفسه لحقيقة واحدة، راية واحدة يلف أتباعه حولها. لقد كان حافظ الشاعر، أقرب شيء وجده إلى تعريفه للشاعر الذي لم يبدد موهبته.

كان كلاوس يتسلق صاعداً الممر الضيق عبر الصخور الحادة خلال كل هذا الحديث. كان رجلاً طويل القامة ويستطيع التحرك بسرعة مدهشة. لقد انقطعت أنفاسي وشعرت بالدوار.

(السفر وسيلة لغزو العالم أيضاً)، قال وهو يستدير إلى الوراء لينظر إليَّ. لكنه لا يحل شيئاً أبداً في الحقيقة، كلا. وصلنا إلى محطة توقف. كان السديم بارداً وأزرقاً، ينزلق مثل رافعة شفافة فوق جرف مظلم شديد الإنحدار. جلست على حافة صخرة مسطحة وفكرت كم هي مشؤومة. هناك تعبير قديم في اللغة الدانمركية يقول أن مشاكلك تذهب معك أينما رحلت. شيء ما يدعى نيسي وهو مخلوق يشبه العفريت الصغير.)

(هل يشبه الجني؟)

(الجني؟) ارتفع وجهه. كان هناك حبة من العرق تتدحرج تحت صدغه. (نعم، أفترض أنه هكذا، ربما ذلك يفي بالغرض، توقف. (على أي حال، لا تستطيع الهروب من الأشياء التي تزعجك أبداً فهي تذهب معك مهما ابتعدت عنها. هل تفهمني؟)

(ذلك اعتقاد شائع)، قال، في العصور الوسطى كان الجو تملؤه عفاريت لا روح لها، صعب اجتثاثها وضارة عادة وليس لها أي فائدة ومن بين أعدادها أرواح الأطفال غير المعمدين والرجال الذئاب ومصاصي الدماء والغيلان المتنوعة. كل شيء طبيعي يحتوي على قوى خارقة. لقد اعتقد مفكرون عقلانيون بارزون مثل ايراسموس وتوماس مور بمثل هذه الأشياء بالإضافة إلى وجود السحر.)

تمشينا أبعد قليلاً، بدا الممر بالاستواء وتقاطع فجأة مع ممر آخر كان يهبط من الغيم. فوقنا من مكان عال ما في السديم هناك عمود من الغرانيت الأسود يصعد إلى قمة ماونت سنوداون، لم نكن نراه لكن شعرنا بشكل ما بأنه يخيم فوقنا.

عندما مات والدي أخذ معه زاويته من التاريخ- الحكايات النادرة، قصص طفولته وأبيه وأمه. لم يكن هناك وقت كافي للقلق حول الماضي فقد كان منشغلاً دائماً في التفكير بالمصاعب الكامنة أمامه- يمكن للماضي الإعتناء بنفسه، سيظل هناك دائماً. فقط الحاضر لا يبدو أكيداً. يقولون في أفريقيا: حين يموت شخص تتلاشى مكتبة إلى الأبد.

توقفنا لنلتقط أنفاسنا وبعد ذلك وفي تلك اللحظة بالذات، انحسرت الغيوم التي أمامنا مثل ستارات على خشبة المسرح. أوه، باب سري انفتح بتمتمة تعويذة سحرية. رأينا المنظر الطبيعي الأصفر والأخضر يمتد تحتنا، ذراع رمادية من الأسوار الحجرية وكتلة شاهقة من الصخور الداكنة وفي البعيد هناك ومضة دافئة لشعاع الشمس على البحر.

(حسناً) قال كلاوس. (ذلك يحدد النهاية المثلي لنزهة قصيرة مثالية. يمكننا الشروع في العودة الآن،) واستدار دون أن يقول كلمة أخرى وبدأ يهرول هابطاً الممر. وقفت لحظة وحيداً ثم استدرت ببطء ولحقت به وأنا أهبط في السديم.

الفصل السابع عشر

توضع البيت خلف الطريق على سفح تل خلف القرية. يقود إليه ممر غير معبد وضيق، يلتف عبر أشجار اللوز وبساتين الليمون وترتفع على جانبيه ضفة ترابية صفراء بمحاذاة السيارة وفوقنا أشجار الزيتون مثل أيد مقلوبة وأصابع مثنية نحو السماء ثم ظهرنا داخل منحدر مكشوف بجانبه جدار حجري عالي عرفت حالاً أنه المكان الذي ننشده وفوق قمة الجدار قرميد أحمر وأصفر يدل على سطح بيت مزرعة.

(هل البيت هنا؟) سأل ليو من وراء كتفي

(أعتقد ذلك)

دورت عجلة القيادة وتقدمت ببطء عبر البوابة المفتوحة. كان هناك بابان خشبيان مرميان على الأرض بجانب بعضهما كأنهما سقطا للتو من مفصلاتهما، لكنهما ربما كانا على هذه الحال منذ عقود وباحة متسخة بالدبش والقرميد المكسر والطابوق وقطع جذوع الخشب. ألقينا نظرة على البيت ونحن وسط هذا فبدا عبارة عن بناء حجري قديم بسيط ذو سقف منخفض ونوافذ صغيرة لكن جانبه الأيمن الذي أضيف إليه بدا مثل كنيسة. نافذة عالية مغطاة بستارة خشبية مسطحة تمتد من مستوى الأرض إلى سقف البناء المكون من طابقين.

في النهاية الأخرى من البيت تنحرف الشرفة الواسعة داخل البناء لتتلاشى تحت عريشة من نبات الكرمة وترى طاولة خشبية طليت باللون الأزرق مع منضدة وبضعة مقاعد مقاومة للطقس. كان المنظر شبيه بلوحة زيتية، عناقيد ذابلة من العنب تدلت للأسفل فوق الطاولة ونسيم يهز الأوراق بلطف. خلف سور الحديقة المتداعي في أماكن منه هناك مدخل مقنطر مفتوح يشمل صفاً من أشجار السرو تحدد حافة مرج باهت اللون وفي مكان بعيد منه يمكن رؤية حصان كستنائي اللون ينفض ذيله ويضرب به عشب طويل جاف. عند النظر من سفح التل لا ترى بيوتاً هناك. الشجيرات القصيرة القاسية والأرض الترابية ترتفع إلى مدرج طبيعي كبير جداً.

لحق بي ليو واميك بيدي (يبدو وكأنه قلعة)

(إنه ليس كذلك بالضبط لكنه قريب جداً من ذلك.) كانت النوافذ الخشبية الخارجية بالية وبحاجة إلى إصلاح وتساقط الجبس على شكل أطباق ليرسم أشكالاً جغرافية غريبة. كما سقطت عارضة الباب الخلفي الحجرية إلى أحد الجوانب. كان المدخل مظلماً وظليلاً مقارنة بضوء الشمس الساطع في الخارج. عندما وصلت إلى منتصف الطريق ظهر شكل إمرأة طويلة ونحيفة رأس منكس للأسفل لذا لم تر من كان على حافة الشرفة ولم تلاحظ السيارة التي كانت وراءنا. كان تحمل قطاً مرقطاً تحت ذراعها وسلة مليئة بثياب مغسولة في اليد الأخرى. لم تلمحنا إلا حين استدارت. أسقطت القطة والسلة على الأرض وهي تهتف وسحبت سماعات ديسكمان من أذنيها كاشفة عن سبب صممها.

(لقد فعلتها!)

يفترض وجود كلمة واحدة توجز درو بأفضل شكل لكنني لم أعثر عليها أبداً. كانت ذكية ولطيفة، تتحكم بمشاعرها بالإضافة إلى قائمة طويلة من الصفات الحميدة الأخرى التي تغلفها ابتسامتها المبهمة والخفيفة بنفس الوقت. يمكنها أن تبتعد وهي تدندن حين تتساقط الجدران من حولها ويمكنها أن تقف وتغضب بسبب الظلم الحاصل في الطرف الآخر من العالم. ارتسمت كثافة وعمق شخصيتها في بنية وجهها العظمية الرائعة. تخترقك بنظراتها المباشرة مثل ماسح الأشعة السينية.

قفزت راكضة نحونا ووضعت ذراعها حول كتفي وضغطتني ثم رأت ليو واقفا بجانبي وهي يرمي قبعته (شيكاغو بولز) ثم اتجهت نحوه وحملته عن الأرض في عناق دببة حميم. تراجع إلى الخلف حيث تركته شاحب الوجه لكنه اتسم بشجاعة.

(لقد كبرت كثيرا!)

(هل هذا هو المكان الذي تعيشين فيه؟) سأل وهو يعيد قبعته إلى مكانها.

(ذلك هو بالتأكيد) أومأت برأسها.(هل تعرف بأن لدينا حصان وثلاث عنزات ودجاج أكثر مما تستطيع عده وحمام أيضاً وزوج من القطط) توقفت لتضحك على منظر ليو الذي اتسعت عيناه من الدهشة وجرته إلى طرفها مرة أخرى وتمايلا من طرف إلى آخر وكأنهما يرقصان رقصة مضحكة. نظرت إلي من فوق رأسه لكني لم أتأكد بماذا كانت تفكر وفي الحقيقة لم أتأكد مما كانت تعنيه حين ترمقني بتلك الطريقة.

(أوه، يا، ما الذي أتيت به معك ؟)

استدرنا لننظر إلى السيارة لنرى هيا منحنية فوقها، رأسها في صندوق السيارة الخلفي وتتصارع بوحشية مع حقيبة كبيرة من النايلون غير عملية، لا أحد يعرف ما بداخلها سوى الرب، كانت تتلوى مثل عنزة أخذت للمسلخ ثم نجحت في إخراجها ووضعتها على كتفها وحين انطلقت عبر الحصباء متجهة نحونا انقطع الطوق وقعت الحقيبة على الأرض كأنها أسقطت برصاصة فخبطت الأرض بكعب حذائها العالي تعبيراً عن إحباطها.

(إنها هيا) شرح ليو قائلاً.(لقد عرضنا أن نقلها في طريقنا)

(حقاً؟) رمقتني درو بابتسامة، هذه المرة كان الأمر واضحاً لي بصورة أكيدة. قضينا أنا ودرو ثلاث سنوات تقريباً في علاقة غير مرتبة حكمت بالفشل قبل نصف الوقت من إلغاءها. تشكل بيننا رابط من التشارك في الإسرار والخداع أسعدني وجوده. كانت جزءا من الاضطراب العاطفي الكبير الذي بدأت أجد طريقي للخروج منه أخيرا. رؤيتي لها ثانية جعلتني أتساءل إن كان ذلك الرابط قوى جذب غير مدركة شدتني إلى هذا المكان مثل تيار خفي وغريب.

ظهر لوسيان فجأة قادماً لنجدة هيا. كان يرتدي مئزراً ازرقاً مبقعاً بنقط من الدهان، سيجارته في فمه، بدأ يوبخها لمحاولتها حمل هذا الشيء الثقيل دون أن تعرف ما الذي يمكن أن يسببه لعمودها الفقري. نظرت إليه كما لو أنه مجنوناً ورأيت لثانية أنها كانت على وشك تسديد ضربة له لكنهما غرقا في الحديث بعد التلويح بالأذرع ودخلا في محادثة عميقة لم أستطع تخيل موضوعها وبدا بأنهما لم يكونا في عجلة للانضمام إلينا. حين التفت إلى درو لاحظت بأنها كانت تراقبهما أيضاً. التقت عيونها الرمادية بعيوني وبدت تقرأ ما لم أفصح عنه.كما أنني لم أكن متأكداً ما هي الكلمات التي علي أن أستخدمها أيضاً.

(أهلا بكم كلكم) قال لوسيان مرحباً وهو يسير متمهلاً، داعب شعر ليو وعكس قبعته للخلف.(أهلا بكم إلى بيت الجنون). تقدم نحوي وابتسم وضغط بيده على كتفي حين مر بجانبي. ضغطة رجولية- يبدو بأنه يظن بأنني على علاقة بهيا.

(لقد كان البيت مصحة عقلية في الأربعينيات) قالت درو.(ويزعم لوسيان بأنه مليء بطاقة إبداعية غير ملجومة) لقد انتقلنا للعيش في هذا المكان هرباً من سرعة الحياة المدينية المحمومة وللشروع في بداية حياة جديدة.

(تعالوا هنا بعيداً عن الشمس، ألستم جائعون؟) قال (طبعاً أنتم جائعون. لقد حان موعد الغداء، ماذا تفضلون؟)

تحدث الكل فوراً. أرادوا أن يعرفوا كيف كانت الرحلة وأين أمضينا ليلة الأمس. بدا ليو سعيداً وراضياً، ربما ارتاح لوجوده وسط أناس يعرفهم على الأقل. جعله لوسيان يفرم البصل بسكين كبيرة. حاولت أن أراقبه لكن لوسيان كان يدربه بحرص مبعداً أصابعه عن طريق السكين. يعتقد لوسيان بوجوب معاملة الأطفال كما هم عليه، كأشخاص صغار.

بلمح البصر كنا نجلس في الطرف الظليل من الشرفة تحت العريشة. كانت هيا تضع نظارتها الشمسية ورأسها مائلاً للوراء تاركة ضوء الشمس المتراقص من خلال العريشة يلعب على وجهها. كان لوسيان ودرو يخرجان ويدخلان إلى المطبخ من باب جانبي وكلفانا ببعض المهمات الصغيرة وهما يحضران الأطباق والأكواب ويثرثران طول الوقت عن الرحلة والبيت وعن كل شيء وعن اللاشيء.

التقت ايلين بدرو في الجامعة وكانتا تنحدران من نفس الخلفية. فقد كان والد درو أكاديمي أيضاً ولهما نفس الاهتمامات. حين كان ليو طفلاً صغيراً ذهبنا لزيارتهما في باريس. كانا يعيشان في شقة صغيرة فوضوية في مونماتر وعند التفكير في البيت الراشح الذي كان ينتظر عودتنا، تذكرت متعة فصل الربيع الكبيرة في باريس. لم يستمتعا بتأثير المدينة وطقسها الجميل آنذاك فقط بل بالدرجة العالية التي كانا لائقان فيها لبعضهما البعض. بدت حياتهما غير معقدة بالنظام المنزلي وبطريقة ما نجحت الأمور كلها فكانت الفواتير تدفع والثياب تغسل والوجبات تطبخ. قربهما المكان الضيق والفوضى من بعضهما البعض بصورة أقوى وزاد من اعتمادهما المتبادل.

رؤيتهما ثانية بهذا الشكل والآن، فرضت علي إحساساً كم كانا مناسبين جداً لبعضهما، تذكار لي كم كنا أنا ودرو غير مناسبين أبدً لبعضنا. لديهما نفس روح الفكاهة الغريبة. حتى ابتسامة الضجر الزائف التي ترتسم على وجهها حين يبدي ملاحظة سخيفة تكشف عن ود واضح. لوسيان يقف بمدخل الباب، فتاحة قناني بيده ودرو بجانبه تنظف حزمة من الفاكهة والجبن. زوجان. شخصان يستحيل تخيل زوجان أكثر منهما انسجاماً.

كان الغداء بسيطاً تكّون من الدجاج البارد والسلطة وشيء قذفه لوسيان في يخنة الفاصولياء والفلفل الأحمر. تناولنا الطعام في الخارج وانقسم الحديث على الطاولة إلى قسمين، تحدثت درو مع ليو حول النسور وعن إمكانية رؤيتها على التلال التي فوق البيوت، أما لوسيان وهيا فتحدثا بفرنسية سريعة. بدا لوسيان مفتوناً بها، كما هو بكل شخص، وخلال فترة لم تتجاوز الخمس دقائق استنتج منها أكثر مما عرفته أنا في يومين وليلة (نمنا في غرف منفصلة في الفندق). لقد اتخمنا بتاريخ الصحراء الغربية.

(شيد المغاربة سوراً بطول ألف ميل عبر الصحراء لإبعاد أهاليها عن أرضهم الخاصة بهم وهو الأثر الوحيد الذي صنعه الإنسان المرئي من الفضاء الخارجي، عدا سور الصين العظيم.

استعمرت المنطقة للمرة الأولى من قبل الأسبان والفرنسيين. حين انسحب الأسبان عام 1975 دخلها المغاربة تدفعهم في ذلك رؤيتهم بالتوسع وإغراء احتياطاتها من الفوسفات. يمتد القسم الأول من السور من رأس بوجادور على شاطئ الأطلسي (النقطة التي اعتقد البحارة الأوروبيون سابقاً بأنهم لو تجاوزوها فإنهم سيعودون إلى الوراء أو يبتلعهم بحر الظلمات) متجهاً نحو الداخل إلى سامارا، التي دَمَّر الفرنسيون مكتبتها الأسطورية عام 1912.)

حين اقترب لوسيان من التوقف، وقفت هيا التي كانت إما مفتونة بمعرفته لبلادها أو أنها لم تعد تتحمل الإصغاء إلى روايته وأعلنت أنها تحب أن ترى مرسمه. فرح لوسيان بذلك. كان ليو مستغرباً (تابع) أومأت له برأسي فقفز من فوق المصطبة ليلحق بهما. لقد كان حبيساً داخل السيارة وقتاً طويلاً وهو بحاجة للركض.

بعد ذلك اختفت درو في الداخل وشعرت بالوحدة لأول مرة منذ أيام. شعرت بازدياد الصمت حولي. تمكنت من سماع صوت الريح وهي تهب على الأشجار خلف البيت. كانت هناك طيور تزقزق في الجوار. غمرني شعور بالراحة. أدركت بأني لا أريد أن أتحرك من هذه البقعة. أريد أن تبقى الأشياء بهذا الشكل، غير مكتملة وحبلى بالاحتمالات. شعرت بزوال وجه الطريق القاسي وأنين المحرك وبدت الأشياء تتضاءل. بعد أن اتخمت بكل ذلك الطعام والشراب سأخر نائما بلا شك.

قرر الآخرون بأن يتركونني نائماً. استيقظت ورقبتي متيبسة، لقد حل المساء وكان ضوء الشمس الغائبة يرشح عبر أشجار الزيتون التي كانت تحدد طرف الوادي تحتنا. لقد نظفت طاولة الطعام وأخليت وكان البيت ساكناً. وقفت وتمطيت. حين استدرت حولي رأيت درو واقفة هناك، عيناها مقابل ضوء الشمس المنخفضة، بدون أي كلمة وضعت يدها بذراعي وقادتني بعيداً عن البيت، عبر قوس في الجدار المتداعي لنخرج إلى مرج واسع كان الحصان يرعى فيه.

(لا أستطيع استيعاب كم يبدو ليو أكبر من عمره بكثير). أحنت رأسها للأسفل وكأنها تتفحص الأرض. أضفى الضوء الواهن صلابة على خطوط وجهها وابرز نتوء فكيها وتجاعيد صغيرة حول عينيها. إن ما يغيب عن هذا المنظر الريفي هو صوت ضحكات الأطفال طبعاً.

آخر مرة كنا فيها لوحدنا معاً عندما جلسنا في كافتيريا صغيرة بائسة في واترلو. كانت في طريقها للعودة إلى باريس بشكل نهائي وأنا مسافر لتشيع جنازة أمي. قضينا الأسابيع ونحن نحاول اتخاذ قرار كنا نعرف بأنه محتوم. كانت درو حاملاً فبعد سنتين من المحاولات الفاشلة مع لوسيان، حدث الآمر فجأة وبسهولة كبيرة. أرادت طفلاً وكانت تلوم نفسها دائماً معتقدة أن المشكلة من جانبها وربما ذلك هو ما سمح لنا بأن نكون متهوران جداً.

تحدثنا تحت دوي بليد لإعلانات مكبرات الصوت، ونحن نشرب قهوة لم يردها كلانا. ثم جاء إلينا رجل في حالة بائسة وطلب منا بأسلوب عدواني أن نشتري مجلته وبقي مصراً هناك يحملق بي حين قلنا له لا إلى أن رمت له درو ببعض القطع المعدنية النقدية لينصرف. الضوء البارد، الفناجين الورقية، صفحات الجرائد المرمية المداسة، كانت كلها تنطق بنهاية حزينة ورددت وحشية بيئتينا صدى القرار الذي أخذناه. عرفنا بأننا فوجئنا وأننا وضعنا في موقف صعب، مهما كان الذي

نملكه معا فلن يكون قويا بما يكفي لتحمل طفل. كل منا مرتبط مع أشخاص آخرين وبقصص أخرى. لقد كانت لحظة الحقيقة التي لم نستطع اجتيازها. كنت مدركا منذ وقت بأن خسارتي لدرو مؤكدة وربما كان ذلك منذ البداية لكن ظلت خسارتها بهذه الطريقة قاسية بلا سبب.

ابتسمت بشجاعة الآن وهي تتذكر تلك اللحظة.(فكرت بامتلاك الطفل وبالتظاهر بأنه كان منه لكنني أردت أن أضع حداً للأكاذيب والخداع قبل كب شيء. لم أستطع تحمل فكرة حياة تبدأ بكذبة. كم كنت غبية حين اعتقدت بأهمية العيش حسب المبادئ) كانت تنظر إلي ورأيت وجهها وقد تبدل، هناك استسلام لم أره من قبل.(لولا تلك المبادئ الرائعة لكان لدي ذلك الطفل الآن.)

(من قال بأنه لم تكن هناك طريقة أخرى؟ لكن كنا نفتقر إلى الشجاعة أو القناعة في الهروب. لقد اتضح لنا الاثنان أن ما كان يبقينا معاً ليس الحب وإنما شيء أقل عظمة منه بكثير. لهذا عدت إلى حياتي مع ايلين كئيباً ومطهراً وبقيت عدة أسابيع وأنا مخدر وسلبي ولم أكن نافعاً لأي قصد أو غرض. لم يكن الأمر أنني لم أرغب في التحدث وإنما عاجز عنه ولم يكن لدي ما أقوله. وجدت نفسي أبكي دون سبب واضح أو أنكفئ في ساعات من الصمت. فقدت أمي للتو، ربما كان ذلك مفهوماً، ويبدو بأن خسارتي لدرو قد أغلقت طريق النجاة الوحيد المفتوح لي.

هبت عاصفة جافة عبر أشجار الزيتون واهتزت الوريقات البيض الفضية بهياج كغيمة من الفراشات.

عصرت درو ذراعي حين وصلنا إلى منضدة حجرية وجلسنا عليها. تنحدر تحتنا الأرض مبتعدة نحو الجنوب لتواصل الانحدار بعيداً وراء الغيوم المتجمعة إلى البحر، كما يجب. خلفنا التفاف متعرج من جبال لوبيرن، التي ترتفع عالياً في مدرجات صخرية شاحبة مبللة بضوء قرنفلي ومرقطة بخصل من نبات إكليل الجبل والصعتر.

(إذا ما أحضرته معك مجرد بطانة،) تقصد هيا أو ربما تحاول أن تدفعني للإفصاح عن سبب وجودي هنا وما الذي سأفعله. رويت لها قصة حادثة المطعم وكيف تعاملت هيا مع النادل. اندهشت درو وقالت

(هل فعلت ذلك؟ كيف شعر ليو إزاء ذلك؟)

(حسناً، لقد تفاجئ قليلاً في البداية، كلنا تفاجئنا)

(نعم توقعت ذلك)

لأول مرة شعرت بالامتعاض ليس بسبب قلق درو على ليو أو الإيماء المبطن بأن ذلك كان عملاً غير مسؤول من جانبي في تحطيم مطعم ثم الفرار وإنما بسبب الانطباع اللحظي بأنها لم تستحسن وجود هيا معنا بطريقة ما.

(لقد اتصلت بالهاتف هنا)

(ايلين؟)

(هل أخبرتها عني وعنك؟ ظننت أنك فعلت أخيراً) قالت.(على أي حال لقد كانت منزعجة، وهذا متوقع. كانت ستبلغ عنك الشرطة بتهمة الاختطاف وربما هناك أمر قضائي بالقبض عليك.)
اتسعت عيناها جداً (ربما أصبحت رجلاً مطاردا الآن.)

(هي لن تفعلها أبداً) قلت؟

(لم أكن متأكدة تماماً من ذلك. لماذا هربت؟)

(أنا لم أهرب. هل ذلك ما قالته لك؟)

(إن لم تكن هارباً، فإلى أين أنت ذاهب؟)

(حسناً، كما يحدث. نحن في رحلة سياحية صغيرة في أوروبا. رحلة تعليمية، هذا هو الأمر. أقصد أنها فرصة رائعة وقد شهدنا مقداراً هائلاً من الهراء مسبقاً)

(رحلة تعليمية، إلى أين؟)

أين، نظرت إلى السفح في الأسفل، التجمع البطيء للغسق. (هل تتذكرين أخي ميوك؟) سألت (حسنا، هو يعيش في اسبانيا الآن)

(هل أنت ذاهب إلى هناك؟ إلى اسبانيا؟ لزيارة أخيك؟)

كان في عيونها نظرة غريبة، غير متأكدة إن كنت صادقاً أم لا.(لم أكن أعلم بأنك على اتصال معه.)

(وصلتني منه بطاقة بريدية) قلت. لم أكن متأكداً منذ متى وتلك الفكرة تكبر في رأسي ويفترض أنها كانت تتغذى لبعض الوقت، لكن حتى هذه اللحظة لم اقتنع بكونها عملية. أرى الآن كم هي مثالية، أن أواصل وأقود سيارتي جنوباً إلى كوستا برافا.)

ظلت درو صامتة لبعض الوقت ثم قالت (وماذا بشأن هيا؟)

(أوه لديها أصدقاء قريبون من هنا. أنا تطوعت لنقلها معنا)

(أين قابلتها؟)

(في باريس. لو سمحت يا درو يبدو وكأنه استجواب)

(أنا آسفة. أنا مشوشة قليلاً فقط. لماذا لم تخبر ايلين بأنك ذاهب إلى اسبانيا؟)

(الأمور ليست طيبة بيننا. إضافة إلى أنها رغبت بأن تمضي بعض الوقت في التعرف على أبناء وبنات عمومتها النودريين.) كانت ظلال الأشجار تتراقص حولنا.(لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بايلين؟) سألتها

أخذت درو نفساً عميقاً ونظرت بعيداً.

(لماذا أخبرتها الآن، بعد كل هذا الوقت؟)

(كانت تعرف مسبقاً. لقد اكتشفت الأمر لوحدها. استسلمت على متن المركب في هارويتش فأكدت لها ما كانت تعرفه منذ زمن طويل)

تنهدت وقالت (أعتقد أن المغزى من القصة هو أن على المرأة أن لا تختار عشيقاً من أزواج صديقاتها أبداً)

نهضت ووقفت على قدمي. لم يحل الظلام تماماً بعد. ربما من الأفضل العثور على مكان ما للإقامة، في فندق في البلدة. (ربما كان هذا خطأ. أقصد لوسيان. ظننت أنه سيكون على ما يرام لكنني لا استطيع النظر في عينيه)

(انتظر، تمهل فقط. ما الذي تخطط له، هل ستهرب ثانية مع طفلك وعروسك المراهقة؟ ياسين اسمعني. أنا سعيدة بقدومك وأنت مرحب بك وبإقامتك معنا بقدر ما تشاء ولا تقلق بشأن لوسيان. إنه رائع فيما يتعلق بهذا. اجلس الآن وتوقف عن كونك دراميا.)

(هل تقبل الأمر بهدوء؟ إذا هو أكثر غرابة منك ومني)

(هو أكثر غرابة منا الاثنين مجتمعين وأنا أحبه كثيراً جداً)

(وهل عرف بالأمر؟)

(نعم، هو يعرف)

وأخيراً أخذت ذراعي وقادتني إلى أسفل المرج في الضوء الباهت.(أنا آسفة جداً بخصوص والدك، أنت تعرف. لم أخبرك أبداً لأن ذلك سيكون قاسياً جداً في منتصف أي شيء آخر.) لم أعد أرى بشكل جيد جداً وخشيت من السقوط. يبدو كأن الأشياء فلتت من يدي وإن احذر فسأبكي كطفل بعد وقت قريب.)

(أنا سوف أخسره يا درو. إن حصل طلاق بيننا فستكون لها الوصاية على الطفل. سأراه مرة كل فترة، ربما في عطل نهاية الأسبوع. حين أفكر بكل شيء، كل السنين وكل الألم الذي عانيته وأنا أحاول إنجاح ذلك الزواج، أسأل نفسي لماذا، والجواب بسيط. أن أوقظه في الصباح وأشاهده وهو يأكل رقائق الذرة وأغطيه في سريره في الليل. هذا كل ما أريد.)

وصلنا المدخل المقنطر ثانية وجاءنا صوت ضعيف من داخل البيت. (سيتساءلون أين كنا) بدا وجه درو الآن مجرد ظل في الظلام.

(إنه ابنك. سيكون بخير. لديه حياته الخاصة يا ياسين فدعه يعيشها.)

تركتني هناك لتدخل إلى البيت واستدرت لأحدق بالوادي. حزمة رقيقة فقط من ضوء برتقالي لازالت متمسكة بالأفق. نحن نميل إلى الاعتقاد بأن حياتنا تتبع نوعاً من التقدم الخطي يبدأ بالولادة ويستمر إلى الموت، ونتوقع بأن نستمر في النمو والتعلم، أن نستمر في الصعود. الزمن ساعة تدق، عداد يستمر في الركض ومع ذلك يظل الوقت الشيء الأهم والأعظم بينها كلها. نحن من ابتدعه، اخترنا بداية ملائمة ثم قسمناه إلى مقادير صغيرة. لهذا صار لدينا أسابيع وأشهر وعطل بنوك ورمضان ونجح ذلك تماماً. وهكذا زعمنا بأن التقدم يأتي مع مرور الوقت. نجاهد بشكل فردي لتطوير أنفسنا ونبحث عن دليل على التقدم الاجتماعي، نجده في العلوم والتكنولوجيات والتقدم الرائع في الطب مما يجعلنا نعتقد بأن الإنسانية تنمو وتتعلم وتصبح أكثر تحضراً. لكن المعجزات الطبية محدودة بالنسبة للغالبية من أهل الكوكب، إنها أبعد من الصلاة. إن الزمن ليس خطياً أبداً. إنه يدور مثل الكون حول محور لا نستطيع الإمساك به. الجواب يحدق بنا في النجوم التي فوق رؤوسنا والضوء الذي يصلنا من تلك النجوم الوامضة البعيدة الذي يأتي من غيوم غازية احترقت منذ ملايين السنين الضوئية. نحن ننظر إلى السماء ليلاً ونرى الوقت يسير باتجاه الوراء. وهم خلقته سرعة الضوء والمسافات الهائلة لكننا لا نزال نستجر الراحة من ثباته وانتظامه.

حين كنت طفلاً تخيلت بقية العالم كتلة سديمية تطفو وراء النجوم. الحياة، العالم كله كان يسير إلى مكان آخر. تلك النقطة البعيدة في السماء، في لحظات ساكنة من مساء هادئ، ضوء يفصل نفسه ويبدأ في الهبوط نحونا. نحن عشنا تحت مسار الرحلات الجوية مباشرة. من مسافة بعيدة يظهر فجأة نبض أضواء تغمز، تشير إلى اقتراب طائرة كانت دليلاً على عالم لم نره، عالم مخبئ هناك وراء حدود وجودنا في الضواحي الناعسة، إشارة لا يراها أحد سوانا، رسالة من البعيد الكبير، تومئ ، دائماً تومئ.

(ما هي خططك؟) سألني والدي حين كنا نجلس في ساحة البيت لوحدنا، أنا وهو فقط في إحدى الأمسيات. للحظة شعرت بأنني طفل مرة أخرى، يبحث عن أجوبة في ملصق اولمبي وأعرف أنني قد لا أشعر بإحساس القصد الذي أرادني والدي أن أشعر به.

(حسناً) قلت. (نحن نعيش. نحن على قيد الحياة)

(على قيد الحياة؟ من تكون أنت؟ من سكان الأدغال؟ لا أفهم هذا. هل ربيتك لكي تعيش فقط؟ أليس لديك أي طموح؟ ألا تريد أن تنجز أي شيء في حياتك؟)

(نحن نتدبر الأمور) حافظت على القول. لم يستطع احتواء غضبه إلا بصعوبة.

(تتدبر؟ استمع لنفسك أرجوك. الأشياء، هذه الحياة، العالم.... أقصد ليست سهلة) أشعل سيجارة أخرى ونفخ دخانها بعيداً لبضع دقائق. (أنا آسف . لقد تعهدت بأن لا ألقي عليك محاضرة. على أي حال قدومك شيء جيد وأمك سعيدة بمجيئك.)

بعد ذلك جلسنا في صمت في الظلام. ثم اشتعل ضوء غازي على الجدار الذي خلفنا فجأة وكان يغمز، يحاول الخروج بشكل يائس. لقد عادت الطاقة الكهربائية. أناهيد الفرح، غمرت الأسوار حولنا. حين اندفع الناس مسرعين لتشغيل التلفزيونات والراديوهات. جاءتنا دفقة من الموسيقى من مكان ما غريب تلاها قصف مدوي من الضحك. لقد فسد السحر. نهض وهو يتحسر، دفع قدمه في حذاءه الجلدي المنزلي وابتعد متجولاً في البيت استعداداً لموعده التالي

الفصل الثامن عشر

لم يكمل ليو السنتين من عمره حين قمنا أنا وايلين بزيارتنا الأولى والأخيرة لأهلي في السودان. كانت إستراتيجيتي هي تجنب عيد الميلاد، ذلك العيد الكريه الصاخب والوعول البلاستيكية وأوراق تغليف وأشجار الزينة. يمكنني الاستمتاع بحفلات أعياد ميلاد الأشخاص لكن عيد الميلاد يسبب لي الاكتئاب.

(ما رأيك بأن نذهب بعيداً هذا العام؟) اقترحت ايلين قائلة. نعم، فكرت، بعيداً، مكان بدت فيه فكرة الرجال البدينين الكرزيين على زلاجاتهم سخيفة للجميع كما بدت لي أيضاً. مدفوعاً بالطاقة التي أمدتني بها تلك الفكرة ذهبت مباشرة إلى بناء الجمعية وسحبت الرصيد.

(سنذهب إلى البيت) قلت ملوحاً ببطاقات الطائرة في الهواء.

(البيت، أين؟) سألت بلامبالاة، الملعقة في الهواء وفمها مفتوح.

(البيت، أين؟) أجبت مشوشاً (البيت، بيت والدي وأمي)

(أوه) وقفنا هناك ننظر إلى بعضنا البعض كما لو كنا ننتظر تلميح. بعد ذلك وضعت ايلين الملعقة من يدها ومسحت وجه ليو. بعض الأشياء ليست مناسبة لتكون مفاجأت كبيرة.

تحولت الرحلة الجوية بساعاتها السبع إلى كابوس فظيع. فقد مررنا بكل السيناريوهات: تقيأ ليو، آلمته أذناه، صرخ لساعات طويلة داخل الطائرة دون توقف، أصر على التجول داخل الطائرة، تعثر وأصيب أنفه، رفض التعاون. جلس، تحرك، نام، أكل، أصر على فعل عكس ما تطلبه منه أياً كان. ركل الطاولة المطوية، كب يخنة لحم البقر الساخنة فوق رجل مسكين كان يجلس بجانب ايلين من الطرف الآخر. أنا متأكد بأنه لم يستمتع بتلك الرحلة أي واحد.

لكن في اللحظة التي هبطت فبها الطائرة وخطونا ثلاثتنا عبر بابها، ضربتني الحرارة بمودة بدثار مشبع بالنعاس. شعرت باستيقاظ الحنين إلى الماضي، إلى طفولتي الضائعة التي قَصَّرَ الرحيل عُمَرَها. حين توقف أزيز المحركات النفاثة أخلت رائحة وقود الطيران المكان لنسيم المساء العابق برائحة الرمل والنجوم. أنا في الوطن.

أبعدت جانباً المخاوف الغامضة التي انتابتني حول جواز سفري. لدي اثنان. الجواز السوداني الذي انتهت صلاحيته منذ سنوات ولسبب ما لم أرد أن أضيعه، وكان علي فعل ذلك إن حاولت تقديم الجواز البريطاني. سيكون ازدواج الجنسية شيء فاشل طالما الرحلة في الخرطوم.

(هل أنت متأكد بأنك لا تحتاج إلى تجديده؟) استفسرت ايلين قبل أن ننطلق.

(لا تقلقي. سيسرهم الترحيب بعودتي وسيأخذونني بالأحضان. صدقيني لا يستطيعون التخلي عن هذه الأمور) لذلك نزلت الدرج مقرقعاً ومشيت مسرعاً عبر الحشد الكبير نحو بناء المطار دون أي قلق في العالم. كان الوقت بعد منتصف الليل وبدا قسم الهجرة مثل حياة ساكنة، لم يتحرك شيء فيه منذ سنين. كانت هناك مروحتان مرتعشتان تهتزان بشكل لا مبال باتجاهين مختلفين وجندي شاب

جالس على كرسيه وبندقيته على ركبتيه، يسند رأسه على الجدار، نائم فاغراً فمه. انتصبت طاولات مسورة غير مأهولة في وسط الغرفة، جزر زجاجية مثل أحواض السمك تنتظر أن تملأ بالماء. اصطففنا بتأن، في الطرف البعيد زوجان من الأبواب المزدوجة يشيران إلى المخرج الذي يفصلنا عن صالة الواصلين وأبي وأمي اللذان كانا ينتظران. إلى جانب هذا، جندي، هذه المرة في ثياب زرق مهلهلة وفضفاضة، يستند إلى الجدار، بندقية نصف آلية صغيرة معلقة بكتفه مثل ركاب سرج فارغ. بمحاذاة أحد الجدران هناك رف خشبي مع استمارات وأوراق ترفرف في النسيم الخفيف الذي تحركه المراوح.

(جواز السفر هذا انتهت صلاحيته) صرح موظف الهجرة بعد أن قلب الوثائق للأمام والخلف عدة مرات.

أمسكه بإصبعين وناوله لي. لم يعد يستحق اهتمامه وكان يشير للمسافر التالي بالتقدم إلى الأمام.

(انتظر دقيقة) نغمة خاطئة ، نظر إلي بحدة، ابتسمت وقلت (أنا سأجدده. هذا ما سأفعله غداً).

أمال رأسه ليلقي علي نظرة أفضل. سمع لغتي العربية المفككة ورأى ثيابي الغريبة وزوجتي الانكليزية وطفلي الذي كان نائماً بهدوء الآن مثل ثقل ميت في ذراعي ايلين.رأى شاباً ربما كان يكسب نقوداً أكثر منه ويعيش حياة مريحة هناك في انكلترا. رأى مارقاً، جرذاً جاء للكشف عن سفينة غارقة. ظن بأن ابتسامتي المترددة سخرية مقنعة، رأى شاباً منيعاً على القانون، على التعليمات التي يخضع الناس لها. هز رأسه وتناول خاتماً

(يمنع من الدخول). قذف لي بجواز السفر الذي كان يدور على الطاولة فحاولت الإمساك به قبل أن يسقط على الأرض.

(انتظر دقيقة) حاولت مخادعاً. (انتظر. لقد قيل لي هناك، في السفارة في لندن بأن الأمر سيكون على ما يرام وأخبروني بأنه لن تكون هناك أي مشكلة. لذلك لماذا هذا؟)

كان سميناً وقصيراً، عيناه حمراوان كالدم، ربما كان لديه ما يكفيه من المشاكل، فواتيره التي تحتاج إلى من يسددها، والداه المريضان، أطفاله الذي لا يرون أي فائدة من الذهاب إلى المدرسة (ولو ذكرت الحقيقة فهو خال من هذين الاثنين) ومرتبه الذي لا يكفيه إلى نصف المسافة التي يجب عليه أن يصلها، لم ير فلساً واحداً منذ شهور. لماذا سيتهم بمشاكل فرد من الطبقة الوسطى ذات الامتيازات، الذي لم يتعلم بأن القوانين هي من تجعل الناس متساويين.

أمال إصبعه لاستدعاء ضابط شرطة كان يترصد بجانب أحد الجدران. كانت ايلين تقذف الطفل النائم من ذراع إلى أخرى وتطالب بشكل مجنون بأن تعرف بما كان يحدث بينما كنت أشرح للرجل الثاني المشكلة. هذا الرجل كان مختلفاً فقد كان طويلاً ونحيفاً وله ذقن ناتئة غير حليقة وأسنانه الأمامية السفلية فقدت لونها بسبب مضغ التبغ الذي يضعه تحت شفته. كل شيء حوله يثير الريبة، حتى الزي الرسمي الذي يلبسه بدا وكأنه فصل لشخص غيره أطول منه. لحقت به إلى الرف الخشبي الذي بمحاذاة الجدار وراقبته وهو يخلع قبعته وبدأ ينبش في كوم من الاستمارات وكأنه يرتب رزمة من ورق الشدة. كان العرق ينهمر من جبين ايلين وهي تهز ليو للأعلى والأسفل بصورة مجنونة لذلك استيقظ وبدأ بالصراخ.

(ماذا سنفعل! ماذا سنفعل !) استمرت في ترتيل ذلك.(أخبرتك. طلبت منك. حذرتك)

(أرجوك بأن تسمعي يا ايلين) توسلتها قائلاً.(هذا جواز سفري أليس كذلك؟ ليس فيه أي خطأ. توقعت بأن أدفع شيئاً ما ويضعون عليه الخاتم ليصبح صالحاً لعشر سنوات أخرى.) كررت قول هذا للشرطي. رفع بنطاله وهز كتفه لا مبالياً، من الواضح أنه لم يوافق على نظريتي إطلاقاً. مد يده إلى جواز سفري، قلبه بيده مرتين وكأن عيونه لم تر مثل هذا الشيء في حياته.

(أوه يا لهي!) اتسعت عيون ايلين فجأة وبدأت ثانية بقذف ليو للأعلى والأسفل مثل كرة السلة.

(من فضلك أيها السيد) عدت راجعاً إلى الوحش الذي في الصندوق الزجاجي أتملقه، محاولاً أن أنجح في قول نغمة بين التوسل والاحترام.(والداي المسكينان ينتظران في الخارج ولا يعرفان أي شيء. دعني أخبرهما بما يحدث على الأقل)

كان واضحاً أنني كنت مزعجاً أكثر من أي شيء آخر. لقد أراد أن يتخلص مني بقدر ما أردت أن أغادر. أسند ذراعه على قمة المكتب الزجاجي ولوح بيده للشرطي الطويل(لا تدعهم يغيبون عن نظرك واعدهم هنا). أصبحنا الآن مركز الاهتمام. كل من في الغرفة كان ينظر إلينا متسائلاً ما الذي كنا نحاول نزعه، حتى الجندي الذي كان نائماً متكئاً على الجدار استيقظ حين قادونا.

(آه يا ربي) انتحبت ايلين.(ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟) لم يكن لدي أجوبة ولا أفكار. لم استطع تصديق حدوث هذا. بعد ذلك مشينا إلى الخارج عبر أبواب الخروج فقابلتنا الحشود المنتظرة، تفحصونا أملين في البداية ثم في فضول كسول. لم أر أحداً رأيته في حياتي سابقاً، لا أب أو أخ أو أخت أو صديق أو حتى قريب بعيد منسي أو إي شيء بل صف من الغرباء فقط الذين تنوعت ملامحهم بين عدم الاهتمام التام وبين التسلية المثيرة بمصيبة هذين الزوجين الذين لم يدركا إلا لتوهما أنهما كانا في البلاد الخطأ.

وقف ضابط الشرطة جانباً. كان يتابع الحشود لكن دون أن تكون لدي فكرة عن السبب. رأيت أخيراً يداً صغيرة تلوح من فوق الرؤوس إلى أحد الأطراف ثم ظهرت بعدها ذراع والدي الذي كان يصارع عبر الحشد، شعر أبيض التصق بها كلها، مثل بومة خارجة من كيس طحين ثم بانت أمي خلفه.

(أين حقائبكما) سأل مهتاجاً وبصورة فظة، دون سلام أو ترحيب بعودتي إلى الوطن، أو سؤال عن حالنا أو أي شيء. شعرت بوجوه المتفرجين المحيطين بنا. بدا الكل مهتماً بالمسألة على نحو مفاجئ: نعم، أين أمتعتك بالضبط؟ شرحت ما حدث ووقفت مبتعداً حين أطلق أبي ابتهالاته للرب الذي جعل منه والداً لهذا الولد الجاهل.

(كيف أمكنك فعل ذلك؟ كيف تبدأ رحلتك بجواز سفر لم يعد نافذاً؟ هل أنت مجنون؟) دفعني جانباً ودخل في حديث مع محتجزنا (حارسنا)، الضابط الذي كان يحوم فوقنا من الخلف. بمراقبة عمل والدي، إيماءاته النشيطة وتملقه اللطيف، استطعت أن أرى بأنني على بعد مليون ميل عن المكان الذي ظننت أنني كنت فيه.

عرف بالضبط كيف يحول هذا الشخص الأحمق من حارس نفور للقانون إلى متواطئ طوعي في أقل من ثلاثين ثانية. لم أعد أفهم ما كان يحدث، قطعة أساسية من تكويني الوراثي ضاعت في مكان ما. تحضرنا للعودة. سَوَى الضابط صدارته العسكرية سوف ينظم هذا. لم يتم التعهد بنقود أو استبدالها. كان الأمر واضحاً. كانت أمي تتذمر عند كم والدي وتحاول أن تخبره شيئاً وهو يحاول

إبعادها.(ما الأمر؟) سأل أخيراً بعد أن استدار إليها. دخل الاثنان في محادثة حيوية جداً. تحرك الضابط بعصبية وأخذ ذراعي وقيدني. لقد تحولت الرحلة إلى كارثة، كانت لمحة قصيرة محطمة للفؤاد رأينا فيها أبي وأمي وشاهدا بدوريهما حفيدهما لحظة ثم انقطعت ليرجع بعدها إلى لندن.

(انتظر لحظة) أمسك والدي بذراعي الأخرى، أصبحت مشدوداً بين الجانبين، ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهه، لقد استجابت صلواته وادعيته : (لدينا صديق.)

(من؟)

(علي حداد، هل تتذكره؟ إنه رئيس أمن المطار الآن.) التفت إلى الضابط الذي تخشب ظاهريا لمجرد سماعه الإسم وأصبح يومي برأسه ويتجاوب بطريقة فعالة.

(هل تعرف السيد حداد)

أوه أعرفه جيداً. كَسَتْهُ رزانة واستدار ليبدأ بضرب الحشد وإرجاعه للوراء الذي شعر بتحول في الأحداث وضغط للأمام بكل تشوق المعجبين المخلصين المنتظرين نتيجة الحلقة التالية من مسلسلهم المفضل.

قبل عشرين سنة لم يكن هناك مدير في مدرستنا وإنما مجرد ناظر(قيم) أرسلت إلى مكتبه لأنني تشاجرت مع علي حداد. كنت أتناول صندويشة في غرفة الصف وهي طريقة لإمضاء أحد الدروس المملة وتناول وجبة خفيفة بنفس الوقت وكنا غطاء الطاولة الدراسية كدرع نثبته برؤوسنا لتظل أيدينا حرة لفك الصندويش وقضمه ونستخدم الدرج للكتب إلا نادراً، إذ لا نجرؤ على وضع أي شيء قيم فيه لأنه قد لا يظهر ثانية أبداً فقد تنقله أسراب النمل التي حولت تلك الطاولات إلى مناجم. استخدمها الناس كمنجنيقات. كانت هناك كسر خبز صلبة كالحديد، وتحتاج إلى استخدام الكربون للكشف عن عمرها بالاضافة الى فول وبصل وبذور بندورة ورزم من أوراق الجرائد المتسخة التي ينظف بها الناس أنوفهم وغيرها. لقد تخرج الناس وأنجبوا أطفالهم إلى العالم وصار لأطفالهم أطفال ولا تزال بقايا صندويشات الفول التي أكلوها قبل ثلاثين سنة جالسة في تلك المقاعد.

كان لدى والد علي حداد محل ساعات، فقد جمع ثروته من بيع ساعات (السايكو) المزيفة التي كان يشتريها من دبي ويلفها حول خصره داخل حزام مرن. لبس علي واحدة منها وأخبرنا بأنها مزيفة: سيدفع الناس أي شيء ثمناً لساعة سايكو، أكثر مما يدفعونه لقاء ساعة روليكس.

مزيفة أم أصلية كانت تلك الساعة دقيقة بما يكفي لتخبرك متى يدق جرس المدرسة عند فرصة الغداء. كان يعد لمستمعيه في المقاعد الخلفية عداً تنازلياً: خمسة ....أربعة... ثلاثة....اثنان... واحد! بعدها يقذف نفسه إلى الإمام ليقلب غطاء طاولتي، ضاربا الصبي الجالس أمامي على مؤخرة رأسه. مثل سباح أمسك به وهو يغير ثيابه على الشاطئ، مع منشفة ممزقة، وصلت غريزيا إلى غطاء الطاولة لأغطي نفسي بها، كنت لا أزال أقضم صندويشتي لكن تشتت انتباهي بعد ذلك فقد كان علي يسرع نحو الباب حين دق الجرس.

لم أحب علي حداد ولن أحبه أبداً. كان متغطرساً ومتنمراً يستمتع بإيذاء من هم أصغر منه أو أنظف منه (كانت لديه مشكلة مع النظافة) أو أي واحد حين يمكنه الفرار من العقاب. لم يكن يخاف أحداً، سواء كان مسلحاً أم لا ماعدا والده. وقد تعهد مؤخراً بأنه سيعاقبني لكن لم أكن متأكداً ما هو

ذلك العقاب. في تلك اللحظة التي رأيت فيها صندويشتي وقد اختفت بيده القذرة، كشفت غريزة بدائية داخلي عن نفسها واندفعت بقوة داخل عروقي التي بعمر الحادية عشر فقفزت من فوق طاولتين لاصطدم به وأسقطه على الأرض. كان جرس المدرسة القديم والثقيل لا يزال يدق حين تزحلقنا عبر مقدمة الصف ووصلنا إلى الأب بيرناديني الذي اندهش، مدرسنا لمادة اللغة الانكليزية، بلحيته المدببة الصغيرة وعباءته البيضاء. اختفت الصندويشة من النافذة، تحول التشجيع إلى أنات حين أعلن المعلم بأن الفصل سيظل في غرفة الصف خلال الفرصة. ثم وجدنا أنفسنا أنا وعلي نجر من آذاننا التي لوتها قبضة بيرناديني القوية بشكل مدهش وهو ينزلنا الدرج إلى مكتب الناظر.

صحيح أن علي حداد أظهر لي نوعاً حاقداً من الاحترام بعد تلك اللحظة، فقد أوقعته على الأرض أمام كل الطلاب، عمل متهور اكسبني عدداً من الأصدقاء الجدد والمعجبين. صحيح أنني لم أره أو اسمع به منذ أن تخرجنا من المدرسة وذهب كل منا في طريقه المفضل إلا أن أبي كان مقتنعاً بأنه سيكون منقذنا.

(إنه هنا! في هذا المطار. يجب أن نجده)

بقيت حيث كنت، استمع إلى الأخبار التي تمر من الحشد المتفرج. كنت أقل اقتناعاً من أبي بأن علي حداد سيقدم أي مساعدة لنا. ماذا لو أنه لازال يكن حقداً؟ أتذكر أنني سمعت بأنه انضم إلى قوات الأمن القومي، مهنته قابلة للنمو لكل من لديه ولع بالعنف وافتقار للوساوس ولا توفر وظيفة دائمة وراتب يصل في وقته المحدد وسيارة ومسدس فقط وإنما سلطة مرعبة تربط نفسها بتلك الخدمة المخيفة أيضاً.

بعد سنوات قليلة من حادثة الصندويشة أصبح لقب علي حداد في المدرسة كارلوس، إِثْرَ ظهور بعض الشعر الخشن على وجهه الذي تصوره بأنه بداية لحية لشخص ناضج وفي الحقيقة أعطاه شبهاً أكيداً بأشهر إرهابي في العالم، المألوف لدينا من خلال الصورة الملطخة المرسومة بالحبر الأسود التي كانت تظهر في الصحف. رجل حقيقي حي ومطارد عالمياً ومع ذلك لم يعرف أحد مكانه. في السنة التالية، في أخبار المساء شاهدتهم وأنا مذهول وهم يعلنون بأنه تم إلقاء القبض على الرجل الحقيقي المعروف بكارلوس (ايليتش رامبريز سانشيز) الخرطوم حيث كان يعيش حياة مرفهة. حياة حقيقية تقارب قصص خيال باحة مدرستنا (صفقة غامضة اشتركت فيها المخابرات الفرنسية وصور الأقمار الاصطناعية لمعسكرات المقاومة بدقة متناهية). في صور الفيديو المنزلي المهزوزة التي عرضت في التقرير الإخباري، الشخصية المشهورة في دارة الإرهاب سابقاً،كبرت وتحولت الآن إلى رجل ممتلئ سمين يهتز لحمه في حفلة عرس محلية وفي اللقطة التالية لم يكن بجانبه أحد سوى كارلوس الخاص بنا، رئيس الآمن علي حداد.

لكنه الآن قادم لإنقاذي وهو يشق طريقه عبر الحشد بخطوات واسعة وعلى جانبيه رجلان ضخمان من قوات الأمن. افترق المد البشري وأفسح له الطريق وابتعد الناس بسهولة. كان يرتدي بدلة ذات لون أزرق فاتح ويحمل جهاز وكي توكي (لاسلكي) بيده. لاحظت برعشة تعرق أنه لا يزال يلبس ساعة ضخمة لها سوار معدني، تساءلت : هل هي مزيفة؟ ربما وربما لا. ففي هذا الوقت يمكنه دفع ثمن واحدة أصلية. صافحني باليد بشكل مختصر والتفت متفحصاً ايلين دون أن يتكلم معها ثم تكلم مع والدي بعد ذلك لبعض الوقت. بدا ناضجاً ومحترماً ومرتاحاً في سلطته ومركزه. طقطق

أصابعه وقال كلمات قليلة هنا وهناك ثم قادني عبر طاولة الهجرة. بدت ايلين على وشك أن يغمى عليها.

تم الاهتمام بالمسألة في دقائق. الوحش الذي في مكتب الهجرة بدا منكداً ومتذمراً حين ختم كل الأوراق الضرورية وتحاشى النظر إلي وهو يناولني جواز سفري. لم يحب أن يقوم بهذا لكنه يعرف كيف تسير الأمور. شعرت الآن بشفقة كبيرة نحوه فهو أولاً وأخيراً كان يقوم بعمله وكنت أنا من جعله ينتهك ويخالف القوانين والقواعد. استدار عني واستأنف جلسته ليواصل عمله. لم أر وجهه مرة أخرى قط، لكنني استطعت أن أحس بامتعاضه؛ وأحس به الآن. لقد كان على حق- هذه هي الطريقة التي يسير بها العالم؛ هؤلاء الذين لا يستحقون يحصلون على كل الفرص الطيبة- الأفضل حالاً والأغنى يتباهون بالقواعد التي ألزمنا بتنفيذها. إنهم يمرون دون أي عرقلة عبر القنوات بمعونة أصدقاءهم الذين يشغلون مناصبا عالية. إنهم يجعلوننا منا سخرية. كنت سعيدا بخروجي من المطار لكنني غير سعيد لأنني لويت القانون بذلك أما أمي فكانت أكثر براغماتية.

(ذلك لا يحول الأمر ويجعله صحيحاً يا أمي)

(عاش فترة أطول مما ينبغي في انكلترا) قال علي حداد لايلين حين أخرجنا من المطار شبه مازحاً. (لقد نسى كيف تكون الأشياء والأحوال) بعد عشرين سنة نجح في الانتقام مني وأصبحت مداناً له الآن.

قدنا السيارة ببطء إلى البيت. رأيت بيوتاً كنت أعرفها منذ سنين وأخرى جديدة لم أرها قط سابقاً. كان هناك انقطاع للطاقة الكهربائية حين اقتربنا وتلاشى الجوار كله للحظة. لم يقطع الظلام سوى طيف أضواء السيارات الأمامية المارة ووهج مصباح زيتي أو شمعة أشعلت. انزلقت دراجة هوائية من اللامكان لتعترض طريقنا ثم اختفت دون أن تشير إلى المكان الذي كانت ذاهبة إليه ولا المكان الذي جاءت منه. في مدخل كوخ دائري مصنوع من سعف النخل أشعلت نار مكشوفة صغيرة، بيت حارس ليلي وعائلته.

(هنا في هذه البلاد تحتاج إلى أصدقاء. لا يمكنك الوصول إلى أي مكان دونهم. ليس الأمر كما هو في انكلترا، هل تفهم ذلك؟) كان أبي يتحدث بتلك الطريقة السمجة الخاصة به التي ينزلق إليها حين يكون لديه مستمعون مستعدون للإصغاء إلى صوت التجربة والخبرة لكن ايلين لم تكن تصغي.
يبدو أن ما حصل في المطار هيج أعصابها فكانت منطوية في الزاوية تتمتم بكلمات مريحة لطفلها كما لو أنهما لم يكونا هناك إطلاقاً. جلس ليو وبفمه رضاعة مطاطية ينظر عبر النافذة وبدا غير مهتم بتغير المحيط من حوله (كل شخص يحتاج إلى أصدقاء) لم تكون العودة مجرد رجوع مادي وإنما كانت هناك تعديلات أخرى يجب القيام بها، ثغرات يجب أن تسد. أنت لم تعد شخصاً واحداً بعد، أتذكر التفكير بتلك الليلة، بل شخصان - كلاهما غريبان.

كانت إقامتنا في البيت القديم غريبة. لقد بدا مختلفاً. كل ما تركناه في طفولتنا بدا أصغر وأقل أهمية مما تخيلناه في غيابنا.

لقد اتضح لي بالتدريج آنذاك بأن شجرتنا العائلية كانت تنمو في شكل غريب وملتوي. بدأت الأوراق الكثيفة بالتفرق وتشعبت الأغصان في دروب قصية. ياسمين تزوجت من رجل السمك المهم وكانت منشغلة بتوفير خط من الورثة المناسبين لإمبراطوريتهم وتوقفت عملياً عن كونها جزء من عائلتنا. إنها تنتمي إليهم. كانت ترثي لحالنا كما أخبرتني أمي مرة. منذ تغيير الحكومة

عام 1989 أصبح المستقبل أكثر قلقاً من أي وقت آخر فقد أغلقوا الجريدة وأصبح والداي في ورطة. عرضت ياسمينة بتقديم مساعدة مالية لكن والدي تمتم مؤكداً (على جثتي) ملاحظة أخرى عالية المستوى من عباراته الانكليزية الطريفة.

ثم هناك ميوك، آخي الشارد الذي كان يطوف بريطانية باحثاً عن نجومية الروك، إن كان ذلك صحيح فأنا لم أره منذ سنين. كنت الولد الأكبر وكان ميوك الفاتن والساحر الغير قادر على ارتكاب أي خطأ برأي والدي، وياسمين أكبرنا، كانت أميرة وحظيت برعاية بقدرنا الاثنين مجتمعين. ربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني أمضي معظم الوقت مع جدتي فقد كنت الولد الوحيد حين أذهب للإقامة هناك. في المدرسة أيضا، لم يكن لميوك أن يخطئ. إعتقد الكل بأنه مشاغب وكنت تجده باستمرار في الخارج بانتظار العقاب جراء عمل مثير ارتكبه. لقد أحبه المعلمون رغم أنهم كانوا يطردونه خارج الصف ويرسلونه للعقاب مع هتافات التشجيع من الصف كله. كان الناظر يمسح دموعه من الضحك حين يتناول سوطاً جلدياً ويأمره بالانحناء. بعد خمس دقائق تراهما يهرجان معاً على الدرج خارج مكتبه، أخي والناظر! الجميع أحبوا ميوك. بعد عقود من الغياب، ظل الأصدقاء البعيدون والأقارب يحسبونني هو دائماً ليس لأننا نبدو متشابهين وإنما لأنه الاسم الأول الذي يخطر بباله. لقد كان المسلي واللبيب بيننا والعفريت الصغير الذي له قدرة مخيفة على التعبير بما يفكر فيه دون اكتراث بالنتائج. أما أنا فقد كنت شكلاً رمادياً في الخلفية. إنه راحل الآن ونحن ننزل في غرفته القديمة التي أعيد تزيينها من أجلنا. أشياءه خزنت داخل خزانة قديمة، أكوام من الصفحات الموسيقية المجعدة والمغبرة تركها وراءه مع غيتار مهجور.

لم يتبدل البيت والعائلة فقط وإنما البلاد أيضاً فقد فرض عليها نهجاً جديداً ولم يتبين بعد إن شملنا ذلك المستقبل أم لا. رأيت بلدات الأكواخ التي ظهرت في ضواحي العاصمة لتمتص لاجئي الحرب المشتعلة في الجنوب وسمعت بقصص الأشخاص الذين اعتقلوا وعذبوا. لقد حاول أبي أن ينقل لي خطورة الوضع وإلحاحه.

(لا توجد عندنا حرية سياسية، هل تفهم؟) استند إلى الأمام، كوعيه على ركبتيه وعلت وجهه كثافة عرفت أنها تعبير عن الغضب وإنه يتحدث الآن معي ويعتبرني شخصاً راشداً.

جلسنا في الحديقة حول الشجرة الكبيرة في وقت متأخر من المساء، كان الضوء الوحيد الذي يصلنا ليل السماء فقد انقطع التيار الكهربائي قبل ساعات. هناك انقطاعات يومية فكانت تغيب لوقت قصير أحياناً وفي أحيان أخرى كنا ننام ونستيقظ في الصباح لنجد الأضواء منارة كلها.

(الناس لا يقرأون) قال (يريدون منهم أن يجلس كل واحد وهو ممسك بالكتب الدينية طول اليوم. يريدون أن يعموا الناس عن الحقيقة. إنهم يفعلون بالإسلام ما فعله ستالين بالاشتراكية.) كان متعباً وبدت عيونه منفخة ومتورمة. كان ينام أقل من مما اعتاد وقبل الفجر بوقت طويل كنت اسمعه وهو يلف حول البيت، ثم يجلس على طاولة في الشرفة الأمامية على ضوء مصباح زيتي كي لا يوقظ كل من في البيت. كان يعمل بصورة أفضل في الليل وقال بأن ذلك يذكره بشبابه حين كان يقرأ على ضوء الشارع لأن البيوت لم يكن فيها كهرباء.(لم نكن تعساء، كما تعرف، لا إطلاقا. لدينا شوارع نظيفة ومكان لأنابيب المياه في كل شارع. تلك الأساسيات كانت أوليات وطنية. أعط الناس بيوتاً ووفر لهم وسائل عيش يحيوا بها. أعطهم تعليماً. لا أكثر من ذلك. الآن يجندونهم في

الجيش ليقاتلوا من أجل الجهاد. الجهاد؟ متى أصبحت حماية آبار النفط سبباً لحرب مقدسة؟ يجب أن نعبر عن آراءنا على العلن.)

(لكنك عبرت عن آراءك وأنت تفعل ذلك منذ سنين. آن الأوان لتدع الفرصة لغيرك.)

(ليس هناك أحد غيري)

لقد أفرطنا في الدلال لمدة أسبوعين. زرنا الأصدقاء والأقارب. لقد تعرضت ذقن ليو لكثير من المداعبة وخده لكثير من الشد لذلك بدأ شكل وجهه بالتبدل. أما ايلين فقد أخذتها أمي في رحلات سياحية في المدينة رأت فيها النهر والدراويش الذين يلفون بسرعة في أم درمان وسوق الإبل والسوق لشراء مسابح تقليدية قديمة. كانت أيلين تعود وهي تشعر بالدوار والعطش الشديد.

(لديها طاقة هائلة) قالت وهي تلهث بعد أن سقطت على ظهرها على السرير.(أنا لا أفهم كيف يمكنها فعل هذا. أنا بنصف عمرها ولا أستطيع مجاراتها)

(إنها الممارسة) قلت.(فهي تقوم بهذا منذ أربعين سنة) لكن ايلين كانت محقة رغم ما قلته. هناك شيء خطأ. كانت أكثر نشاطاً مما أتذكر. وفي الحقيقية كنت أراها قليلاً لأنها في حركة مستمرة، تركض من شيء لآخر.

كانت تصنع مربى البابايا في المطبخ حين انفردت بها لوحدنا بعد أيام قليلة، عدد المطربانات المصطفة على الطاولة الطويلة يكفي لمدة عقد من الزمن.

(ستأخذ بعضاً منها حين تذهب، أليس كذلك؟)

(بالتأكيد، بالتأكيد) تفحصت الأواني التي كان يخرج منها البخار وهي تحركها بحذر. كانت حافية القدمين وتلبس قفطاناً باهتاً بسيطاً اعتادت على لبسه في البيت. شعرها الأسود الكثيف خطه لون رمادي وحين لا تنتبه بأنها مراقبة يأخذ فكها شكل استياء قلق مزعج.(لقد أمضينا وقتاً رائعاً يا أمي فقد أحبت ايلين البيت واستمتع ليو بالدفء)

(أوه، جيد. أنا مسرورة جداً) نظرت للأعلى وعادت إلى تحريكها.(إن كان هناك أي شيء تحتاجه ايلين من المتاجر، أعلمني في وقت مناسب . أحياناً عليك أن تحاول عدة مرات. هناك نقص دائم)

(ليس هناك ما نحتاجه)

شيء ما جعلها تنظر إلي. ابتسمت حين رأتني أراقبها.(أنا آسف لأنك لا تستطيع البقاء لفترة أطول. سنفتقدك. سيكون البيت هادئاً جداً وقلت لوالدك أمس.............)

(هل أنت بخير وبصحة جيدة يا أمي؟ أقصد هل كل شيء على ما يرام؟)

ظلت صامتة لمدة دقيقة كأنها تحاول أخذ قرار حول شيء ما قبل أن تتكلم.(يفترض بي أن لا أقلق، كما ترى. التوتر يضرني، وهذا الشيء مع والدك وسياسته.......حسناً، إنه لم يصغ إلى ما أقوله أبداً. على أي حال.....)

(من أخبرك بأن لا تقلقي؟)

(الدكتور زكي الحجي، هل تتذكره-الذي استأصل لك الزائدة الدودية حين كنت طفلاً. يقول إنها كلها في الدماغ. ومن المبكر القول، لكنهم يجرون أبحاثاً. عرض لي مقالة من هولندا أو مكان آخر

ربما السويد يجرون فيه أبحاثاً عن كيفية تآكل جهاز المناعة بسبب التوتر)

(المناعة ضد ماذا؟)

(إنها لا تبدو كبيرة أليس كذلك؟ مجرد كتلة صغيرة موجودة منذ سنين ولم أكترث بها أبداً.) أدارت رأسها لتريني كتلة في قاعدة عنقها. (ربما كان الأفضل لي لو أنني لم أعرف)

(تعرفين ماذا؟)

(إن كانت انتشرت إلى الداخل، هل فهمت؟ إلى داخل الغدد؟ إذ بمجرد حدوث ذلك لا يظل شيء يمكن فعله في الواقع.)

(هل أصبت بالسرطان؟)

(سرطان الجلد، هكذا يدعى في الحقيقة)

(ولم تخبريني؟)

(أردنا أن تأتي وتمضي إجازتك. ولترى ايلين والطفل المكان الذي عشت فيه)

(أرجوك يا أمي توقفي عن ذلك. دعي المربى وأخبريني)

(لا، لا. يجب أن أظل منشغلة، أنت ترى، يجب أن أبقي نفسي مشغولة) رفعت المنخل وبدأت تسحب سطح السائل. كانت الغرفة مفعمة برائحة السكر والفواكه، رائحة استوطنت في أحاسيسي، لن أتناول مربى البابايا مرة أخرى.

(هم يجرون اختبارات إذاً؟)

أومأت برأسها.(ربما يجب أن أذهب إلى إنكلترا للعلاج)

سمعت صوت بكاء ليو في الطرف الآخر من البيت حيث كانت غرفتنا. كان ليو يبكي بتلك الطريقة المزعجة الملحة التي تقول إنه لوحده ويحتاج إلى شيء ما. مشيت مسرعاً عبر الباحة. لقد سقط وتأذت ركبته لكن إصابته لم تكن خطيرة. ظهرت ايلين من الحمام تفرك شعرها بمنشفة.

(أين كنت؟) سألت بحدة، كمذكر بأننا لم نترك كل مشاكلنا خلفنا في إنكلترا. نظرت إليها للحظة ثم جلست وقلت:

(أعتقد بأن أمي تموت)

الفصل التاسع عشر

يقال أن الرحلات ترأب الصدوع لكنها كانت معكوسة في حالاتنا فبعد أن عدنا أنا وايلين من السودان بدت الفجوة بيننا أكثر وضوحاً إذ رجعت بتصميم وعزم جديدين أما أنا فقد نجحت في فعل ما أردت فعله منذ زمن طويل: أن أكتب كتاباً. حضني على ذلك ما رأيته خلال إجازتي أو بالأحرى ما لم أراه. كل تلك التفاصيل المقفلة في رأسي تصدرت إلى الواجهة حين حاولت أن أجد نفسي في المدينة التي تربيت فيها والتي لم يعد لها وجوداً. كتبت كما أعتقد سجلاً، خشية أن تهجرني ذكرياتي كما تلاشى المكان الذي أتذكره من العالم بسهولة. كنت أكتب بسرعة، في الليل حين يكون البيت هادئاً وبعد أن ينام ليو ايلين في الطابق العلوي. كنت أجلس على طاولة المطبخ، أفتح دفتراً رخيص الثمن ذو غلاف كرتوني وأبدأ الكتابة في صمت. ربما كانت الحقيقة أنني وايلين لم نعد نتحدث كما كنا، عن كل وأي شيء. كانت المحادثة تبدو وكأنها مع شخص أشعر بأنني أعرفه. على كل حال ملأت دفتراً تلو الأخر في حالة من الإصدار المحموم الذي لم يكن ليتجاوز ذلك لو لم يصدف أن رفعه آلان وايكليف في أسلوبه الفضولي المعتاد وبدأ في تصفحه.

(ما هذا إذن؟) حين أخبرته غمزني

(ربما نستطيع بيعه لك. ما رأيك بذلك؟)

(كيف نبيعه؟ إلى ناشر؟)

(أنت لا تعرف حظك أبداً. دعني أطبعه لك وسنرى ماذا نستطيع أن نفعل) أمسك بالدفتر ووضعه تحت أنفه وابتسم (أشم رائحة النقود)

لقد كانت رائحة واهنة حتى لو فعل. لكنه نجح في إقناع شخص يرغب في نشره. لم أجد ناشراً فقط وإنما في الحقيقة فزت بجائزة: ناتشفورد بلانش التذكارية التي تعطى لأول رواية يكتبها من هم دون الخامسة والثلاثين من العمر فقط والذي يعكس عمله الإرث الاثني الفريد لبريطانيا المعاصرة، لحسن الحظ لم تدم الضوضاء طويلاً فقد استلمت جائزتي وقدم لي عشاء رائع مع الحكام. كان ناتشفورد بلانش شخصاً ثرياً غريب الأطوار لكنه مات صغيراً، قبل عيد ميلاده الخامس والثلاثين بقليل. كان يحلم دائماً بأن يكون روائياً وفي الحقيقة أكمل تحفته الفنية حين اصطدمت طائرته ببرج كهربائي في البهاما وتحول الرجل وسلطته إلى فحم.(لقد كان طياراً هاوياً ماهراً أيضاً) وشاعت أخبار عن انتحاره أيضاً. فقد كان يتلقى علاجاً بسبب اكتئاب هوسي ظاهر ويفترض بأن لا يسمح له بالاقتراب من زوج أحذية تزلج فما بالك أن يوضع خلف أجهزة تحكم طائرة سيسنا بمحركين. لقد ترك تعليماته عن الجائزة في وصيته.

خرج الكتاب، (أيام التمر الهندي) وبيع بالحد الأدنى ونفذ من الرفوف ولا أزال أتساءل إن كان الأمر كله مجرد خيال.

في هذه الأثناء كان كل ما يحيط بنا يتفكك ويتداعى فقد مرت سنة وتفاقم سوء الوضع بيني وبين ايلين وازداد الاستياء العميق في البيت حتى بدا لكل منا بأن الأخر أصبح عائقاً وعبئاً وسبباً لكل إحباط أو نكسة أو فاتورة لم تسدد أو شيك في طريقنا. فصل صيف الماطر أخلى المجال لخريف

أغزر منه مطرا ثم تلاه شتاء قارس متجمد، اكتمل بانفجار أنابيب المياه ونوبات مستمرة من الأنفلونزا والتواءات الرسغ جراء تقطيع جذوع الأشجار. في بداية الربيع أخبرني الآن وايكليف أن أيامه في القصص الرومانتيكية أصبحت معدودة. فقد كان يبيع ويصفي، انتهت منشورات برين غيز. بدا قانطاً على الهاتف.

(هذا سخيف حقاً، أقصد أن أكون بهذا الهياج العاطفي وكأنني لم أعمل في هذه التجارة إلا من أجل المال)

(الاستقلال)

(هو ذلك)

(الزبائن المسرورون)

(الآلاف منهم، هل تدري بأنك لا تجعلني أشعر بحال أفضل؟)

(آسف) قلت (كنت أحاول أن أكون معيناً فقط)

(أخشى بأنني رميت كالزبالة. المنافسون في السوق كثيرون جداً)

(لكن كيف أمكن أن يحدث ذلك؟ أقصد هناك ملايين الأشخاص الذين يشترون هذه الأشياء وهم متلهفون للحلقة التالية)

استغرق بعض الوقت ليكشف عن الأمر فقد تلقى في الحقيقة عرضاً من مجموعة كبيرة من الشركات المتحدة. بدا العرض سخياً لكن آلان لم يكن يفضل ذلك (لقد حطم قلبي، لدي العشرات من النساء المتوسطات في العمر اللواتي جهشن بالبكاء على الهاتف وتحدثن معي طول فترة الأسبوع)

(قارئات مذهولات؟)

(كاتبات. كلهن قلقات من إقصاء الأشخاص الجدد لهن)

(إذاً ماذا ستفعل؟)

(جاءني رفيق لي من الولايات المتحدة بعرض تسويق في السينما وسأقبل به،) تنهد الآن. (في اليوم الفائت كنت في لندن وتأخر قطار الأنفاق، قال رجل بمكبرات الصوت وهو بمنتهى الجدية "هذا التأخير عائد لإلغاءات مسبقة" إلغاءات مسبقة؟ حسناً ما سببها؟ أقول لك أن هذه البلاد انتهت، ولم أحلم بأن أسمع نفسي أتفوه بهذا. كل واحد فيها يحاول إنقاذ نفسه ويبحث عن شخص آخر لإلقاء اللوم عليه. يكفي. أعطني لوس انجلوس، بركة سباحة وسيارة مكشوفة بسقف متحرك.)

(لديهم تلوث وقتلة في سيارات على الطرق السريعة ، زجاج سيارتهم مقاوم للرصاص ولديهم جنون الارتياب وأنت لا تريد ذلك)

لكن لم يبدو بأن آلان سيفكر بالأمر فقد أختار، هذه نقلة العمر. الفرصة لمطاردة حلمه بأن لا يظل صبيا غير مقبول وغير محترم.

وهكذا أصبحت بلا عمل. لم أتأسف كثيراً على السعي وراء العذوبة المتخمة للروايات الرومانتيكية، كل تلك الخيول والأطباء والممرضات اللواتي يحملقن ببعضهن خجلات فوق

الأعضاء الحيوية لمريض يحتضر. ففي أثناء تلك الفترة عرضت علي وظيفة في البي بي سي وقبلت بها فوراً. فكرت بأن ذلك سيسرنا أنا وايلين. في الفسحة التي سيوفرها لنا الترتيب الجديد. إذ سأتغيب عن البيت ليلتين كل أسبوع. حين فكرنا بإيجاد مكان الإقامة، اقترحت ايلين دعوة درو التي كانت تمضي سنة في لندن للقيام ببحث من أجل كتابها. كان هناك أريكة شاغرة ورحبت درو بذلك كما قالت.

كما أن ايلين نفسها وصلت إلى حد فاصل، وتلاشت القوة الدافعة لشهادة الدكتوراه وماتت. لكنها استمرت بممارسة الحركات فكانت تقفل على نفسها لساعات في غرفتها وتتظاهر بأنها تكدح. كنت اندهش أحياناً حين أكتشف بأنها ليست هناك. لقد توقفت عن نقل صناديق كبيرة من الكتب من المكتبة وإعادتها وانتهت رحلاتها الاستجوابية إلى بيرمنغهام أيضاً واستبدلت نقاشاتها مع الأستاذ المشرف بثرثرة طويلة على الهاتف مع صديقاتها، كان صدى الضحكات يتردد في البيت كحكم بالإعدام. أعتقد أنها تصورت بأنها ستكملها بشكل ما حين يعود ذلك التكريس والإخلاص لكن أي استفسار من جانبي سوف يكشف عن حنق عارم بشكل حتمي.

(منذ متى وأنت تهتم بعملي؟)

(حسناً، في الوقت الذي كنا نتحدث فيه عنه)

(لماذا تصر دائماً على العودة إلى ذلك؟) كانت غير مصدقة.(أنت تعرف كما أعرف بأنك لم تأخذني على محمل الجد أبدً)

طوت يديها على بعض واستندت إلى الطاولة. بدت شاحبة أكثر من العادة، إجازتنا ذكرى بعيدة بعد الشتاء الطويل، وأطلق الربيع أولى نبضاته في الأرض المتجمدة. كانت تلبس كنزة سوداء برقبة. لقد اعتادت مؤخراً على لبس الأسود التام ولم تعد تضع مساحيق التجميل. جلس ليو خلفنا إلى الطاولة وهو يغرف بملعقته رقائق الذرة ويضعها في فمه بينما كان يتظاهر بقراءة مغامرات خلد في قبعة حمراء على غلاف العبوة لكن أذناه تحولتا إلينا. كانت أحاديثنا كلها تجري في المطبخ، فهو المكان الوحيد الذي يوفر لنا فرصة التلاقي. أصبحنا الآن غريبين تماماً يتقاسمان بيتاً واحداً. حتى العلاقة ومجرد النوم فقط كانت فكرة لا تطاق.

(لقد كنت مهتماً دائماً)

صهلت بجفاء واستدارت نحو الغلاية.(كنت تنظر دائماً باحتقار إلى عملي وتعتبر تخصصي دعابة أيضاً)

(أنا لم أقل ذلك ولم استخدم تلك العبارات أبداً)

(لكن هذا ما كنت تفكر به)

(أنظري. لقد قرأت لليفي ستراوس وأعرف عن اليانوماني. لقد كانت لي مجرد شكوك حول هذا الشيء فقط، هذا الميل للاستبطان.)

(أوه، فهمت) أومأت برأسها وهي تنفخ على قهوتها (فجأة أصبحت خبيراً)

(أنا لا أقول أنني كذلك. أنا أشرح فقط إن كنت شعرت ببعض الشكوكية من جانبي فإنها أتت كما تعرفين من دارسي الأعراق البشرية هؤلاء الذي ينطلقون بطائرات نفاثة إلى المجهول العظيم

ويكون لهم تجاربهم ثم يتحولون فجأة من طلاب إلى شعراء وكتاب يصفون مشاعرهم في العيش مثل السكان الأصليين. الكتابة عن الرحلات تلك ليست دراسات أكاديمية.)

(إنها أكثر من انعكاس صادق للعلاقة بين الملاحظ والمخبر)

(إنها أسهل)

(توقف عن الصراخ!)

استدرنا للنظر إلى طاولة الإفطار. كان ليو يحدق بغضب ببركة الحليب، ويمسك الملعقة بإصبعه ويضعها على الزبدية ثم نزل مصدراً ضجة وخرج من الغرفة.

(تفضل. هل أنت سعيد الآن؟) صفقت كوبها على الطاولة بقوة وركضت خارجة وهي تنادي (ليو!، ليو!)

بدأت تتغيب عن البيت دون إخطار أو تفسير مما أثار قلق أكثر فقد كنت أعود إلى البيت وأجده فارغاً. كانت تقود السيارة في وقت متأخر، وكان ليو يقيم مع والديها بلا أي تفسير أيضاً. آخر بقايا الحياة العائلية بدأ بالتداعي.

(حسناً، ما الذي ستفعله هي؟) سألني كلاوس بقلق حين تركنا لوحدنا في يوم من أيام الأحد. كان هذا الطقس الأخير المتبقي، الغداء مع الوالدين الذي أصبح نادراً أيضا لكن التخلي عنه يعني عدم بقاء أي شيء فعلي. كانت لديهم فكرة جيدة عما يحصل لأن ايلين وأمها كانتا تتحدثان باستمرار أما كلاوس فقد ترك في الظلام وإلا لما أدار حاجبيه الكثيفين نحوي مستفسراً.

كنت أحاول أن أوازن ليو النزق على ركبتي. لقد ظل ينزل ليلعب مع القطة التي كانت تختبئ تحت طاولة القهوة المنخفضة ثم يعود للصعود حين تبصق وتلوح بمخالبها نحوه عندما يحاول الإمساك بذيلها.

(دعها يا ليو. ليو هي لا تريدك أن تفعل ذلك)

(لكننها وحيدة يا جدي)

(القطط لا تظل وحيدة) قال كلاوس لحفيده معللاً.

(قالت إنها قد تترك العمل بشهادة الدكتوراه وتنضم إلى منظمة غير حكومية) قلت

(هل يدفعون أجراً جيداً؟)

(لا أعتقد ذلك، إنهم لا يدفعون أي شيء إطلاقاً). نظرنا إلى بعضنا بعبوس كما لو أن كل منا تمنى بأن يكون لدى الآخر القسم المفقود من الأحجية.

(ثم ماذا؟) قرفص للأمام في كرسيه، تقوست عيناه مثل نفقين توأمين حفرا في سفح جبل صخري باحثاً عن جواب. لم يكن لدي أجوبة. إنه والدها على كل حال وينبغي أن يكون لديه فكرة أفضل. تأكدت حينها بأنني فقدت كل أمل في المصالحة. لم أقل هذا بصوت مسموع. واصلت إخباره بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

(ماذا بشأن وظيفتك؟ قالت ايلين بأنك فقدتها. ما الذي ستفعله؟)

(حسناً، أنا أفكر في الإذاعة)

(الإذاعة؟) أصبح وجهه متصلبا بالقلق. (إلى أين ستؤدي هذه الرحلة المعكوسة؟ الإذاعة. لقد فهمت.)

(إنه برنامج عن الخدمة العالمية)

(الخدمة العالمية. بي بي سي.) أومأ برأسه، مكرراً الكلمات لنفسه وهي تخرج.

(برنامج فني نقدي، سأعرض فيه أفكاراً، سأقوم ببحث وإن أحببته وكان كل شيء جيداً يمكنني تقديم بضعة أشياء من جانبي)

(على الإذاعة) أسند ظهره للوراء وقذف يده الكبيرة إلى الخارج مما جعل القطة تصدر صريراً وتهرب إلى غرفة المعيشة.(ذلك رائع) قال وهو غير مقتنع كثيراً. حين نشرت كتابي هز رأسه وحذرني قائلاً (لا تظن أنك ستكسب عيشك منه) كان كلامه مفهوماً وأعتقد أنه كان قلقاً علينا لكنه كان محبطاً وينم عن قلة إيمانه.

(سيترتب علي السفر إلى لندن مرتين في الأسبوع على الأقل وربما أكثر.)

(آه،) أقترب حاجباه من بعضهما كغيوم داكنة.

(لكنها تظل شيئاً ما)

(نعم بالتأكيد إنها شيء ما) مثل رجلين أمضيا وقتاً طويلاً جداً مربوطين معاً في قارب نجاة. لم يعد لدينا ما نقوله. مد يده ليداعب شعر ليو.

(الغداء) نادت كلير من الداخل. لقد أنقذنا ذلك.

في وسط تلك العاصفة طار أبي وأمي واستقرا في مستشفى رويال ماديسون. اقتنعت أمي أخيراً بأن تقوم بالرحلة، وكشفت التحاليل الطبية عن وضع سيء جداً لدرجة أن والدي لم يجرؤ على إخباري بكل الحقيقة. وضعت على العلاج الكيميائي مباشرة، وقصف جسدها بسيل من المعادن الثقيلة والمواد السامة التي تقتل المريض أثناء عملية التطهر منها. هرعت لرؤيتها فوراً استدعاءهما لي.

(لماذا لم تخبرني بأنكما قادمان)

(لم نرغب في إقلاقك)

(لماذا تعاملونني كشخص غريب؟)

(أنت ولد ناضج ولك حياتك الخاصة)

هل هذا نوع من العتب؟ هل تم إقصائي من الدائرة الداخلية لعائلتي؟ هل هذا ما أخبرني به؟ مشيت بين القاعات أبحث عن الجناح الصحيح متتبعاً التعليمات. وجدت والدي في أفضل أحواله الاجتماعية، يقف في الممر مشغولاً بالتحدث مع كل الممرضات. رجل طويل، قساه العمر، يرتدي بشكل أنيق بدلة قاتمة اللون وربطة عنق صفراء. حين رآني أقترب منه قدمني للممرضة التي كانت بجانبه؟

(آه، تفضل. أنظري من جاء لزيارتنا يا غوين.)

(مرحباً). غوين لها وجه كبير وابتسامة دفعت خديها المدورين إلى الأعلى على شكل غمازات. وكان هناك أخريات غيرها يجئن ويذهبن من حولنا ويومئن بالتحية ويبتسمن لوالدي.

(هل كل شيء على ما يرام؟)

(رائع، شكراً لك)

(هل أحضر لك أي شيء؟)

(أنت تعملين بجد كبير يا عزيزتي. سوف أكتب كلاماً جميلاً عنك)

(أوه، لا تفعل ذلك. لأن ذلك يجعلهم يظنون بأنني على علاقة جنسية مع المرضى)

(الممرضات الانكليزيات) قال وهو يقودني بعيداً (هن الأفضل في العالم. عليهن العمل بمشقة كبيرة وتعاملهن الدولة كالكلاب ورغم ذلك يعملن) عض على شفته وهز رأسه (لو كان لدينا هذا التدريب وهذا الانضباط الصارم لكانت خدمتنا الطبية رائعة)

لقد عاد إلى قلب خلفيته القديمة، (العمال الطيبون في إنكلترا، ملح الأرض. هؤلاء الناس الذين صنعوا العظمة لبريطانية. لديهم حس الفكاهة وروح الدعابة، يمكن للإنكليز أن يسخروا من أي شيء لكن بصورة لطيفة.)

(أخبرني عن أمي)

قادني من ذراعي عبر الأبواب الكهربائية وصولاً إلى كرافن ايه. الهواء في الخارج كان قارساً لهذا عبرنا الشارع ووقفنا في فتحة هندسية دافئة بين الأبنية كانت تسقط عليها أشعة الشمس.

(أنت تعرف الطبيب الذي استأصل لك الزائدة الدودية، حسناً، استدعاني إلى عيادته شخصياً وأخبرني بأننا يجب أن نأتي إلى لندن برأيه. قلت له بأن الوضع صعب الآن وإن كان وضعها الصحي يتحمل شهراً آخر فسيكون أفضل لنا لكنه رد وقال لا، كان عليها أن تذهب قبل أشهر لكنها رفضت. كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع بمرضها. أذهب الآن ولا تتأخر فإن الوقت ضروري ومهم. حسناً يمكنك تخيل كم كنت مدمراً ومصدوماً. ذهبت إلى البيت لكنها صرفت الاهتمام وقالت إن الطبيب أثار كل تلك الضجة غير الضرورية لأنه صديق قديم. إنها امرأة شجاعة، أشجع مني بكثير، لكنها لم ترغب في مواجهة هذا. في اليوم التالي ذهبت وتدبرت أمر التذاكر الطائرة. لم يكن هناك وقت لأبلغ أي شخص. خلال ثلاثة أيام من وصولنا صرح الأخصائي بقبولها في قسم العلاج فوراً.)

(النظام الصحي الوطني؟)

بدا منكمشاً وهشاً وأصغر حجماً مما هو عليه.(حاولت إقناعي منذ سنين و قالت إن التامين الصحي الخاص هو الشيء الجوهري في المستقبل لكنني لم استمع إلى كلمة واحدة مما قالت ورديت عليها دعيني أموت في فراشي بدلا من تعطيل الرعاية الصحية العامة) نفث دخان سيجارته بصمت (أعتقدت طبعاً بأنني كنت نبيلاً وتصورت أيضاً بأنني أنا من سيموت أولاً) هز رأسه ورمى سيجارته وداسها.(الطبيب رجل لطيف جداً، صغير لكنه يعرف ما يقوله بلا شك)

(وماذا قال؟)

(إنهم يحرزون تقدماً ويقومون باكتشافات جديدة في هذه المستشفى. لن تصدقها. سمعة من أعلى المستويات العالمية. الدكتور مارش، الأخصائي، قال بأنهم أحرزوا تقدماً هائلاً في هذا النوع من العلاج في السنوات الأخيرة، تقدم عظيم)

(لكنها ستموت في كافة الأحوال)

جفل ورأيت عينيه ترفان. مشينا وعدنا إلى المستشفى الذي أتينا منه.

(يعتقد المرء بأن لديه الوقت دائما) قال.

في الداخل، بدت المستشفى تافهة وصاخبة. كان هناك بالوناً أحمراً مربوطاً بعربة الأدوية وكان المراسلون ينادون بعضهم البعض بابتهاج وهم يمرون. نقل رجل عجوز ببطء وهو يدفع حامل ضمن وريدي أمامه: تمدد الكائن البشري على نقالة مثل شخص مصلوب مغطى بأنابيب بلاستيكية. كانت رائحة الجو غنية بمزيج من سوائل الجسم والقنبيط المسلوق.

تلاشى الحماس من والدي. رفع يده مع ابتسامة خفيفة رداً على تحية غوين لكنه كان يجر قدميه - التي كانت تحشو غطاء وسادة بطعنات قوية ثابتة مثل خباز توسكاني. رمقتني بنظرة طويلة.

(هل هو بخير؟) قالت.

(نعم أعتقد ذلك.) أومأت برأسي رداً عليها وشعرت بامتنان عميق لتلك الإشارة من الاهتمام. كان والدي يقف بجانب مدخل مفتوح ويومئ لي وقد نفذ صبره.

(تفضلي ها هو) قال وهو يقودني إلى الداخل.

لم يبدو عليها الاختلاف كله عن بعد. كانت عيناها قاتمتان ورأسها يغطيه منديل حريري ملون ويداها ترتاحان على أغطية السرير وأنبوب بلاستيكي مثبت برسغها.

(حسناً، أتوقع بأنك سمعت بإخباري السيئة) كانت كلماتها الأولى.

(كيف تشعرين؟) خفت من الاقتراب منها ولمسها.

(متعبة) كانت مقتضبة في الحقيقة، تعيد ترتيب ملاءات السرير وهي تتكلم وتتحرك دائماً، حتى الآن وهنا أيضاً. (متعبة جداً، ليس هناك ألم فالمورفين تعهد بذلك.)

حين تحركت للجلوس بجانبها كنت أراقب التعبير الذي ارتسم على وجه والدي. تعبير لم أره قط. نظرة بليدة من الاندهاش كما لو أنه صفع للتو على وجهه. شكل الروح المتنقلة. فكرت بكرة الغولف وكيف بدأ العالم يلف بدوائر مائلة.

من الواضح أنها أخذت بعض الوقت لتستعد لزيارتي فلا يفترض بي أن أرى المساحيق التي وضعتها على خديها والتي أكدت غياب لون جلدها الطبيعي. لم أفكر بأمي كشخص فارغ أبداً لكن هنا وعلى حافة البقاء وآخر آثار الضوء التي كانت تجف على وجهها احتاجت إلى شيء ما. كان زيفاً رُسِمَ على وجه مهرج، سخرية عن حيويتها السابقة وشهيتها للحياة.

جلست معها بينما كانت تنجرف في نوبات من النوم والاستيقاظ. كانت لا تستطيع أن تفتح عيونها لمدة أطول من دقيقتين. حتى في النوم ظل وجهها معكراً وكانت تجفل وتعبس وتغمغم، لكن

للحظات قصيرة ثم بعدها تعود لوجهها راحة هادئة لتشخر بصوت خفيف واستسلام لا مبال.

سارت الأمور على هذا النحو. كان أبي يمضي طول اليوم بجانبها وكنت أنضم إليهما فور تمكني من ذلك. كنت قلقاً عليه في البداية حاولت أن أشجعه للقيام بشيء ما لكنه نظر إلي كما لو كنت أبلها. بخست قدرته في التصرف براحة في أي مكان يكون فيه فقد أمضى حياته وهو يقوم بذلك. لقد أنشأ بسهولة صداقات مع المرضى الآخرين في الجناح وكان يتجول صاعدا للأعلى ونازلاً للأسفل، يحضر لهم الجرائد وألواح الشوكولا وفناجين الشاي، يجلس بينهم ويستمع إليهم. تخيلت بأن الناس قد يزعجهم هذا العجوز المكدر الذي لا يتوقف عن الثرثرة لكن في ذلك الظرف الهش الضعيف الذي أصبح فيه الحنق النهائي- الموت، واقعا مستعجلا لا تظل عوائق هناك. لقد كان دائما الصحفي والمستمع الجيد. كان صانع معجزات يتنقل من مكان لآخر لتقديم علاجه. للإشراف على علاجه.

(رجل ممتع حقاً) كان يخبرني ويستهل قصة أحد الأشخاص الذين في القاعة أو في الجناح التالي اكتشفت بأنه كان مبدعاً لاختراع عظيم أو أحد طاف العالم على دراجة هوائية أو امرأة كان مركز عمل والدها في جوبا. لقد استخلص كل هذه الحيوات النشطة من الأشكال الميتة المحيطة به، وجوههم المشدودة الشاحبة وعيونهم الممحوقة التي كانت تومض لحظة قصيرة حين يعطى لحياتهم معنى مرة أخرى. وتساءلت ماذا فعلوا بلهجته المضحكة وربطات عنقه الغريبة. لم أهتم فعلا. كل شيء كان يتعرى عندما كانت الحياة نفسها تجف ببطء من أجسادهم فكل ما يبقى هو الحاجة الماسة للنقل عنهم، أن يكون لديهم من يصغي ويستمع لهم.

(والدك شخصية مستقيمة) قالت غوين في مساء ما((الجميع يحبون وجوده هنا. إنه يبهج المكان في الحقيقة.)

شعرت بلحظة فخر حين رأيته يتمشى في القاعة ويتوقف للانحناء فوق امرأة مسنة جداً تجلس في كرسي متحرك بجانب أحد الأبواب ليقول لها بعض كلمات. استطاع أن يضيع نفسه وسط تلك الجلبة من الحيوات والقصص شبه المنتهية لكنه كان مرعوباً في العمق. لقد كان الخوف البسيط من أن يظل وحيداً هو القوة الدافعة لكل تلك الثرثرة وتلك الحكايات.

وصلت في أحد الأيام إلى المستشفى لأجده يذرع القاعة وهو هلع. (يجب أن تجد أخيك) قال وقد وقف منذ أن رآني قادماً في الرواق. لم يبال بالتحية. كان هناك تدهور.

(ميوك؟ لكن كيف؟ أنا نادراً ما عرفت مكانه ولم أسمع صوته منذ شهور) لم يكن يستمع إلي، مد يده إلى جيبه وأخرج من محفظة نقوده قصاصة ورق حمراء خربش عليها بخط مائل مشوش، لا يميز بين اليمين والشمال وكان يرتفع مرة ثم يهبط مثل رسم كهربائي لنبض القلب. خط يده باللغة العربية كان على العكس أنيق ومستقيم.

(أذهب وأعثر عليه) قال وهو يناولني القصاصة الورقية. (لقد حان الوقت).

الفصل عشرون

أمضى ليو ودرو وقتاً كثيراً مع بعضهما البعض وعلمته كيف يركب على الحصان الكستنائي الذي لمحناه في الطرف الأخر من المرج يوم وصولنا وثبت بعد فحصه عن قرب بأنه شيء قديم سمي بنابليون مصادفة ولا يتقدم إلا ببطء بعد أن تنخسه درو. لكن طالما كان ليو مهتما فانه يضاهي أعظم الأحصنة في كل عصر المغامرات. سماه ليو ثانية فورا وكان يركل كعبيه بنشاط فيمشي رعد (الاسم الجديد) بضع خطوات أخرى بطيئة.

في عصر أحد الأيام كنت أجلس في الشرفة وأنا أراقبه وهو يقترب. هيَجت نسمة عرضية أوراق الكرمة الخضراء التي فوق رأسي وأصدرت صفحات الكتاب الذي كنت أحاول قرأته دون نجاح حفيفاً فازداد دفء الطقس أكثر لكنه لم يكن مزعجاً، كانت هذه الحرارة تغوص داخل جسدي بحميمية ممتعة وتستقر في المرج المحاذي لكنها لم تكن عادية في شهر أيلول.

تركتنا هيا وكنا في الليلة التي سبقت سفرها في روح عالية جداً. كان لوسيان في شكله الجميل، يبهجنا بأطباق الطعام واحداً تلو الآخر وبالحكايات النادرة المرحة. تناولنا وجبة ممتازة وجلسنا في الشرفة في الخارج حتى الثالثة صباحا نتحدث ونضحك. حين انتهينا أخيراً تكومت الأطباق والقوارير في المطبخ بانتظار ضوء النهار وشقينا طريقنا إلى الطابق العلوي. كانت هيا في المقدمة والآخرين في أماكن أخرى. كنا لوحدنا. تعثرت ومددت يدي لتتمسك بها وفجأة كانت بين ذراعي. ظلت هناك لحظة ثم أبعدت نفسها.

(يا لك من شخص غريب) قالت وهي تمسكني عن بعد.

(لماذا تقولين هذا؟)

العيون السود، الجرح المثلم في أعلى ذقنها، الأنف المعوج بقبضة يد متوحشة، الوجه الناطق بالمعاناة والمملكة التي فقدت في الرمال.

(لأن الكل حتى ليو يعرفون ما تفعله هنا ما عداك أنت)

(أنا أعرف أين أنا) أحكمت ذراعي حول خصرها.

ضحكت ضحكة خفيفة. كانت تقف على الدرجة التي فوقي وتلبس سروالاً قصيراً شفافاً وصدرية علوية قصيرة، شعرها مثبت بدبابيس للخلف تبعده عن عنقها النحيلة الطويلة، بدون أي زينة أو سترة جلدية أو سروال جلد النمر، كانت مجرد فتاة فقط.

(هل تعتقد بأن انضمامي إلى قافلتكم كانت فكرة جيدة؟)

(يبدو بأنك استمتعت)

أومأت برأسها ثم تبدل مزاجها.

(كم بقي هناك من الوقت قبل أن تتخلص مني؟ إننا ننحدر من أماكن مختلفة من القارة نفسها لكن لا يعني أن الأرض التي نمشي عليها نفس الأرض. أنت لديك أصدقاءك وابنك وحياتك وأنا لي حياتي

كذلك.)

(هل هي مختلفة كثيرا؟) سألت.

(حين تحدث لوسيان عن رحلته في أفريقيا........)

(أنظري، ذلك لا يهم. لوسيان هو كذلك إنه يتحدث عن الأشياء التي يراها بكثير من الشغف. أظن أنه راق لك؟)

(بالتأكيد، لقد أضحكني. عظيم لكنه يمضي حياته بدراسة أناس في أماكن بعيدة جداً ثم يعود بعد ذلك هنا ليتحدث عنهم. حين كان يتحدث ظننت انه ود لو أنني بقيت في المكان الذي جئت منه؟)

(لا أظن بأنه يرى مثل ذلك.)

(أنا أقول لك، في عالمه أنا أنتمي إلى الصحراء، أخض اللبن في جلد الماعز.) تحدث لوسيان عن رحلته الأخيرة إلى مالي وعن عادات ومعتقدات شعب دوغون. (فكر بهذا، لو وفرت لهم هذه الحياة، هل تعتقد بأنهم سيقولون لا؟ إنهم يريدون تلفزيزنات وكاميرات فيديو كل الأشياء التي عنده، الأشياء التي جعلته متفوقا عليهم.)

(لماذا نتحدث عن لوسيان؟)

(لأنك تنتمي إليهم وليس لي. إلى أي مدى يمكننا أن نصل بتلك الأفكار الذكية التي في رأسك؟ هل سنأكل الكتب التي لديك والتي تحملها في صندوق سيارتك الخلفي؟ كلا. لقد ارتكبت من الأخطاء ما علمني بأن لا أرتكب المزيد غيرها.)

نظرت إليَّ هيا للحظة. رفعت ذقني ووضعت شفتاها على شفتي بنعومة ثم استدارت وذهبت. في الصباح التالي طلبت من لوسيان بأن يوصلها إلى البلدة لتسافر بالحافلة إلى اياكس. عادت إلى نفسها السابقة، تنورتها القصيرة وحذاءها العالي ونظارتها الشمسية.

(أنا آسف لأنك تذهبين) قلت، حين وقفنا (أحب لو بقيت أكثر من ذلك)

(ليس لدي ما أقوله لأصدقائك. لا أملك الكلمات) لقد أخذت قرارها وأصرت على الرحيل.

(وهل يفهمك فرانسوا؟) كان فرانسوا المحسن والعجوز الذي يهب المال والهدايا للفتيات مقابل الجنس. تقابلا حين كان يعمل قاضياً في باريس لكنه متقاعد الآن ويعيش في بيت كبير خارج اياكس مع ربة منزل واحدة ترافقه. لقد كان يدللها كثيراً حين تقيم عنده. يأخذها إلى المطاعم الفخمة ويشتري لها الثياب الجميلة. كانت مثل أميرة خلال وجودها معه والذي كان يدوم أسبوعاً في العادة وليس أكثر من ذلك. تعود بعدها إلى باريس وتنتظر بضعة أشهر أخرى إلى أن يهتف لها ويسألها متى يمكنها المجيء مرة أخرى.

(إنه يعطيني ما أحتاجه) الطريقة التي قالتها تتضمن أكثر من نوع واحد من المتعة. داهنتني وحاولت أن تثير غيرتي وقفت على رؤوس أصابع قدميها لتقبلني مودعة. شممت جلدها الذي غسلته حديثاً وتعرق قليلاً.(أنت لن تعرف أبداً ما أضعته من يدك؟) همست بأذني وهي تغمزني ثم أعادت نظارتها إلى عينيها. بعد ذلك كانت تمشي في ضوء الشمس، شاردة هيفاء ونحيلة، ارتسم ظلها على المدخل وهي تخرج لتهتم بالعالم.

أكد رحيل هيا الطبيعة المؤقتة لوجودنا هنا وذكرني بعدم راحتي بوجود لوسيان. حين عرض عليها بأن يوصلها ارتحت. لست متأكداً كم أخبرته درو فهي تقول كل شيء لكن لم أتأكد من حجم هذا الكل. لقد قالت بأنها كابدت آلام الإجهاض لوحدها. حين أخبرت لوسيان بالأمر غادر إلى مرتفعات بوليفيا فوراً وأمضى ثلاثة شهور هناك.

(لم أكن أعرف إن كنت سألقاه مرة أخرى أم لا. لقد عشت في شقة في باريس دون أن أسمع منه أي شيء ولو رسالة واحدة. كنت أهتف لوالده كل أسبوع ولم أكن أعرف إن كان حياً يرزق ولم يكن لدي أي فكرة عما هو متوقع. ثم عاد في أحد الأيام ناسياً كل ذلك وكأن شيئاً لم يحدث)

لقد شعرت بالوضاعة والصغر والضحالة أمام قدرة هذا الرجل على المسامحة. هذا هو غفران القديسين، تفهم الولي الكريم، منزلة الحكماء والأنبياء. نمت مع زوجته وأنا الآن في شرفة بيته أتناول المعكرونة التي أعدها بيده وبنفسه. لقد كنت متأكداً بأنني لو كنت محله لعجزت عن فعل ذلك.

أصبحت أنام بصورة أفضل هذه الأيام. كنا نذهب أنا وليو في نزهات طويلة في التلال، ننظر إلى الصخور والنباتات ونمشي في الممر الصخري ونذهب إلى القرية لنتسكع وننظر إلى الأشياء الغريبة المعروضة في واجهات المتاجر، أدوات غريبة لعصر الثوم وتشريح الليمون وأباريق من القصدير بأعناقها الطويلة بثلاثين حجم مختلف لصب زيت الزيتون، تفحصنا السكاكين التي تطوى وساعات المنبه والمناشير المعدنية والزهور البلاستيكية وكل أشياء الحياة اليومية الممتعة لكونها مختلفة، أدوات مسؤولة عن حياتك. ذهبنا إلى محل ا لجزار وشاهدناه وهو يقطع الخروف بمنشار كهربائي ويحرق ريش الدجاج بمشعل نفاخ مثل الذي تزيل به الدهان عن إطار الباب ،أشياء بعيدة عن أغلفة سيلوفون المتاجر الكبيرة التي اعتدنا عليها. هناك سينما صغيرة في القرية أيضاً وأصبح مرورنا من جانبها طقساً. كنا نتفحص الملصقات التي خلف الشبك المعدني ونخمن قصة الفيلم.

كانت نزهتنا تنتهي دائماً عند البركة التي في ساحة القرية ويندفع ليو ليدس رأسه تحت الحنفية النحاسية السميكة لنافورة الماء ليبرد نفسه تحتها. بعد ذلك نلجأ إلى المقهى لقراءة الجريدة وشرب القهوة بينما كان ليو يتجول في المكان باحثاً عما يثير اهتمامه.كان يستطيع قضاء ساعات في تفحص أوراق النباتات وصيد السحالي أو مراقبة قطار من النمل يتسلق جدار. وفي الختام نتناول حقيبة التسوق وننطلق في طريق العودة إلى البيت.

اختفى لوسيان ودرو في الطابق العلوي بعد الغداء واكتسب البيت نوع من القدسية. كنت أرفض تسلق الدرج إلى الطابق العلوي بعد الظهر رغم أنني أعرف بأن غرفة نومنا كانت في الطرف الآخر من البيت بالنسبة لغرفتهما، حتى أنني لم أرغب في سماع حديثهما الخاص مع بعضهما. فضلت الشرفة التي كانت أرضاً مشتركة عامة لهذا كنا نمضي أكثر أوقاتنا بعد الظهر هناك، ليو يرسم وأنا أتظاهر بالقراءة. لا تزال لدي حقيبة القماش المملوءة بالكتب لتشغلني.

(هل نحن نحتاج إلى أخذ كل هذه معنا؟) كان رد فعل ايلين حين كنا نحزم أمتعتنا لرحلة الدنمارك.

(أنا أحتاجها)

(لماذا؟)

لماذا؟ لأكثر من سنة كنا نغوص أكثر فأكثر في أعماق ميحيطية وكان الأمل بوصول أي ضوء معدوماً. لم نعد نتشاجر حتى. توقفنا عن الكلام لأن كل حديث يتجاوز الكلمتين يتحول إلى حرب حتمية.

الكتب نفسها لم تكن مميزة. ليست من الطبعات الأولى وليست نسخاً موقعة من قبل مؤلفيها ولا جواهر أثرية لا تعوض. كانت مجرد كتب بطبعات قديمة وبأغلفة ورقية من الروايات التي قرأتها منذ فترة مراهقتي. كتب احتوت ذكريات، ليس في داخل صفحاتها لكنها تذكرني في الوقت الذي كنت أتطور فيه في شرفة بيتنا الخلفية على الأريكة الخشبية ذات الوسائد البرتقالية لأول مرة. يعود كثير منها لوالدي ولوالدتي وعلى أغلفتها الخارجية أسعارها القديمة وهي مجرد شلنات وبنسات أو هناك أختام من الحبر على صفحة العنوان تعطيك السعر بالقروش."مكتبة النيل 35 قرش"

تتحدث تلك الأغلفة الباهتة عن فترة زمنية أخرى، كان الورق هشاً لقدمه، يتشقق ويتساقط مثل جلد جاف. وهي تشكيلة فريدة، اللورد جيم وصورة على الغلاف لبيتر أو تولي –لكنني لم أرى الفيلم أبداً، رباعي الإسكندرية الموسيقي للورانس دوريل، الرواية التي أحملها معي دائماً فقط لأنني أشعر بأنني مجبر على قرأتها كلها دفعة واحدة، عدد من منشورات بنغوان القديمة ومنها الممتثل لمورافيا والبحر، البحر لايريس موردوخ وهناك أيضاً كتب لكافكا وكاربينتير وكامو الذي علمت بأنه دفن في مكان قريب من هنا في لورمارين. لم تكن لتلك الكتب قيمة مالية تذكر وليس هناك ما يرفعها عن مستوى الطبعات الرخيصة المستخمة كثيراً بأغلفة مكسرة وصفحات ممزقة قديمة يزيد عمرها عن نصف قرن، لكنها كانت مهمة بالنسبة لي، هذه العادية ترمز إلى نوع العالم الذي ولدت فيه-عالم كانت صلاتنا العاطفية فيه معلقة على أشياء عامة مشتركة، أشياء يعتبرها أي واحد بلا قيمة أبداً. كان العالم يزخر بأشياء لا قيمة لها لكنها اكتسبت قيمة عاطفية زائدة. لقد علقت إنسانيتنا على وتد فيض من الأشياء القديمة غير المفيدة.

لدي مشكلة في التركيز اليوم وأحرز قليل من التقدم مع (السقوط)، لهذا جلست وراقبت ليو الذي انشغل برسومه بدلاً من القراءة. اتسخت الطاولة الصلبة بالورق وعلب أقلام التلوين. لقد أخذ وقته في انتقاء القلم الذي يبحث عنه بالضبط. توقفت التعرجات الملونة فجأة وهجرت لسبب غير واضح، لأنها لم تف بغرض مؤلفها-تصوير شكل ما كان يحاول إخراجه من زوايا مخيلته.

تسلق الضوء الذي فقد شدته عند جدار البيت حين انضوى العصر في ثنايا المساء. شكّل الجص المزركش مناطقاً من الضوء والظل، أظهرت شبهاً بنقش وانتفخت على شكل بثور في الأماكن التي أنهك فيها ماء المطر القرميد السفلي. كان الجدار يشبه خريطة بلاد نائية لم تكتشف. حين تسند ظهرك إلى كرسي من الخيزران تصبح النتوءات تتلألأ والصدوع أنهاراً والمناطق المبقعة باللون الأبيض غيوماً منجرفة عبر المنظر الطبيعي الصامت.

بدا اقتراب أمي من نهايتها فبدأت تتحدث إلى أشخاص تخيلت وجودهم في الغرفة معها. كان رأسها يتحرك وتتكلم عن أشياء منذ عشرين سنة وكأنها تحدث الآن، لقد عاد لها ماضيها: (يا الله من أين حصلت على هذا الثوب؟ إنه رديء جداً!) بدأ الزمن يحيك نفسه حولها على شكل حلقات حلزونية وكانت تتحرك بحرية بين الماضي والحاضر محمولة على تيار من المورفين. بدا الأمر وكأن حياتها كلها كانت تعرض على شريط بسرعة عالية. (أعتقد بأنني سأطلب الفاتورة ثم يمكننا الذهاب بعد ذلك) والآن رحلت أمي وماتت. سقطت في الصمت، متسامحة مع صبرها الذي لا

قرار له، الممرات الجانبية الصاخبة، حركة المرور السريعة، الأمواج المغناطيسية الدوارة من أبراج التوتر العالي الكهربائية. محاكاة هزيلة للمقبرة التي كانت على امتداد متعرج في أرض ليست لأحد خارج لندن. أين التلة الساكنة وحبيبات المطر الطازجة على بتلات الزهور؟ راحت أو لم تكن موجودة أبداً. الشخص الوحيد الذي يعطي معنى لكل شيء في حياتك-أمك. ليس هناك أحد يفهم كما تفعل ولن يكون أبداً. كانت مقياساً للعالم، جيده خيره وشره ولم تكن غافلة أو لا مبالية أبداً. كيف سيكون للعالم معنى بلا مرجعية؟

إنه مثل نماذج الضوء والظل التي على الجدار البيت الذي نجلس بجانبه، من بعيد منظر طبيعي لكنه عن قرب مجرد جص متقشر وقرميد متصدع. حياتي فسيفساء من الأضداد المتجاورة، رقائق صوانية، ترابطت معا بطريقة لا يرى فيها أي نوع من التماسك إلا من بعيد. الاقتراب منها لا يفيد في فهمهما كثيراً.هل هذا هو السبب في تشبثي بايلين كل تلك السنين وعدم رغبتي بتركها؟ أخشى بأن لا يكون لي أي معنى بدونها- وسأفقد كل التماسك.

تابع ليو عمله، أمال رأسه على الطاولة وصفحة الورق، وهو يزيل بممحاة، يضيف خطوطا ويزيل حوافاً، ويقترب بالتدريج من شيء في الصفحة البيضاء الفارغة، شيء لا يراه أحد سواه. هذا الاستغراق جدير بالمراقبة. رأيته كيف يرفض الاستسلام حين يركز بهذه الطريقة لهذا تركته يستمر حتى لو مضى وقت طويل على موعد نومه. جلست أراقبه وهو يرسم، قلت لنفسي: حسناً، سيكون على ما يرام، لديه شيء سيرشده في حياته، عنصر عصي على التحطم.

اعتدل في جلسته ولاحظ بأنني كنت أراقبه. حمل الورق للأعلى ليريني ديناصوراً أرجوانياً.

الفصل الواحد والعشرون

كان كل ما وجب علي فعله هو تلك القصاصة الورقية التي كتبت عليها خربشة لعنوان غير مألوف في شمال لندن. لم أبحث عن ميوك منذ وقت طويل فقد كان انفصالنا باتفاق ثنائي. فصل صامت، صمت طالب به الطرفان. تصورت أننا نستطيع معاودة الاتصال مرة أخرى بعد أن يستقر ويجد نفسه ثانية في حياته الجديدة في هذه البلاد الجديدة لكن ذلك لم يحدث أبداً.

في السنوات التي تلت مغادرتي للبيت، تخيلت بطريقة ما بأن الأشياء التي فيه ستبقى على ما هي عليه دائماً، وسيظل دائماً البيت الذي نعود إليه، كما سيظل أبي وأمي هناك دائماً، ويظل البيت دائماً يتداعى بطريقته الخاصة وحبوبة وزمرها الصغيرة من العمات والخالات، يقرفصن فوق مدفأة الفحم يقلين أقراص الباذنجان الذهبية. تخيلت ميوك وياسمينه متجمدان في الزمن ويقفان يداً بيد في سراويل قصيرة وتنورة صوفية، بالطريقة التي تخيلتهما بها تماماً.

لم يتقاطع شيء من هذا مع السترات الجلدية والغيتارات الرنانة. ثبت وتبين أن هناك شيء مختلف تماماً في عقل ميوك، فهو مصمم على الفرار من أوهامي. كانت أول علامة أدركتها لهذا التحول حين وصلت إلى البيت في مساء أحد الأيام بعد نهار كئيب في الديلي كرو لأجد زيارة تفقدية (كارثة). كان مدخل البيت القديم في هنترز بار مسدوداً بصناديق غريبة الشكل، مثل محطة فضاء روسية ضالة، رست وامتدت على السجادة البالية وعلى سفرة الدرج من جهة شقتي. بعد التفحص القريب تبين بأنها حقائب أدوات موسيقية، لمن هذه الأدوات؟ فأنا لا أملك أي موهبة موسيقية وليس لي أصدقاء موسيقيون من أي نوع، فقد تجنبتها إلى الأبد منذ ذلك اليوم الذي لجأت فيه أمي إلى صديقة لها عرضت أن تعلمنا الموسيقى بخاطرها، وتشكل لدي كره غير منطقي للموسيقى، كنت في الخامسة من عمري آنذاك وقالت: لن يفلح مع هذا الجمع أي مقدار من الدروس. لا أحد من أولادي لديه الحد الأدنى من الموهبة الموسيقية وهم مثلي لا يستطيعون التمييز بين العلامات الموسيقية وليس لديهم أي حس موسيقي.

سلكت طريقي بصعوبة صاعداً الدرج، متوجها إلى شقتي، فوجدتها تغص بعدد من الأشخاص الغرباء الذين سرحوا شعورهم بطريقة غريبة، ووضعوا أحلاقاً مجلجلة في آذانهم. من وراء غيمة من الدخان أحاطت بوسط بيتي، نهض شخص واحد من الكهنة وكلمني

(أوه، تفضل! انتبهوا جميعاً. إنه أخي)

كان هناك هتافات وايماءات في المكان كله وقبعات وابتسامات مع حملقة جامدة مرة أو مرتين. نهض ميوك ووقف على قدميه وسط مريديه. بدا أطول وأنحف مما كان عليه في آخر مرة رأيته فيها. كان شعر رأسه قصيراً جداً لدرجة قريبة من جلدة رأسه ماعدا ذيل طويل يتدلى بأسفل رقبته على شكل جديلة، فبدا مثل ريش طائر ميت غمس بالدم.

(كيف دخلت إلى الغرفة؟)

(سمح لنا صاحب البيت بالدخول، إنه رجل لطيف)

(ماذا تفعل هنا؟)

(حصلنا على حفلة موسيقية يا رجل)

(حصلتم على ماذا؟)

ألقيت نظرة أخرى على القبيلة التائهة. إنهم نسخة تقليدية مضحكة لما تبدو عليه فرق الروك. أين وجدهم؟ قدته إلى خارج المطبخ، وطردت شيئاً كان ينتزع المؤن من ثلاجتي قبل إغلاق بابها.

(ماذا حدث للهاتف؟)

(أوه، نعم .... حسنا لقد ضيعت الرقم)

لو أخبرني أحد بأن هذا المخلوق كان الممثل الأول في جيزوس كرايس سوبر ستار، لصدقته، لكن أن يكون أخي؟ أين السروال العريض القصير غير المجاري لزمنه، وأين منظر فلاح المناطق الريفية النائية التي أمضينا زمناً طويلاً لنكبر عليه ونخرج منه؟ أنا رجل كل المواسم استغرقت سنيناً للتأقلم بعد أن أدركت حاجتي لمجموعة من الثياب الشتوية في هذه الحياة الجديدة، ومشيت مجهداً بين أكوام الثلج في حذاء رياضي رقيق النعل وتعجبت كيف يعيش الناس دون أن يشعروا بأصابع أقدامهم. كيف نجح ميوك في هذا التحول الشكلي بهذه السرعة؟

وضع ذراعه حولي وعانقني (من الجيد أن أراك يا رجل) كانت له لحية قذرة وحلقين كبيرين مثل قرصان.

(حسناً، يمكنهم البقاء لكن لا أريد أية مشاكل)

(لا تقلق.) أشعل سيجارة وابتسم،(اعتقدت بأنك ستحب هذا)

كانت الحفلة الموسيقية في قبو ناد صغير ومظلم، لم أسمع حتى في الشارع الذي يقع فيه رغم أن شيفيلد ليست كبيرة إلى هذه الدرجة. أتذكر أنني واصلت السير في الجدران المطلية بقماش أسود وكانت الأضواء مصابيح عادية طليت باللونين الأحمر والأزرق وكانت الخدمات مختلطة، رجال ونساء على السواء انحنوا وهم يتقيئون في كراسي المراحيض. كانت الموسيقى صاخبة جداً ولا يمكنك تمييز أي علامة فيها، مجرد صخب كهربائي مثل الوقوع في عاصفة. أعرف بأن لدى ميوك غيتار لكنني لا أتذكر أبداً أنني سمعته يعزف أي شيء به طول تلك الفترة. كان يرتجل بعض الفواصل الموسيقية، يفقد اللحن، يتوقف، يبدأ أغنية أخرى، يعزف بضع فواصل ثم يتوقف ثانية. كان أبي يزعم دائماً بأن ميوك كشاب صغير عازف عود واعد لكن الآلة لم تنزل من فوق خزانة الثياب حيث جثمت تلم الغبار. يبدو بأن ميوك مصمم وبشجاعة على مواصلة التقليد الموسيقي الوهمي للعائلة رغم العزف المتنافر الذي أوحى بأنه لم يتخلص بعد من عادته في تبديل الألحان في منتصف الحركة.

بعد ذلك كنت أرى ميوك بشكل متقطع. كان يتصل من طرف من البلاد أو آخر فتخيلت بأن هذا من طبيعة عمله. توقعت أن أجد وجهه على غلاف مجلة ملحق الأحد "ولد من الأقاصي البعيدة يجد شهرة الروك" لقد نجح في إقناعنا فعلاً وصدقنا لبعض الوقت بأنه نجم بوب صاعد.

كان ليو يتعلم المشي حين كان يزورنا ميوك في البيت الريفي وكان مستعجلاً دائماً فهو في طريقه إلى حدث مهم جداً أو عائد من آخر دون أي تبليغ أو إخطار، مجرد مكالمة من كشك هاتف يطلب

مني أن أقله إلى محطة كذا في وقت كذا. اعترضت ايلين وأنا أيضا لكننا لم نقل شيئاً. لم تسر الأمور بشكل جيد أبداً. كان قلقاً ويظل مستيقظاً طول الليل يدخن ويشاهد التلفزيون. لقد تخيلته مراراً والسيجارة تسقط من أصابعه في ساعات الفجر وتحرق الأريكة وهو نائم والتلفزيون يبربر بفيلم رعب من الخمسينيات والدخان يزحف متسللاً على الدرج.

كان يتسكع في المطبخ بكسل وقال بأنه يستمتع كثيراً في التحدث معي بينما هو في الحقيقة لم يكن يقل شيئا أبداً. إجابات قصيرة من مفردة واحدة عن أسئلتي حول حياته وخططه. لقد كان يبدل الأعمال التي يشتغل بها بصورة لا يمكن التنبؤ بها وكأنه كان يخشى أن تفوته أي تجربة حياتية غنية تعرض عليه. ولم يكن مهماً إن كانت ثانوية أو صغيرة، بيع أدوات مكتبية مستعملة أو نقل ثياب عسكرية فائضة من مخزن في شاحنة رافعة أو العمل كمدير لضبط النوعية في خط إنتاج لنسخ أشرطة الفيديو. لديه كل دوافع وطموح المسرنم في حياته.

لقد وضعت أحلام نجومية الروك على الرف وبقيت في علبة في رأسه موسومة بعلامة " لو ". لم يبع تذاكر حفلاته في ويمبلي ارينا ولم يجر تسجيلاً تجريبياً حتى. لقد كان يأتي ويذهب دون أن يعطي أي فكرة حقيقية عما كان يدور في ذهنه. بدا وكأنه ينتظر شيئاً، وكأن أحد ما سيأتي في أحد الأيام من الشارع ويربت على كتفه وتنحل كل مشاكله. ربما كان ينتظر الشهرة أو الإلهام. في كلا الحالتين، كانت حياتنا العادية المبتذلة، غسيلنا تسوقنا وتبديل ثياب الطفل واللحن الزوجي الحزين كله، محزنة ومثيرة للشفقة بالنسبة له. كان يظل يمشي متثاقلاً حول البيت في حالة دوار لمدة أربعين ساعة، تاركاً وراءه ذيلاً من أعقاب السجائر التي كان ليو يمضغها، يحمل حقيبة الظهر التي تظل بجانب الباب الأمامي دون أن يلمسها في المكان الذي يسقطها فيه، ليعلن أن عليه أن يلحق بالحافلة. أخيراً لم تثمر تلك الزيارات العرضية. بعدها قلت اتصالاته الهاتفية أكثر فأكثر، لدي الرقم لكن الخط كان ينقطع.

(أتنقل كثيراً) كان يقول.

(هل فكرت بالعودة؟)

(هيه، لقد وصلت للتو) ينظر إلى ساعة يده ليتأكد أنه لم يفته يوم وليلة دون أن يلحظ.

(كلا أقصد إلى الوطن. البيت، تعود وتعيش مع أبي وأمي. كان لك حياة هناك وأصدقاء)

(كلا، كلا. لا يوجد لي شيء هناك) اتسعت عيناه كما لو كان يشرح لأبله.(ما الذي سأعود به؟ ليس لدي ما أفاخر به، لا مال ولا زوجة ولا عائلة ولا سيارة فارهة. أنا فقط. انظر إلي. هل تريد أن ترسلني معلباً إلى المزرعة؟ أنت ترغب بذلك أليس كذلك؟ الأحمق، أبله القرية، أخرج لأرعى الخراف بينما أخي الكبير يعيش خارج البلاد. غطت وجهه نظرة منكفئة غير متوازنة تشبه السخرية، حسد لا يمكن تحمله، شيء كان يتقيح داخله منذ سنين:(أنت لا تدري كم آذيتهما)

(من، آذيت من؟)

(أنت تعرف من. قال أبي أنك أدرت ظهرك له وللبلاد ولنا كلنا، إنهم لن يسامحوك أبداً بسبب ذلك.)

(كل واحد يغادر البيت)

(كلا. أنت كنت الكبير. الابن الضال) هز رأسه وأشار إلى بأصبعه المدخن نحوي.(أنت آذيته فعلاً)

وهكذا وجدت نفسي في فنسبيري بارك، أحملق بعنوان على قصاصة ورقة حمراء. بناية كئيبة في شارع منسي مرصوف بسيارات لم يهتم أحد بقطرها أبداً. نوافذ مغطاة بألواح خشبية، قوارير مكسرة، علب دهان ووقود فارغة مرمية في كل مكان. صعدت الدرج ودققت الجرس متأملاً أن لا أجد مجيباً. لم يفتح أحد. لم يكن هناك اسم على الإشارة الاسمية التي بجانب الباب، كان الزجاج قاتماً كالطحلب. لم يتحرك شيء في الداخل. إحدى النوافذ مغطاة بلوح من الخشب المعاكس. لا يبدو بأن أحد ما عاش هنا منذ وقت طويل. كنت على وشك الذهاب في طريقي حين مر رجل أسود يرتدي سروالاً بلاستيكياً مضاد للماء أحمر توهج من ساقيه مثل فتيان الخيالة وسترة انتفخت من عند ظهره وبدت مثل الرداء الذي يوضع على الأكتاف. جدل شعر رأسه على شكل عقد ويحمل خوذة دراج عليها ملصق كتب عليه (انهش). تباطأ حين رآني وثنى ركبتيه ورماني بنظرة تهديد وبعد ذلك أدركت ما رآه.

(هيه، اثبت في مكانك.انتظر دقيقة)

تطايرت عقد شعره حين استدار، دق على صدره بإصبعين مثل غواص يشير إلى عمق الماء في الأسفل.(هل تكلمني؟) كان أصغر سناً مما بدا من بعد، فقد تلطخت بشرة وجهه بحب الشباب.

(أنا ابحث عن أخي)

(كيف ذلك؟) جاء الآن دوره ليتفحصني من الأعلى إلى الأسفل.(هل أبدو لك بأني أشبه أبناء قومك؟) طقطق بلسانه ناما عن نفاذ صبره ثم تحرك للذهاب. كنت متأكداً بأنه إعتقد بأنني ميوك حين رآني أولاً. نحن لا نبدو متشابهين تماماً لكن من الصعب إنكار الشبه العائلي. أشرت إلى البناية التي خلفه.

(أطول وأنحف مني، كان يسكن هنا)

(ما هذا حرس الجرائم؟). نظر من فوق كتفي كأنه يتوقع رؤية طاقم تلفزيوني مختبئ في مكان ما، خلف عربة بوظة.

(كانت لديه فرقة موسيقية)

(أي نوع من الموسيقى؟)

لقد غلبني في هذا (لا أعرف. موسيقى صاخبة)

(أخوك ولا تعرف أي نوع من الموسيقى يعزف؟) تنشق بازدراء كأنه اشتم رائحة ميت(لا أيها الرجل أنا لا أصدق ذلك)

(لكنك تعرفه)

(هل أنا كذلك؟) رمقني بنظرة متسائلة جديرة برجل استعراض.

(إنه يسكن هنا، أنظر) أخرجت لأريه العنوان الذي لدي. بعد تفحص الورقة وخط والدي غير المقروء، نظر إلى الأعلى إلى البيت كما لو أنه لم يلاحظ وجوده إلاّ الآن. بدا أنه يفكر في اتخاذ قراره.

(ليس بعد الآن يا رجل) هز رأسه بقوة.(لقد رحل إلى المركز) استدار ليذهب فلحقت به ومشيت إلى جانبه.

(المركز؟)

(المركز الغربي)

(هل تعرف إلى أين بالضبط؟)

توقف ليحملق بي.(هل أبدو لك مثل موسى أجمع الخراف الضالة في البرية؟) كان ينقل خوذته من يد لأخرى. وصلنا إلى دراجة ياماها بالية ضوءها الأمامي مصدع ومقعدها مرقع بنفس الشريط اللاصق الذي استخدمه لإصلاح سترته. أخمن بأنه دراج توصيلات أو مراسل لمكتب. اقتربت من المنعطف سيارة، فمشينا نحوها لسبب لا أعرفه. كان بداخلها ثلاثة رجال سود، بدت السيارة وكأنها تعمل بطاقة الصوت من الطريقة التي تهزها بها الموسيقى. قال شيئاً لم أتمكن من فهمه ثم اعتدل ليواجهني.

(هذا هو أخوه)

هبط الثلاثة من السيارة وكانوا من أحجام مختلفة. أحدهم قصير وبدين ومشوش، سروال فضفاض وقبعة من نوع ما، التالي طويل وجنتاه مجوفتان وصامت، ثالثهم كان القائد، أنيق ذو عضلات مفتولة حليق الرأس تفحصني كما لو أنني خرجت من تحت شيء ما.

(أنا أبحث عن أخي، هل تعرفونه؟)

وضع يده على منطقة انفراج ساقيه وقال : (ربما أعرفه)

(انظر. أنا لا أعرف إن كان هناك شيء بينكم وبينه، هل هذا واضح؟)

(أنا لم أقل بأن هناك شيء بيننا وبينه) التفت للآخرين (هل قلت بأن هناك شيء بيننا؟) هز الآخرون رؤوسهم بوقار.(هل قلت بأنني أعرفه؟) يبدو بأنني رفست كلبهم وعلي تعويض ذلك.

(أخ يبحث عن أخيه) أومأ القائد بشكل فظ. (أحياناً لا تجد ما تبحث عنه)

(أمي ..... أمه مريضة جداً. يجب أن أجده.)

الأمهات ذلك الشيء الكوني الذي يساوي بين كل الرجال. لو دخلت إلى أقذر مشرب في العالم وأخبرتهم بأن أمك تموت، لرأيت الرجال الناضجين يرتعدون ويغصون بالدموع، يمسحون عيونهم ويرونك وشوماً على سواعدهم تقرأها " أمي" وبعد ذلك يدخل هؤلاء الرجال إلى بناية تحترق ليسحبوك ويخرجوك بأيديهم المجردة. أصدقاء مدى العمر. حك حليق الشعر ذقنه واستشار الآخرين بصمت. هزوا أكتافهم ويفترض أنهم أعطوه موافقتهم. صُوَّبَ إصبعه نحو صدري (حسناً. تفضل. لقد كان هنا. رحل إلى مركز المدينة، لا يستطيع أن يقيم هنا. نحن لا نريده أن يعود، يمكنك أن تقول له ذلك عن لساني، كان يتحرك ليعود إلى السيارة. فتحت الأبواب وأغلقت بقوة. حين كان يركب في سيارته ذكر لي اسم مقهى في شارع بيرويك.

في شارع بيرويك يصبح بائعو الأكشاك كوكنيين حقيقيين حتى لو كانوا منحدرين من بوادبست أو بنجالكو. يطبع الشارع ساكنيه بنوع من الولاء حتى لو كان أحدهم مصفف شعر من نابولي أو

جزار من كابول. سياح يمضون أوقاتهم مع راقصات العمود والعارضات النحيلات كالمدمنات والشاحبات كالسيلفون اللواتي يصارعن ضد الوزن بكيس من الشمام مربوط داخل سروال مطاطي وجلد منتفخ(أهلا يا عزيزي) يصحن من أكشاكهن الحمراء المزركشة:(هل ترغب بعرض حي يا سيدي؟) لها فتنتها الحزينة الخاصة من أعناق أرحام الحاجة الإنسانية الضيقة وممارسات اليأس والعزلة. يأتي السياح ليحملقوا ويروحوا. كنت أبحث ويضغط عليَّ من الخلف طابور من أكشاك السوق المتنقلة التي امتلأت بالحلي الرخيصة وعيدان البخور ومنحوتات من يانغ وتعويذات لحماية الأرواح الهشة.

كانت هناك صناديق من أشرطة التسجيل المغلفة بأشرطة لاصقة شفافة وسراويل جينز قديمة وملافع ترفرف من ملاقط من جلد التمساح مع مجففات شعر وشبكات تمويه وأحذية يغطي مقدمتها المعدن. كان الجو رطب بمطر عنكبوتي يتذبذب إلى خط خفيف وثرثرة بليدة. كان الشارع ملوث بالكرتون الأسفنجي ورقائق الفقاعات. كان الناس يتجولون وهم يمضغون الصندويش يمسكون به بأيديهم المتسخة بينما كان التجار يلتفون تحت شراشف بلاستيكية ويحركون أقدامهم للمحافظة على تدفئتها ينفخون البخار عن فناجين البوليسترين ويمسكون بها بأصابعهم التي بداخل القفازات. في وسط هذا كان خيط قصتنا، وكنا جزء من العرض.

كان المقهى من الطراز القديم الذي لم يستسلم بعد لإغراءات رواج حقوق الامتياز. الشيء الوحيد الذي يمكن التأكد منه في مكان كهذا أن طعم القهوة فيها مثل أظافر مسلوقة. المقهى من الداخل مطلي بلون البندورة الحمراء الفاقعة وبالأخضر الاجاصي مما زاد من بؤسها. جلست هناك لمدة ثلاث ساعات وبث المذياع نفس الأغاني المرة تلو الأخرى. قرأت الجريدة واكتشفت بأن رئيس عملي السابق هارفي غرينباو قد أتهم بالتحرش الجنسي وطلب منه التخلي عن منصبه كمستشار محلي."رجل منحرف لزمن منحرف" هكذا كان العنوان. كنت مصيباً بشأن القهوة، فقد كانت غير صالحة للشرب وكذلك الشاي أيضاً الذي اكتشفته لاحقاً. كنت أذهب إلى الباب بين الفينة والأخرى لأنظر إلى الخارج. ادلهمت السماء وكان الناس ينفضون معاطفهم من الماء وهم يدخلون. تكلم الرجل الذي كان وراء طاولة الحساب بلهجة لم استطع تمييزها، وكان في لحظات الكسل يراقبني بزاوية عينه. ذهبت في جولة حول كتلة البناء وعدت مرة أخرى. كان الناس يتناولون طعام الغداء. اكتشف احدهم شعر أشقرا في طبقه. ذهب الرجل الذي كان وراء طاولة الحساب إلى المطبخ وبدأ في الصراخ بلغة صربية-كرواتية. في الساعة الخامسة تقريباً ضجرت كثيراً ولم أعد أحتمل أي دقيقة أخرى هناك. لقد ضاع اليوم. أسقطت بقشيشاً في أنبوب السمنة النباتية القديمة الذي على طاولة الحساب وخرجت ممنوناً إلى الشارع. كانت الأضواء قادمة باتجاهي وبدا بأنها ستمطر ثانية. سررت لأن ميوك لم يظهر وبدأت في السير باتجاه محطة المترو.

شكل شخص محدودب طويل، يضع يديه في جيوبه كان يمشي على الطرف الآخر من الشارع قريباً من الجدار، منعني شيء ما من مناداته، وبدلاً من ذلك استدرت وبدأت بملاحقته عن بعد. لقد مر من أمام القهوة التي أمضيت يومي فيها دون أن يلتفت إليها حتى. في نهاية الشارع، عَبَرَ الطريق واستدار إلى اليسار ثم إلى اليمين. أسرعت بالتقدم ولمحته يدخل في مدخل باب أخضر اللون في نهاية زقاق ضيق. انتظرت عبر الشارع ثم جاء ضوء بعد مدة من الطابق الثالث. مشيت ولم أجد أحد سوى ثلاثة أجراس كهربائية كتب عليها الثالث، اخترت واحداًواستندت عليه. ثار

صوت بالسباب، بعضه بالانكليزية ثم تلاه صمت. جربت الاثنين الآخرين. هذه المرة جاء صوت بعد توقف طويل أعمق مما أتذكر....

(ميوك هل هذا هو أنت؟)

(نعم من هذا؟ مرحباً.... ياسين هل هذا أنت؟)

كان هناك صمت طويل. بعد فترة طويلة من صوت الجرس انفتح الباب. دخلت في رواق ضيق مكوم بالسجاد الملفوف ودلاء طلاء ودراجة هوائية فقدت إحدى عجلتيها. صعدت الدرج الذي كان يصدر صريراً. لا يوجد أي باب عليه اسم. انتظرت فترة حتى فتحت سلسلة من الأقفال والسلاسل ثم فتح الباب أخيراً

(مرحبا)

فتحت السلسة الأخيرة وخطوت إلى الداخل. ظل واقفاً بجانب الباب.

(كيف وجدتني؟)

(بعض أصدقاءك في فينسبيري بارك)

(أصدقاء؟) بدا أطول واشد هزالا مما أتذكر. هناك شيء في وجهه تَقَسَّى كما لو أن مؤشر العواطف قد قَلْ. تجهمت قسمات وجهه حين خطونا إلى الأمام داخل الغرفة.(هل هم من أعطوك هذا العنوان؟) سأل. نظرت حولي بينما كان يضع الغلاية على الموقد. كان المكان صغيراً، مؤلفاً من غرفة واحدة مع مطبخ صغير وحمام مجاور له.

(ليس بالضبط، حسناً، ربما ليسوا أصدقاء لكن يبدو بأنهم يعرفونك)

(صحيح. قهوة؟)

(لا، شكراً. لقد تناولت من المشروبات الساخنة ما يكفي لمدة أسبوع، بالإضافة إلى أنني لا أحب منظر المطبخ مع الإطباق غير المغسولة والأكواب التي في الحوض. لم أحب هذا المنظر قط.)

(أين كنت يا ميوك؟ ما الذي كنت تفعله؟)

ظل يدير ظهره لي وهو يتفحص مجموعة من علب الحليب الكرتونية المصفوفة على الطاولة الطويلة، يشم محتوياتها ويضعها جانباً. بدا كأنه يجمعها أو يقوم بتجربة مدرسية. أخيراً قلب علبة بدت كعلبة مسحوق حليب وغرف منها بملعقة.

(ليس الكثير) قال (كل شيء جيد) ابتسم أو حاول ذلك. بدت النتيجة مصطنعة وأظهرت أسنانه التي كانت بوضع سيء. أحد أسنانه مفقود والبقية كانت بلون دبس السكر المحروق.

(إذا، لمن أدين بهذا الشرف؟) كان يحرك قهوته، محاولاً أن يبدي ملاحظة مرحة. فجأة كنت غير متأكد من سبب وجودي هناك. استطعت أن أشعر بيد مرعبة تمسك بحفرة معدتي.

(أنت كنت تتحاشى الاختلاط بالناس، أين كنت مختبئا؟)

(أنا لست مختبئا. أنا هنا)

(لم أحصل منك على دعوة؟)

(أنت وجدت المكان، أليس كذلك؟)

حركت كوم المجلات التي على الطاولة مع عبوات تبغ الريزالس الممزقة وتناولت واحدة (هل لا تزال مستمراً في فرع الموسيقى؟)

(اللعنة) لم يتحرك من ركن المطبخ لكن التوتر كان بادياً عليه الآن. ظننت أنه سيقذفني بالكوب لكنه بدلاً من ذلك ابتعد عني نحو الجدار. نظرت عبر النافذة لبرهة.

(هل هذا هو ما تريد؟ أن نأتي لنجدك؟)

(أبي يعرف أين أنا)

(لا) هززت رأسي بالنفي.(إنه لا يعرف. لقد أعطاني عنواناً في فينسبيري بارك)

(إنه يعرف) ارتشف ميوك قهوته وحملق بالكوب الذي على الطاولة لوقت طويل. لم يبق الكثير لنقوله لبعضنا على ما يبدو. بعد ذلك سمع طنين الجرس. رنتان قصيرتان وواحدة طويلة بدت كأنها إشارة. ذهب ميوك وتكلم بصوت منخفض. (نعم، لا، ليس الآن. حسناً، عودي بعد نصف ساعة) أغلق السماعة واستدار لكنني كنت على وشك الذهاب. لقد رأيت ما يكفي.

(كان يجب أن تقول خمس دقائق)

(هل أنت ذاهب الآن؟) كانت ابتسامته واهية ووضيعة كما لو أن هذا ما توقعه منذ البداية، تعبير عن الجهد. كنت جزءاً من النفاق واللامبالاة التي أوصلته إلى هنا، لغرفته وحياته. جلس على النافذة، وضع قدمه على الكرسي. لم يكن الأثاث سيئاً جداً. كان مليئاً بالأوساخ لكنه ليس رديئاً.

(لم يبق لي شيئاً آخر هنا. سأتركك لزبائنك)

(آه) ضحك بنعومة والتوت شفته للأعلى.(هل تعتقد حقيقة بأنك عبقري من نوع ما؟) انتظرت، لكنني لم أتوقع ما كان آتياً.(قرأت كتابك، أنت تعرف)

(معجب مغتبط آخر) عدت لتفحص الغرفة، نفاضات السجائر الممتلئة والجرائد، كومة من الثياب التي تفوح منها رائحة كريهة تجعلك تتساءل إن كان هناك حيوان قارض ميت تحت ألواح الأرضية. كوم من صفحات الجرائد عن موضوعاته المفضلة: اختطافات غريبة، رؤساء عالم الإجرام المنظم، القتلة المتسلسلون الذين يأخذون ضحاياهم ليقطعوهم بمقصات البستنة ومعدات منزلية أخرى. اهتمامات منحرفة. كنت أبحث عن قطع صغيرة من ورق الفضة المستخدم للف، ملاعق محروقة، حقن.

(ألا تريد أن تعرف؟)

(أعرف ماذا)

(رأيي في الكتاب)

كان ينتظر هذه اللحظة، تأكدت لبعض الوقت.

أخذت نفساً عميقاً وقلت (ما رأيك فيه؟)

(ضحل)

(كلمة واحدة؟ هل هذا كل ما استطعت ادخاره؟)

(توقعت منك أكثر ، أكثر من ذلك)

(كيف حدث ذلك، ماذا تفعل الآن؟ وكم صار لهذا الوضع؟)

(لا تبدأ بذلك. هل تعتقد بأنك أفضل مني؟) وضع كوبه بهدوء على الطاولة بجانبه، الذي سعدت برؤيته ولف ذراعيه.(أنا لست أسوأ من الأشخاص الذين يشربون الخمر. أنظر من النافذة وشاهدهم كلهم. هذه البلاد ملوثة بالأشخاص الذين يتقيئون أمعائهم، إنها مقززة.)

(ما هو هيروويين، كوكايين، مخدرات؟ أنا حتى أعرف أسماءها)

أصدر صوتاً ينم عن الضيق.

(ماذا؟) سألت (إن الحديث معك مضيعة للوقت)

(حياتك كلها كانت عبارة عن نزهة لم يكن لديك أي فكرة فيها عن الألم، الألم الحقيقي.)

(أخبرني إذاً. أخبرني عن هذا الألم الذي يجعلك ترغب في التخلص من حياتك)

نخر وقال (ما المعنى؟)

ما معنى كل هذا، لم أعد أعرف. كان في مكان لم يعد يهمه فيه شي، لا العائلة ولا الأصدقاء ولا حتى مستقبله. لم يعد هناك معنى لأي شيء.

تذكرت منظره في تلك الليلة، قبل سنوات، خارج سينما النيل الأزرق، وهو يركض أمام السيارة على طريق النهر. صبي صغير عالق بأضواء السيارة الأمامية المتراقصة يبحث عن مكان يختبئ فيه في الظلام. والآن وجد طريقه في الحياة أو بالأحرى وجدت الحياة طريقها إليه لتثبته. العالم لا يقف جانباً منتظراً ولا يتركك تطفو بحرية وإنما يتبعك. خطر لي أنه مدمن دائماً على فكرة، إنه فوق كل شيء ومترفع عن الأكاذيب المعقدة والخداع الذي يستخدمه المجتمع للحفاظ على نفسه ويعتقد بأن المجتمع مدان له بشيء ما، بينما هو في الحقيقة غير مبال لكل محاولاتنا. لهذا ليس للغفران أي جاذبية له لأنه أسمى من الاهتمام. إن احترقت الأرض أو تجمدت. نحن نعيش بمعرفة تواطؤنا. نلتهم وجبات ثلاثة في اليوم ونعرف بأن هناك أناس يموتون من الجوع في أماكن أخرى من الكوكب. فالطفل يباع في دارفور كعبد بكلفة شراء حذاء رياضي في باريس. إنهم يباعون من أجل الحماية وليس الربح. هناك زلازل وموجات مد وعواصف جليدية غريبة، وتسريبات نفطية مع كل أنواع التلوث السمي. ثقب لا ينتهي في طبقة الأوزون يزيد من الإصابة بسرطان الجلد وغيره على الأرض. من هذا كله لم ير (ميوك) أي سبب للاستمرار وإنما للتوقف.

(ماذا ستفعل؟ أقصد إلى أين سيؤدي بك هذا)

رد بصوت خفيف، ربما كان ضحكة (ابتهج. أنت تأخذ الأشياء بجدية كبيرة. أنا بخير. الأشياء ممتازة وعلى ما يرام)

(أنت تحتاج إلى مساعدة. يجب أن تسترجع حياتك) رأيت الذباب يطن في الجو فوق الحوض.

(وهل تعتقد أن ما لديك هو حياة؟ هل تسمي العيش مع تلك العاهرة الخالية من المشاعر في الريف الانكليزي حياة؟ وهل تظن أن تلك الكتب تجعلك أفضل منا؟)

رن الجرس بإلحاح أكثر هذه المرة. التقت عيونه بعيوني.

(لقد كان هذا الشيء برمته فاسداً منذ البداية. لم نحظ بفرصنا، ما الذي يفعلونه باعتقادهم، إمتلاكنا؟ أين المكان الذي نشعر فيه بأننا في بيتنا ووطننا؟ نحن لا نصلح لأي مكان في العالم، لا هناك ولا هنا)

(لقد تبدلت الأشياء ولم يعد العالم بشكله السابق. عليك أن تلقي عليه نظرة واضحة أحياناً.)

(لم ننل أي فرصة على الإطلاق. نحن الأدنى بين الدونيين. لو أنك أدركت وكتبت شيئاً بدلاً من ذلك الهراء الغريب عن سحر طفولتنا وروعتها التي ربما كانت لك كذلك وليس لي. في المرة القادمة حين تقف لتلقي كلمة القبول أمام المرأة عليك أن تفكر بذلك يا سيد نوبل.) خلع جهاز الاتصال الداخلي من الجدار (حسناً أين الحريق؟) لاحظت كم كانت حركته بطيئة، مثل رجل تحت الماء. أصغى للحظة ثم تمتم بشيء ما وضغط الجرس الكهربائي.

أشعل سيجارة أخرى وانفتح الباب بقوة أمامي (استمر) قال (لقد قمت بدورك. وجدتني والآن ارجع إلى عالمك وأنس ما رأيت.)

(سأتصل بك) قلت

نخر وقال(نعم. قم بذلك. أنا في الصفحات الصفراء.) سمعت الباب يغلق بقوة خلفي. على الدرج قابلت فتاة كانت تصعد الدرج من الجهة الأخرى. كانت صغيرة دون العشرين من عمرها كما أعتقد، نحيلة وترتجف. لم ترفع وجهها حين تجاوزنا بعضنا، وقفت جانباً لأدعها تمر وسمعتها وهي تمتم ب(شكراً) بصوت ناعم جداً.

تكومت في المقعد الخلفي لسيارة أجرة لأعود إلى رويال مارسدين، وأنا مخّدر وعاجز عن التعامل مع قطار الأنفاق. تحركنا بصعوبة على طول رصيف النهر بسرعة حلزون ولو مشيت لكنت أسرع. عقد من الأضواء زيّن جسر تشيلسي. تلألأت المياه الداكنة التي في الأسفل بالماس.

كان لويس ارمسترونغ يغني (مرحباً دولي) حين مشيت في الجناح وإحدى الممرضات ترقص وتدور، قام أحد العمال الذكور في الرواق برقصة سريعة مشوشة أما الحضور القليل فكان يحدق بالمشهد مخَّدراً.

كان أبي يودع أحد الأصدقاء القدماء، رجل عرفاه أبي وأمي قبل أن أولد وهناك رجلان عجوزان واهنان في نهاية الدرب. رأيته يجد منديلاً ويمسح به عينيه. اعتدل في جلسته حين رآني وحدق بي وهو يزم شفتيه.

(حسناً، هل وجدته؟)

نظرت إلى أبي في عينيه وقلت (كلا، يبدو بأنه انتقل)

استوقفتني نظرته المحملقة فترة ثم طوى منديله بعناية، كان التوتر يخرج من كتفيه الضيقتين (آه، حسناً، ليس هناك ما يمكنه فعله) أمسك بكوعي وتمشينا ببطء عائدين إلى الرواق المضاء. (ربما هذه الطريقة أفضل).

في الحافلة التي أقلتني إلى البيت في تلك الليلة، تذكرت قراءة وصف كانتيني لشخص بائس عاش في ساحة مسجد الفناء في مراكش. لم يكن أكثر من صرة قذرة على الأرض تتألف من صدى

وحيد وليست صوتاً بشرياً. لم ير كانتيني ما الذي تحت الكيس لكنه كان إنساناً بلا شك. ربما لم يكن له لسان، ليذكر اسم الله وبدلاً من ذلك يصدر صوت نحيب متكرر وبنفس اللحن الذي كان يأتي من الأسفل طوال اليوم ويظل وقتاً طويلاً بعد أن تهجر تلك الساحة. أصيب كانتيني بالخيبة وشعر بالعجز لأنه خاف من لمسه لكنه شعر بالفخر أيضاً: عرف كانتيني في تلك الصرخة الملحة الكئيبة جوهر الروح الإنسانية الحية بالكد والإصرار رغم ذبول الجسد وبلاءه، بسبب المرض المقيت. لقد أغفلت ملاحظات كانتيني سابقاً واعتبرته مجرد رحالة أوروبي آخر يبحث عن الغرابة لينير حالتهم الحضارية لكن قصته عادت لي الآن ولكن ماذا سيكون شعوري لو كنت في مكانه.

الفصل الثاني والعشرون

صُدمت الأشياء بسرعة بعد ذلك، لأن العُرى التي كانت تمسك بعائلتي معاً بدأت بالتفكك البطيء والأكيد ولم أستطع فعل شيء سوى الاندهاش والتعجب من تلك الحياكة التي اعتبرتها دائماً حقيقة بديهية وهي تنفصل في يدي. لقد فقدت القلنسوة الأبدية التي ترمز للشباب وأيقنت بأن الأشخاص الذين يعنون لي الكثير لن يظلوا هناك إلى الأبد وأنني أصبحت مخترقاً كالآخرين فجأة.

بدأت العمل في الخدمة العالمية (البي بي سي) أما ايلين فقد قبرت الدكتوراه التي كانت تعدها ورمت بطاقاتها الهائلة في مئات من المشاريع المحسوبة وغير المحسوبة التي كانت تبعدني عنها أكثر. لقد عملت لفترة في دورات مسائية وكتبت مقالات لبعض المجلات. إنها تحب السفر وكتبت تقاريراً هامة لمجلات مثل ناشيونال جيوغرافيك وخططت لتصوير فيلم وثائقي عن البيئة المتناقضة لشعب سآمي في شمال فنلندا. لدى هذا الشعب اثنتا عشر لغة أسكتت كلها عندما بدأ الشباب يولفون تلفزيوناتهم على المحطات الفضائية الأمريكية لمشاهدة المسلسلات الاجتماعية التافهة المنومة والدراما الإيحائية المثيرة ومطاردات الشرطة في لوس انجلوس وكانت أجهزة التلفزيون مربوطة بزلاجاتهم التي تعمل بواسطة محركات. لقد شرعت في تحضيرات جدية فكانت تفرغ الجمادة من كل الأشياء وتتسلق في داخلها للتمرن على تشغيل الكاميرا في درجات حرارة دون الصفر. كانت تأخذ الهاتف اللاسلكي إلى الداخل في حال انحباسها هناك صدفة. دخلت إلى المطبخ دون قصد وسمعتها تشكو لأمها وأسنانها تصطك من البرد: كم كنت أنا كريها وكم أسأت لها وكيف حولت حياتها إلى بؤس. هل أنا ذلك الوحش؟ كيف أصبح كل شيء بيننا مسموماً جداً؟

ازدادت الغرابة يوماً بعد يوم بسبب شبكة علاقاتها المتسعة. كلما أعود إلى البيت أجده مأهولا بأشخاص غرباء في سترات قصيرة بلا أكمام يناقشون أفضال تاركوفسكي وغورجييف في استنتاجات ملتوية. رأس هذه الزمرة من المغفلين رفيق له أذنان مشعرتان ومجوفتان كالمحار، زعم بأنه روماني من منطقة ترانسلفانيا التي رحل عنها لأن التلوث الإشعاعي الموجود فيها كان يسبب تشوهات في المواليد الجدد وقد ولد بعض الأطفال هناك بمخالب فاعتقد الناس بأن ذلك عودة إلى إسلافهم المستذئبين. لقد كان مصاباً إما بجنون الاضطهاد أو كان بحاجة إلى علاج نفسي عاجل مما نفرني من حضوره. عندما أدخل إلى المطبخ في المطبخ وأرى تلك الرؤوس المنكسة على ضوء الشمعة كنت أشعر بأن كل شيء في غير محله أما ايلين فرأت بأن المشكلة كانت في شخصي.

(أنت شكاك جداً. تأتي هنا لتهينني أمام أصدقائي.)

(أنا لا أهينك. أنا مندهش فقط. يجب على هؤلاء الأشخاص أن يكونوا مؤهلين أكاديمياً. أشخاص أذكياء. لماذا يصدقون مثل هذا السقط والهراء)

(أنت تسخر منهم و تضحك عليهم)

(حسناً، أنا آسف. وجدت من الصعب قبول واحترام حديثهم بأن الأطفال المشوهين مستذئبين)

(إنها عبارة مجازية)

(أوه، فَهمتِ الأطفال المرضى إستعارة لمن، للشيوعيين، للعرب،للغجر، أم للمسلمين؟

(هل رأيتَ، أنتَ شكاك جداً. كل شيء بالنسبة لك دعابة)

(أنظري. أنا متعب جداً. هل تفهمين؟ أخر شيء توقعته التعامل مع جلسة استحضار أرواح في المطبخ. لقد مررت بيوم طويل وأمي مريضة جداً. أخبري مجموعة السحرة أن يجدوا لهم مكاناً أخر لاجتماعاتهم. هل تناول ليو طعامه؟)

ثارت وقالت (كيف تجرؤ؟ أنت مريض. أنت تعرف ذلك!)

(هل أنا مريض لأنني مهتم إن كان ابني قد أطعم؟)

(أنت لم تسأل عن عائلتي أبداً، أبداً! ولم تُبْدِ أقل درجة من الاهتمام لما تعانيه أمي وتتهمني الآن بإساءة معاملة طفلي)

كنت مشوشاً (ما الذي تعاني منه أمك؟)

(أنا لا أطعم طفلي. ماذا بعد ذلك؟) أصبحت تصرخ الآن. كان هذا النقاش يدور في الطابق العلوي فسمعت أصوات كراسي تنقل في الأسفل بصورة غير مريحة. ربما أشعل أصدقاءها بخوراً من أجلها أو غرسوا سكين الخبز في تمثال من الشمع لزوجها الكريه.

(اسمعيني يا ايلين يجب عليك أن تتحدثي إلى شخص ليس من هؤلاء، شخص ليس من العائلة أو الأصدقاء)

(نعم) قالت ساخرة (مجنونة؟ ذلك يناسبك أليس كذلك؟ بأن أرمى في مستشفى للأمراض العقلية؟)

(أنا لا أفهم ما يحدث هنا فقط) قلت بعد أن جلست على السرير بقوة

انفتح الباب وظهر ليو في بيجامته وهو يفرك عينيه (ماما؟)

اندفعت ايلين نحوه وحملته بين ذراعيها، التفت إليَّ وهي تفيض حقداً.

(أنت تكرهنا، أليس كذلك؟ هل تريد التخلص منا الاثنين؟)

(أنا لم استخدم ضمير المثنى أبداً)

(ايلين؟)

كما لو أن القاتل مصاص الدماء كان في الأسفل، يحمل عصاه الخشبية طبعاً ومستعد لتسلق الدرج ليرى إن كانت هناك حاجة لخدماته. وقفت ، مسحت عينيها بكفها الذي تلوث بالمسكرة.

(حسناً،) أخذت ليو شبه النائم بيدها (تعال سوف أحضرِّ لك بعض الشوكولا الساخنة)

انكمشت للوراء وأغلقت عيوني بقوة. إلى أين سأذهب من هنا؟ كانت ورطة لا تنتهي. تحدثت مع كلير، أمها في عصر أحد الأيام، فجاءت، لكن ايلين كانت خارج البيت.

(هل خضعت سابقاً إلى أي علاج نفسي؟ فأنا لم أعد أعرفها)

(ابنتي ، علاج نفسي؟ ما الذي تلمح إليه؟)

(أنا قلق عليها يا كلير. أحاول أن أجد الأفضل لنا)

(أنا ألوم والدها) قالت بأن كلير قلقة وعضت على شفتها(دائماً يملأ رأسها بأفكار غريبة حول إنقاذ العالم أو عمل شيء رائع. ليس هناك فكرة جيدة. لدينا عجزنا كلنا. نحن نحتاج إلى العجز.)

وَلَّدَ هذا لدي إحساساً من نوع غريب. ايلين تريد إنقاذ العالم! السآميون والغابات المطرية والتاميل وربما أنا أيضاً. هل هذا ما جذبها إليَّ في البداية؟ الرغبة في مساعدتي؟ هل كنت حالة دراسية نموذجية من افتتانها بالاثنيات السكانية الغريبة والنادرة؟ هل ظنت بأنها كانت تنقذني بالزواج مني؟ لكن الأمر فسد بعد ذلك وخرج الوحش الذي خلقته عن السيطرة. فقد نطق! ليس هناك خيبة اكبر من الاكتشاف بأن تابعك قادر على التعبير عن نفسه. لقد كنت عاقاً وخالياً من الإحساس. هل كان الأمر كذلك؟ مهما كان، لم أحصل من أمها على معلومات أكثر، بل على العكس أصبحت تتهيج كلما تأتي سيرة ابنتها وتنسحب حين تظن بأنني سأفتح الموضوع ثانية. خرجت وراءها إلى السيارة راجياً كلمة تهدئة لكنها نعقت قائلة (جد حلاً) وهي تلوح بيدها وتغلق باب السيارة بقوة على معطفها وتتلمس مفتاح السيارة (من أجل حفيدي). راقبت السيارة وهي تنطلق في الطريق بسرعة ثم انحرفت لتتجنب الاصطدام بعربة حليب قادمة. تلاشى صوت بوق السيارة في المشهد مثل موجة ناعمة.

لديَّ حلم يراودني في مثل هذا الوقت، قارب نجاة أصفر يطفو على سطح محيط أزرق. لم يكن لدي أي فكرة عما يعنيه لكن استمرار عودته وتكراره بدا لي فآل سيء.

ماتت أمي في الربيع. أختفى ميوك مرة أخرى ولم يظهر لحضور الجنازة. لم يتوقع أحد حضوره سوى ياسمينه التي توشحت بالسواد من رأسها حتى قدميها. كان القرار أن تدفن في مسقط رأسها لندن في مقبرة افتتحت حديثاً بعد الطريق الدائري الشمالي وهي مخلصة للدين الذي تبنته حين تزوجت، الإسلام. لقد كان الخيار الوحيد. وقفنا في حقل عاصف، اختفى فيه صوت ياسمينة بسبب السيارات المارة وهي تمسح عينيها بورقة قطنية، قالت بمرارة: (هذه العائلة تحولت إلى قبيلة تائهة تطوف الأرض). نظرت إلى والدي لكنه لم يكن يصغي. كانت عيونه على الحفرة الترابية المحصاة التي مُلأت حديثاً ويسويها رجل عراقي من لوتون بمجرفة مكسورة بحماس.(حسناً لقد هزمتني وسبقتني إليها) قال أبي (كنت أعتقد بأنني أنا من سيموت أولاً، لكنها سبقتني؛) لم يكن لديه المزيد ليقوله. لقد ضربه العالم بين عينيه تماماً وسيحتاج هذه المرة إلى أكثر من أسبوع ليصحو.

كنت إما معزولاً هناك في البرية أو أجلس في القطار ذاهباً إلى لندن أو عائداً منها. بدأت أجد الأعذار للبقاء خارج البيت لفترات أطول كل أسبوع. فكنت أمط الليلتين إلى ثلاثة بسهولة أو أربعة حتى أنني كنت استمتع في الخدمة العالمية (BBC) فقد كانت تمثل لي صلة بالوطن، بالماضي. تذكرت بمودة شارة البي بي سي ذات النغمة العالية والهابطة، اللحن العسكري المنتهي بأنين سماوي، حين تتوه الشارة في الغلاف الجوي ثم ترتد راجعة من خلال جهاز غروندينغ قديم، كانت تحمله أمي حول البيت معها في الصباح من غرفة إلى أخرى، وهي تتمسك بالعالم القديم لمدة خمسة عشر دقيقة في اليوم. أجراس ساعة بيغبن، تدوي حول العالم. هل هناك شيء أكثر إنكليزية من ذلك الصوت الذي يؤكد بنفس النغمات الكئيبة "هنا لندن" كما لو أنها تعلن عن موت رجل دولة محبوب أو فناء نووي وشيك؟ إنها هناك والعالم كله بخير. العلم يرفرف فوق مجلسي البرلمان والحرس القديم، ولا زال يدق والوايت هول لا تزال سليمة لتشهد صباحاً مجيداً آخراً.

لماذا كانت تستمع إلى ذلك كل يوم؟ هل هو أكثر من مجرد الحاجة إلى معلومة موثقة عن احتمال وقوع انقلاب عسكري في جاكرتا أو جيبوتي؟ أم مؤتمر قمة في جنيف؟ ما مدى تأثير ذلك على حياة إمرأة إنكليزية بلغت أواسط عمرها واستوطنت على بعد آلاف الأميال من عائلتها وأصدقاءها، لديها زوج يقول بأنه يحبها وأطفال تعتني بهم ومربى تصنعه لتبيعه- مربى البابايا والمنغة والتمر الهندي والخبيزة، وتعيش في كوخ صغير من صنع يديها، سقفه مسطح تشويه أشعة الشمس، مصدع تغزوه السحالي في ضاحية شبه قاحلة. كان الناس يتقاطرون في فترات بعد الظهر ليحملوا سياراتهم بالمطربانات الليم المخلل ومربى الجوافة والبرتقال. هل كان ذلك حنيناً مكبوتاً، قاس نفسه بطقوس المذياع؟ لم تكن تحضر شاي المساء ولم يكن عيد الميلاد بالنسبة لها أكثر من بعض أشرطة زينة تحفظها في صندوق في قعر خزانة ثيابها. لقد تمادت في كل النوايا والأهداف لتكون مثل المواطنين الأصليين وتساءلت ما الذي جعل إبنها يكون في الطرف الآخر من عالم ذلك الجرس الرنان؟

استمتعت بالعمل رغم الشكوك التي ساورتني في اليوم الأول حول مقدرتي على ملء المنصب. قابلتني في الردهة (تارا ريد) التي كنت سأعمل معها، كانت صغيرة الحجم جداً، بحجم الجيب، مختصرة لكنها كانت تتحرك بطاقة عالية الجهد ولم يبدو عليها أنها ستتوقف لالتقاط أنفاسها. في وقت لم يتجاوز الثلاثين ثانية صافحتني وسجلت اسمي في سجل الدوام وعلقت لي جواز المرور إلى مكان العمل وقادتني عبر الأمن إلى الردهة المركزية لبوش هاوس ثم استدارت نحو المصاعد وابتعدت عنها ثانية لتعود إلى الدرج وتصعده قافزة وأنا ألحق بها لاهث الأنفاس.

(المصاعد معطلة وخارج الخدمة. أهلا بك في مؤسستنا. توقفت بعد ذلك، مما وفرَّ لي فرصة لالتقاط أنفاسي. قالت وهي تدق حافة نظارتها بقلم رصاص (لتكن الأمور واضحة، كيف تفضل أن يهجى أسمك؟)

(ليس لدي شكل مفضل، كما يكتب تماماً، مقطعين يا سين) قلت

(حسناً) أشارت بارتياح (لغز بسيط في العالم). بعد ذلك خرجت معي لنلف داخل المبنى. خيم فوقنا بناء ضخم ثقيل ومظلم برخامه وقدمه، وكان مثل كهف حُفِرَ في سفح جبل مما جعلني أفكر بالكرملين لسبب ما. درج واسع يتعرج صاعد للأعلى يلف بتلك الجهة أو غيرها ليتوقف عند جسورَ معترضة مربعة بحجم ملعب تنس. يظهر أشخاص فرادى وجماعات ثم يختفون بشكل غامض وراء الأبواب الدوارة. كانت (تارا ريد) في طريقها إلى عبور أحد تلك الأبواب وكنت أتسلق الدرج خلفها. صعدت للأعلى لأجد نفسي في متاهة من الدهاليز. لمحتها عند زاوية احد المنعطفات. الآن لم أكن ألهث فقط، وإنما فقدت حس التوجه نهائياً. تجولت أمام المكاتب المتنوعة برهة باحثاً عنها إلى أن عادت فوجدتني.

(هذا هو) قالت تارا عندما وصلنا إلى المكتب المطلوب أخيراً. أشارت إلى طاولة بجانب نافذة عالية لا يمكن النظر منها (طاولتك. قهوة؟)

كان في القاعة آلة لصنع القهوة وكوم من الفناجين البلاستيكية التي تراكمت في سلال المهملات لتشهد بذلك وتؤكده. قطة محنطة ومحشوة على الطاولة الأخرى وصورة جوية لجزيرة في بحر زمردي.

(سينت كيتس وطن الأجداد. حليب؟)

(لو تكرمت)

(سكر؟)

(ثلاث)

(مضر جداً لك) قطبت مستنكرة لكنها وضعت لوح الكتابة على الطاولة وذهبت لتحضر القهوة. وضعت يدي في جيوبي نظرت حولي.

(أنت الرجل الجديد بالتأكيد، أليس كذلك؟) ظهر في المدخل رجل أبيض نحيل له شعر أسود غير مجعد تدلى فوق عينيه، يرتدي قميصاً قطنياً ازرقاً فوق قميص (تي شيرت) من نوع (نيوكاسل براون ايل). أزاح شعره للوراء عن عينيه، وأنزل سماعات الأذن على كتفيه.

(مرحبا أنا ديف، يجب أن يكون هناك ديف. ديف هذا خريج في علم الاجتماع من جامعة هال. يعمل بالإذاعة منذ أن كانت محلية ثم أصبحت قومية والآن عالمية. لديه تسجيلات يحسده عليها كثير من مسجلي وعازفي الموسيقى المحترفين. في أيام الآحاد كان يشعل سيجارة ماريجوانا ويتيه في الجانب المظلم من القمر لبينيك فلويد. كان متمهلاً ولم يستعجل في الوصول إلى أي مكان. لديه صديقة اسمها سالي، كانت معه في الجامعة، لديها طفل سيولد في أيلول. هذا كل ما سمعته عن ديف.

عادت تارا وأعلنت بأن الآلة معطلة وعلينا أن ننزل إلى مطعم في القبو. ناولتني كوبا بلاستيكيا وأداة للتحريك.(ديف ياسين. ياسين ديف)

(لقد تعارفنا للتو)

(حسنا، لننطلق. جاهزان؟) لحقت بهما عن قرب هذه المرة.

(تحس فيها نوع من الشرق أليس كذلك يا ياسين؟) قالت، وهي تعصر ببطء، الحياة من كيس شاي بنكهة التوت وتخنقه بخيطه الرفيع. (والآن قلي أين تقف؟). كانت الكافتيريا المضاءة بشكل قوي وساطع، مهجورة وساكنة، جعلتني أفكر بكاسحة جليد متوجهة للمياه القطبية الجنوبية.

(أين أقف؟)

(ما هي آراؤك السياسية والثقافية؟)

(لست متأكداً، في الحقيقة. أقصد أن المهم هو الجودة، أليس كذلك؟)

(الجودة شخصية ولا تترك مجالاً للموضوعية. ما هو الجيد يعتمد على من يقرر ذلك. يدور التاريخ حول السلطة. تاريخ يحل مكان تاريخ آخر غيره. هل فهمت قصدي؟ هذا هو السبب الذي يجعلنا نقاتل من أجل مواقفنا وآراءنا. هذه فرصة، هذا البرنامج. لهذا السبب يجب أن نكون واضحين.

لقد دخلت هنا باعتقاد ساذج بأنني سوف أقرأ بعض الكتب فقط وأفكر بقول شيء ممتع عنها، لكنني الآن اخترت لدور ريادي في تحرير وعي الثقافة الغربية. حدقت تارا بي من حافة كوبها. لقد أُعطيت الوظيفة لي لأنني نجحت في تجميع أجزاء رواية لم يقرأها أحد، وهي مؤهلي الوحيد

للوظيفة. أما هي فكانت مثقفة ولديها خيط طويل من المؤهلات. دراسات في السود وبعد الكولنيالية والعرقية والميديا ولديها معرفة واسعة جامعية ومدينية، وكنت أنا مجرد ريفي متخلف متعلم.

(لقد فهمت من الشخص الذي أجرى لي المقابلة أنني س....)

(ماغي، منتجتنا. أزمة منتصف العمر في براداس. نموذجية، حسنة النية، أمضت عمرها تعتذر لنفسها.)

(قسوت قليلاً، أليس كذلك؟)

(إنه عالم قاس يا ياسين.) أخذت شايها ووضعت الكوب.(أنا لا أحاول أن أجعلك تفضل فكرة ما. لقد عملت بكدٍ لأصل إلى هنا، وأنا لا أرى نفسي باقية إلى الأبد. نحن بحاجة لأن نكون واضحين في مواقفنا)

(صحيح) قلت ببطء. مر بجانب طاولتنا رجل رمادي ذو شعر رمادي، يلبس بدلة ومعطفاً، ويضع كومة من الجرائد تحت ذراعه، ويحمل فنجان قهوة في يده الأخرى ويدخن سيجارة متناسياً أنه لم يكن في الركن الوحيد المخصص للتدخين. بدأ يتمتم بطريقة مكثفة وبصوت منخفض كأنه في جدال مع نفسه. تابعت تارا نظرتي وقوست حاجبيها لتنظر إلي (ذاك هو تروي مارشاند، شاعر من المدرسة القديمة، ابتعد عنه ما استطعت، إن كنت تثمن حياتك، إنه سمٌّ زعاف)

رأيت الشاعر السم يجلس في زاوية الغرفة بهدوء، بعد أن تعمد تجاهل العلامة الضخمة "منطقة لا يسمح التدخين فيها" المعلقة فوق رأسه مثل المقصلة. لم يبدُ مؤذياً حين كان يرتب أوراقه ويضع ذراعيه فوق بعضهما وينفث دخان سيجارته.

(أخبرني، ماذا لو قلت لك ييتس، كوليردج، كيتس ماذا سيكون رد فعلك؟) شبكت تارا أصابع يديها وهي تنتظر الرد.

(كتاب) غامرت قائلاً.

هزت رأسها غير موافقة وقالت (ميت وأبيض وذكر.) أشارت بإبهامها إلى جهة الكاتب المقيم هنا، الذي طلبت منه صاحبة المطعم المغادرة، بشكل قوي وواضح، إن استمر في تدخين سيجارته.
(نحن هنا ليس لنشجع هؤلاء الناس. لدينا صراع مسؤولون عنه، لنشجع الآخر، غير المعروف، المستغلَ المحروم من أي فرصة، الذي أسكت)

(أتصور أنهم أعطوني هذه الوظيفة لهذا السبب)

(لا تفترض أي شيء حتى يتضح لك ما ستفعله. هم بالتأكيد سيتحكمون ويفرضون سيطرتهم على البرنامج ببطء، وقبل أن تعرفه ستكون تراجع أحدث مارتن اميس)

(من تقصدين بـ (هم)؟)

لم تُجب. نظرت من فوق حافة فنجانها لحظة، ثم وضعته على الطاولة.

(قل لي ماذا كنت تعمل قبل ذلك؟)

(حسناً، كنت محرراً مستقلاً لشركة مطبوعات)

بدأت تارا تلين قليلاً.(أنا آسفة. من المؤكد أنك تظن بأنني فظيعة)

(لا بأس ، جميل منك أن ....)

(ليس لديك مانع؟)

(لا أبداً) شربت شايي.

(إذاً أنت سامحتني على ذلك الاستجواب الكبير؟)

(ليس هناك ما يستحق)

(حسناً إن كنت لا تمانع فلدي سؤال أخير)

(تفضلي)

(هل تنظر إلى النساء وتحدق بصدورهن؟)

(عفواً؟)

أسندت كوعيها على الطاولة (أريد أن أعرف فقط) تنهدت (أريد أن أعرف أين تقف من هذا. السياسة الجنسية قضية حياة أو موت بالنسبة لي، الصدور؟ امرأة تمشي نحوك، هل تنظر إلى وجهها أولاً أم إلى صدرها؟)

(هذا يعتمد)

(على ماذا؟)

كان علي أن أفكر.(يلفت انتباهك أحياناً لباس الشخص والطريقة التي يتحرك فيها، أشياء محددة في مظهره. ذلك الرجل الذي مر بجانبنا مثلاً، كتفاه احدودبتا كما لو أنه فوجئ في منتصف فكرة. نقوم بذلك آلياً، يكتسب الذهن صوراً في نوع من اختزال التخيل، حسب ما قاله كالفينو)

(جواب مشوق) قالت تارا وهي تمد يدها إلى القلم الذي وضعه وراء أذنها.

(هل هو الجواب الصحيح؟)-

(ليس هناك جواب صحيح. لكن كل الرجال ينظرون إلى النساء، وعلى الأقل أنت لم تنكر ذلك. وقفت ومدت يدها لتصافحني. (أنا مسرورة بلقائك. لدي شعور بأننا سننجح في العمل معاً. خذ ما يكفيك من الوقت. علي القيام ببعض الأشياء قبل أن أرشدك في جولة ثانية للتعرف على المكان.)

اعتذرت لروح ايتالو كالفينو بصمت، وجلست هناك أتساءل ما الذي ورطت نفسي فيه، وساورتني الهواجس بأن الأمر سيكون أكثر تعقيداً مما تصورت. نظرت للأعلى لأرى تروي مارشاند يحدق بي عبر الغرفة بنظرة حقد بادية على وجهه. أومأت برأسي بشكل ودي فرأيت رجفة تخترق ملامحه، ثم وقع نظره على أوراقه ثانية.

في تلك الأيام الأولى الصعبة في (BBC) وجدت في درو رفقة مرحب بها. تلك المساءات حين كنت أعود إلى مكانها لأنام على الأريكة مرهقاً وعاجزاً عن التفكير، اكتشفت بأنني ممتن لأنني لم أكن مجبراً على الذهاب إلى البيت. كنا نخرج أنا ودرو لتناول وجبات رخيصة في أماكن تعج بالضجيج والضحك والناس، كما كنا نذهب إلى السينما ونتحدث طوال طريق العودة إلى البيت، لماذا لم يكن الفيلم مقنعاً، وأين ارتكب المخرج خطأً فادحاً، وكم كان الممثل الرئيسي بغيضاً، وماذا

يمكن أن يحدث لو أننا تلقينا اتصالاً من هوليوود لنطير مسرعين لنمنع حدوث الفشل. دارت بيننا أحاديث طويلة عن كل شيء وعن اللاشيء، السياسة والكتب وكل ما يتعلق بهما. نقاشات لم يكن الغرض منها أن تضيف شيئاً، ولم تختصرها وتقطعها الواجبات المنزلية والانفعال. لقد كانت لي عودة أخرى للحياة التي كنت جزءاً منها.

أعتقد بأن كل منا كان يعرف ما الذي سيؤدي إليه هذا، وأن العوائق المادية لم تظهر. عرفنا ما سوف يحدث، ما كان يجب أن يحدث أخيراً. لقد كان لدينا الخيار، وكنا نستطيع الابتعاد عن بعضنا لنضع نهاية لمضيعة الوقت وعدم المبالاة الغبية، المتعة، جلسات الاعتراف العقيمة التي لم تحل شيئاً، بل على العكس، ورطتنا أكثر في الاتّكال المتبادل. كان كل منا مصمماً بأن يضيّع نفسه لفترة من الوقت. هذا لا ينتج سعادة على المدى الطويل، لكن أعتقد أننا لم نكن نفكر بالمدى البعيد آنذاك.

وصلت درو إلى مفترق طرق شخصي، في عملها مع لوسيان، ولم تعد متأكدة بأنها ستشاركه مستقبلاً واحداً. لقد جاءت إلى لندن للعمل في كتاب حول تاريخ الطب الشعبي في القرون الوسطى، فكرت في كتابته. فقد بدأت العمل في الطب قبل سنوات ثم تحولت إلى التاريخ. لم تكن مسرورة بطريقة العمل التي كان يسير بها الكتاب، وقلقت من أن تتبخر الفكرة الأساسية من يديها ببساطة. فقد كانت مثلي، في حالة من الجريان والتدفق، تتذبذب بين شكلين من الوجود، غير قادرة على اتخاذ قرار في الجانب الذي ستنتمي إليه. خلال مسار السنة التي قضيناها معاً، أوقفت العمل بالكتاب أخيراً لتستأنفه لاحقاً ثم انتهى نهائياً أخيراً. في البداية ظلت على علاقة وثيقة بايلين لفترة، تذهبان معاً إلى المسرح أو أحد المعارض، لكنها بعد ذلك حاولت أن تجد الأعذار التي لم تنجح دائماً. كنا ثلاثياً غريباً لفترة ما. وهكذا وأخيراً وجدنا أنفسنا في أحد الأيام مثل ممثلين وجدا نفسيهما في مشهد لم يكن في النص، وقفنا هناك في مدخل المطبخ عاجزين عن إفلات بعضنا، تداخلت أيدينا بطريقة لا تفسر وأقفلت على بعضها لأول مرة بتلك الطريقة. نسينا الوجبة التي تجشمنا عناء تحضيرها تماماً، ولم يكن أي منا قادراً أن يقول ما الذي كنا نتحدث عنه قبل دقيقة مضت، أو ما هي تلك الشرائح المقطعة من الفلفل الأحمر والبصل وسمك الجمبري المنثور في المكان، والماء الذي كان يغلي على الموقد. كل ذلك غاب بالفعل البسيط الذي تأخر طويلاً، بملامسة أيدينا لبعضها. لم تبدُ مجرد رغبة مادية فقط، كانت تشوقاً يبحث عن خلاص من عزلة الحياة نفسها.

لفترة من الوقت، كان كل شيء رائع، الجنس، الأمسيات خارج المنزل، الأمسيات في الداخل. قلّت شجاراتنا أنا وايلين التي كانت لديها حياتها الخاصة، كما كان لي حياتي كما يبدو. في عملي في (BBC)، وجدت أخيراً شيئاً استمتعت بفعله ونجحت فيه، لقد كنت فخوراً بعملي ولدي ثقة عالية بالمقدرة. ربما كان إسهاماً قليلاً في الخطة الكبرى للأشياء لكنه كان عملاً مرضياً لي. فقد انكببت على العمل بكد وإخلاص كبيرين وشعرت بأن لدي الكثير لأكتشفه أيضاً. قرأت روايات وأشعار ومقالات ومقتطفات أدبية ويوميات وسير وكتب عن الرحلات. أخذت الموضوع برمته بشكل جدي. واعتقدت بأنني يجب أن اقرأ أعمال الشخص قبل أن أجري مقابلة معه مما أدهش ذلك بعض المؤلفين الذين نظروا إلي بعدم تصديق (هل تقصد أنك قرأت الكتاب كله؟).

لقد اهتممت بوظيفتي، استمتعت بها وأحسست بأنني في قلب لغز هائل لا يستطيع حله أحدٌ غيري. أعطاني الأدب شيئاً أؤمن به، وشعرت بمسؤولية تجاه المستمعين، هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في الخارج، أينما كانوا، بمذياع ترانزيزتور صغير وعلاقة معطف للهوائي، وهم يولفونه بثقة كل

أسبوع ليستمعوا إلى ما يقوله عالم الأدب عن نفسه. ربما هذا لأنني أنا نفسي كنت هناك سابقاً. كان دوراً ضرورياً كالمساعدة الطبية أو الماء العذب.

حتى تارا نفسها تبين بأنها ودودة أكثر مما تركه لقائي الأول معها من انطباع. لقد اختلفنا حول نقاط محددة لكننا تعلمنا أن نعمل معاً، أنا وهي وماغي وشكلنا فريقاً رائعاً. لقد اهتممنا في بعضنا البعض، وعرفنا ضعف بعضنا ونقاطنا العمياء، واتفقنا بأن الأولوية للبرنامج قبل أي شيء آخر. أما ديف فكان يقوم بعمله الخاص به. لم نكن نعرف أين كان يمضي أغلب أوقاته لكنه كان يأتي بحصته من البرنامج، المؤلفة من شريط مدته نصف ساعة.

كنا نقدم دراسات نقدية للكتب، ونجري لقاءات مع المؤلفين القادمين من الفوضى المدينية الممتدة في غرب أفريقيا ولاهور وكالكوتا ومانيبوتا وساحل العاج. كان هذا أدب عالمي لم يتخيله غوته نفسه. لدينا شعراء سيخ من كيوبك ومنشقون أتراك من توركو وروائيون بنجاب ومسرحيون من غودالوبي وفنانو عروض من أوتاوا. كانوا أشخاصاً متنقلين. كان علينا أن نمسك بهم أينما وكلما استطعنا ذلك. الأشخاص الذين يأتون إلى لندن لمدة يومين فقط، أو بضع ساعات في صالات الترانزيت أثناء السفر. كنت رجل مهمات. أسرع إلى فنادقهم بمسجلة صغيرة رقمية وأثبتهم في ركن من غرفة طعام مهجورة (كان هناك شخص يقوم دائماً بتشغيل مكنسة كهربائية في اللحظة التي يبدأ التسجيل فيها) وأحاول اكتشاف السبب الذي دفعهم لهذا الفعل وكيف.

لقد تعلمت الجانب التقني من العمل من خلال الممارسة وعن طريق المحاولة والخطأ. في الأيام الأولى كنت أجلس هناك، عيوني مثبتة بلوح الإشارة، إلى أن رد أحد الصوماليين المترفعين وقال بحدة (هل أنت تجري المقابلة معي أم مع تلك الآلة اللعينة). مرت سنة. وبدأت أصغي أكثر للأصوات المحيطة بشكل روتيني. تعلمت تحضير التسلسل في رأسي قبل التكلم، وأن أخفض صوتي وأتكلم بشكل منتظم وواضح.

هذه هي وظيفتي، الجلوس إلى طاولة الاستديو، أحملق بالأرض بصورة كئيبة وأجفاني مسبلة. كل واحد منهم يختلف عن الآخر. واحد سينال شهادة في الايروديناميك ودكتوراه في الكتابة الإبداعية من جامعة ايستكوست، وآخر كان خارجاً من السجن لتوه لأنه ألصق قصيدة على مبنى الحكومة، وأحد سيقسم وقته بين سيمالا وسياتل، وآخر سيعمل معلماً لإدارة مشروع مسرحي في رواندا. بعضهم تحدث عن السياسة بحماس، وآخرون تحدثوا بجدية عن تأثير يقضة فينيغانز على الرواية الكاريبية، كان فيهم المثقف والتافه.

تعلمت الكثير في تلك السنة عن الكتاّب وليس عن الكتابة فقط. لم يكن أفضل الكتّاب دائماً هم أفضل المتبصرين حين يمسكون بالمايكروفون تحت أنوفهم. ترابط النجاح والغطرسة، لكن ليس بشكل دائم، ونادراً ما تتماشى الجودة والشهرة معا. الشعراء يميلون للاستفزاز أما الكتّاب السياسيون فمشوشون دائماً. كان كتاب النوعية المتوسطة يربطون أنفسهم بعقد، ليثبتوا لأنفسهم بأنهم لم يكونوا مرتبكين، أما كتّاب النوعية الرديئة فيجعلوك تتمنى لو أنك كنت بعيادة طبيب أسنان، وتقلع عدداً من أسنانهم بدلاً من الإصغاء لهم وهم يثرثرون بتفاهات عن أنفسهم. أحببت كل ذلك، الجيد والسيئ والممل. تعلمت بأن الناس يكتبون الروايات لأسباب كثيرة: لكونهم في وسط شيء اعتقدوا بأنهم فهموه أم لم يفهموه، لأنهم كانوا غاضبين وساخطين، محبوبين أو لأنهم ليسوا كذلك، أو ربما لأنهم عشقوا وخسروا. هناك ألف سبب آخر دون أن يكون أحدها أفضل أو أسوأ

من غيره. الكثير منهم كانوا مجرد أشخاص عاديين، تعساء، نالوا فرصة محظوظة وانشغلوا في تحويلها إلى مهنة ولا ألومهم في الحقيقة. فانا أولاً وأخيراً أوشكت بأن أكون واحدا منهم، لكنني أُنقذت. إن كانت تجربتي علمتني شيئاً، فهو أنني فضلت التكلم عن كتب الآخرين بدلاً من كتابة كتب خاصة بي. كنت إذاعي وليس لدي نية في التراجع.

هذا لا يعني أنني كنت مناسباً تماماً للوظيفة. كانت هناك دروس علي تعلمها وكان بعضها أسهل من غيره. أهم حالة مميزة وأوضح مثال حالة شاكا براكا. اسمه الحقيقي ستانلي ايرلزفيلد، شاعر راب على أسلوب لنتون كويزي جونسون، بعده بسنوات قليلة. كانت أفريقيا موضوع شاكا باركا وكان بعمر أكبر مما اعترف بكثير، حيث زعم بأنه في الأربعين لكن بهذا الزعم حتى العناكب لها بيوت. شباب أبدي، صبغ شعره بالحناء وسرحه في خصل مدببة قصيرة(سبايكي). رفض أن يرمي نظارته الشمسية في الاستديو، وكان يتنقل ببطء شديد ليتجنب الاصطدام بقطع الأثاث. تدلت القارة الأفريقية حول رقبته على شكل حجاب خشبي، وهناك أيضاً صليب وشيء مثل كف دجاجة إلى جانبها. مددت يدي لأصافحه.

(أهلاً بك. أنت شاكا أليس كذلك؟ اسمي ياسين ظاهر. أنا أجري معك مقابلة.)

(تماماً، يا رجل) تعانقنا عناقاً اخوياً، وقلب يده ليمسك بإبهامي في إبهامه، وهو يغمز لموظفة الاستقبال من وراء كتفي. ترك قميصه مفتوحاً حتى خصره، وكان يحب النساء. رفضت تارا الاقتراب منه نهائياً. كان كبيراً، بعمر أبي حينما وضع يديه فوق أكتافي آخر مرة.

(إنه رجل السيدات) وافقت ماغي بتوهج غريب في عينيها.

نخرت تارا وقالت (إنه كليشة رائجة)

(أنت متطوع يا ياسين)

لم أرغب في إجراء المقابلة معه، ولم أحب قصائده التي أطلق فيها العنان لأهوائه، وكانت تنذر بالسوء. وفي واحدة من ضربات الحظ، أعطي لكتابه جائزة، ووجب علينا أن نعامله على ضوء ذلك. لم أستطع لومه للفوز بالجائزة، لكن ربما الحقيقة التي أزعجتني، أن أفريقيا التي تحدث عنها، بدت مثل منتج مبني على التمني أكثر مما هي رؤية حقيقية، وربما كان السبب أمي التي كانت تموت وأبي الذي كان في المنفى، بعد أن أنذرته الخرطوم بأنه سيعتقل إن عاد. هذا لأنه في لحظة غضب نشر مقالة في مجلة القاهرة عن القتل الجماعي في منطقة بحر الغزال، فادعت الحكومة بأنه جاسوساً للغرب الخائن، دفع له المال ليروج دعاية ضد شعبه بالذات. لم أكن في مزاج للتصنع المتأنق.

(والآن يا شاكا، هل يمكنني مخاطبتك بشاكا؟)

(سمني ما شئت يا رجل. أنا هنا في بث حي، هه هه)

(أتصور بأن فوزك بهذه الجائزة كان مفاجئاً لك؟)

اقترب حاجباه من بعضهما فوق الظلال (حسناً، طبعاً فالمرء لا يعرف عن مثل هذه الأشياء أبداً)

(حسنا، إذاً، بعد خمسة وثلاثين عاماً في كلافام إلى أي حد تعرف فيه إفريقيا بشكل جيد؟)

(أنا أفريقيا)

(بعبارة أخرى، أنت لا تكتب عن القارة وإنما تكتب عن نفسك.)

(طبعا أنا أكتب عن نفسي. أنا أفريقيا. مهما اكتب فهو عن الروح الحقيقية لقارة أفريقيا. أنا لا أهتم إلى كل هذا الهراء السطحي. أنا أتحدث عن جذور المسألة. القلب والروح)

(أفهم ذلك، حسناً. دعنا نتكلم عن العمل نفسه)

(بكل تأكيد)

(يبدو أنك تأثرت بنوع من الكتابات التي راجت في الولايات المتحدة، في ذروة الحرب الأهلية، في أواخر الستينيات والسبعينيات)

(أنا لست متأثراً بأحد، أنا مبتكر وجديد)

(حسناً،) نظرت إلى قائمة الأسئلة فلم أر واحداً منها يستحق السؤال. (مبتكر) كررت قائلاً. كان ينظر إلى غرفة التحكم المعتمة وبجانب الباب كان ماغي وتارا والمهندس ينتظرون. ما هو ذلك الشيء الذي لم أستطع الاستجابة له؟ هل هو فكرة أن السياسة يجب أن لا توضع فوق الفن؟ لكن رغم ذلك هذا رجل منح جائزة لأنه فعل ذلك. والدي الذي قضى حياته في الدفاع عن التعددية وأبعده الطائفيون الذين اعتبروا العلمانية خيانة. هل يمكن محاربة العقيدة بواسطة الأخلاق؟ هل معارضة مجموعة من الآراء الحاقدة بواحدة أخرى ليس عملاً أخلاقياً؟ ماذا عن ياسمينة؟

(ياسين) جاء صوت ماغي عبر مكبر الصوت من خلفي. أدركت بأنهم كانوا ينظرون إلي. نظرت إليها من وراء الزجاج، ابتسمت وأشرّت لي برفع الابهامين. كان هذا القسم الأخير من برنامج الأسبوع الذي أدرج ليبث هذا المساء. ليس هناك أي مجال للخطأ.

(سيد شاكا، أنا متأكد من أنها تدرك عدد الأعمال الأدبية العظيمة التي عالجت مسألة العبودية، ما الذي شعرت بأن عليك أن تجلبه إلى هذا الموضوع وكان مبتكراً وجديداً؟)

(ماذا؟) كان ينظر إلي من أعلى نظارته الشمسية.(ماذا قال؟) سأل ملتفتاً نحو غرفة التحكم.

(لا أستطيع فعل هذا) قلت بهدوء. من وراء الزجاج، استطعت رؤية تلويح أيادي وإيماءات. كان جهاز الاتصال الداخلي مقفلاً لكن كان هناك نقاش دائر. حملت أوراقي وتهيأت للمغادرة. اصطدمت بشيء وأنا أخرج.

(شكراً جزيلاً يا ياسين)

(انظري ماغي. أنا آسف. لا أستطيع القيام بهذا)-

(فيما بعد يا ياسين، ليس لدي الوقت لهذا الآن.) أغلقت الباب بإحكام خلفها. وقفت في الدهليز لحظة. استطعت سماع ستانلي ايرلزفيلد وهو يشتم بعدم الكفاءة والإهانات. كانت تارا تقف هناك. نظرت إلي بطريقة غريبة:(كنت أتساءل دائماً أين يكمن ولاءك الحقيقي)

(هل كان ذلك عن الولاء؟ اعتقدت أنه كان عن الأدب؟)

(إنه مؤلف يحظى باحترام جيد وحائز على جوائز يا ياسين. ألم تفهم ذلك؟ رأيك فيه غير مهم، عليك أن تلعب اللعبة.)

(حتى لو تَطّلبَ ذلك تعطيل قدراتنا النقدية)

(أوه. توقف عن سذاجتك لحظة. يجب أن نلتحم معاً.)

(إذاً الأمر هكذا؟ الأسئلة الفلسفية الكبيرة مهيجة وتثير الغضب فينا وفيهم؟)

لفت ذراعاها بإحكام.(لا يوجد وسطيون في الحياة يا ياسين ينبغي عليك التفكير بذلك)

بعد ذلك، تَجولتُ في البناء دون أي فكرة عما كنت أفعله أو المكان الذي كنت ذاهباً إليه. وقفت لبرهة في المصعد وكنت أصعد وأنزل حسب الشخص الذي كان في داخله، حتى وجدت نفسي في القبو المهجور. جلست هناك لوقت طويل أحدق بالسقف حتى سمعت صوتاً عميقاً يهدر

(أهو يوم سيء في بلاك روك؟)

إلتفّتُ لأنظر من فوق كتفي. (تروي مارشاند)، الشاعر الرمادي. أخذت رشفة من القهوة لأحضّر ردي.(ألف وتسعمائة وخمس وخمسون. إخراج جون ستيرغز. يلعب سبنسر تريسي دور رجل بذراع واحدة يأتي إلى بلدة يبحث عن...) خانتني ذاكرتي.

(عن رجل ياباني اسمه كوموتو اقتيد إلى معسكر اعتقال.)

(أفضل ملاحظة؟)

(عندما نزل سبنسر تريسي من القطار، قال قاطع التذاكر، [يا له من مكان كل من فيه يبدو كئيباً جداً ومعزولاً] فقال تريسي (أنا لن أقيم هنا سوى أربع وعشرين ساعة)

رد عليه قاطع التذاكر (هذه قد تكون عمراً في هذا المكان).

زفر (تروي مارشاند) ببطء وقال (إنه فيلم جيد)

(لم يعد ينتجون مثل تلك الأفلام) قلت.

(إنهم لا يفعلون ذلك بالتأكيد. ماذا حدث على أي حال ولماذا الحزن؟)

تنهدت. لقد كان مارشاند يعرف عن الأدب الانكليزي أكثر مما أتمنى تعلمه، لكن نادراً ما تحدثنا عن الكتب، واشتهر بأنه مولع بالقتال ومجادل مما أكسبه عداوات كثيرة. كان الناس يبتعدون عنه ويحيط بعزلته معتقد باطني، تمسك بمزيج من التوقير والاشمئزاز. لسبب ما كان يكن لي الحب، ولعنا المشترك بالسينما وفرَّ لي واحداً من أقرب حلفائي في ذلك البناء، وأبعدهم احتمالاً.

(أظن بأنني جعلت نفسي غير محبوب)

(هذا يحدث)

(ماذا تعمل إذاً؟)

(حسناً، دعنا نرى. بشكل أساسي، إنه مبدأ قارب النجاة)

(كل واحد لنفسه؟)

(هناك أوقات لنكران الذات، وأوقات أخرى للتكاتف والتعاضد) انكمش ووقف على قدميه (تذكر، صَمّمْ على أن تكون نفسك، وأعلم بأن من يجد نفسه، يضيع بؤسه!)

(يبدو بأن من قال ذلك كونفوشيوس)

(ماثيو ارنولد، الاعتماد على الذات، 1852)

راقبت الشاعر الرمادي وهو يتراجع عبر الكافتيريا المضاءة بشكل حاد، وأعتقد أنني فهمت حينها كيف استطاع البقاء حياً في هذا المكان، كل هذه المدة الطويلة.

لقد كان (شاكا براكا) من ضحك أخيراً. شاعر الأبيات الجديرة بالذكر مثل " الحياة! كسرت ظهري لكنها لن تسحق خصيتي أبداً" فقد انتهى به المطاف إلى غرفة في فندق (إم تونتي فايف) مع زوجتي العارية. إنها هي من نطقت واعترفت بهذه المعلومة أمام صحبة من المسافرين الثملين على متن عبّارة ليلية متجهة إلى الدانمارك. لقد التقيا في ندوة أدبية. ذهبت هناك بدون هدف وإنما لتنتقم فقط. لم تعرف لماذا في الحقيقة، لكنها أقنعت نفسها بأنني كنت ألتقي بامرأة ما. في مراراتها المؤلمة قررت أن تسبب لي الألم. الشيء الغريب أن ذلك لا يزال يؤلمني، ويظل يؤلم حتى لا تعود تستطيع تحمل منظر ذلك الشخص.

الفصل الثالث والعشرون

تسربت موجة أوتار ناعمة، كانت تشتد وتنخفض، من النافذة إلى الشرفة، صوت لعزف على الكورا. حرك النسيم الدافئ أوراق الشجر المتدلية من ورائي وطنّت ذبابة بإلحاح حولي.

في الحياة لحظات كسل لا تحاول فيها إنجاز شيء، فلا تطارد شيئاً أو تفرُّ من آخر، يكفيك فيها مجرد البقاء حيّاً وفهم هشاشة هذا الكون، بينما في مكان آخر من العالم تُرتكب الجرائم، وتتصادم السيارات، وتُنفَّذ الإعدامات الجماعية، وكل الأعمال الفظيعة والحوادث والبلايا. ها أنا الآن أجلس في شرفة ألوِّح بيدي لإبعاد الذبابة. أصبحتُ منشغلاً بفكرة الموت أكثر مما اعتدت، وكنت أفكر بليو والمستقبل الذي ينتظره. أحلامي امتلأت بالكوارث التي أعجز عن إيقافها، وكنت أستيقظ وأنا مقتنع بأنها ستحدث، وكانت تحدث أحياناً.

الكورا هي نسخة أفريقية عن القيثارة، لها ثمانية أوتار من كل جانب، ترتفع في تناسق هندسي لتكون ضلعاً تتداخل أجزاؤه بشكل متماسك. زوّد لوسيان البيت بشبكة معقدة من مكبّرات الصوت، بصورة إبداعية، غطّت كافة أرجاء المنزل. كان يشغِّل الموسيقى من مكان غير مكشوف، ربما من الاستديو أو من غرفة نومه، ليعج البيت المزوّد بتمديدات رقمية بالحيوية والنشاط. في بعض الأيام يشغِّل موسيقى لسترافيسكي، وأياماً أخرى أوبرا عايدة لفيردي، وأحياناً موسيقى إندونيسية أو ألبوم الرولينغ ستونز "منفى في مين ستريت". موسيقى الكوره التي تعزف الآن، جلبها لوسيان من رحلته الأخيرة. كان البيت يغصُّ بأشياء غريبة، تذكارات من رحلاته، مامبا خضراء يابسة من المغرب، وجدها داخل محل ليبيع الأشياء المهملة في باريس، في اليوم الذي عاد فيه من جبال الأطلس. قارب ضخم نُحِتَ من خشب الأبنوس الأسود من بالي، تمثال من الغرانيت قُطِعَ رأسه من كمبوديا، اشتراه في تايلاند بشكل غير قانوني كما أعتقد. كل قطعة لها قصة ترتبط فيها. لديه فارس برونزي من غرب أفريقيا وأقنعة خشبية بحجم الطاولة، وهناك مخلوق بأربعة أرجل، يشبه وحيد القرن لكنه بلا رأس، يقول إنه صُنِعَ من الوحل ومن دم أضحية .

استسلمت في معركتي ضد الذبابة ورميت كتابي جانباً. شدّتني الموسيقى إلى الداخل وأغرتني مثل عازف مزمار معاصر، فذهبت في الممر المؤدي إلى استديو لوسيان، وهو عبارة عن غرفة مظلمة في الطرف البعيد من البيت، باردة ومجّوفة مثل كنيسة. النوافذ تغطيها ألواح خشبية طويلة لاحظناها أول وصولنا بارتفاع طابقين، الجدران التي كانت حظيرة حيوانات كما يفترض، عليها رفوف خزّن عليها لوسيان كل أنواع الآلات والشاشات والكاميرات والصياني. أشرطة سيلوليد تتدلى من الأعلى، أكوام من بكرات الأفلام المعدنية من قياسي ثمانية وستة عشر مليمتر، وأشرطة فيديو، بالإضافة إلى أكداس من الجرائد والمجلات وقوارير فيها مواد كيمائية متنوعة وشموع دست في أعناقها. بدت الغرفة مثل كهف الكيميائي. هناك كمية هائلة من النفايات، آلات بصرية مخلوعة، كاميرات، مجفقّات شعر، محضرات أطعمة، مسجّلات، تبرز منها أسلاك في أماكن غير محتملة أو محركات كهربائية أزيلت لتشغل أداة إبداعية اخترعها.

كان لوسيان يمسك بمفك براغي في إحدى يديه وبسيجارة في الأخرى، وهو يحدّق في السقف. هناك كلمات بيننا لم نحكيها بعد، محادثة معلقة لست واثقاً كيف سأبدؤها. ربما كانت السبب الذي

جعلني أتجوّل في حَرَمه دون غرض محدد في ذهني.

(آه،) حياني بإيماءة من رأسه (أين ليو؟)

(في الخارج، يلعب بالطائرة الورقية)

(جيد، لديّ فكرة في تطويرها) لقد صنعا دون أقواس هو (وليو) الطائرة في الليلة قبل الماضية، بالطريقة التقليدية طبعاً، قطّعا الخشب إلى حجم مناسب، ووجدا قميصاً قديماً لصنع شراع منه، ثم أضافا شريطاً أحمراً طويلاً كذيل. حين اكتملت طارت فعلاً مما أدهش (ليو). لدى لوسيان موهبة طبيعية في يديه، شعور باطني بالعالم المادي وسحره الخاص الذي يفكّه بأصابعه. كان ينكش أسنانه وينظر بكاميرا مراقبة مونيتور، يراجع وينظم فيلمه الخاص عن مالي. يعرف عنه بأنه عامل بطيء على ذمة درو.

(هل هذا هو فيلمك؟) سألته مرتبكاً. وقف جانباً وأفسح لي المجال لإلقاء نظرة. انحنيت فوق الكاميرا وضغط لوسيان زراً فطقطق الفيلم ثم شاهدت منظراً يترجرج وكأننا في سيارة متنقلة. أشجار ضخمة من الأوبابا تتسلق كبد السماء مثل أجزء حبل هندي معقد ظل واقفاً. ثم تهادى قطيع من الماشية بقرونها الطويلة عبر غيمة من الغبار في شمس ساطعة. تلاه فاصل وبعده كان هناك منظر مختلف، وثابت هذه المرة، سحلية زرقاء نيلية وقفت على قمة جدار. كان رأسها البرتقالي النشيط يرتفع وينخفض بسرعة كبيرة، ثم تدور عيونها لتنظر إلى الكاميرا.

(أوه) قلت.

نظر لوسيان من الجانب (السحلية، إنها مذهلة أليست كذلك؟) أبعدني جانباً وأعاد الفيلم للوراء وألقى نظرة أخرى.(إنها تنظر إليك وكأنها ترى ما بداخلك)

(نعم)

وقفنا هناك لحظة. شعرت بأنني يجب أن أقول شيئاً، لكن لم أعرف كيف. كانت الغرفة مظلمة وكئيبة، ترشح خيوط من الضوء من خلال فجوات بين الألواح الخشبية. انتهت سيجارة لوسيان. بحث عن تبغه ولفَّ لنفسه واحدة أخرى. تفحّصني لبعض الوقت قبل أن يشير إلى المونيتور.

(هل ترغب برؤية المزيد؟)

(بالتأكيد، أود ذلك.)

وهكذا أمضيت العشرين دقيقة التالية في التحديق في المرقاب، بينما كان لوسيان يدير الشريط القاسي في آلة التحرير. لديه كوم من بكرات الأفلام التي لا يبدو عليها أي نوع من الترتيب. وجدت نفسي في قارب طويل ضيق وسط ما بدا كأنه غابة.

(رائع. كنت أبحث عن هذا) قال.

رأيت المناظر الغريبة التي زارها وتنقل وسطها، وبعد مرور قليل من الوقت، بدأت أراها كما يراها هو. كانت مثل مشاهدة رجل يبحث عن شيء مميز فوجده عادياً ومبتذلاً. البكرة الأخيرة التي حشاها كانت مختلفة، في البداية كل ما رأيته كان ومضات غير ثابتة من الضوء، إذ كانت الكاميرا تتحرك على ما يبدو. بعد دقيقة أدركت أنني أرى الغرفة التي أقف فيها الآن، النوافذ الكبيرة مفتوحة، وفي حين تلاشت الألوان بسبب التباين الكبير بين الغرفة المظلمة وضوء الشمس الذي

فاض عبر الباب من الجانب الآخر. اقترب مربع الضوء الأبيض المرتد تدريجياً وملأ الشاشة، ثم أصبحنا في الخارج بعد ذلك. كنت على وشك أن أقول للوسيان بأنه أخطأ في البكرة، وهي ليست تلك التي أرادها، حين رأيت درو التي كانت تجلس في الشرفة وتضع قدميها على كرسي آخر، توازن كتاب على ركبتيها، في نفس البقعة التي كنت أجلس فيها قبل قليل. نظرت وابتسمت. تلك الابتسامة التي أعرفها جيداً، زوايا عيناها الملتويتان، الطريقة التي تُميل بها رأسها إلى احد الجوانب، التغضّن الذي يظهر على جسر أنفها. ابتسامة ليست لي هذه المرة. تجريب تلك الحميمية المقصودة لشخص آخر أثار شعوراً خاطئاً. تيَّبستُ غريزياً فرفعتُ رأسي. شاهد لوسيان النظرة في عيني وأنا ابتعد عن الطريق. نظر في المرقاب لدقيقة أو اثنتين ثم مدَّ يده إلى الزر فتوقفت البكرة عن الدوران.

(من المؤكد أنني خلطت بينها) قال (هذا يحدث)

(لا ضير في ذلك) قلت. خيّم صمت لمدة دقيقة، ثم أخذ نفساً عميقاً وكرر كلماتي

(لا ضير في ذلك)

(يجب أن أذهب وأرى كيف يتقدم ليو)

(نعم، طبعاً). تركته هناك وهو يحدق بالسقف.

في وقت لاحق من الصباح، وحين ظهرت ايلين في الشرفة، أخبرتها بأن الوقت حان للتفكير بالرحيل. جلست ورمت قبعتها. كانت وليو يحفران في رقعة من الأرض القاسية أمام البيت. كانت حديقة سابقاً وتريد استعادتها، فلديها خطة لزرع أعشاب طبية فيها. سقطت حبيبات من التراب الأصفر على الطاولة حين خلعت قفازات يديها. احضر ليو إبريق ماء وبعض الكؤوس من المطبخ.

(أين ستذهب بعد ذلك؟) سألت درو

(حسناً، عند النظر إلى الخريطة لا تبدو اسبانية بعيدة من هنا. أشعر بأنني يجب أن أجد ميوك) كانت درو تراقبني عن قرب وأنا أبحث عن بطاقة ميوك البريدية.

داعبت درو بيدها رأس ليو (يبدو هذا مثيراً، أليس كذلك؟ الذهاب إلى اسبانيا لتجد ميوك)

كان وجه ليو صورة للإرباك. نظر إليها ثم إليَّ دون أن يقول كلمة واحدة ثم تراجع وانكمش يتفحص كأس الماء. تركت البطاقة البريدية تنزلق على الطاولة ، رفعتها درو وقلبتها بيدها مرتين. إنها صورة بسيطة لخليج رملي مشمس، قارب صيد يرسو بشكل ملائم وسط بحر أزرق. على ظهر البطاقة الأبيات الشهيرة التالية، قرأتها درو بصوت عالي.

(الإصبع المتحرك يكتب..........) قطبت نحوي (غريب جداً)

(إنها لعمر الخيام)

(رائع لكن ماذا تعني؟) رمت البطاقة بيننا على الطاولة.(ماذا يعني كل هذا؟ يعود خاتم البطاقة إلى أكثر من سنة مضت. لماذا ستذهب إلى هناك الآن؟) نظر ليو للأعلى حين تبدّل صوتها.

(تبدو الفرصة جيدة الآن وأفضل من لا شيء) قلت وأنا أدس البطاقة في جيبي(إنه أخي)وأضفتُ وأنا أواجه نظراتها(إنه العائلة الوحيدة المتبقية لي)

(أنت حتى لا تعرف إن كان لا يزال هناك. لماذا تفعل هذا يا ياسين؟ لماذا لا ترجع إلى ايلين وتحلّ ما يجب عليك حلّه مهما كان؟) نظرت إليَّ للحظة، ثم نهضت وقالت (تعال يا ليو. دعنا نذهب ونرى إن كنا نستطيع تنظيف الكثير من تلك القذارة) أخذت بيده ومشيا معا نحو الحديقة. راقبتهما وهما يذهبان، ولم يلتفت ليو إلى الوراء.

خيم مزاج كئيب على الغداء، وكنت شاكراً حين سألني لوسيان عن السيارة.

(هل فيها أي مشكلة؟)

(كلا. حسناً بما أنك ذكرتها،هناك ضجيج غريب يصدر حين تعشّق الغيار الأول)

(صوت غريب؟)

(صوت طحن. نعم)

(ربما يكون ذراع تعشيق التروس؟)

(هل هذا جيد أم سيء؟)

(يمكن أن يكون خطيراً. ما رأيك أن نلقي عليها نظرة)

(نويت أخذها إلى القرية يوماً فقد رأيت فيها مرآباً)

(صاحبه ثمل في أغلب الأوقات. وتكون محظوظاً لو استرجعت السيارة نفسها)

(صحيح؟)

انكمش لوسيان (لماذا لا نملي نحن نظرة عليها؟) خلال ساعة كانت أكثر أجزاء سياراتي الداخلية حيوية تملأ الأرض مثل أجزاء أحجية، ولم أكن واثقاً بأننا سنتمكن من تركيبها مرة أخرى وبالترتيب الصحيح. وقفت أراقب كل ذلك برعب متزايد.

(نحن ذاهبان في نزهة) صاحت درو وليو يقف بجانبها، لم يكن في عجلة من أمره لمغادرة هذا المكان.

(حسناً)

(ثم سنتابع إلى سوق القرية، ربما نراكما هناك لاحقاً)

راقبتهما وهما يبتعدان. من السهل البقاء هنا، أعرف أنه سهل ومريح لكلينا، لكننا لا ننتمي إلى هذا المكان. هذا ليس بيتنا وهذه ليست حياتنا.

(أعتقد بأن لديك مشكلة) قال لوسيان من تحت السيارة. انزلق للخارج وهو يبتسم. إنه في مجاله الذي يبرع فيه. إنه يشفي العالم ويصلح الأشياء.(نحتاج إلى النزول إلى القرية وإحضار بعض الأشياء. ربما نكون محظوظان.)

(هل تعتقد بأنك تستطيع إصلاحها؟) سألت مشككاً. حاولت أن أتجاهل شعور الرعب الذي زرعه في نفسي هذا الخبر. استطعت أن أرى نفسي محتجزاً هنا لأسابيع أو شهور حتى.

(أوه. هذه السيارات تحتاج إلى إصلاح دائم) وقف على قدميه وبحث عن تبغه في جيوبه.(لا تقلق كثيراً) ابتسم (يمكن تركيبها. ستكون في طريقك قريباً)

بعد ساعة تقريباً ركبنا سيارة لوسيان وهي من نوع فورد موستانغ، بالية وتبدو أكبر عمراً من سيارتي، وغير عملية خاصة على تلك الطرق الضيقة. من الخارج تشبه حطام لا يتحرك، تبدو مثل دبابة. يقود لوسيان السيارة، عين على الطريق والأخرى داخل السيارة وهو يشرح عن النظام الصوتي الذي ركبه فيها، مع مكبرات صوت مخفية في السقف. حين أدخل قرصاً مدمجاً في مشغل الموسيقى ليوضح ذلك، ملأ الصوت السيارة مثل ماء يصعد من الأرض.

وصلنا القرية في قطعة واحدة، حتى وجدنا المرآب الذي قصده لوسيان والمملوء بقطع غيار قديمة مأخوذة من سيارات مثل سيارتي. جمعنا القطع التي احتجناها وعدنا إلى المقهى الموجود في ساحة القرية.

(لقد اخترت المكان المناسب لتتعطل) ابتسم لوسيان وهو يمسك بالباب لي. ملصق باهت لمادونا الشاب كان يتجعد ببطء على باب المرحاض وخلف البار، وهناك رموز أخرى، تمثال أخضر لامع نسخة عن تمثال الحرية وكنغر يرتدي قفازات ملاكمة حمراء اللون. عاش لوسيان في غابات البرازيل وجبال باباوا في غينيا الجديدة وفيتنام ولاووس. ليس لدي رغبة في الذهاب إليها لزيارة أماكن جديدة. ليس هذا هو الهدف من هذه الرحلة.

(أداة تعشيق التروس ستنتهي عاجلاً أم آجلاً) قال لوسيان (هذا وقت مناسب لإصلاحها)

(أظن أنك محق) وافقت قائلاً(أنا لا أريد أن أطيل استضافتكم لي) لقد استخدمت الكلمة الخطأ، أدركت ذلك حين نطقت بها. لم آتي إلى هنا لزيارته وإنما لزيارة درو وكلانا يعرف ذلك. التقط قطعة صغيرة من التبغ من لسانه وأشار إلى فطيرة أخرى.

(أخبرني-هل ستقود السيارة وتذهب إلى اسبانيا؟)

(نعم بالتأكيد. أعتقد بأن درو أخبرتك بذلك)

أومأ برأسه. كان يتصرف بأريحية في هذا المشرب، وأتخيل بأنه سيكون كذلك لو كنا في مشرب في ساموا. إحساسه بالراحة والسهولة نابع من ثقته ومعرفته الدقيقة بالمكان الذي ينتمي له وينحدر منه، فهو صبي ريفي رغم عالميته وأشرطته التسجيلية، ترعرع في نورماندي، في مزرعة عاش فيها ثمانية أجيال من عائلته. رغم السلوك غير المبالي والسجائر التي يلفها والذقن الطليعية وخصل شعره الطويلة غير المسرّحة التي توشحت بلون رمادي الآن، إلا أنه يفيض بحس الانتماء.

شعرت بضرورة أن أعلل وأفسر. أحببت أن يفهم. هذا يبدو مهماً لي، رغم أنه لم يخطر لي قبل هذه اللحظة. أشعر أنه من بين كل الناس ربما يفهم. قبل أن أجد الكلمات المناسبة قال(ها قد أتيا)

نظرت ورائي لأرى ليو ودرو وهما يعبران الساحة تحت أشعة الشمس. توقفا وانحنيا لتفحص شيء على الأرض، وهما غارقان في حديث. قرفص ليو وهو يشير بينما كانت درو تدس خصلة من شعرها خلف أذنها.

(إنها رائعة مع الأطفال) سمعت لوسيان يقول بهدوء من خلفي.(أحياناً أفكر بأنها لو ظلت معك لكان ذلك أفضل لها)

استدرت لأنظر إليه فوجدته مشغولاً بالحديث مع النادل.

الفصل الرابع والعشرون

تعافت السيارة بشكل إعجازي بفضل مهارات لوسيان الميكانيكية، ولم يكن يعوزها إلا غسيل من الداخل والخارج لتحسين منظرها. اقترب ليو حين كنت أنظف قطع جريدة قديمة وعلب وكمية مثيرة للدهشة من الفضلات التي تراكمت كما لو أن السيارة قطرت من بحيرة موحلة لتوها. استند ليو على السيارة وهو يضع يديه في جيوبه.

(إلى أين سنذهب بالضبط؟)

نظرت إليه، لم يكن متحمساً للرحيل. لقد كان في الأيام القليلة الأخيرة مبتهجاً وهو يتجول ويركب الحصان ويستكشف ويتنزه في التلال. لم يطلب مني أن نتصل بأمه. الآن ونحن نستعد للمغادرة، عادت إليه شكوكه. تراجع للوراء، وجعد عيونه إثر ضوء شمس منتصف الصباح الساطع، لينظر إليّ وأنا منبطح في المقعد الخلفي. شعره تموج في خصل سوداء غزيرة. إنه يشبهنني أو كما أنذكر نفسي من الصور الفوتوغرافية القديمة التي كانت تحفظها أمي في علبة بسكويت معدنية. كان مثل العودة للوراء، إلى قبل ثلاثين سنة، لأجد نفسي واقفاً خارج بيتنا القديم.

(أنت تتذكر أخي أليس كذلك؟ لقد كنتَ صغيراً جداً. سوف تحبها.) قلتُ وأنا أنهض.(فأنت لم تزر إسبانيا من قبل)

(لكن ماذا إن لم أحبها؟)

(عندها لن نمكث طويلاً.) أستطيع أن أرى إلى أين سيؤدي هذا. إلى أين سنذهب من هناك؟ وكم ستستغرق الرحلة ؟ رميت بقطعة قشر برتقالة في كيس النفايات واستدرت لأواجهه.(متى عيد ميلادك بالضبط؟) سألته وردَّ عابساً

(بابا! أنا أعرف متى عيد ميلادي بالتأكيد)

(أنا نسيت، ذكرني ثانية)

(الأسبوع القادم، يوم الثلاثاء، الساعة الرابعة والربع عصراً) كان دقيقاً في اليوم الذي ولد فيه، وقد فَتَنه هذا منذ أن كان في الخامسة من عمره. إنه يتحرى الدقة والحرص على أن تكون الأشياء في محلها.(وأنت تعرف ذلك جيداً)

(لا أعرف. هل سنذهب إلى شاطئ البحر؟)

(تماماً. هذا ما كنت أفكر فيه. لا يوجد شاطئ أجمل من كوستا برافا في كل العالم. لهذا عليك أن تسرع إن كنا نريد الوصول إلى هناك في الوقت المناسب. ليس لدينا سوى أسبوع فقط). ليو يحب السباحة لدرجة العبادة رغم عدم وجود أي علامة تبين بأنه يخطط لاحترافها. شعرت بأن هذه المناورة الصغيرة التي قمت بها لم تكن كافية. بقي حيث هو واقفاً هناك ينظر إلي. لاحظت بأنه بدا طويلاً. إنه يكبر بسرعة وسيخرج من يدي إلى العالم الواسع قربياً. في غمضة عين، إحدى عباراته التي التقطها من برنامج وثائقي تلفزيوني عن الديناصورات التي لا تزال أحد مواضيعه

المفضلة. انبهار يريحني لأنه يؤكد لي بأن لا يزال صغيراً. في إحدى الحلقات، كان الراوي يتكلم بنغمة رزينة: مقارنة بملايين السنين التي حكمت فيها الديناصورات الأرض، ستمر الفترة الزمنية التي غطاها وجود الإنسان على هذا الكوكب كغمضة عين. انطبعت العبارة في ذهنه لسبب ما، وظل يستخدمها لشهور كلما توفرت الفرصة لذلك.

(كم يستغرق منك ارتداء بيجامتك؟)

(غمضة عين فقط)

هكذا كان وقتنا يمر بسرعة، وسينتهي كل هذا قريباً، ويذوب في سلسلة من الذكريات المشوهة التي ستكوّن حياته، عواطف وشكوك حول من سيقع عليه اللوم برأيه. موسم الطفولة المقدَّس اخترقه سهم طلاق والديه الأسود.

كان ينظر للوراء، إلى البيت.

(سوف تفتقده)

تردد ثم أومأ برأسه.

(حسناً، نستطيع أن نعود إليه مرة أخرى)

(حقا؟ متى؟)

(متى، لا أعرف. في أي وقت. في وقتٍ ما) غارَ وجهه.

(هذا يعني أننا لن نفعل ذلك)

(طبعاً، سنفعل ذلك. أنا لا أقول أننا نستطيع العودة إن لم أكن أعني ذلك) تكدّرت قليلاً بهذا الاتهام. إلى متى سأظل أخذله؟

نظر إليَّ وقال(مع ماما، هل يمكننا أن نعود كلنا؟)

(دعنا ننتظر ونرى إن كان يمكننا ذلك، قبل أن نرسم كل هذه الخطط)

انحنى ليلتقط حصاة (بابا ما الذي سيحدث؟)

(ماذا تقصد؟)

(أنت تعرف، متى ينتهي كل شيء ومتى سنصل هناك؟)

(سنكتشف حينها. لا تقلق حول ذلك. إنها مغامرة. أنت لا تعرف كيف ستنتهي المغامرة حتى تصل إلى صفحتها الأخيرة)

فكر وقال (سأكون على ما يرام، ولن أكون مثل ماركوس. أليس كذلك؟)

(من هو ماركوس؟)

(ماركوس أنت تتذكره. إنه في صفي في المدرسة. وجد والده صديقة وكان على ماركوس أن يرحل ليعيش مع تلك الفتاة الفظيعة، فقد كانت تملي عليه دائماً أن يفعل هذا أو ذاك)

(هل أُجبر ماركوس على الذهاب للعيش مع الصديقة؟)

(لأنها أمه الجديدة. لقد كانت قبيحة في الواقع)

(زوجة والده يعني أنها زوجة أبيه إن كانا قد تزوجا)

(هذا ما يبدو عليهما، هل سأضطر إلى فعل ذلك؟)

لقد أصبح الطلاق زاداً يومياً في عالمه. من يعرف أيَّ أب فاسق وقميء كان لهذا الماركوس، أو ما هي الأعمال السيئة التي ارتكبها وجعلت زوجته تطلقه؟ أنا متأكد بأنني لا أشبهه بأي شيء. لكنك ستعاني من ظرف صعب حين يواجهك صف مليء بالأطفال العالميين، سيعاني ابني من أحكام زملاء صفه الأخلاقية، فكيف سيدافع عن نفسه؟ لكل طلاق أسباب محددة وخاصة بالزوجين المطلقين، لكن يمكن استنتاج التماثل والتعميم اعتماداً على كل البيانات الإحصائية، لكن كيف ستفسر لطفل في الثامنة من عمره عدم وجود أي مخرج من كل ذلك؟

عندما انتهيت من تحميل أمتعتنا في صندوق السيارة الخلفي، التفتُّ لأجد درو واقفة بجانب السيارة، وركها بارز للخارج، يدها في جيب سروالها الجينز الخلفي والأخرى تحمي بها عينيها من أشعة الشمس.

(إذاً سينطلق بطلانا إلى العالم لخوض معركة ضد العمالقة)

(ماذا؟) سأل ليو.

(سيرفانتس) شرحت قائلاً(إنه كتاب عن رجلين يذهبان في رحلة بحثاً عن مغامرة)

(حسناً، أنا لست متأكدة إن كانت تلك الرواية مقبولة لكن أعتقد بأنها تفي بالغرض)

نظر إليها ليو وقال(مهما ستفعلين، عديني بأنك لن تبيعيه)

(أعدك بذلك) ضحكت درو وهي تحضنه بقوة. انفصلا بشكل مربك. استدرت فلمحت لوسيان وهو يراقبنا من داخل الاستديو. تظاهر بأنه يتفحص شيئاً ما في يده، وأخيراً جاء وانضم إلينا.

(إذاً أنت مسافر فعلاً؟) دغدغ بإصبعه أضلاع ليو الذي قهقه وابتعد (أي طريق ستسلكان؟) استدار وسألني. الرجال يناقشون المسائل العملية: السيارات والخرائط والاتجاهات التي سيذهبون فيها. لم تكن لدي فكرة عن الطريق الأمثل إلى كوستا برافا. لقد شعرت بتزايد القلق في الأيام القليلة الماضية، عرفت أن الوقت قد حان ولم أكن راغباً في الرحيل. لكن كل ما أعرفه الآن أننا يجب أن نقوم بالمباشرة. ليس لدي سوى خطة غامضة ومرتجلة أيضاً. في الوقت الحالي سنتوجه إلى ارليس.

(ارليس، نعم طبعاً) كنت منتبهاً لدرو التي كانت تراقبنا حين مدَّ لوسيان يده ليضغط كتف ليو.

(حسناً، أيها الشاب اهتم بأبيك)

أومأ ليو برأسه دون أن يقول شيئاً.

(وأنت اعتنِ به) قالت درو، حضنتني بسرعة (قُدْ سيارتك بحذر) لوحت بيدها مودعة حين صعدنا إلى السيارة.

إنه شعور غريب، الجلوس وراء المقود يولِّد إحساساً مفاجئاً بالشؤم، هيستريا قبل السفر. شعور خانق بوجوب التحرر والغطس. أخذتُ أنفاساً عميقة، دفعت المفتاح داخل المشغل وأنا أصلي

صامتاً وأدعو بأن يكون لوسيان قد ركب القطع في أماكنها الصحيحة، ودوَّرته. ظهر ضوء أحمر على اللوحة فحملقت به، حتى أن ليو اقترب ووضع ذراعه على كتفي.

(ستكون على ما يرام يا أبي، حين نصل هناك، إلى البحر)

دار المحرك من أول مرة، ثم تدحرجنا عبر البوابة إلى الممر الحجري الذي تمشينا فيه مرات كثيرة، مروراً بالجدار الذي كَمَن فيه لوسيان ليصوِّر السحالي التي كانت في شقوقه. ارتفعت غيمة من الغبار الكلسي وراءنا. توقف ليو عن التلويح بعد بعض الوقت، وانخفض في المقعد الخلفي ولم أعد أراه. ها نحن أصبحنا لوحدنا مرة أخرى. أصدرت الإطارات صوت صرير حين ارتطمنا بالطريق غير المعبد إلى القرية. لوحنا بأيدينا للمقهى عندما مررنا به. رفعت الكلاب التي كانت نائمة في الظل رؤوسها ثم خفضتها ثانية. بعد ذلك بدأنا نلفَّ على طول الطريق إلى القرية التالية والتي تليها وهكذا. نهبط ببطء على سفح سلسلة من التلال. حاولنا أن نتأمل كل شيء لآخر مرة: عربات توصيل البضائع، الكلاب التي كانت تنبح، المرأة التي رزحت تحت حمل ثقيل من الحطب، رجال كبار السن رفعوا وجوههم التي تشبه الجلد حين تجاوزناهم. رفع رجل يقود جّراراً أخضر اللون يده محيياً بالخطأ، سابقنا ولدين على دراجات (سكوتر) واختفيا عند المنعطف التالي في نحيب حاد النغمة، الريح في شعورهم والخوذ تدلت من أكواعهم.

العالم مندفع بقوة لملاقاتنا. زدنا السرعة حين اتسع الطريق. تآلفت السيارة فوراً مع قعقعة المحرك، ضربات الإطارات على الطريق. مع كل قرية تركناها خلفنا كنا ننزلق هابطين إلى سهل منبسط، طريق مستقيمة تحيط بها بساتين الفاكهة وضفاف من الخيزران الطويل، شعرت بأن هذا هو الصحيح، ذلك هو المكان الذي ننتمي إليه، التنقل الدائم. في بيت حبيبتي، كتب حافظ الشيرازي، ليس هناك سلام في المتعة. في كل شهقة يصيح جرس القافلة اركبوا!

الفصل الخامس والعشرون

بعد موت أمي سقط أبي في حالة من الدوخة، مثل رجل في غيبوبة، فلم يعد يستطع الاعتناء بنفسه. لقد كَبُرَ عشرة أعوام في ليلة وضحاها. لم يطق البقاء في لندن، ولا يمكنه العودة إلى الوطن. كان في حالة إنعاش، حالة من العجز والضياع في المعتقدات الزنجية. وتَقرّر أخيراً بأنه يجب أن يذهب مع عمر وياسمين ليعيش معهما في الوقت الحالي على الأقل.

(مصير أسوأ من الموت) تأوَّه (حكمتم عليَّ بالحيلة بصحبة أناس يعتقدون بأن (ديزني لاند) إحدى عجائب الدنيا السبع. أنا ضائع) لكن لم يكن هناك بدائل، هل هناك أحد يقيم عنده غير ياسمينة؟

يقع العقار السكني وسط غابة من الألواح الخشبية التي تطوّق مواقع البناء، وصلت إلى أماكن كانت حقولاً غير ملحوظة في ضواحي كانتربيري منذ مدة ليست ببعيدة. كان هناك نموذجان من الوحدات السكنية، النموذج الأول واجهته لليمين والثاني لليسار. عرض الجدران بسماكة سندويشة الجبن وبنفس الصلابة. واجهة بيت ياسمينة وعمر يمينية. إن أُغلق الباب بقوة يهتز السقف والنوافذ مثل أجزاء الطبل الداخلية.

في داخل البيت أنشأ عمر وياسمينة عالماً صغيراً سحرياً أغلقاه بإحكام لصدِّ مأزق أسلوب العيش بعد القومي وبعد الصناعي، كيف يمكنك تناول سكويز تشيز وحلقات الجبنة ومعكرونة سبرايز المجمدة دون أن تصبح جزءاً من المجتمع الذي ينتجها! مجتمع أفسح المجال لظهور المخدرات والحرمان والعنصرية والعنف المجنون؛ المتقاعدات اللواتي في الثمانين من أعمارهن يُغتصبن ويُذبحن في شققهن المنعزلة القديمة، الفحش، الثملون الذين يتبولون على مرجك وهم يغنون عائدين إلى بيوتهم من الحانة، برك القيء، المتشردون، لصوص السيارات وغيرهم. كانت أخبار هذا الرعب الكبير تصب داخل عيشهم المريح من خلال صندوق البريد، في الصحيفة المحلية. العالم الخارجي كريهاً.

لهذا وضعا نفسيهما في وضع سيء. عاشا وهما يسدلان الستائر طول اليوم وعمَّرا جداراً حولهما من فطائر بنكهة الروبيان والبوشار المحمص والمشروبات الدافئة، وبدآ بالصلاة مثل البيوريتانيين المعاصرين الذين أرعبتهم الحرية التي وجدوها في العالم الجديد، فقد كانوا بحاجة إلى تعويض عدم وجود حدود، وتقوية خطوطهم المحيطية الخارجية. كانوا يبنون قلعة، فقد كانوا بحاجة إلى دفاعات وبالتالي إلى التجمُّع. لقد ساهما بدور بارز في الجالية المحلية المسلمة فقد انتخب عمر إلى عضوية مجلس الجالية، وأدارت ياسمينه جمع ثياب قديمة لإرسالها إلى أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي: الشيشان وكابول وفلسطين. كان ذلك كفَّارة من أجل راحة حياتهم. وأقصى أعمال التكفير؟ خداع الفقراء والعجزة والأرامل والشيوخ....

(هناك كثير منهم) كانت ملاحظة أبي الأولى وهو ينظر من خلال زجاج سيارتي الأمامي إلى المدخل، حيث وقف نسل نسله بانتظارنا.

(كلا. إنهما أكبر حجماً فقط) التوأمان، بسبب تناولهما للكاربوهيدرات والوجبات السريعة الغنية بالسكر، انتفخا كمنطادين. كانا يرتديان قمصاناً بلا أكمام بحجم أغطية السرير، رأساهما مدوران

حليقان مثل مكوكين عملاقين. أمسك بالباب دون أن يقوم بأي حركة لفتحه.

(أنا لست واثقاً من هذا. أقصد أنهما يبدوان غريبين بالنسبة لي)

(لقد انتهينا من هذا يا أبي. ليس لديك خيار آخر. هذا أفضل مكان لك في الوقت الراهن، وهذا مؤقت......)

(مؤقت فقط) تمتم وبدا قوله مثل الحكم بالإعدام، لكنهم كانوا سعداء برؤيته. ألقى عمر باحترام خطاباً طويلاً عن الشرف العظيم الذي حظي به في استضافته لوالدي ورجاه بأن يعتبر البيت بيته ويتصرف بحريته. صمد أبي خلال كل هذا، و بدا أكبر سناً مما رأيته عليه عادة، وانخمص وجهه إلى الداخل. كانت الفكرة واضحة، من الآن فصاعداً عليه الاتكال على أولاده. لم يكن وقّع هذا سهلاً عليه. كانت عيناه تتحركان يميناً ويساراً بسرعة وارتاح جداً حين توقف عمر عن التحدث. كان متعباً وقال بأن عناء الرحلة هو السبب، وسيكون الوضع مناسباً أكثر لو استطاع الاستلقاء لبرهة.

أخذته ياسمينة إلى غرفته ليراها، وبدأ الكلُّ في الهمس خشية إزعاجه. أحضرت حقائبه. لقد وضعوه في البيت من الخلف، خلف المطبخ، في غرفة حولت إلى استخدامات عديدة وكانت بها غسالة يفترض نقلها في أقرب وقت بعد الآن.

(ماذا تسمي تلك الأشياء التي يحتجزون فيها الكلاب؟) سأل وهو يتفحصها.

(ليست بهذا السوء. أنت بعيد عن بقية المنزل. أقل ضجة)

(بعيد عن العين، بعيد عن البال) درّة أخرى من قائمة أقواله المأثورة الانكليزية.

كان البيت بسيطاً، نتأ جناحه المطوّل إلى الحديقة. النافذة الوحيدة التي لسبب ما وضعت بارتفاع الكتف، تطل على شريط صغير من المرج. كانت مثل سجن صغير لكنني حافظت على إغلاق فمي.

(هذه هي النهاية إذا)

(إنها نهاية مؤقتة حتى تتحسن صحتك أكثر)

(كلا) كان يحدق بالعشب. استقر طائر عقعق على السياج. لم يلاحظ إلا بصعوبة أنني كنت معه في الغرفة.(هذه هي المحطة الأخيرة). نخس السرير بإصبعه.

(أشعر بأنني مثل تلك الأسماك التي في احد أحواضه) الشارب الرفيع كان أبيضاً تماماً كالرماد، مرقط بشعيرات سوداء قليلة جداً. اتسعت عيناه فجأة كأنه استيقظ لتوه.(ماذا سأفعل؟)

(تحظى بقليل من النوم- ستتحسن بعده)

(لا تملي عليَّ ما سأفعله يا ابن العاهرة) مندهشاً من ثورته حدَّقتُ به في صمت. جلس على السرير فجأة وقال (أنا خائف).

(سيأخذ ذلك بعض الوقت. هذه الأشياء تحدث دائماً)

(لا أريد أن أفقد عقلي. لا أريد أن أنتهي إلى واحد من تلك المخلوقات البائسة، التي لا تستطيع أن تعرف متى بللت نفسها. ضع مخدة فوقي واخنقني حين يأتي ذلك الشيء)

لم أعرف ما الذي سأقوله. لم أسمعه يتحدث بهذه الطريقة قط. امتلأت الغرفة بظلال المساء، وكل ما استطعت رؤيته وميض دموع في عينيه بواسطة الضوء الوحيد القادم من النافذة.

(عدني)

(أعدك. والآن نَلْ قسطاً من الراحة. أغلق عينيك فقط. سوف تتحسن أكثر. أنت متعب.) وقفتُ بسرعة أحثُّ نفسي على عدم مغادرة الغرفة. تدحرج على ظهره.

(أنت لن تكون هنا حين أستيقظ)

(بابا!)

(حسناً. لقد أغلقت عيوني. أترى)

تركته هناك رغم هواجسه. استعاد القليل من نفسه بعد فترة من الوقت. اشترى آلة طباعة قديمة من نوع ريمنغتون محمولة، من محل لبيع الأشياء القديمة، بخمسة عشر جنيها، نصبها على الطاولة مقابل النافذة. وجلس هناك يكتب الرسائل الطويلة لحكومة جلالتها مطالباً بالاستعجال للموافقة على لجوءه السياسي: كموظف سابق للحكومة البريطانية، أثناء عملي كموظف صغير في خدمة حكومة السودان، أشعر بأن لي حق مصان بأن أذكركم بمسؤوليتكم نحو تابع سابق....

كان يُبقي البيت مستيقظاً وهو جالس هناك يضرب على تلك الآلة طوال الليل. بعد ذلك شرع في استشارة منظمات حقوق الإنسان: أي عمل أخلاقي تدَّعونه، حين واحدة من أهم البلدان الديمقراطية في أفريقيا تجر إلى العصور الوسطى من قبل متعصبين دينيين دون أن تذكروا كلمة واحدة من ذلك؟ في الأيام السيئة السالفة، استطيع أن أخبركم، بأننا كنا ننظر بحذر تحت أسرَّتكم لنرى إن كان هناك مؤامرة قادمة.... .

تم تأجيل فكرة العودة إلى الوطن إلى وقت غير محدد:(لن أعود لا حياً ولا ميتاً طالما هؤلاء الطغاة في السلطة)

كان يتلقى مكالمات هاتفية من أصدقاءه القدامى وأقاربهم الذين نجحوا في الخروج من البلاد، تحدثوا وهم يبكون عن قصص الرعب التي حدثت للمعتقلين، ومرَّر والدي تلك الروايات إلى مجلس الأعيان: رجال ونساء مهددون في الذهاب إلى أعمالهم اليومية، صحفيون يعدمهم ضباط أمن الحكومة الذين لديهم الشجاعة لتسليم أغلفة الطلقات الميتة ووضعها بيد الأرامل الحزينات. هكذا قسوة يجب أن لا تمر دون شجب، سادتي الأعيان، لهذا ناشدكم....

الكثير من هذه الرسائل لم تعرف طريقها إلى البريد أبداً. كان فيها أخطاء طباعية وفلت فيها الورق في بعض الأماكن أو استطال السطر وتجاوز الحافة أو تحولت الكتابة من اللون الأسود إلى الأحمر في منتصف الجملة، حيث بدّل أحد المفاتيح التائهة ربطة الشريط، كما كانت هناك تصحيحات غير مقروءة بخط يد (مخربش) في أعلى الهوامش وأسفلها. الشيء الهام أنه كان عملاً من النوع الذي أبقاه منشغلاً. عرفَتْ أحد الجرائد المحلية بمحاولاته (الفضل بلا شك لعدد الرسائل التي أرسلها للجريدة) : كي تزيدوا تداول منشوراتكم وخصوصاً للقراء الكبار، اسمحوا لي بأن أقدم لكم نصيحة مهنية: قلصوا الأعمدة العمودية على الصفحة لأنها تشوش وتربك، فيجد المرء نفسه يقرأ عن علاجات آلام الظهر أو المسهلات وهو يقرأ وصفاً لكرنفال مسلٍ حدث مؤخراً...)

أرسلت الجريدة شخصاً ليقابله: " صحفي مشهور يقاتل من أجل حقوقه كمقيم محلي".

(إنهم لا يفقهون شيئاً) كتب لي رداً على ذلك باكتئاب (ليس هناك من يهتم. يجب عليهم أن يبحثوا عني في أطلس. وربما كنت أتحدث عن كوكب آخر بعيد بقدر اهتمامهم أيضاً. أناس لا يرون أبعد من أنوفهم. هم مهتمون بمراكز التسوق الجديدة وعدد أنواع البوظة الايطالية التي تُوفر لهم لالتهامها.) لقد توقف عن إزعاج نفسه في ارتداء ثيابه، فكان يقوم بجولات حول البيت في عباءته الصوفية، (سيتزين كين) الحديث يرثي ضياع إمبراطوريته. كان يدفع مستضيفيه إلى الجنون.

(ماذا ستفعل معه؟) تذمرت ياسمينة وهي تتكلم بالهاتف(إنه يزداد استحالة يوم بعد الآخر، يستبد بالأولاد ويتهمُّهم بالجهل لأنهم يفضلون الألعاب على الكتب. ليس الأمر أنهم لا يقرؤون دروسهم، فهم يفعلون ذلك طبعاً. هم يكتبون واجباتهم المدرسية فضلاً على أنهم من الأوائل في صفهم. إن عمر صارم جداً معهم، ولا يسمح لهم باللعب حتى ينتهوا من أداء واجباتهم، لكن كل ذلك لم يرضه. أوه، لا. يريدهم أن يقرؤوا يوليسيس، هل يمكنك تخيّل ذلك؟ أحضر إلى البيت نسخة، نظرت إليها، إنها مقززة. ناس يتغوطون وكل شيء. كيف يمكنه القول بأن ذلك مفيد لهم)

بعد فترة بدأ سخطه يتحول إلى جنون الاضطهاد. لم يكن ينام بشكل جيد ولم يستطع الجلوس والتركيز على شيء محدد. ظن أنهم يحتجزونه كسجين، ويراقبون مكالماته الهاتفية أيضاً. فبدأ يكلمني من هاتف عمومي في وقت متأخر من الليل. كنت أسمع صوت فرقعة النقود المعدنية وهي تغور في الآلة وأحضِّر نفسي لما هو آت.

(يا الله. أنقذني، أخرجني من هنا)

(ما هي المشكلة الآن؟ أين أنت؟ هل الذي أسمعه صوت مطر؟)

(مطر؟ هل تريد أن ترى المطر؟ نوح نفسه لم ير مطراً كهذا!)

(أخبرني أين أنت؟)

(في الشارع، لقد هربت إلى الشوارع. إنهم يدفعونني إلى الجنون بأساليبهم الورعة واستهجانهم المتكبر. ما الذي فعلته كي أعاقب بمثل هؤلاء الأولاد؟) انكشف أخيراً سبب هذه المحنة. جاء إليه أحد التوأمين، وقال له بأنه متعب ولا يستطيع الصلاة، فقال له أبي إنه يستطيع الصلاة في ذهنه وهو في السرير. عرفت ياسمينة بهذا فذهبت إليه وألقت محاضرة طويلة، وتذكرتْ كيف خذلها وهي طفلة، هو الذي خاننا لأنه لم يربِّنا بطريقة صارمة، وأنها اضطرت للقتال لاسترداد جذورها الإسلامية.

(أنا خذلتها، هل خذلتها أنا؟ هل جعت يوماً؟ ألم تأكل مثل كل الأطفال؟ هل ضربتك كما يضرب الآباء أولادهم؟ كلا. لا أذكر شيئاً من ذلك.)

(اسمعني) نجحت بأن أقول وأتدخل (لا يمكنك البقاء في الظلام والمطر، ستصاب بذات الرئة)

(الموت هنا أفضل من معاناة اتهامي بأنني أب فاشل) انقطع الاتصال، وكان هناك صوت صرير عجلات ثم قعقعة وخبطة عَلَتْ على صوت المطر المتواصل. بعد وقت طويل رُفِعت سماعة الهاتف التي تركت معلقة، وسألني صوت مألوف بشكل غامض(من هذا، من فضلك؟)

(عمر، هل هذا أنت؟ أنا ياسين. ماذا يحدث؟)

(لا شيء. لا تقلق. لقد وجدناه الآن. لقد أدخلته إلى السيارة وسآخذه إلى البيت. إنه متعب قليلاً، ومع هذا المطر. لا تقلق، الأمر على ما يرام الآن.) أغلق الخط فانتابني شعور كريه. كان ذلك مثل زجِّه في إصلاحية.

وافقت أن أذهب وأمضي عطلة الأسبوع معه هناك لأخفف التوتر. وصلت في وقت متأخر، عصراً، ووجدته نائماً. كانت ياسمينة في المطبخ.

(من الغريب أن تراه بهذا الشكل) قالت

(هل تقصدين بأنه خرف؟ نعم هذا غريب)

(علي أن أفكر طوال اليوم أين يكون، إن كان على ما يرام يكون مع الأولاد) تناولت منديل ورقي(كلينيكس) لتمسح دمعتها.

(يبدو أن ذلك حدث بسرعة كبيرة)-

(أعرف، أعرف) قالت (كان يجب أن يعيش والداي مدة أطول ليريا الأولاد وهم يكبرون)

(أنا متأكد أنهما كانا يريدان ذلك لو توفر لهما هذا الخيار)

نشقت ونظرت للأعلى (نحن قلقون عليك)

(نحن؟)

(وأبي أيضاً، إنه قلق من ذلك) كانت تتفحص وجهي لتجد أي أثر للشعور بالذنب.(الخيبة ليست سهلة عليه يا ياسين)

وصل عمر قبل أن تتطور المحادثة. بعد العشاء جلسنا في غرفة المعيشة معاً. حاولت أن أكلمه بينما كان يقلِّب في قنوات التلفزيون.

(إذاً، كيف تعاملك الحياة؟) سأل عمر. ظهر في التلفاز صفٌّ من النساء الرياضيات اللواتي انشغلن بتمارين جمبازية نشيطة، كنَّ يلبسن صدر ضيقة ومرنة، مساحة كبيرة من وسطهن عارية، صدورهن بارزة وأوراكهن منثنية. بعد بعض التأجيل وجد الزر وغير القناة. كانت مشاهدة التلفزيون تزخر بالمخاطر، حرام كامن، معيب ومفسد أخلاقي. كما أن المحرم يمكن أن يداهمك في أي لحظة. لكنني لاحظت أن غريزة عمر الرقابية تميل إلى بعض التأجيل، إلى حد ما حين لا تكون ياسمينة في الغرفة. يسبب جهاز التلفزيون معضلة محيِّرة للحداثة الإسلامية. لا يعرف المرء ما الذي سيشع في غرفة جلوسه. دعايات الشامبو وسوائل التنظيف والتدفئة المركزية، مهما كان العذر، ستكون هناك امرأة في الحمام تنشر فقاعات الرغوة على جسدها العاري. طبعاً الحل واضح، التخلص من التلفزيون لكن يبدو بأنها تضحية كبيرة جداً. لدى عمر ضعف شخصي تجاه قنوات الخيال العلمي، وكلما كان لوحده في الغرفة تجده منغمراً في حكاية متقنة عن المخلوقات الفضائية العازمة على نشر فيروس شرير في العالم. لقد سمعت عن أشخاص كرّسوا حياتهم لكشف أسرار الدوائر التي وُجدت في حقول الذرة والطائرات التي اختفت في الأجواء، ضحايا مبهورون يتجلون في الطرق على بعد آلاف الأميال من بيوتهم وأخر ذكرياتهم عن قرص مدوَّر امتصهم. سمعت بهم لكنني لم أقابل واحداً منهم قط.

بحث عمر في الانترنت عن غرف دردشة مختصة ومواقع معلومات، وراكَمَ معرفة واسعة مع أشخاص ملتحين يعيشون في (اوجار) في (ابالاش) في مزرعة ريفية نائية وسط الغرب الأمريكي. أناس فكرتهم لقضاء مساء أحد ممتع في دسِّ أيديهم في صندوق مملوء بالأفاعي المجلجلة، ليواجهوا محنة العهد القديم بأفعى. وتساءلت ماذا سيقولون له، ابن ملك السردين، لو سافر ونزل شخصياً في ميزوري مع آياته القرآنية الموضوعة بإطارات على الجدران، وأسماكه الاستوائية المقلمة المعروضة بالصالة؟ قد لا يكون هناك رابط بين انبهاره بالأضواء التي تدور في السماء وبين إيمانه الديني. أي حديث مع عمر يحدث دائماً على خلفية سفينة فضائية ورجال تغطيهم الدروع وبنادق شعاعية مصوبة وسيارات تنفجر إلى لهب.

(إذاً، هل تسير التجارة بشكل جيد؟)

ركضت امرأة في الشارع متجهة نحونا وهي تصرخ وتمسك رأسها بيديها.

(امممم، جيدة. شهر جيد) ردَّ وهو يمضغ البلاذر، نادى ياسمينة من الغرفة المجاورة وسألني إن كنت أرغب بشرب الشاي.

(لا، شكراً)

(أكيد؟) رَجِعَ إلى الوراء في كرسي مجنّح كبير بلون باهت.

(نعم، حقيقة) تجسد مخلوق يضع خوذة فضيّة في طريق خال، بدا بأنه تائه. متعجب بلا شك، لماذا نسيَ أن يحضر معه خريطة لكانساس بعد أن قطع بلايين السنين الضوئية.

(أنا آسف لأنه أصبح صعباً جداً)

(ذلك ليس ذنبك) هزَّ عمر كتفه (إنه يكبر ويعجز)

كنت فضولياً لمعرفة كيف حدث كل هذا، ربما كان واضحاً، حين تربو وهم يعلمونك عن انكلترا كوبرفيلد (روايات ديكنز وليس المشعوذ) ولم يخبروك بأنك ستتعرض للإهانة ولنظرات الكره وللتفتيش العشوائي. هناك عمليات ذبح ودسوا للناس البنزين والغائط في صناديقهم البريدية، وإن لم يحدث لك هذا فأنت تعرف بأنه محتمل. لكن هناك شيء أعمق للرهانِ هنا، وجليٌّ في المعتقد العام: بهجرتك المادية، يجب عليك أن تفعل الشيء نفسه ثقافياً، أنتتخلى عن كل فضيلة وسمة ثقافية مميزة، تتمسك بها من عالمك السابق، وتصرِّح بأنها فارغة وتافهة. لكي تأكل فطائر الجبن المعصور وتقرأ صفحات الفضائح لتتجنب اللامبالاة المبتذلة التي أبدتها بريطانية العلمانية وبعد الحداثية، عليك أن تتنكر لكل معتقداتك السابقة.

أربكني أنهم كانوا يبدلون القناة أو يطفئون جهاز التلفزيون كلما تأتي نشرة الأخبار، دون أي تفسير. في ليلتي الأخيرة صممت على أن أعرف إن كانت كاليفورنيا قد سقطت في البحر أو إن اندلعت حرب في مكان من الكوكب، فتسللت إلى الغرفة التي لم يكن فيها أحد. لم أتجاوز العناوين الرئيسية حتى أُطفأ التلفزيون. تلفت حولي فوجدت عمر واقفاً في مدخل الباب خلفي وهو يحمل جهاز تحكم آخر.

(أردتُ أن أشاهد الأخبار) شرحت قائلاً متلعثماً مثل طفل أُمسِكَ به متورطاً في شيء لا يجوز ذكره.

تمطّقَ بلسانه تعبيراً عن نفاذ صبره.(لا معنى لكل ذلك، ما يخبرونك به غير مفيد إطلاقاً) جلس عمر في كرسيِّه ورفعَ حذاءه عن الأرض ووضعه على مسند الأقدام.(هل تتصور بأنهم يقولون الحقيقة؟ الآي تي إن؟ البي بي سي؟ السي إن إن؟) وأطلق ضحكة طويلة خافتة، دعابة حول مغفل هنا. جاءت ياسمينة من المطبخ وانضمت إلينا. تساءلت متى سيشركونني في الدعابات. لكن ذلك لم يكن دعابة وإنما منتهى الجدية.

(هل تعلم بأنك تتحدث عن نوع من نظرية المؤامرة؟)

(ياسين، الكل يعرف بأن اليهود هم من يسيطر ويدير الميديا، هنا وفي الولايات المتحدة. هم يديرون الشبكات والصحف والتلفزيون ويديرون هوليوود. هل رأيت في فيلم واحد عربياً لم يكن إرهابياً وأميَّاً وبدون ذقن؟ سمِّ لي واحداً)

(تلك هوليوود) قلت معرضاً (إنها تعرض الأذى والجهل لتزيد من مشاهديها. لا جديد لديها.)

هزَّا رأسيهما في تناغم ومدَّ عمر يده يحثني لأرى الضوء(كيف قابل الناس ذلك الجاهل؟ هل تعتقد أن ذلك محض مصادفة؟ لا يا ياسين يا صديقي. استيقظ يا أخي! إنهم يكرهوننا! يريدون أن يروا المسلمين وقد مُسحوا عن وجه الأرض) جلست ياسمينة ووضعت يديها في حضنها. إنهما يقولان الحقيقة. لم أقدر إلا أن أفكر بالأفلام التي كانت تشجع الجهل وتشجع التحامل والضغينة وتفرض ذلك النموذج النمطي، لكن ذلك كله يظل بعيداً عن استنتاجهما الذي قدماه.

(أنت من بين الناس كلهم يا ياسين يجب أن تعرف أفضل)

(للميديا طريقتها الخاصة بالتعويض. فهي تبين الحقيقة أخيراً)

(هل تقصد عموداً لا يقرأه أحد في الغارديان؟ هؤلاء اليساريون مدانون بالفاشية العلمانية وهم يستخفّون بكل من لا يتفق معهم في الرأي. أين ذلك الاختلاف؟)

لم يكن في البيت كله أي جريدة سوى في غرفة والدي.

(هناك تحيز في الخارج، أعرف ذلك فقد رأيته وجربته بنفسي، وهناك جهل وتحامل، لكن يجب علينا أن نؤمن بالصحافة الحرة)

(لماذا؟ هل لأن الإيمان بذلك أريح لك؟)

(لأن الصحافة الحرة جزء جوهري في أي ديمقراطية. لا يمكن محاربة التحامل بالتحامل، ما الذي كنت أتحدث عنه؟ الديمقراطية؟ الصحافة الحرة؟ لقد عرفت كيف تسير الأمور هناك. لماذا كنت أدافع عن نظام كنت أقاتل ضده في صحيفة الديلي كرو؟ لقد رأيت كيف كانت تُحذَف العبارات وتُنتَقى حسب رغبات المحرر، لكن ماذا لدينا من خيارات؟ ما هو البديل؟)

تنحنحت ياسمينة (يوجد شيء نويت أن أقوله لك يا ياسين)

تساءلت إن كانا يتدربان ويحفظان هذا، رفع عمر يده ليصحح ما قالت) نوينا الاثنان أن نقوله لك) انتابني شعور بأنني أعرف ما هو قادم.

(بالنسبة لكتابك) قلبت ياسمينة كوب القهوة بيدها. كوب (ديزني لاند) تذكار لواحدة من زياراتهم الكثيرة لها. هما يحبان ذلك المكان. حاولا أخذ والدي لكنه تظاهر، بشكل مقنع جداً، بالتهاب زائدته

الدودية ونجح في الذهاب إلى طبيب، امرأة ايرلندية متبجحة وصفت له الراحة وعدم الحركة لمدة أسبوع على الأقل.

(نحن نشعر بأن علينا أن نخبرك بهذا يا ياسين ولا تُسئ فهم ما سنقوله) أخذت ياسمينة نفساً عميقاً. انتظرت (انه أمر مربك) تنهدت. (كيف يمكنك قول تلك الأشياء عنا وعن وطننا؟)

(وعن الفقر المدقع؟)

(والقذارة والبؤس؟)

كان رأسي يتراقص ذهاباً وإياباً بينهما.

(يعود كل تحامل هذه البلاد ضدنا إلى الماضي)

(التخلف)

(الأعمال الوحشية)

(أكوام النفايات)

(الأطفال المشردون الذين يستنشقون البنزين، ماذا سميّتهم؟)

حاولت أن أستجمع قواي.(طرازانيون، أو شماسيون. إنهم موجودون ويسكنون الشوارع)

(لكن ما علاقة هذا بك؟) رفعت ياسمينة رأسها لتواجهني، وجهها شاحب يغطيه رعب كبير (العيب والعار على هذه البلاد يا شقيقي، كيف أمكنك فعل ذلك؟)

(الشيخ) نغَّمَ عمر قائلاً، وهو ينظر إلى السقف ويدغدغ لحيته عندما ظهرت إهانة جديدة

(الشيخ؟)

(أنت لا تتذكر أيضاً) قالت ياسمينة (الذي كان يداعب الصبيان ويشرب المريسه. لقد هَزأتَ بنا كلنا)

(يجب عليك أن تكون فخوراً بنفسك)

(كانت تُعتبر مشروباً مغذياً وليست كحولاً. كانوا يأخذون طاسة من المريسه ويضعونها بجانبهم وهم يعطون الدرس. مجتمعات كثيرة.....)

(كما أنك أيضاً حوَّلت حياتنا إلى فرضية انثربولوجية)

كانت ضربة تحت الحزام واضحة لي، أنا ذلك الخائن الثقافي الذي تزوجت بعد ذلك من واحدة من قياسي الجماجم. لقد كنت ساذجاً طوعياً ومتورطاً مستتراً في المؤامرة.

كيف لي أن أعلل أنه لو كان هناك قليل من الاستقامة في ذلك العمل لقُصفتُ بالغضب؟ أنا لم أكتب ذلك الكتاب لأرضي فيه الطبقات التي تتمتع بالنفوذ والامتياز ورؤيتهم الرومانتيكية للبلاد التي لا يعرفون شيئاً عن وجودها، كما أنني لم أكتبه للغربيين المُتْخَمين أيضاً الباحثين عن دليل فساد بربري ومتوحشين نبلاء. كتبته لأتمسك بعالم أتذكره، ولإنجاز ذلك كان علي أن أدونه بصراحة وبدون تزييف. كانا يحدقان بي كما لو كنت مجنوناً تماماً. كانا يشفقان علي.

قالت ياسمينة (ألا تدرك ما فعلته؟ لقد خنت نفسك. أين يتركك ذلك؟)

(كنت أحاول أن أصف الأشياء كما هي عليه)

(الأمر لا يتعلق بنا نحن فقط) ابتسمت ياسمينة بحزن.(أنت أزعجته يا ياسين. لقد جلبتَ العار لوالدك بتلك المحاولة المزيفة والعقيمة) وقف عمر على قدميه وتمتم بشيء عن الصلاة. جمعت ياسمينة الأكواب وترددت قبل أن تبتعد (أشعر بالأسف عليك، حقيقةً أنا كذلك. أكثر من غضب وخزي. أشعر بالشفقة. ليس لديك ما تؤمن به. ما الذي يؤول إليه شخص كهذا؟)

جلست وقتاً طويلاً هناك بعد ذلك. ماذا لو كانا على صواب؟ ماذا لو لم يكن هناك أشياء كالصدق والمعايير الموضوعية؟ ماذا لو لم تكن هناك قيم إنسانية سامية وحقائق أخلاقية مطلقة؟ لكن لو كانا على صواب، إذا كان كل ما خلَّفناه من حقائق نسبية، التحامل يبرره التحامل المضاد، التعصب والطائفية، فلن يتحسن شيء أبداً وسيحكم على تطور الحضارة بأن يبقى مقَّزماً، وأفضل ما يمكننا فعله هو التوقف، علامة العجز، وبهذا تتقلص البشرية إلى سلسلة من الفِرَق، ما سمي بالقبائل. إما أن تكون معنا أو أنك ضدنا. القيم التي رثى أبي ضياعها، لم تتلاشى لكونها علامة مرضية عن كبره في السن، وإنما عن تراكم الفشل في التأقلم مع المختلف. لقد فُقِدَت منا كلنا إلى الأبد. أدركتُ الآن أنني كتبت كتاباً له، آملا أن أحمل صراعه من أجل العدالة الاجتماعية إلى مستوى آخر، ومحاولاً تحقيق طموحاته لي كباني أمّة.

لم نتكلم عن الكتاب قط، أنا وهو. في عصر اليوم التالي جلست معه في غرفته. كان طعام الغداء لا يزال في الميكرويف(الفرن) وكان بقية أفراد العائلة في المطبخ يقضمون وجبات خفيفة بتشوق. وضع إصبعه على شفته وذهب ليغلق الباب. (إنهم يعاملونني كأبله، رغم كل حديثهم عن الدين. ما الذي يعرفونه عن الإسلام؟ أنا صليت وأمي صلَّتْ وجدّي ذهب إلى الحج، إلى مكة على ظهر جمل! هذا هو الإيمان. أما بالنسبة لهم فهو مجرد موضة. إضافة أنيقة لمظهرهم. يريدون أن يكونوا مختلفين. يريدون من الإنكليز أن يفسحوا لهم الطريق ويحنوا لهم هاماتهم تبجيلاً لتقواهم وورعهم وقدسيتهم) كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. (أنا لم أربِّ أولادي كي يشعروا بأنهم أفضل من غيرهم أخلاقياً ولا حتى من الإنكليز أنفسهم. التساوي وليس التفوق إطلاقاً. من نحن لنكون أسمى من الآخرين؟ ألا نجثم على الأرض ونحرك بطوننا مثل الناس العاديين؟)

(اهدأ، سوف تزعج نفسك)

(ماذا تعرف؟ أنت لست أفضل مما هما عليه. تلك الرواية التي كتبتها؟ كل تلك اللغة المتأنقة، لماذا لم تنقل الواقع كما هو؟ لماذا لم تخبر العالم؟ بدا وجهه نحيلاً، نتأت عظامه وبرزت عروقه على جبينه. الفقر المدقع؟ المستوى العالي من الفساد؟ لقد عملت لأكثر من أربعين عاما وأنا أحاول تسليط الضوء على تلك القضايا بطريقتي الخاصة الصغيرة. وها أنت الآن حين نلتَ ما أردت وكان العالم كله ينظر، ما الذي كان عليك أن تقوله؟ الخبيزة والرمان ورائحة التراب أثناء هطول المطر!....)

(بابا أرجوك أن تهدأ) لكنه تطور ودخل في نوبة من الغضب الشديد ومن الواضح أنه كان يعاني منها منذ وقت طويل.

(الفحش الذي سمحنا للعالم أن يفعله ببلادنا. صندوق النقد الدولي. لا تحاول إسكاتي. دعني أنهي! لم يكن لديك الوقت لتذكر ذلك؟ المعيب في ذلك! ابني أنا! يسدُّون طريقنا في كل فرصة تتوفر لنا. عقوبات هنا وتعديل قروض هناك. الديون! الديون! كل تلك السدود غير النافعة التي لم تكتمل، وأنظمة الري التي تتطلب استثمارات هائلة في المكننة. كنتَ تستطيع قول شيء عن الحرب الأهلية التي ليس هناك من يكترث بإيقافها. لكن لا. أنت بعتنا مثل حلية رخيصة في السوق.

(هوّن عليك، أرجوك. كل هذا الانفعال ليس جيداً لصحتك)

تفجرت حبات عرق على جبينه. كان يشد ياقته (كل حياتي وأنا أؤمن... كرست نفسي ..... لبناء.... شيء ما، آه، يمكنني أن أفاخر به لكن انظر ما يجب عليَّ أن أباهي به، آه)

(اجلس فقط والتقط أنفاسك. دعني أحضر لك كأساً من الماء. أنت لا تبدو بوضع جيد) كان العرق ينهمر من وجهه. جلس ببطء على السرير.

(يا الله أنا لا أشعر بأنني بخير) كان ينظر إلى الأرض. لم يتحرك لوقت طويل، ثم بعد ذلك مال للأمام وتدلى لسانه إلى خارج فمه. قرفصت لأنظر إليه. لم يستطع التكلم. لم أعرف ما يجب علي فعله. لم أرَ في حياتي إنساناً يصاب بذبحة قلبية من قبل.

حين خرج من المستشفى، الشخص الذي عرفته وأحببته واحترمته وخشيته طوال حياتي، انكمش وتحول إلى رجل عجوز مطيع. أنكرَ بأنه تغير بأي شكل، أكَّدَ للكل بأن لديه عمل يقوم به. لكن آلة الطباعة وَجَبَ نقلها إلى النافذة العالية لتفسح مجالاً للمطربانات البلاستيكية وقوارير الدواء. ظلت هناك وغطاؤها عليها، جاثمة مثل غراب أسود صامت يراقبه من فوق.

تلاشى الغضب، وهدأ حنقه على العالم الذي حمله في حياته، وتضاءل إلى شعلة هزيلة مترجرجة. عند منتصف الصباح كان ينعس وينام في كرسيّه مع جريدة مجعدة في يديه لم يقرأها، وخيط من اللعاب يسيل من زاوية فمه المفتوح مثل خيط عنكبوت.

الفصل السادس والعشرون

استيقظت لأجد العالم في صمت مطبق- لا شيء يتحرك. كانت ساعتي تشير إلى العاشرة وخمس دقائق وانتابني شعور بأن هذا القدر من النوم سيكون كل ما سأحصل عليه اليوم.

كانت شوارع ارليس ضيقة ومظلمة، لا حركة فيها. ليس فيها مكان أذهب إليه ولم يكن بوسعي انتظار الصبح.

وقفت لكنني وجدت صعوبة في المشي، فقد كانت رقبتي مشدودة للأعلى. عالجت الأمر بشكل هادئ بقدر ما استطعت. انحنيت لأتفقد ليو في السرير الآخر. كان نائماً بعمق. رفس البطانيات وأبعدها عنه، نائم وأطرافه ممدودة مثل شخص أمسك به وهو يطير، يداه وساقاه شبه مطوية ورأسه مائل للخلف وفمه مفتوح. صبي راكض. إنه يشبه واحدة من شخصيات الرسوم المتحركة المغرم بها التي تطير في الجو. تفحصت العصبة التي كانت فوق رأسه إن كان الدم قد رشح من خلالها أو إن توقف النزيف. أنا قلق من أثر إصابته بارتجاج دماغي.

لقد تغيّر كل شيء في الساعات القليلة الماضية. انتهت السيارة وكانت كل أشياءنا مكومة في خردة معدنية قذرة في الطرف الآخر من المدينة وبات علينا أن نذهب ونفرزها ونرى ما نستطيع حمله معنا وما سنتخلى عنه.

لقد حللت الأمور كلها في ذهني بعد ذلك. جلستُ دائخاً تحت ضوء المستشفى الأبيض بانتظارهم ليأتوا ويضعوا الغرز لرأس ليو. لقد كان أخدوداً ضيقاً على الطريق. فقد حفر العمال الذين كانوا يضعون أسلاك هاتف أو أنابيب شقاً محورياً –اخترق الطريق من الجانبين، كسوه بالرمل وكسارة الحجر لكنهم لم يعيدوا وضع الزفت عليه. كان يوم العطلة الأسبوعية وهم لا يعملون بعد ظهر يوم الجمعة وقالوا لأنفسهم (هذا يكفي. لن يذهب الطريق إلى مكان آخر، وعلى هؤلاء الأشخاص المنعمين بسياراتهم الكبيرة أن يعتمدوا على نقودهم حين يرتطمون به). كان المطر يهطل بغزارة والطريق وريد أسود بسبب القار الذي سكب عليه وزلقاً من المفرزات المعدنية. هل كنت أقود السيارة بسرعة كبيرة؟ أتذكر بأنني كنت أفكر بأمي وكيف ستستمتع في فرنسا لو كانت هنا. لقد كانت الأماكن الجديدة التي زرناها معاً قليلة. كان ليو يغني لنفسه في المقعد الخلفي، مستمتعاً بالأمان والدفء وعدم البلل في سيارة متحركة وسط هذه العاصفة. سيارة البيجو الصلبة والقوية والثقيلة، التي بدت كملاكم كبير في السن، كانت تحمل وزناً أكثر مما اعتادت لكنها ظلت ثابتة.

هبَّ اضطراب هياج قوي فوق الحقول الواقعة قادماً من الغرب، وتراكمت غيوم زرقاء فوق بعضها البعض في تباين قوي مع الذرة الذهبية المخضرة المتمايلة. انزلقت خيوط فضية عبر السماء وضربت حبات المطر الزئبقية الفضية زجاج السيارة الأمامي.

ازدادت حدة المطر وقوته، وكانت السماء سوداء تماماً حين قفز المقود من يدي وكأنه جفل. شعرت كما لو أن شخصاً حاول انتزاعه من قبضتي. كان هناك صوت انفجار إطار عرفت لاحقاً أنه أحد الإطارات التي كان يجب أن أغيّرها منذ أشهر لكنني لم أفعل. تخدَّرَ رسغي وأقفل الإطار المنفجر المقود في طرف واحد وأصبح قاسياً جداً. لم أستطع أن أجعلها مستقيمة. سمعت نفسي وأنا

أصرخ. كان الماء ينهمر على يمين ويسار زجاج السيارة الأمامي، وكانت أضواء السيارات الأمامية تطفو كالشموع وهي قادمة نحونا. أقفلت قدمي على المكابح لكننا واصلنا التحرك ثم سقطنا في الظلمة. حدث ذلك وأنا عاجز عن التصرف.

يفترض بأنني فقدت وعيي لحظة، فقد أمضيت بعض الوقت حتى عرفت أين كانت الأرض وأين السماء ومن أنا وماذا كنتُ أفعل هنا في هذا المكان الماطر. نبض رأسي، كانت السيارة مقلوبة للأعلى وتوقف المنظر الطبيعي عن الحركة. سمعتُ أصواتاً بعيدة. هناك صمت في المكان الذي كان ليو يغني فيه. وجدت قدمه أولاً، وبطريقة مجنونة تلمَّست طريقي إلى جسده. كان وجهه مبللاً. وضعت إصبعي على فمي فشعرت بطعم معدني وترابي. حاولت هزَّه بلطف في البداية ثم بوحشية حين غمرني الذعر. كانت هناك أضواء تتراقص متجهة نحونا وهناك ثقل على صدري منعني من التنفس. كان الناس يصيحون ببعضهم البعض من بعيد، لكن بصورة متقطعة كما لو أنهم في حديث عرضي. لماذا لا يستطيعون الوصول إلينا؟ هل أدركوا أننا بحاجة إلى النجدة؟

سقط الضوء على وجه ليو وكان كل ما رأيته هو الدم. خمار أحمر انسدل من صدغه. لقد مات. أنا متأكد من هذا. لم تظل حياة في هذا الجسد الصغير. لم تتحرك الذراعان الصغيرتان ولا الساقان الصغيرتان. كانت باردة، ليست دافئة، كما حالها حين يكون نائماً. زوج من الأيدي حاولتا سحبي، قاومت. لم أُردْ أن أتركه هناك لوحده. رَفَست. صراخ أكثر. كانوا يركضون إلى الخندق. وميض ضوء أحمر. توقف المطر وفاح الهواء برائحة التراب الرطب الذي ذكَّرني بالوقت الذي كنت فيه طفلاً.

فيما بعد حين قُدِّمَتْ لنا الإسعافات الأولية ونُقلنا إلى المستشفى، كان الأمر أشبه بالاستيقاظ البطيء من نوم عميق، لأجد أن الحلم الذي كنت فيه حقيقة، فقد أصيب ليو في رأسه ويحتاج إلى أربع غرز، كما أصيب بكدمات ورضوض أخرى بسيطة. أما أنا فقد جرحت جرحاً بليغاً في ذراعي إذ انغرزت فيه قطعة زجاج، ووضع رسغي الأيسر في الجبس، وتمزقت أربطة قدمي لكنني لازلت أستطيع المشي بصعوبة وألم. لقد كنا محظوظين، كما قالت الممرضة، وهي تنظر في عيني، محظوظان جداً، لقد مات أشخاص بين ذراعيها ورحلوا عن العالم، ومنظر وجهها ثابت للأبد في عيونهم. لم أُردْ أن أغادرها، أردت البقاء بجانبها إلى أن تزول تلك الأشياء السيئة.

أخذنا سيارة أجرة إلى المرآب الذي قَطَروا إليه سيارتنا في ساحة للخردة في ضواحي البلدة. كان ليو يعاني من صداع. استلقى في سيارة الأجرة التي دخلت فيها وذراعي في الوشاح. كانت السيارة وكأن شخصاً أخذ مطرقة وحطم مقدمتها، فقد كانت مجعدة وملتوية بطريقة لم أتخيل أبداً أنها ممكنة. كل ما كان مستقيماً وناعماً أصبح مجعداً ومكسراً. لقد فقدت شكلها. لم تعد انسيابية وقادرة على الطيران لتنقلك من هنا إلى هناك. لقد فقدت الشيء الذي يعطي لها المعنى. لقد رآها الميكانيكي من قبل. الميكانيكون والممرضات حراس البوابات بين هذا العالم والعالم الآخر. هَزَّ كتفه عدة مرات، مسح يده بخرقة متسخة بالزيت وقال إنه كان سينقلها لو أن أحداً أفرغها من الأشياء التي في داخلها، قبل أن يرفعها ويحملها إلى حقل الإطارات المعدنية المهروسة في الساحة الخلفية.

كان هناك فدادين من السيارات المحطمة المرمية هناك، من كل نوع وشكل. كانت مصفوفة فوق بعضها مثل قرميد بناء، مثل أرتال من شواهد القبور. في المستودع هناك أبواب مخلوعة مستندة

على الجدار، عجلات وصدَّامات تكومت فوق بعضها، أجزاء المحركات برزت وصنفت على الرفوف. كان الناس يأتون من كل حدب وصوب، أو يطلبون الأجزاء بالهاتف، مصابيح، مولدات، مشغلات، مضخات بنزين، خزانات وقود، علب سرعة، كلها معلمة بالموديل والعمر، وضعت على الرفوف تنتظر من يطلبها. كانت مثل أعضاء الموتى. كم قصة موت هناك في هذا الحقل؟ وكم حياة انتهت في ذلك المعدن المجعد والزجاج المتكسر؟

أتذكر الحقل الذي على مقربة من فيردوم حيث توقفت لتناول الغداء مرة، كيف كان صفاء المكان غارقاً بالأشلاء تحت أقدامنا. هناك في هذه الساحة، شعرت بنفس الإحساس من التبجيل. كل زجاج أمامي وجناح مقصوص وصدَّام، كل واحد من تلك الأشياء وغيرها كان دليلاً على مرور يد الرب. العناية الإلهية. القدر. سمِّها ما شئت. هنا كان الدليل على تلك القوة غير المجهولة التي تستطيع إزالتك من هذا العالم وتمزيق أطرافك وأخذ حياة أعزاءك في غمضة عين. شعرت برعب ينتصب هناك في وسط الحقل العاصف. بجانب السياج كلب مقيد، كان ينبح بصورة جنونية.

حين عدت إلى سيارة الأجرة وجدت ليو قد تقيأ على مقعد السيارة الخلفي.

ليل.

لاشيء يتحرك. أردت أن أتذوق هذه اللحظة؛ كان ليو يتنفس، الرضا، المتعة الهادئة لكوننا أحياء. غداً سنفكر في كل شيء، في معاودة التحرك، وترك الأشياء خلفنا. لكن ليس الآن وليس الليلة.

الفصل السابع والعشرون

إن كنت لا أملك معتقدات راسخة تمدُّني بالقوة، فعلى الأقل لدي نخبة من الأبطال المعاصرين الذي كانوا يأتون ويروحون، يكبرون ويتضاءلون مثل أي شيء آخر، لكنهم ظلوا يمدون عالمي بنوع من النظام لفترة بسيطة من الزمن.

في الوقت الحالي لدي جوزيف روث برفقتي. التقيت به صدفة، في مكتبة بجانب النهر في ارليس تبيع الكتب والشموع المعطرة، دخلنا إليها أنا وليو،المجروحان المتنزهان، لنلقي نظرة. أمضينا الصباح ونحن نتجول في الشوارع ثم جلسنا في المدرج الروماني القديم تحت أشعة الشمس وغمضنا أعيننا، حاولنا تجاهل ثرثرة السيّاح المحمومة(سيّاح أمريكيون فغروا أفواههم تعجباً، كم عمرها قلت؟ وإيطاليون يصرخون لبعضهم من أجل الغداء) وتخيلنا الأسود والمجالدين بدلاً منهم. بعد ذلك زرنا المستشفى التي تعالج فيها الفنان فان غوخ وذكرتني بالفيلم. وجدت نفسي أحاول طرد شبح كيرك دوغلاس من ذهني، وهو يلون الساحة غاضباً بعد أن أخرجته عن طوره الريح الشمالية الباردة التي كانت تضرب مصاريع نوافذ البلدة. كان الفيلم جديراً بفوز أنطوني كوين بجائزة الأوسكار لقيامه بدور بول غوجين في الفيلم (كنا ننزل في فندق بول غوجين وكان مملوءاً بمناظر مؤطرة من تاهيتي شغلت كل سطح متوفر فيه) هزَّ ليو رأسه حين نُقلت له هذه المعلومة الهامة. تمنيتُ بسرٍّي لو أنه تعلم شيئاً عن فان غوخ قبل أن يشاهد الفيلم، فالأفلام تكون مختصرة جداً وواضحة أحياناً وتعيق تخيلاتنا.

أراد ليو أن يشتري هدية لأمِّه، وأثنيت بأنها فكرة جيدة. لم يطالب في الاتصال هاتفياً بها مرة أخرى، ولا حتى بعد الحادث المروري، كأنه خاف من أنه في إلحاحه لن يكون مخلصاً لي. كانت رغبته في شراء الهدية تذكير لي بأنه لم ينساها. دخلنا إلى المتجر. تركته للقرار الصعب والحرج الشخصي في معرفة إن كانت أمه تفضل نموذج فانيلا فيودج أكثر من نموذج هنيساكل روز- هذه الشموع المعطرة مستوردة من مكان ما في كاليفورنيا. حين ابتعد ليعطس، نظرت إلى رفوف الكتب. القراءة باللغة الفرنسية ستساعدني على فهم هذه اللغة وسيطرتي عليها. لغة ترتبط برأسي دائماً مع السيدة هاغوبيجانيان، التي كانت تشبه مصارع تركي رغم أنها أرمنية في الواقع، حين جاءت تتخطى في ساحة المدرسة في ثوب قصير وضيق، انتفخ ردفاها القويان حين اندفع جذعها المتين القصير نحونا، عضلات ذراعيها المكتنزتين لزجتان بسبب العرق وعطر رخيص. كنا نخاف منها، فقد كانت المرأة الوحيدة التي ترعب مدرسة مليئة بالرجال والفتيان. عجزنا عن فهم غضبها الكامن واشمئزازها الشديد من منظرنا كلنا، زمرة قذرة من المراهقين المتشردين، تفوح منهم رائحة صدوع لم تغسل، وبول بائت، وقذف محموم. كنا بنظرها كريهين ونصدر رائحة كريهة، يعمينا الجهل والفخر بقوتنا الذكورية المنتفخة ووعينا المتزايد بقدرتنا على العنف.

في غرفة الصف كانت تضع منديلاً معطراً بعطر قوي على وجهها، حين جلست خلف الطاولة المرتفعة وأزاحت نظارتها الشمسية لتبدأ بمهمة تلميعها، ثم تأمر أول طالب تقع عليه عيونها بقراءة الفصل التالي (اممم، مام فينسنت داخل الحمام). إن إيجاد كتاب معين في وقت معين يمكن أن يشكل قوساً يسافر عبر الفراغ المظلم ليصل حياتك بحياة المؤلف، مع ماضي آخر، ماض ليس

ماضيك. كتاب من هذه النوعية يحتوي على مقال كتب بالألمانية أصلاً بعنوان "المدن البيضاء" جوزيف روث المتجول الأبدي. ولد في النمسا في أيام هابسبيرغ الميتة، مرَّ بهذه المنطقة في الثلاثينات باحثاً عن التناغم الذي عرفه وهو طفل في شرق مقاطعة غالسيا. أنهت الحرب العظمى 1914-1918 العالم الذي عرفه. نهاية إمبراطورية اتسعت لتشمل عشر قوميات وست عشرة لغة وخمسة أديان رئيسية. من رماد ألمانيا المهزومة انبعث الرايخ الثالث. حلَّ التماثل مكان التنوع. بعد اقتناعه بأن أوروبا محكومة بالفناء هرب من ألمانيا عام 1933 وظلَّ متنقلاً طيلة حياته الباقية، يتجول من منفى منعزل إلى مقهى وفندق ومن مدينة إلى أخرى، لا تمدُّه بالحياة سوى كتاباته الدائمة- كما لو أنه حاول تغيير مجرى التاريخ بالكلمات.

وصل في هروبه إلى الجنوب الفرنسي، فبحث هناك عن القرى السرمدية المهزومة التي كان يراها في أحلامه. في مشهد لمجموعة من عمال الحرير كانوا يرتاحون على ضفاف نهر الرون في ليون، رأى تجسيداً لتاريخ أوروبا الطويل. في الوجوه النحيلة الكئيبة للنساء العاملات في المصانع رأى ملامح الفيالق الرومانية التي وصلت إلى تلك الأجزاء قبل ألفي سنة. رأى الأبدية الحية لشيء تخيله وهي تضيع إلى الأبد، دليل الاستمرارية التي شعر بالانتماء إليها، التي كانت تخلو من أي نوع من التمييز أو الإقصاء أو الإبعاد والنفي. استمرارية طرد منها كيهودي. وجد العزاء في صمت أوقات بعد الظهر حين يكون الجميع نيام، طبّاعو الآلة الكاتبة صامتون بلا حراك في مكاتبهم، آلاف الخيوط الحريرية الممتدة تلمع عبر الأنوال وهي تنتظر. نجح في إكمال ست راويات في تلك السنوات. لم تكن كافية. لقد مات فقيراً في باريس عام 1939 عندما بدأ النازيون زحفهم الأسود على الخريطة.

بدا كل شيء الآن متصلاً ومحبوكاً وأنا أشغل مركز هذه المتاهة المعقدة، لغز مفتاحه وجودي. أرى الدلائل في كل مكان. في هذا الطريق المعتم، في كلمات جوزيف روث الذي سقط عالمه وتحول إلى أجزاء بنفس الوقت الذي تشكل فيه زمني، مثل أحجية ورقية يابانية، تسد طريقاً حين تكتشف آخراً. كانت الحرب العالمية الثانية بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية التي انتهت بعد أحد عشر عاماً، وحقق والدي وجيله حلمهم بالاستقلال.

كتب آرثر ريمباو الذي بُترت ساقه وتعلق بمرسيليا "أنا عاجز وتعيس ولا أستطيع أن أجد شيئاً، أي كلب في الشارع يمكنه أن يقول لي ذلك" في التاسع من تشرين الثاني 1891 كان متلهفاً ليضمن الخطط ليكون رحيله بيده." من فضلك أخبرني كم يكلف العبور من أفينار إلى السويس، أنا مشلول تماماً ومشتاق جداً للإبحار مبكراً. أخبرني أرجوك متى يمكن أن يحملني احد إلى تلك السفينة...)" وفي اليوم التالي مات في المستشفى.

كان ريمباو في السابعة والثلاثين بنفس عمري الآن. توقف عن كتابة الشعر في التاسعة عشر وغادر أوروبا بحثاً عن (مناخات ضائعة) لجعل بشرته سمراء." لو كان عندي صلة بنقطة ما من تاريخ فرنسا" لم يشعر بأنه كان ينتمي إلى العقل والأمة والدولة، لذلك كانت الطريقة الوحيدة للخروج من ظل فرنسا الكاثوليكية من خلال الشعر، لكنه حين خيب ظنه دار له ظهره ورحل متوجهاً إلى عدن وإثيوبية، حيث اشترى من تاجر أشياء مستعملة في ليج، أو فرنسا، بنادق قديمة عمرها أربعين سنة بثمانِ فرنكات للواحدة وباعها إلى ملك إثيوبية، مينليك الثاني، بأربعين فرنك للواحدة، محققاً ربحاً بلغ خمسمائة بالمائة.

في الثالث من آذار عام 1896 بعد خمس سنوات من موت الشاعر، وبعد مرور يومين على هزيمة الطليان أمام قوات الملك مينليك الثاني- بمساعدة قليلة من بنادق ريمباو بدون شك- القيصر ويلهلم الثاني، حفيد الملكة فكتوريا وإمبراطور هابسبورغ التي أمضى فيها جوزيف روث طفولته، أشار على السفير البريطاني في برلين، السير فرانك لاسيليز، بأن على البريطانيين أن يذهبوا لمساعدة الايطاليين في إثيوبية، فهم بحاجة إلى التشجيع. لأكثر من عقد من الزمن ظل البريطانيون ينتظرون بفارغ الصبر في القاهرة الفرصة للرجوع إلى السودان وإكمال المهمة، ليرُضوا الجنرال غوردون الذي قُطِعَ رأسه ولا تزال روحه تطوف بأرض معارك الخرطوم بانتظار الإنقاذ الذي لم يأت أبداً منذ أحد عشر عاماً. وهكذا توجه الغزو الثاني نحو النيل ليتجمعوا في سهول كيرري في أيلول عام 1898 ، وليلتقي بجدي الأكبر ظاهر والأنصار المخلصين، جيش المهدي من الدراويش.

قررنا أن نستقل الحافلة إلى إسبانيا. سنواصل رحلتنا المقررة حتى نهايتها. في اللحظة الحالية يبدو لي انعدام الخيارات جلياً، إذ ليس هناك ما هو أفضل من ذلك. أضيئت الأضواء البرتقالية داخل الحافلة المظلمة مثل البارات. التف ليو على احد أطرافه ونام على مقعد مزدوج فارغ،لا يفصله عني سوى الممر فقط. رأيت وجهه مقلوباً نحو الأسفل في موجات الضوء، غطيته بسترتي ليظل دافئاً... لقد أزيلت العصبة ولم يكن هناك أي علامة أو أثر دائم. إنه الآن نائم نوم الأبرياء ويأمل بأن نصل في الصباح.

يفترض بالحدود أن تكون مفتوحة طبعاً، لكنني اكتشفت في رحلتنا الصغيرة أن المعمول به شيء والواقع شيء آخر. هناك لحظة غريبة صعد فيها ضابطان من الشرطة إلى داخل الحافلة وتمشيا في الممر وسلطا ضوء المصباح على وجوه المسافرين النائمين. يعرف رجال الشرطة من أين جاءت الحافلة، فقد أجبرونا على تسجيل جوازات سفرنا عند السائق قبل أن ننطلق من ارليس. كانوا يبحثون عن ضالين لا يحقُّ لهم أن يتنقلوا في القارة في هذه الساعة أو غيرها. أنا الشخص الوحيد على متن الحافلة الذي تجشموا عناء تفتيشه. حين كانوا يتفحصون جواز سفري نظرت إلى الخارج فرأيت شخصين يجلسان في غرفة.

كانت هناك نافذتان مضيئتان في مبنى خدمات بدا كأنه مؤقت. حُجَر متنقلة مرفوعة عن الأرض على كتل حجرية، تشكل حاجزاً حدودياً. كانت النافذة الأولى مكتباً للحراس. هناك ضوء فوق طاولة ووهج أزرق لشاشة كومبيوتر. شخص ترك سيجارته في المنفضة. الغرفة التي بجانب الباب كانت فارغة من الأثاث تقريباً. أربعة رجال انتشروا على مناضد ضيقة على طول الجدار، يحاولون النوم. أوروبا تحت الحصار مرة أخرى. جاء العدو الجديد بدون زي رسمي أو سلاح مهدداً الحياة والحرية بطريقة غريبة. جيش قوته في ثقله العددي فقط. ناولني الحراس جواز سفري ونزلوا ملوحين بأيديهم للسائق.

لقد ذكَّرني ذلك بمهاجر غير شرعي آخر، حين انعطفنا هابطين السفح المظلم لبورت بو. هذا هو المكان الذي التمس فيه ولتر بينجامين دربه في هذا العالم. لقد احتجزه حرس الحدود الإسبان، وفي لحظة يأس وبتخيُّل المشهد القاسي لرحلة قطار يعود به إلى ألمانيا إلى بوشينفالد أو اسشفيتز، تناول جرعة عالية من المورفين.

في الصور الفوتوغرافية، يشبه بينجامين نوع من الستر الصوفية التي لها أكمام وأزرار، مزدوجة الحياكة، سمين بنظارات، من نوع الرجال الذين أمضوا حياتهم في القلق. إنه شخصية فضولية، نال الإعجاب كنوع من كيشوت مثقف، يُميل مظلته إلى مشاريع ذات طابع جريء جداً لكي يكون بارزاً جداً. نال الإعجاب بإقدامه وطموحاته لكنه فشل أخيراً فيما يجعله بشرياً وإنساناً. كتب مرة مقالاً عن مكتبته حين فك حزم الكتب التي ذكرته بالمدن التي جمعها منها: فلورنسا وبازل وريغا وميونيخ وغيرها. جامع الأشياء يصاب بمسٍّ من الجن، يجعله يصدق بأن الملكية هي العلاقة الأكثر حميمية التي يقيمها المرء مع الأشياء. بينجامين الجني شيَّد متاهته الخاصة به من جمعه للكتب ثم استدار بعد ذلك واختفى في الداخل مثل ساحر.

استيقظنا عند الفجر لنجد أنفسنا في محطة حافلات تحت الأرض، مثل خندق من الإسمنت المسلح. المنظر الأول لبرشلونة هو القرميد الأحمر وقوس النصر الذي بني للمعرض الكوني عام 1888. كان الهواء منعشاً ودافئاً، وحركة المرور سريعة بشكل مجنون. شعرت بالإثارة. هنا جاء أورويل للقتال من أجل الحرية، ومالرو كان هنا أيضاً. شعرت بأن التاريخ اخترقني، الأكاذيب والأساطير التي تعود إلى الزمن التي كانت فيه هذه المدينة جزءاً من الأندلس، وطن ابن عربي. صاح ليو مندهشاً، وهو يفرك عينيه حين رأى ثلاث ببغاوات خضر تطير وتومض بجانبنا.

(هل رأيتَ ذلك؟ ببغاوات! ببغاوات حقيقية!)

هدأ ليو، مما سمح لي باقتياده إلى شرفة قريبة طلبت فيها بضعة أشياء للإفطار. وجد ليو متعة جديدة في غمس أصابع الكعك المقلية، تشوردس، في الشوكولا الساخنة، وودّعني لأفعل ما أشاء. لقد نام طوال الرحلة تقريباً، وتحسنت صحته كثيراً. لقد زال الصداع ولم يتقيأ ثانية مما طمأنني أكثر. اهتمت النادلة باللصاقة الكبيرة التي كانت على رأسه ولم يسعني سوى أن أومئ برأسي وأبتسم. تركته بين يديها القويتين وعبرت إلى كشك يبيع الجرائد، اشتريت خريطة وسألت الرجل عن الطريقة التي توصلني إلى المكان الذي أردنا التوجه إليه. أنا لا أعرف اللغة الاسبانية وهو لا يعرف الانكليزية. توقف شخص ثالث كان يشتري جريدة واشترك في الحديث فأصبح عندي رجلان يتحدثان مع بعضهما بأسلوب نشيط، يبدو أنهما نسيا وجودي. بعد ذلك وصلت فتاة نحيلة ترتدي بدلة بنية وتضع حقيبة صغيرة أنيقة على ظهرها. كانت تتكلم الانكليزية بما يكفي لتخبرني عن محطة القطار وكيفية الوصول إليها. شكرت الجميع وعدت إلى ليو الذي لم يفتقدني، وكانت الشوكولا تغطي كل وجهه.

في وقت مبكر من الظُّهر، كنا على متن قطار ينطلق بنا بسلاسة إلى الشاطئ. كان بإمكاننا أن ننتظر ونقضي يوماً في زيارة المدينة لكنني شعرت بأن الوقت الذي بدا مسرعاً يداهمنا. شعرت أيضاً، بأننا اقتربنا جداً من أن يكون كل هذا بلا فائدة، فربما رحل ميوك واختفى مثل هبة دخان مصباح زيتي منذ زمن.

أنزلنا القطار في بلينز، ومنها يمكننا أن نأخذ الحافلة أو العبارة إلى توسادي مار. اقترح ليو بأن الوقت قد حان لنسافر بالبحر. لهذا جررنا حقائبنا فوق ألواح الممر الخشبية بصعوبة لأننا كنا نحمل مقداراً جيداً من الأمتعة. إضافة لحقيبتي القماشية وحقيبة ليو التي يضعها على ظهره، كان لدينا حقيبتان كبيرتان من النايلون. كانتا ثقيلتين ولزجتين، امتلأتا بالأحذية والترامس وأشرطة الكاسيت والكتب وطابعة والدي التي كانت مرمية في حقيبة السيارة الخلفية منذ وفاته، مع كل البقايا الأخرى

التي كانت هناك دون أن يلاحظها أحد. جذبنا نظرات الاستغراب لأننا كنا على خلاف المسافرين الآخرين الذين كان أغلبهم من السيَّاح، والرحالة اليوميين، الذين لم يثقلوا أنفسهم بأكثر من كاميرات رقمية ونظارات شمسية. كنا نشبه متخفِّيين أو مهاجرين جاءا للإقامة ويتهربان من دفع الأجرة.

انطلقت السفينة وهي تعلو وتهبط ونحن نجلس على متنها، ليو يتفحص الأفق بحثاً عن غواصة، مستخدماً يديه كمنظار. بدا الأمر كأننا في إجازة، وكنت أفكر بالطريقة التي سيستقبلنا بها ميوك. ربما لم يقصد بأن أزوره حين بعث لي بالبطاقة بالريدية. لقد حاول أن يقتلني في آخر مرة رأيته فيها. ماذا لو أنه بعث بالبطاقة ورحل على متن السفينة التالية؟ حسبت الأمر فوجدت أنني لم أره منذ سنة ونصف، وعمر هذه البطاقة تسعة شهور. الفرصة كبيرة بأنه لم يعد يعيش هناك.

لكن هذه المخاوف خبت لسبب ما، صوت النورس المهيمن فوقنا والأمواج التي ارتطمت بالسفينة جلبا إحساساً بالهدوء والاستسلام. شعرت بأنني أطفوا عبر العالم دون أن يعيقني أحد أو شيء. أنا مستسلم لقدري. سنجد طريقا للخروج من هذا بطريقة ما. قبل أربعة أيام اعتقدت بأنني متُّ وفكرت بالأسوأ، الذي لا يخطر بالبال، إذ اعتقدت بأن ابني مات. الآن أشعر بأنني مستعد لمواجهة كل ما يقذفه العالم في وجهي.

كانت المدينة تعشش في حضن خليج دائري محاط بانحناء جرفين صخريين من كل الجوانب. لقد كان وكراً للمهربين، سلسلة من التلال ساعدت على إبعاد سكان الداخل. على الجانب الجنوبي، من اليسار عند الاقتراب من البحر، يُرى جدار صخري عالي يلتف متسلقاً القمة الجبلية الممتدة في البحر، في الطرف الآخر للمدينة. بُنيت هذه التحصينات ذات اللون الترابي، وبرج المراقبة الذي يرى من مسافة بعيدة في البر الداخلي في القرن العاشر لصدِّ الغارات العربية. أما في الوقت الحالي فهي تعج بالسياح الذي يلتقطون الصور لبعضهم البعض وهم يستندون على حواجز فوق البحر. اسبانية المغربية أكثر من دخيلة الآن، وملاحظة هامشية مختصرة في كتيبات إرشاد السياح.

كان أكثر السياح يتوقفون ويحكُّون رؤوسهم حين يصادفون أبيات من رباعيات عمر الخيام المنقوشة على قطعة من الصخر، فوق قمة الجرف المطل على البلدة. نفس الأبيات التي كتبها لي ميوك في بطاقته البريدية التي بعثها لي. حضور شاعر نسيبور لا علاقة له بالمغاربة الذين عاشوا هنا سابقاً. بجانب اللوح الحجري هناك تمثال لافا غاردنر التي جاءت مع جيمس ماسون عام 1950 لتصور فيلم باندورا والهولندي الطائر، وهناك صور أخرى ملصقة على واجهات المحلات في كل البلدة، صور بالأبيض والأسود التقطها مصور محلي. افا غاردنر مستلقية على الشاطئ ومحاطة بالمعجبين الولهين. وُضِع النجمان على قمة الجرف نفسها، التي كانت تردد صدى الكاميرات الرقمية السينمائية. أبيات الشعر تظهر فوق المُكرَّمين حين يبدأ الفيلم:

الإصبع المتحرك يكتب، وكتب،

يتحرك: لا ورعك كلّه ولا فطنتك

ستغريه بالتراجع وبحذف شطر

ولا كل دموعك ستمحو كلمة منه.

تتحدث قصة الفيلم عن سفينة أشباح وقبطانها الذي حُكم عليه بأن يظل مبحراً إلى الأبد لأنه قتل زوجته في نوبة من الغيرة. خارج البلدة قابَلَ باندورا الجميلة التي اشتهاها الجميع. لقد وقعت بحب الرجل الوحيد الذي لا تستطيع نيله-الهولندي الشبح. فرصته الوحيدة في التحرر أن يجد امرأة تحبه كثيراً ومستعدة للموت من أجله.

انعكست مكائد الفيلم الرومانتيكية في المحيط الذي أُطلق فيه الفيلم وأحداثه الجارية. الشخصية الأخرى التي ظهرت في واجهات المحلات بشكل منظم، وعلى جدران كل مطعم تدخله هو فرانك سيناترا، نحيل مثل سنارة الصيد في بدلة مؤلفة من ثلاث قطع. كان سيناترا يغار جداً من أحد السكان المحليين، يدعى ماريو كابري، الذي أوكل له دوراً في الفيلم. أنكرت غاردنر كل هذا، وتزوجت من سيناترا في السنة التالية. حين أُطلق الفيلم بعد خمس سنوات، دخل سيناترا إلى الاستديو ليسجل واحدة من أكثر الأغاني حزناً على مدة العصور، فقط المنعزل.

لم تكن لدي أي فكرة حين تدحرجنا ببطء نحو الشاطئ. عليَّ أن أتعلم الكثير لاحقاً من اينس، التي زارت البلدة للمرة الأولى بسبب الفيلم، تاركة عائلتها وراءها في الأندلس. هذه كانت فكرتها عن مكة. سُمَّيت البلدة في الفيلم اسبريانزا وتعني الأمل.

لا يوجد رصيف ميناء يذكر في الخليج، فكانت العبَّارة تُفرغ ركابها على الشاطئ مباشرة بواسطة ممر خشبي ممتد من الخليج. أرض البحر تنحدر بشكل يكفي لندخل منه إلى الشاطئ. حين اقتربنا تمايلت السفينة في مناورة للتوقف، أدارت جانب الصعود إلى الشاطئ حين أوقف القبطان المحرك. لحقت بأثرنا موجة، ضربت جانب السفينة، فبدأت بالتأرجح من جانب إلى آخر. تعالت الصرخات وصيحات الرعب من الركاب وانطلقت الأيدي للتمسك بالمقاعد والحواجز، كان ذلك جزء من المغامرة، إثارة أكثر من تلك المقصودة التي تمرُّ بدون عواقب. مرت بضع دقائق كأننا في افعوانية تتمايل كالنواس. حين اكتسبنا قوة الدفع مالت السفينة بمقدار ثلاثين درجة. عند ذلك بدأت حقائبنا وأمتعتنا بالانزلاق. تحركتُ بسرعة ونجحت في إمساك الحقيبة الأقرب لي، لكن إحدى الحقائب، الأبعد فلتت من أصابعي الممدودة. ألقى ليو نفسه على حقيبته بينما ذهبت أنا للحقيبة الأخرى. كنت متأكداً بأنها لن تتوقف، لكني قذفت نفسي وراءها وكدت أسقط. شاهدت الحقيبة تنزلق بنعومة وأناقة تحت سلسلة الأمان وتطير في الجو. للحظة توقفتْ في الجو، ثم غطست للأسفل في قبر مائي. رشرشة خفيفة ثم غابت. جلستُ على ظهر السفينة أحدق بالفراغ وحلقات القوس المتمايل، غير مصدق ما حدث. ركض ليو إلى الحاجز بشكل جنوني (لقد ضاعت يا بابا! لقد غرقت. كيف سنسترجعها؟)

حلَّت علينا فوضى عنيفة في لغات متعددة لم أعرف أي واحدة منها. جاء عدد من الأشخاص إلى السياج ليلقوا نظرة. امرأة بأسنان ملتوية قامت بمحاولة يائسة لكبت ضحكتها. في هذا الوقت كانت السفينة متوازنة ووصلنا إلى الشاطئ. حوَّل الناس انتباههم إلى النزول من السفينة. أستدعي أحد أفراد الطاقم من قبل سائح بولوني يرتدي قميصاً أبيضاً سروالاً فيه مربعات ملونة، كان بارعً في توليّه المهمة. ربما كان شرطياً، حين لا يكون يلفُّ العالم بكاميرا حول عنقه. لكن المجدِّف لم يُعره أي انتباه إذ هزّ كتفيه. كان علينا أن نمسك بحقائبنا بحرص أكبر. أخطار السفر البحري. الأمتعة يجب أن تُرصف وتُرتب بشكل آمن.

(علينا أن نبلغ خفر السواحل) قالت لي امرأة صارمة بالانكليزية. امرأة طويلة ونحيلة كانت عظام وجهها بارزة، قد تكون هولندية أو ألمانية. دققت النظر في الرباط الذي على رأس ليو، فرمقتني بنظرة غريبة.(بلِّغ الشرطة، بلِّغ شخص ما) ثم استدارت وانصرفت لتلحق بجماعتها، خشية أن يتركوها خلفهم. كاد ليو أن يبكي. كان متسخاً بالقذارة والعرق ورباط رأسه بحاجة إلى تغيير بالتأكيد. ضغطتُ على كتفه وترنَّحنا معاً، مع ما بقي من حقائبنا، على الوصلة الخشبية الهزازة. رميت كل شيء على المسند وقرفصت لأفكر في كل هذا ومغزاه. انضم إليَّ ليو وكانت نظرته مصوبَّة إلى نفس البقعة الزرقاء العميقة التي اختفت فيها حقائبنا.

(ماذا سنفعل؟) كانت السفينة في طريقها، فقد طَوَوا الممر الخشبي وهدرت مبتعدة عن الشاطئ. بعد ذلك بقليل لم يظل أي أثر للنزول ماعدا حشد صغير من المتفرجين الذين استداروا لينظروا لاتجاهنا.

(ليس بوسعنا ما نفعله)-

كان اثنان من المجدِّفين يستندان إلى جانب السفينة وينظران إلى الماء.

(لكن يجب أن نسترجعها)

(لا نستطيع إنها في قاع البحر)

(ماذا كان في داخلها؟) سأل بلطف، بعد فترة

(كتب، مجرد كتب قديمة يجب التخلص منها في كافة الأحوال) خفَّ انزعاجي. (من يحتاج إلى نقل تلك الأشياء الثقيلة؟)

(بابا) ابتسم (أنت مجنون حقيقي أحياناً!)

(عليك أن تكون حذراً، لأن ذلك يورَث في العائلة)

كان من بين الأشخاص الواقفين، الذين كانوا يشيرون إلى الماء ثم إلينا، نادلين من أحد المطاعم المقابلة للبحر، مشيتُ نحوهما وأخرجتُ لهما العنوان، فوجَّهاني إلى سور المدينة القديمة.

بعد أن أصبح حملنا خفيفاً جداً، تحركنا ببطء إلى الطرف البعيد من الخليج، وعبرنا بوابة في السور الحجري العالي الذي رأيناه من البحر. أخي يسكن في البلدة القديمة على ما يبدو. ابتهج ليو بفكرة الإقامة في قلعة من العصور الوسطى. ثم وجدنا أنفسنا في متاهة من الشوارع المرصوفة بالحجارة المتعرجة، التي تلتف حول رأس جرف بحري. مشينا في ممرٍّ ضيق يؤدي إلى صفين من البيوت المتراكمة فوق بعضها. كان الهواء يفوح برائحة الياسمين المنبعثة من الأشجار المخيِّمة فوقنا، وفوق كوخ بعيد تعلقت ثلاثة من طيور النورس في صفٍّ في الجو وهي تنعق. أخيراً وجدنا ما نبحث عنه، باب أخضر صغير مثبت بحائط سميك بواسطة أشجار كرمة تتلوى مثل عضلات قوية فوق الصخرة. اهتزت الأوراق في نسيم البحر حين قرعنا الباب ثم انتظرنا.

(هل أنت متأكد بأن هذا هو المكان الصحيح؟) همس ليو. إن كان هو أم غيره فلم يظهر أحد في البيت. رفعت يدي لأطرق الباب مرة أخرى، فسمعت خطوات قادمة من الداخل، أصوات مكتومة. انفتح الباب ووجدنا أنفسنا ننظر إلى امرأة لم تراها أعيننا سابقاً، في أواخر عشرينياتها، برأس ذي جدائل سود كثيفة. أجهدت نفسها لتتحرر من ربطة زرقاء كانت تمسك بها خلف رأسها. ارتبكنا

ثلاثتنا قليلاً، كنت أحمل البطاقة البريدية البالية التي بدت وكأنها خارجة من غسالة الثياب، قلبّتها الفتاة بيديها ببطء، في محاولة لتعرف ما نريده. تردد صدى صوت رجل في الداخل: (كوين؟) لم ترد، كانت تتفحص البطاقة، وبعد ذلك استدارت مبتعدة فجأة وأطبقت الباب بقوة في وجهنا. نظرنا أنا وليو إلى بعضنا البعض.

(والآن ماذا؟)

(هل أنت متأكد بأن هذا هو المكان الصحيح؟) سأل ملحاً.

(الآن أخذت بطاقتنا، وهذا مؤشر جيد. يجب علينا استرجاعها) رفعت يدي لأقرع الباب ثانية عندما انفتح وظهر منه رجل ضخم ملتحٍ كان يحدِّق بنا.

(ميوك؟)

(ياسين؟ أنا لا أصدق هذا) لقد كَبُرَ وازداد وزنه، وتعزز وجهه بلحية وغابة من الشعر فيها بقعاً تبدو بأنها طينية. نظر ورائي وقال (من هذا إذًا؟) لم يَرَ ليو منذ أن كان طفلاً يتعلم المشي. زادت التقطيبة ببطء (طبعاً. مرحباً) تقدم ليصافح ليو باليد (هل تعرف من أنا؟ أنا عمك. هذا صحيح، وأنت ابن أخي).

نظر ليو إليَّ طالباً المساعدة. تراجع ميوك للخلف. حيث كان لا يزال في الممر. (أنا لا أصدق هذا) ظلَّ يكرر القول. اتسعت فتحة الباب وظهرت الفتاة ثانية. هزَّ كتفيه كأنه يحاول أن يعبِّرَ لها بالاسبانية (هذا ...... أخي) قال مشيراً بيده (أخي ياسين وهذا ...حمدي؟)

(ليو) قال ليو.

(نعم ليو، ليو يعني الأسد) ابتسم ميوك. وضع يده على كتفي وضغطه بشكل مربك. وقفنا هناك كلنا ننظر إلى بعضنا البعض، غير واثقين بما يفترض أن يحدث لاحقاً.

الفصل الثامن والعشرون

أخي، كما يبدو، بات رجلاً آخر. كنت أعتقد بأن الدين سينقذه. لم أكن متأكداً أي دين بالضبط، لكن أحد الأديان المتوفرة الكثيرة، ليس بالضرورة الإسلام أو المسيحية وإنما شيء مختلف. توقعت له بأن يجد الخلاص في طائفة من الأرواح التائهة التي تعيش في روعة العزلة على سفح جبل في سويسرا أو في مزرعة في تكساس، بانتظار أن تنقضَّ عليهم الأمومة وتجمعهم كلهم. بدا من المنطقي أنه سيختار تلك الوجهة، تركيبة من الإرشاد الروحي والافتتان غير المألوف. هاهو الآن يسكن في كوخ صيادين لا يتسع لأكثر من شخصين رومانتيكيين وقطة بلا غيتار أو ثياب غريبة أو طقوس، ويشتغل بأي عمل متوفر. كان هناك كثير من أعمال البناء من فنادق جديدة وشقق فاخرة. وبدا من الواضح صعوبة إنقاذ تلك القرية الصغيرة التي كان يطمرها ببطء كل ذلك الثقل من الاسمنت المسلح والزجاج. اكتظت الشوارع الضيقة بشرفات المطاعم والنادلات اللواتي كن يلوحن بقوائم الأطعمة بلغات ستة. عدد كبير من النسوة الكبيرات في السن، بثيابهن السوداء، يقفن على الدرج ويراقبن موكب السياح النشيطين المحتشدين بأعداد كبيرة. ربما يستطيع بعضهن إخبارك بقصص عن الحرب الأهلية لكن بعد أن يَمُتْنَ سيضيع كل شيء. أغلب السكان عابرون، قادمون جدد من أجزاء أخرى من البلاد ومن العالم ليجدوا الألدورادو الخاص بهم.

يعمل ميوك الآن لدى بحارين، تبدو عليهما القسوة، قَدمِا من مكان ما في أوكرانيا بحقائب مملوءة بالمال وكافيار البحر الأسود، يركبان سيارات (البي إم دبليو) بنوافذها الزجاجية المغشاة وزوجتين شقراوين. اشتريا بناية قديمة مطلة على البحر، تكشف شرفاتها ذات الأقواس عن جدران بلون ترابي ونوافذ بالية، أضيفت عليها مسحة كولنيالية. سيحوِّلان هذه البناية إلى فندق. السياحة مثل حمى لا تلين، ولا تظهر أي علامة على إفلات قبضتها حتى تعتصر آخر قطرة من المكان. يقترب الموسم السياحي الآن من نهايته، فقد أغلقت العديد من الفنادق والمطاعم أبوابها بسبب الشتاء. في الأشهر الهادئة تصبح الحياة صعبة هنا، قال ميوك، ويصبح المكان مهجوراً ومنعزلاً وهو يفضلها على هذا الشكل، وكذلك اينيس التي بدت هادئة وحالمة. اعتقدت في البداية بأنها هكذا لكونها غير واثقة من كلامها باللغة الانكليزية، لكني أدركت مؤخراً أنها تحتفظ بأفكارها لنفسها.

منذ البداية كان هناك اتفاق ضمني بيننا أنا وميوك بأن نقتصر على الحاضر فقط. يوجد هنا ما يكفي لإشغالنا، الدخول إلى البيت واكتشاف محيطنا الجديد. لم نُردْ أن نفسد السحر الذي أضفته هذه البلدة على لقاءنا ففضَّلنا تأجيل المحتوم، وتجنبنا الذكريات التي حدثت بيننا. للحظة لمحتُ صورة أخي الصغير التي كنت أعرفها منذ زمن طويل في ظروف مختلفة.

حصل ليو على هدية عيد ميلاده بالسباحة في البحر. تجوَّل صاعداً وهابطاً وتاه في الاستكشاف، طفل ثانية، يقوم بما يفعله الأطفال. رشرش الماء وحفر حفراً في الرمل، ركض نحوي ليُريني صَدَفَة وجدها، نَقَطَ الماء من شعره على شكل حَبات مضيئة. إنها صدفة كبيرة بحجم كف اليد تقريباً، سليمة وكاملة. أصبحت ناعمة كالبورسلين وبها نقش مركزي لتموجات بنية مقوسة عبرها. لقد حبست الإثارة أنفاسه.

(إنها تبدو وكأنها كتابة على قطعة من الورق تقريباً)

حدَّقنا بالصَدَفَة وهو يريني ما كان يراه. كان النسيم معتدل البرودة على شاطئ مهجور ما عدانا وقلة من السياح الجسورين. نعستُ وأنا أحاول قراءة جريدة اسبانية دون أن أفلح في ذلك ثم نمتْ.

عدنا إلى المنزل لنجد اينيس وميوك مشغولين في المطبخ. بدا ميوك ضخماً وبليداً وسط الأشياء المحيطة به، لكنه كان يبذل قصارى جهده. عرضتُ عليهما المساعدة بفرم الخضار، لكنه طردني إلى الفناء الواقع وراء البيت. كان سور الحديقة الحجري يمسك بدفء الشمس ويشعرك بالرضا والسكينة. كانا يرطنان باسبانية سريعة. أغلقت عيوني واستمتعت بالصوت ورائحة الطعام الذي كانا يحضرانه، لم أُرد أن أفكر لا بالماضي ولا في المستقبل.

تبين أن الوجبة كانت مسألة جديرة، نوعان من السلطة وباقة منوعة من الفطائر مع حشوة ذات طعم جيد فيها، سردين مشوي بالفرن، طبق هائل من الرز أعدَّته اينس، وكعكة أحضرتها من المخبز كتب عليها اسم ليو.

(أسرعوا، أشعلوا الشموع!) أمسك ميوك بعلبة عيدان الكبريت بارتباك، ووضعتُ يدي حول كتف ليو

(عيد ميلاد سعيد، عمره ثمان سنوات)

(طويلة جداً لحياة كلب) قال. غنينا أغنية "عيد ميلاد سعيد" بالانكليزية والعربية والاسبانية، وأطفأ ليو الشموع.

(انتبه! لا تجلس على هديتك) وكانت عبارة عن منظار اشتريته دون أن ينتبه. كنت أعرف أنه يحلم به منذ زمن، واشترى له ميوك كرة قدم واينس قلماً ليرسم به. شكر الجميع ثم جلس نافثاً زفرة وهو يتفحص نوراً كان يطفو فوق المنزل.

بعد ذلك تحدَّث ميوك عن المشاكل التي يواجهها في العمل. فزملاؤه لا يتكلمون جميعهم نفس اللغة، فهم من الإكوادور والمغرب والسنغال بالإضافة الى الروس الذين كانوا يعاملونه كما لو أنه تسلق خارجاً من شجرة، كما يقول. استطاع أن يعلمهم شيئاً أو اثنين عن البناء. ميوك السابق عينه، حين يصبح نشيطاً يذكرني بالتوتر الذي لم ينحل بيننا، ورأيت بأن الأفضل أن أدعه يتحدث.

لاحظت أن اينس تحاول جذب انتباهي. كانت تومئ نحو ليو الذي كان يجلس ساكناً، وهو يمسك بالمنظار المقرب بكلتا يديه. رأيت أثر البلل الذي تركته دموعه حين وقعت على الغلاف المطاطي للمنظار. مددت يدي نحوه فركض مبتعداً ودخل إلى المنزل.

(إنه يفتقد أمه) قالت اينس. لم أقل شيئاً. لست بحاجة ليذكرني الناس بما يحتاجه ابني. بعد ذلك قرر ميوك

(انظر يا ياسين. هذا ليس من شأني، لكنه ربما يود التحدث مع أمه؟ انه عيد ميلاده أولاً وأخيراً)

(إنه بخير) قلت (هو يحتاج بأن يكون لوحده مدة قليلة، وسيكون بخير بعدها) حدَّقتُ بهما لكنهما لم يقتنعا بكلامي. (صدقاني بأنه سيكون على ما يرام. ربما علينا أن نزيل هذه الأشياء بعيداً وننظف المكان)

حين ذهبنا إلى الطابق العلوي لم نجد ليو في الداخل. فتشنا البيت من أوله إلى آخره، لكنه لم يكن في أي مكان فيه.

(من المؤكد أنه خرج) قال ميوك.

(لكن إلى أين؟ أين سيذهب؟)

تركتهما هناك وخرجت إلى الشارع مسرعاً. حاولت أن أتخيل ماذا يمكن أن يفعله. هل صعد إلى مكان ما أم نزل في مكان آخر؟ لهذا انطلقت مهرولاً، وأنا أصعد الدرج نحو التحصينات التي على قمة النتوء الجبلي الممتد في البحر. وصلت ووجدت المكان مقفراً إلا من عدد قليل من الأزواج المنعزلين، ومجموعة من السياح يقودهم دليل بمحاذاة الأسوار. مررت بتمثال إفا غاردنر المطل على الجرف محاولاً أن لا أنظر إلى المهبط الطويل المودي إلى البحر الصاخب. قررت أن أصعد للأعلى بقدر ما أستطيع، ثم بعد ذلك أشق طريقي نحو الأسفل. حين وصلت مؤخرة المدفعية، في أعلى نقطة في السور، وجدته. كان يجلس هناك مستنداً إلى الحاجز الحديدي ويضع قدميه على متراس منخفض.

(لقد أرعبتني ظننت بأنني ضيعتك)

(لا يهم) رد قائلاً

(ماذا تقصد؟) جلست بجانبه.

(لا يهم إن كنت قد ضعت أم لا) كان يرمي بحجارة صغيرة من فوق الطرف. كانت المسافة بعيدة إلى الشاطئ الصخري.(أنت لا يهمك أي شيء) قال وهو يطحن نملة في التراب.

(كيف يمكنك قول هذا؟)

(لأن هذا صحيح) صرخ بي (هذا ليس من أجلي، لاشيء منه. أنت قلت بأنها مغامرة، وهي لا تبدو مغامرة بالنسبة لي!)

(اعتقدت بأنك تستمتع بذلك)

(حسناً أخبرني شيئاً واحداً فقط. ما الذي سنفعله الآن؟)

(سوف نعود إلى البيت. نستطيع أن نقرأ)

(كلا. أقصد ما الذي سنفعله الآن؟) مدَّ ذراعه نحو الأفق، وتعرجت حصاته في الجو نحو الأسفل (أين سنذهب بعد ذلك؟)

(أين تحب أن نذهب؟)

(بابا!. أنت الراشد ويفترض بك أن تعرف، أنت من يقرر)

كان واضحاً بأنني لا أملك إجابات لأسئلته. استدار مبتعداً باشمئزاز. قرَّب ركبتيه إلى صدره وحدَّق بالبحر.

(انظر) قلت (لدي فكرة. ما رأيك أن نجد هاتفاً ونكلم أمك؟ أنا متأكد بأنها تود تهنئتك بعيد ميلادك) لم يُجب، وقفتُ ثم مشيتُ بضع خطوات وانتظرت. بعد فترة وقف على قدميه وتَبعني. كان يمشي ببطء ، محافظاً على مسافة بيني وبينه، كأنه ينتظر ليرى إن كنت عازماً على تنفيذ ما قلته. كانت مثل لعبة ماعدا أنها كانت في منتهى الجدية.

وجدنا أخيراً بدالة هاتف للمكالمات الدولية، كانت مضاءة بشكل جيد ويملأها دخان السجائر. احتشدنا داخل الكشك وطلبت الرقم وانتظرت. أمسك ليو بسماعة الهاتف ووضعها على أذنه وتنصت لوقت طويل ثم ناولني السماعة ومشى مبتعداً، دون أن يقول كلمة واحدة. كان على الطرف الآخر المجيب الآلي. لم يكن أحد في البيت. استمعت إلى صوت ايلين وبعد فترة بدأت في التكلم.

في وقت متأخر من ذلك المساء حين نام الآخرون، ذهبت واينس في نزهة بمحاذاة الشاطئ. كان ميوك سيلحق بنا قبل الفجر، أما ليو فقد نام مبكراً. لا يزال يرفض التكلم معي. كنت بحاجة إلى الخروج من البيت وتنشق بعض الهواء النقي.

كانت الليلة تتميز بالهدوء والسكون. القمر بدر، كأنه ضربة فرشاة بيضاء امتدت فوق البحر القاتم البراق إلى أقدامنا، الهواء رقيق ودافئ والأصوات الوحيدة قادمة من البحر، ورفرفة ناعمة لحبل شراع سارية عبر الخليج الصغير الذي كانت ترسو فيه بعض اليخوت.

تمشينا هنا وهناك. أخبرتني أنها فكرت بصورة غير جدية في فتح مطعم، لكن طبخها لم يكن جيداً، وبالنسبة لميوك ضحكت وقالت إنه كان عليها أن تستأجر محترفاً، ويبدو بأنها مخلصة جداً له.

جلسنا على الرمال وراقبنا الطريقة التي يلعب بها البحر مع ضوء القمر. كنت سعيداً برفقتها. أخبرتني عن الفيلم الذي أحضرها إلى هذا المكان لتبدأ منه.

حكاية السفينة الشبح، الهولندي الطائر، بنيت أساساً حول قصة حقيقية. تظهر سجلات شركة الهند الشرقية أن سفينة يدعى قبطانها فان دير ديكين، اختفت عند رأس الرجاء الصالح في عام 1614. ظاهرياً عقد فان دير ديكين اتفاقاً مع الشيطان بأن يلف حول الرأس بعون الرب أو بدونه، بسبب ذلك كُتبت عليه اللعنة بأن يظل هائما في البحار حتى يوم القيامة. تطورت أسطورة السفينة الشبح على مر العصور، وكان هناك روايات كثيرة عن مشاهدتها حتى أربعينيات القرن العشرين. اينس شاهدت الفيلم على التلفزيون وانطبع في ذاكرتها.

ولدت اينس في جنوب قرطبة في السهول الواسعة ،وتنحدر من أسرة ثرية من ملاكي الأراضي الذين ينتجون الخمر ويربون الخيول. بعد سنتين في الجامعة، انقطعت اينس عن دروسها في الفلسفة وذهبت إلى غواتيمالا مع مجموعة من الجوالين الذين يماثلونها في التفكير. بعد ذلك ذهبت مع فتاة أخرى إلى الهند، حيث انضمتا إلى معتزل ديني فلسفي في دارجيلينغ وأمضتا ثلاثة شهور هناك تحيكان القماش وتسلقان الحمص، ثم واصلتا إلى نيبال ومشتا إلى معسكر قاعدة انابورنا لكنهما وجدتاه مكتظاً وقذراً. كل من يذهب إلى هذه الأماكن بحثاً عن المقدس والسامي، يصل ليجد مئات الأشخاص الآخرين الذين لديهم نفس الفكرة بالضبط. أصيبت بمرض الزحار، فاضطرتا إلى الذهاب برحلة مخيفة في الحافلة إلى دلهي حيث قررت صديقتها بأنها نالت ما يكفي وقررت البقاء هناك. لهذا ذهبت اينس لوحدها إلى شيانغ ماي، حيث اغتصبها رحالان استراليان في بيت للإيجار كان يقدم الطعام والمنامة. (كنت أشعر بالتهور. كنت لوحدي وكنا نشرب وندخن كثيراً، وعندما أمتنع لا يصبحان متوحشين قليلاً، حاولت أن أبلغ الشرطة عنهما لكن موقف السلطات المحلية كان عدم التدخل فيما يفعله السياح ببعضهم لأنه شأن يخصهم) انهارت بعد ذلك وأمضت ثلاثة أسابيع محبوسة لوحدها في غرفة في بيت للإيجار، غير قادرة على التكلم مع أي شخص كانت تخرج من

السرير بصعوبة بالغة. حين عادت إلى اسبانيا لم تستطع مواجهة فكرة الذهاب إلى البيت، فجاءت إلى هذا المكان بدلاً من ذلك، إلى بلدة لا يعرفها فيها أحد، بلدة تتذكر بأنها تسمى الأمل.

(أخبرني أخوك الكثير عنك. أشعر بأنني أعرفك منذ وقت طويل)

(لا أستطيع تخِّيل أي مديح يقوله عني، إذ لم تكن علاقتنا جيدة طيلة تلك الفترة)

(أخوك مرَّ بظروف سيئة جداً، وهو الآن يريد أن يفعل خيراً)

(خير؟)

(هو يحبني. لقد سبب العالم له كثير من الأذى، ويريد أن يجعله أفضل الآن)

إذاً هذا هو الشيء المشترك بينهما لكنني لا أزال غير متأكد مما تحدثت به.(كيف سيجعله أفضل؟)

(ألم يخبرك؟) استدارت لتتفحص وجهي.(نحن سنذهب إلى السودان معاً)

(هل سيعود ميوك إلى الوطن؟ هل تقصدين السفر؟)

(كلا) ضحكت (للعمل في الجنوب. في مخيم اللاجئين. إنها منظمة، كما تعرف، ليست للحكومة، م غ ح)

(م غ ح . منظمة غير حكومية؟)

(ألم يقل لك؟)

هززت رأسي. لم يخبرني. ربما وجد قضيته . إنه سينقذ الناس ويصحح العالم.

(إنه شخص ممتع، أخوك. هو يضحكني لكنه يجبني. لقد فقد تقديره لذاته. كل شخص لديه جانبان، جيد وسيء. لقد فعل شيئاً سيئاً والآن سيفعل شيئاً جيداً)

استمعت إليها وحاولت أن أفكر بشيء جيد لم أفعله أبداً.

سيغادران في نهاية الشهر، وليس لديهما أي فكرة متى سيعودان. سيصبحان متطوعين. لدينا الكثير من ذلك في الغرب، تقول اينس. كثير من الطعام والسيارات . الكثير جداً من كل شيء. لا يستطيع الكوكب تحمله. هذه هي ثورة عصرنا. بعد أجيال سينظر الناس للوراء. يجب علينا أن نرجع إلى التراب بأيدينا ونطلب الغفران.

(أعتقد أن هذا سبب قدومه إلى هذا المكان. للشروع في بداية جديدة. ماذا عنكَ أنت؟) سألتْ بعد أن استدارتْ إليَّ أخيراً (ما الذي أتى بك إلى هنا؟)

الفصل التاسع والعشرون

جاءت الذبحة القلبية الثانية التي تعرض لها والدي كإنذار بسيط مثل سابقتها. أخبرتني ياسمينة بأنها لم تقلق إلا في ذلك الصباح، حين أرسلت الأولاد إلى المدرسة دون أن يظهر والدها بعد. فقد كان يستيقظ قبلهم عادة، يتجول في المطبخ ثم يعود إلى السرير مع قطعة من الخبز المحمص ليقرأ جريدته ثم يظهر ثانية، بعد أن يرتدي ثيابه ويستعد للخروج من البيت في حوالي الساعة العاشرة. لكن لم يكن هناك أي أثر لجولاته الصباحية المبكرة في المطبخ، وليس هناك كسر من الخبز المحمص في المغسلة، ولم يترك أي علبة حليب في الخارج. دققتُ بابه في الحادية عشرة لكن لم يكن هناك رد. انتظرتْ نصف ساعة أخرى قبل أن تدخل.

كان مستلقياً ونصف جسده كان خارج السرير، تدلت ذراعاه إلى الأرض والتوت ساقاه في أغطية السرير مثل مظلة علقت في شجرة، فارسٌ ماتَ على سَرجه.

احتجتُ إلى كثير من الوقت لأفهم ما عناه موته لي بالضبط. ماذا عن كل تلك الأحاديث التي لم تنته، والجدالات والقضايا التي سَتُحَلْ يوماً ما؟ لقد أُلغيت فجأة وتُركت بلا معنى. لم أكن أقرب إلى معرفة ما أريده من الحياة مما كنت عليه وأنا في الثانية عشر من عمري، حين حاول أن يقنعني بصرف التفكير في سيرتي المستقبلية كسباح. شق طريقه ببطء كما يفعل دائماً، الكلمة الأخيرة. لقد رحل بصورة نظيفة وبدون أي ضجة. دقيقة واحدة ثم رحل في الدقيقة التالية. لقد سُجِّى جثمانه في غرفة متعهد دفن الموتى الخلفية. عيناه مغلقتان وفمه مفتوح. وكان هناك فجوة في المقدمة لأن طقم أسنانه كان مفقوداً. لم يلبسه في الليل أبداً ولم يهتم أحد بوضعه في فمه ثانية. ذراعه إلى جانبه وعنقه ملتوي للوراء، يداه مفتوحتان للخارج، تحاولان التمسك بشيء. مات. هذه هي طريقة الحياة. ليو وولدا ياسمينة التوأمان، الجيل الثاني، كانوا صغاراً جداً لتذكرُّ الكثير. ستموت ذكراه معنا، ميوك وياسمينة وأنا. مات جزء مني معه وتلاشى من العالم. سنوات الطفولة، سنوات الصغر، الجانب الآخر مني الذي شهده أشياء لم أعرفها أبداً عن حياته، أشياء لم أنجح في استخلاصها منه، راحت معه أيضاً.

ماذا خلَّفَ وراءه: كوم من الثياب التي لا تناسب أي شخص في العائلة لعزائنا. كانت هناك صناديق كرتونية مليئة بقصاصات الجرائد. صناديق كانت تحتوي على برتقال من فالانسيا سابقاً، تناثرت مع أكوام من ورق الصحف الملطخة بالحبر. قصاصات جرائد قصَّها بمقص الأظافر، أشكال هلالية صغيرة تلتف حول الحواف، مقالات عن كل شيء في العالم. صدام قطارات، حوادث خطف، تمرُّد في سالمونيلا، إضراب عمَّالي في مناجم بوليفيا، شغب في مانيلا، جمل وضع خطاً عريضاً تحتها، تأثيرات توضيحية،علامات تعجب. لكن أين المحور المشترك في كل هذا؟ كيف كان هذا يعني لأي شخص؟ أمضيت ساعات طويلة أحاول جمع القطع معاً لحالة شخص استطاع رؤية مركز مفهوم لكل هذه الأشياء، ليفهم الصراع الذي دخلت فيه كل هذه المعلومات. بتتبع خربشات ملاحظاته الهامشية شعرت بأنني أقرب إليه عما كنت قبل سنين. لكنني تأكدت بأنني لم أكن أذكى منه أو أكثر حكمة. كان ذهنه مثل طائر العقعق، يجمع قطعاً براقة صغيرة من هنا وهناك، ربما لم يكن لها محوراً. ربما كان يحاول فهم العالم. مهما كان اللغز الحقيقي الذي فعله من

وراء تلك القصاصات فإنه زاغ مني. لكن غياب الإجابة ظل موجوداً، مشيراً إلى جزء من والدي لم أفهمه أبداً.

كانت هناك رسائل، ملأت صندوق ملفات، كلها بنسخ كربونية لتلك التي أرسلها والتي لم يرسلها. مجلدات وملفات في حالة من الفوضى المريعة، رزم من الصفحات المكتوبة بالآلة الكاتبة، غضب أفرغه في الحبر، كان هذا مجمل وصيته الأخيرة. كومة من الرسائل الحانقة ونسخ عن رسائل ربما دُسَّت في سلال المهملات مع آلاف غيرها يتلقاها محررو الصحف ووزارة الداخلية سنوياً. هذا هو ما نفعله بحياتنا، نبادل الجوهر الأثيري لأرواحنا بورق تغطيّه العلامات، رغم معرفتنا بأنه لن يلبي وَعْدَ الطموح الكامن الذي أطلقه.

لم تُرد ياسمينة أن تُبقي في البيت أي قصاصة. لهذا حزمت الصناديق وآلة الطباعة في السيارة لأخذها معي إلى البيت. لم أعرف ما الذي سأفعله بها، لكنني لم أقدر أن ارميها. هذا هو ما تركه لي في الحياة، ومهما كان فهو يعني لي شيئاً.

نظم عمر الجنازة بأسلوبه الإداري المعتاد. فقد رتب كل شيء قبل زمن طويل وسبقنا كلنا في هذا. حدث الدفن في نفس المقبرة الإسلامية التي دفنت فيها أمي، في شمال شرق لندن. اشترى عمر الحفرة التي بجانبها. حتى أن اسم والدي كان مكتوباً عليها. طبعاً لم يخبر عمر أحداً بهذا، لا أنا ولا ياسمينة.

(ماذا بشأن ميوك؟)

(ماذا عنه؟) سألتها

(يجب علينا أن نجده أينما كان)

كانت محقة طبعاً. إن كان يريد أن يرانا أم لا، يجب على أحدنا أن يذهب ويجده. لم يكن هناك خيار، فقد كان علي أن أفعل ذلك، إذ من غير المعقول أن تغامر ياسمينة وتذهب إلى سوهو. وجدتُ هناك فتاة، في حالة من الاحتقان، تعيش في الشقة الآن ولا تعرف أي شيء عنه، وهدَّدتني باستدعاء الشرطة إن لم أنصرف. غادرتُ وذهبت لأجلس في المقهى البائس في بيرويك ستريت، ليس بدافع الأمل وإنما لحاجتي إلى الوقت للتفكير. لم يتحسن المقهى أبداً.

(إنه رجل ناضج) قلت لياسمينة لاحقاً.(إن كان يريد أن لا يجده أحد فلن نجده. إلا إن كان ميتاً أو شيء ما) غامرت قائلاً.

(لو أنه تعرض لحادث لاتصلوا بنا وبالأقارب وكل ذلك) قالت بمنطق متأن.

(ولو أنه كان في السجن؟) تفوهَّتُ بسيناريو أسوأ من الأول.

(السجن؟ ميوك؟) وَقَفتْ والغلاية في إحدى يديها والغطاء في اليد الأخرى.

كنا في مطبخها. هناك ربطتان سوداوان من الثياب بجانب الباب، بانتظار أن تُنْقَلا إلى الجمعية الخيرية الإسلامية في المسجد، لترسلان من هناك إلى العالم، سيحظى بها أشخاص ما في مكان في العالم شاكرين. إنها تحمل معنى كبيراً لنا، لكنها خارج البلاد مجردٌ قمصان وسراويل بالية. ضحكت ياسمينة كما لو قلت دعابة، ثم أوقفت نفسها حين تذكرت بأن ذلك غير مناسب. ورمتني بتقطيبة من وجهها.

(إنك تمزح دائماً، حتى في وقت كهذا) لكنها رأت بأنني لم أكن أمزح. وضعت الغلاية من يدها.

(أنت تعرف شيئاً لا أعرفه أنا، هو متورط في مشكلة ما)

(أنا لا أعرف أي شيء)

(يا الله) جلست ياسمينة ببطء إلى الطاولة، يدها على الفورميكا وإصبعها يتحسس الخطوط حيث انتفخ الجلد حول براجمها. لم ترفع رأسها للأعلى.(لو كان في السجن، لا يفترض به أن يخبرنا، أليس كذلك؟)

(انظري، ربما أنا مخطئ. أنا .....)

(إنك لست مخطئاً يا ياسين. أنت لم تخطئ أبداً) وقفت على قدميها مرة أخرى.(حين يتعلق الأمر بانهيار هذه العائلة أنت هناك دائماً، في المكان الصحيح. أنت تستمتع بالبؤس والعار. أنت تخوض فيهما)

(يجب علينا أن نواجه الحقائق)

(اذهب واعثر عليه) استدارت مبتعدة عني. (هذا كل شيء. افعل ذلك. لكنني لا أريد أن أسمع أي شيء حوله)

لهذا ذهبت. اتصلت بالشرطة والمستشفيات، وكما شككنا، لم يكن له سجل بين الأموات أو المعالجة. لتحديد مكان شخص ما، تشك بأنه سجين، عليك أن تكتب إلى مكتب البريد في بيرمنغهام؛ إن كان في سجلاتهم، ينقلون رسالتك ويسلمونها للشخص المعني، إن كان يرغب بالاتصال معك. جرت مراسم الجنازة في الوقت المحدد. شقت القافلة الصغيرة طريقها عبر لندن بعد أداء الصلاة في المسجد الكائن في ريجنت بارك. كانت المقبرة محصورة بين خزان وطريق غزير الحركة، منقطة بأبراج الكهرباء التي كانت تُصدر طنيناً مشؤوماً. عصفت الريح القوية بالأرض الجرداء التي لم تكن تطأها قبل سنوات قليلة سوى حوافر الأبقار الثقيلة. كان هناك أثر لبعض الجهد الذي بذل لتحسين منظر المكان بأخاديد مرتبة بأناقة، تفصلها خطوط من القرميد المبيض وقطع حجارة، في نهاية الحقل، متباينة مع أكوام التراب المقلوب، حيث كنا نقف. كانت كتل التراب تفوح برائحة القطيع. أشرف رجل شاحب البشرة على سير الأحداث، له لَكْنةَ يوركشايرية ثقيلة. كان يرتدي ثوباً خارجياً جميلاً، مع عباءة حريرية مطرزة وعمة، وله لحية مشذبة. لاحظتُ بأنه ثنى نفسه مثل سائق عربة الموتى. وصل المساعدون من جامع عمر في كانتربيري في عربة (فان) خضراء بالية (سيركا موديل عام 1979). كانوا يرتدون ثياباً مختلفة. لم يكن هؤلاء هم المثقفون الذين عرفهم والدي في بيزوتر وادجوير رود، هؤلاء الصحفيون المنفيون من بغداد ودمشق والشعراء من لبنان، كانوا رعاعاً من العوام، ملح الأرض الإسلامية، ضخام الجثث، ومن المطعمين بشكل جيد، بلحى مجعدة وبهرجة مربكة. سذاجتهم الفلاحية جزء من إثباتاتهم الأساسية. لقد تغيَّر العالم عن الشكل الذي كان فيه في تلك الأيام، حين كان والدي يلبس ثيابه الأنيقة مع ربطات عنق (جيرمن ستريت) ويتمشى في كوينزوي وهو يناقش في السياسة، ومن حوله الجبنة والقهوة والصحف العربية.

جرى إبعاد الحرس القديم جانباً، لقد كانوا منكمشين وذابلين، يرتعشون بسبب العمر، مجموعة من كبار السن أصبح تشييع الجنازات واحداً من المواعيد القليلة المنتظمة في رزنامتهم الاجتماعية.

تركوا الحديث عن الثورة والمثل السامية وكان اهتمامهم الحالي سكر الدم والكوليسترول وتضخم البروستات. تنحوا جانباً ليراقبوا زمرة من الرجال المحشوين جيداً في أحذية دوك مارتن وقبعات بلا حواف، وهم يشقوُّن ممراً عبر الأرض المستوية مع وحل التصق بأذيال قمصانهم الطويلة.

وجدت نفسي مدفوعاً إلى الخلف . سحبوا الصندوق الذي سُجّي فيه والدي (على جانبه ليتجه نحو مكة) من عربة الموتى، كأنه مثقب هوائي، وحملوه على الأكتاف بسرعة. كان كل شيء يجري بسرعة مذهلة لسبب ما، كما لو كانوا على مواعيد مؤجلة أو بانتظار مهمة مجدولة أخرى. هرولوا في الحقل مثل عصابة من المجاهدين متوجهة نحو مرابض المدفعية. رفعتُ يدي لعمر الذي كان وسط الحشد لكنه لم يلاحظني. كان هناك الكثير من الصراخ وايماءات الغضب حول القبر حين انزلق النعش من الخيوط الأربعة واصطدم بقوة بالأرض. سمعت صوت تكسر مقزز لقطع رقيقة من خشب الصنوبر. يبدو أن الحفرة لم تكن مناسبة تماماً. عنيد إلى الأبد والدي، رفض أن يدخل. وضعوا النعش على أحد جوانبه وحامت مجموعة من الرجال لتقرير ما سيفعلونه. رفعوا المجارف وغروسها عميقاً في التراب السميك. لم يبدو بأن هناك من يدير العمل. لقد دُفن بشكل فوضوي، ونجحوا في إدخاله في الأرض بعد أن دقوا باباً لم يكن مثبتاً جيداً في مكانه الصحيح.

بعد ذلك اندلعت جلبة كبيرة. اعترض قسم من أصدقاء عمر على سلوك أحد الرفاق القدامى، الذي عرفت حينها أنه عبد السلام الهادي، أستاذ الأدب العربي الذي كتب رواية عرقيّة في الخمسينيات مُنِعتْ فوراً في كل الأماكن، وبذلك حوَّلت المؤلف إلى شخصية مضيئة في أفق الأدب العربي. تقدم الرجل من القبر ورفع يديه بالطريقة المعروفة، كأنه يقرأ من الكتاب المقدس، وبدأ بتلاوة سورة الفاتحة، ثم ثار كثيرٌ من الإيماءات، كان الاعتراض لاهوتياً: القرآن، صاحوا غاضبين، لم يقصد منه أن يكون للأموات بل للأحياء. لم يسمع أحد بهذا من قبل أبداً. الناس يتلونه في المقبرة دائماً، أليس كذلك؟ لكن يبدو ليس بعد الآن. دفعوا الرجل العجوز المرتبك والمندهش بقسوة جانباً. تقدمت للأمام كي أتدخل أو على الأقل لأشجع صهري بأن يفعل ذلك.

(عمر، أخبرهم أن يهذبوا أنفسهم)

(أرجوك يا ياسين، إنهم لا يقصدون سوى الخير. هم يقصدون أن ذلك كان خارج الاحترام)

(الاحترام لمن؟)

نظر عمر إلي قاطباً (لقد مات أحد أفراد الجالية. يجب علينا أن نُظهر احترامنا لموته)

(ماذا عن إظهار الاحترام لأصدقائه؟)

حملت نظرته نوعاً من الاحتقار السافر، التي ازداد اعتيادي عليها، ففي رأيه أنا لا علاقة لي بما يجري هنا. كنت مهمل تماماً، قضية سقطت بالتقادم، ولست جديراً بهذا الشرف. استدار ليتكلم مع الآخرين بينما كنت أساعد الهادي على الخروج من طريقهم.

(أنا لم أعد أفهم شيئاً. لا شيء. أنا أفهم لا شيء) ظل يكرر عاكساً العبارة للإمام والوراء، عاجزاً عن تقرير أي شكل يجب أن تكون عليه. وقفنا على مسافة آمنة ونحن نراقبهم وهم يملؤون القبر بالتراب ويتناوبون على المجارف. في الحقيقة لم يبدُ لي الأمر كواقع. (بالمناسبة) قال (سمعت أنك كتبت رواية جميلة، لماذا؟ من أجل من؟ لقد مات عصر الرواية. لو كنت بعمرك لكنت في السينما، أطارد الممثلات) غمز بعينه.

(ربما أنت محق في ذلك. يبدو أن الناس إما أنهم كرهوها أو أحبوها)

(علامة جيدة! هذا يعني أن هناك شيء مهم فيها. لا ينال تلك المعادلة سوى الأفضل) أمسك بذراعي (كان والدك رجلاً صالحاً. كلنا سنفتقده. من المؤكد أنه كان فخوراً بك)

لم أجد الشجاعة لأخبره عن رأي والدي الحقيقي.

بعد أسبوع اكتشفت أن السجون البريطانية ليس فيها حُرَّاس (نظار) وإنما حُكَّام. انتابني شعور بأن قدرة ميوك في سحر ناظر المدرسة لن تفيده الآن. تلقيت رسالة أنه في السجن وليس لديه اعتراض على زيارتي له إن كنت أرغب بذلك، لكنه لم يرسل لي بطاقة زائر. تحدثت مع الحاكم الذي كان متمدناً جداً، وبدا مهتماً ومتفهماً مما جعلني أظن بأنه عاد لتوِّه من دورة دراسية في العلاقات العامة. وقال، بأخذ الظروف في الاعتبار يمكنني الذهاب للزيارة في اليوم التالي. سوف يبلغ ميوك بأنني سأكون هناك خلال أوقات الزيارة، وسيكون الأمر له لكنْ على ضوء الوضع ...الخ.

كما تبين كنا أنا وأخي جيران عملياً، وكنا كذلك منذ أكثر من سنة. لم أستغرق أكثر من عشرين دقيقة في السيارة للوصول إلى المكان الذي كان على الحدود مع هيرتفورد شاير. استغرق التفتيش والوصول إلى غرفة الزيارات وقتاً أطول. كان السجن خلف صف من أشجار الحور والصنوبر العالية، في منطقة معزولة ساحرة محاطة بملاعب الغولف، وكانت الطريق تغص بسيارات دايملر وجاغوار المتوجهة في جولة سريعة في صباح يوم سبت مشمس.

كان الحراس يفتشون الجيوب قبل أن يسمحوا للزوار بالدخول، لا مسدسات أو سكاكين أو شفرات حلاقة أو مناشير معدنية تخبأ في الكعك. أي شيء تجلبه للسجين يمر عبر باب منفصل. بعد ذلك يقودونك إلى صالة كبيرة. بدا الزوار في حالة من الإثارة، وكأن هذا الوقت أمتع فترة في أسبوعهم، يوم الخروج من البيت. لاحظت أن بعضهم يتعامل مع الحراس بالأسماء الأولى. فتاة صغيرة، برز جذعها السمين من بدلتها الرياضية، تتذبذب للأعلى والأسفل لكي تنظر إلى والدها. زوجان كبيران في العمر، الرجل يرتدي بدلة بنية قديمة الطراز، والأم في تنورة وسترة، جلسا في صمت دون أن ينظرا إلى بعضهما البعض ينتظران ابنهما. جاء النزلاء واحداً تلو الآخر من الطرف الآخر للغرفة. لا نستطيع رؤيتهم عبر الزجاج حين وقفوا في الفراغ الفاصل بانتظار السماح لهم بالدخول.

لم أتعرف عليه إلا بصعوبة حين جاء باتجاهي. كان نحيلاً وحلق شعره حتى بات مثل شعر ذقن لم تُحلق منذ أيام. لقد خانته الطريقة التي يمشي بها، لأنه من بعيد، وعبر الصالة الكبيرة، كان يمشي مثل والدي، كانت أقدامه تبتعدان إلى أحد الأطراف وركبتاه تنثنيان وكتفاه منحنيان للأمام، برفقته حارس قاده إلى المكان الذي سيجلس فيه وأمره (انتبه لسلوكك الآن) غمزني وهو يواصل. ربما هذه النغمة البهيجة جزءاً من أثر العلاقات العامة نفسها.

كانت مناطق الجلوس مرقَّمة، وتتألف كل واحدة من أربعة مقاعد بلاستيكية مربوطة بإطار معدني مثبت بالأرض، ثلاثة بلون أبيض وواحد برتقالي. يجب أن يبقى النزيل هناك طيلة فترة الزيارة. من خلال نافذة مراقبة فوقي وزوج من الحراس خلفي كانوا قادرين على مراقبتنا. كان الناس الذين حولنا كلهم يتعانقون ويباشرون بمهمة الاستفسار عن حال العالم في غيابهم. كانت العائلة الصغيرة التي وراءنا تتحدث بفرح كما لو كان هذا عصر يوم سبت هي في مركز للتسوق.

امتلأت الغرفة بالأصوات. صافح الرجل الشاحب صاحب البدلة البنية ابنه وأشعل سيجارة، مالَ للأمام، كوعاه على ركبتيه، وشمٌ أزرق على رسغه، هزَّ نفسه وخرج من أكمام قميصه مثل ورقة اللعب. قفزت الفتاة الصغيرة للأعلى والأسفل في حضن والدها بينما كانت الأم تروي ما توجب عليها. من كان يأتي لزيارته، ومن كان على خطأ، ولماذا تورط مرة أخرى، وكيف عندما أخبرها الطبيب بأن أمها مصابة بارتفاع في ضغط الدم، عرفتُ فوراً، كانت البقرة (المرأة) قذرة جداً وعصبية طول الوقت.

كنا نجلس في صمت، ميوك في بدلته القطنية الزرقاء، إلى أن قلت أخيراً (لقد رحل) نظر إليَّ ورد بحدة (استنتجت ذلك بنفسي، وإلا ما الذي سيأتي بك إلى هنا؟) تأكدت حينها بأنه لم يعد لدي ما سأقوله. حُكِم عليه بالسجن أربع سنوات لبيعه المخدرات، وإن هذَّب نفسه سيطلقون سراحه بعد قضاء نصف المدة. لقد وجدوا الحقائب وأوزان وحقن من كل الأنواع الجرمية في شقته. أمسكوا به بسهولة تامة كما تبين، لحقوا به إلى البيت، راقبوه، لمدة يومين ثم قفز رجلان من التحري في الزقاق أثناء الصفقة. ناضل ليقاومهم، ثم حاول ابتلاع ما لديه، وكاد يقتله ذلك لو لم يضعوا قفل رقبة عليه وأجبروه أن يخرج الرزمة من فمه.

كنا محبوسين هناك، في تلك الصالة معاً، مقابل بعضنا بعض، نتاج الرَّحِمُ نفسه، ونفس النماذج الجينية الموجودة في لوالب الحمض النووي الحلزونية التي تلتف فوق بعضها. هذه ليست نهاية العالم. الوضع سيء لكن الناس ينجون. تحدثت الأصوات من حولنا عن الطرق التي يمكن التآلف بها مع الحياة التي اقتحمها القانون. اندماج الإثم الإجرامي مع اعتيادية الحياة الروتينية. أخذ الأولاد إلى المدرسة، التسوق، سرقة مكتب بريد، الذهاب إلى السجن. كل شخص حولنا، على ما يبدو، حاز على درجة من الراحة، بعضهم تصالح مع حقيقة الوضع. الفتاة الصغيرة السمينة في القميص الرمادي والسروال الضيق، تزحف للأعلى والأسفل على ركبتي والدها وتحاول أن تستأثر بانتباهه. كانت أمها تبعد الدخان عن عينيها وتتكلم بابتهالات مستمرة من التشكّي. بدا الرجل مذهولاً من كل شيء. بدا عاجزاً عن أي شيء كريه. تساءلتُ ما الذي فعله، الجريمة التي ارتكبها لتجعل المجتمع يقرر حبسه. بدا مسترخياً ومرتاحاً، كما لو أنه يتطلع بشوق ليقول الوداع ويعود إلى حياته البسيطة في الزنزانة. كان خلفه الرجل صاحب الوشم الذي بدا مستسلماً لقدره، ليس لديه آمال أخرى في الحياة، أو من الابن الغبي المغفل الذي كان يتحدث مع الحراس كما لو أنه كان يجلس على منضدة منتزه عام. كان الولد يتصرف بأريحية وكأنه في بيته. هذه ستكون حياته. لقد تعلم إقناع نفسه بهذا المكان.

جلسنا في صمت. كنا نحاول أن نفسر كيف انتهت بنا الأمور لنكون في هذا المكان معاً. طفت في ذهني فكرة قديمة الطراز عن القدر، كان يفترض بأن حبوبة أشارت إليه سابقاً. لم يكن هناك تفسير. ما الذي يمكن تعلمه من مسار تاريخ هذه العائلة الصغيرة الاهليلجي الذي قاد ميوك إلى تلك القمصان القطنية البشعة، وياسمينة إلى بيت شبه منفصل في كانتربيري، وهي تغطي رأسها في إذعان ورع لزوجها، إلى والدها الميت، إلى الرب. تسجد على ركبتيها لتصلي من أجلنا كلنا، لخلاصنا، حتى لي أنا؟ هل لهذا كله أي معنى؟ هل كان القصد بأن يكون له معنى؟

لقد تمتعنا بانطلاقة جيدة في الحياة: ثياب نظيفة، ثلاث وجبات كاملة في اليوم، بيت نسكن فيه، مدرسة نذهب إليها. كان والدي ووالدتي متحررين عقلياً وليبراليين، علمانا أن نقرأ ونكتب ونفكر بأنفسنا ولم يعاملاننا بسوء أبداً أو يضربانا أو يحبساننا في قن دجاج. لم يشربا يومياً حتى السكر،

ولم يرسلا بنا إلى الشوارع لتسول كسر الخبز. لعبنا تحت أشعة الشمس وحلمنا في عمل أشياء خيّرة حين نكبر. أين أخطأ الكل ؟ أين أخطأ كل واحد؟

(لماذا لا تفصح وتقولها؟) سأل بعد أن اعتدل في كرسيّه فجأة وهو يتفحصني بعينيه شبه المطبقتين. (أنت لا تفكر إلا في العار من هذا، أخوك محبوس، يضيّع حياته. أنت تظن بأنني مخطئ وأستحق كل ما نلته من جزاء) ابتسم وبدأ بثقة وسرعة مفصحاً عن غضبه وكرهه.(لم يكن ذلك خطأ. الكل يعمل فيه. صدف وأن اختلفت مع الأشخاص الخطأ، وانتقموا بالوشاية بي. هذا كل ما في الأمر. لم يعد هناك شيء خطأ وشيء صحيح أبداً. كانت هذه هي الطريقة القديمة للعالم. انظر حولك. هل يبدو هؤلاء الناس سيئين أو شريرين؟ لا. لقد تم الإمساك بهم. هذا كل ما في الأمر. إنهم لا يختلفون عن بعض المدراء التنفيذيين الذين يزوّرون ضرائبهم. ما الذي يشغل الناس في سوق الأسهم كل اليوم باعتقادك؟ إنهم يسرقون الناس. دعني أخبرك بأن هؤلاء الناس الذين يلبسون البدلات الثمينة ويقودون السيارات الرياضية. ليسوا أفضل مني. من برأيك يستورد مادة(المخدرات)؟ أين كانوا يقيمون قبل أن يأتوا إلى هذه المدينة؟ في الريتز أم الفورسيزينز. كانوا في مكان صغير تافه، يرشح فيه المرحاض على السجادة وليس في تلفازهم سوى ثلاث قنوات. وهم الآن يسافرون بأبّهة ويعاملون باحترام بسبب ما لديهم، المال. الاحترام هو المال. ما فائدة كل ذلك الهراء عن التعليم والتعلم والقيم؟ حسناً، حسناً كان ذلك مفيداً للناس في تلك الأيام. لكن ما الذي تعرفه؟ لا يمكنك الدخول إلى أي مكان لأن لون جلدك داكن جداً. لا يمكنك شراء بيت في شوارع معينة. لا تستطيع الارتقاء إلى أبعد من نقطة محددة. يسمّون ذلك بالسقف الزجاجي. كانوا يحكمون العالم ويريدون إبعادنا إلى خارجه. يمكنك أن تحاول بكل قدراتك لكنك لن تصل إلى أي مكان. هل تعرف لماذا؟ لأنك تلعب بالقواعد التي وضعوها هم. إنهم من يدير اللعبة. لا يمكنك أن تفوز. ذلك هو الذي تبدل. نحن توقفنا عن احترام القواعد وهذا تغيير نحو الأفضل، صدِّقني. لا يهم بأي طريق ستسير بها الأمور فهي لن تعود إلى الوراء، إلى ما كانت عليه سابقاً. لهذا المهم الآن هو من يملك المال. الرجل الذي اشترى هارودز، ما اسمه؟ انظر إليه. لقد خافوا وارتعبوا منه لأنه كان يشتريهم فعلاً. تصوَّر، لقد جرى شراء ديمقراطيتهم الثمينة من قِبَل مصري قذر. هذا ما فعله، ثم بعد ذلك ذهب إلى العائلة الملكية فوضعوا نهاية له. هل تصدق بأن ذلك كان مجرد حادث سير في ذلك النفق في باريس؟ مستحيل. لقد هاجموه وهزموه بقوة. يستفيد الناس بما بدؤوا حياتهم به، لكن لم يكن لدي الكثير من ذلك. كان عليَّ بذل أقصى ما استطعت. حسناً، هذا ما حصل. إنها نكسة لكن لا تيأس. سأخرج من هنا وسأتابع طريقي مرة أخرى. سترى)

أسند ظهره للوراء وهو يتنفس بصعوبة، ثم أشعل سيجارة أخرى. كانت نهايات أصابعه مبقعة باللون الأصفر، بقدر بوصة، بسبب النيكوتين. هكذا كانت الأمور وقد عرفت بها الآن. نظرت إلى الساعة الجدارية، لم يمر من الوقت أكثر من خمس عشرة دقيقة.

(أنت فوَّتت الجنازة. لو عرفنا بأنك هنا لاستطعنا إخراجك كما أعتقد. أنا لا أعرف إن كانوا يسمحون بمثل هذا النوع من الأشياء؟) كنت شاكراً لأننا لم نضطر إلى الخوض في ذلك. وتخيلت ماذا سيستفيد الناس من ظهوره والقيود في يديه أو برفقة حارس من الشرطة. (على الأقل أمي لم تحظَ بفرصة رؤيتك بهذا الوضع، وهذا نوع من البركة)

أطلق نحيباً مكتوماً ورمى نفسه في الفراغ الذي كان بيننا. أطبق أصابعه حول رقبتي، وسقطنا معاً على الأرض الإسمنتية الصلبة. كانت هناك صفارات انطلقت في مكان ما. كان فوقي، عيناه

منتفختان، وعلي كدمات حول رقبتي، ظلت لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً. شدَّونا وفرقونا عن بعضنا. شعرت أن كُمْ سترتي نتأ وتمزَّق قميصي، بعد ذلك ثبَّتني على الأرض حارسان كانا يقرفصان عليَّ، بينما هناك أربعة آخرون يجرون ميوك للوراء نحو الباب الذي قَدِمَ منه، وهو يبصق ويشتم في نوبة من الصراخ. لوَوا ذراعيه للخلف بالهراوات. بدأ صوت جرس الباب الداخلي يرسل إشارة عبره وتدلى جسده المنهك.

ساعدني الحراس على الوقوف. سوَّيتُ ملابسي وهم ينتظرون. عليَّ أن أرحل. ليس لدي أي اعتراض. كلا، لن أكون مشتر لأي حصة. قاداني إلى المخرج. كنت أرى الجميع وهو ينظرون إلي. الرجل ذو الوجه الخشبي، صاحب الوشم، كان يكشر، أول علامة ابتهاج له. وهكذا لم يكن اليوم كله مضيعة. الابن ذو الرقبة الغليظة يضحك لنفسه. الفتاة الصغيرة التصقت بوالدها. هزَّت المرأة رأسها بازدراء لذلك النوع المنحط الذي يسمحون له بدخول مثل هذه الأماكن في هذه الأيام. كل الأشخاص الذين كانوا في القاعة هزوا أكتافهم باستهجان وتساءلوا عما يحدث هناك.

كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها ميوك. حين أطلعت على أوراق والدي كلها فيما بعد، اكتشفت بأنه كان يعرف مكان ميوك. كان هناك رسالة منه ممهورة بخاتم سجون (إتش إم) وسط المراسلات التي تركها خلفه. لقد أخفى هذا السر عنا، وفضَّل بأن يأخذه معه إلى القبر بدلاً من الاعتراف بأن ابنه حكم عليه كمجرم.

الفصل ثلاثون

في الصباح التالي استعاد ليو مزاجه وطبعه، فنزلنا إلى الشاطئ. أنا مصمم بأن نجعل منه يوماً جيداً. سوف نفعل كل ما يريده. لن تكن هناك حدود لكمية الآيس كريم التي سيتناولها. لهذا سبحنا وبنينا الخنادق والحصون في الرمال. قلت له بأن برج المراقبة الذي يقع خلف البلدة، كان يستخدم مرصداً للقراصنة من ساحل بارباري. تفحَّصَ الأفق بمنظاره المقرِّب الجديد.

(يجب أن نكون حذرين) قلت.(قد تستحوذ علينا حياة الراحة والتبطُّل)

(ما هي حياة الراحة والتبطل؟)

(الحياة التي ليس عليك أن تقوم فيها بأي عمل)

(عمي ميوك يعمل) جرب منظاره على اليابسة.

(هل يمكنك رؤيته؟) اعتدلت لأجلس.

(إنه آت نحونا)

جاء ميوك حاملاً سندويشات وعلب من المشروبات غير الكحولية. هناك لطخ من الجبس على وجهه وذراعيه، ويضع على رأسه عمامة بدا فيها لليو مثل قرصان. رمى نفسه على الأرض، واستطعت أن أرى بأنه اكتسب زيادة خفيفة في وزنه، رغم ذلك العمل الجسدي الشاق، ربما كان ذلك بسبب العمر. قررت أن هذه اللحظة قد تكون مناسبة لتقويم بعض الأشياء.

(هل تجاوزتَ السَرَاح المشروط أم سمح لك بمغادرة البلاد؟) سألت بأقصى استرخاء قدرت عليه.

أطلق ميوك ضحكة وهز رأسه(هل تظن أنني كنت سأبقى هناك أكثر مما كنت مجبراً عليه)

(هل هذا جواب؟)

نظر إلي بزاوية عينه وهو يأخذ رشفة من عصير الليمون.

(أنا لن أعود إلى تلك البلاد التي كادت أن تقتلني أبداً) أومأ باتجاه البحر (هذا هو المكان الذي أنتمي إليه الآن, في الخارج وفي الهواء الطلق وليس السجن) لم يقل لي بعد عن خططه بالرحيل.

نظر ليو شزراً نحوه (هل صحيح أنك دخلت السجن لأنك كنت قرصاناً ؟)

(نعم صحيح) اصدر ميوك هديراً ساخراً وثنى عضلاته ثم ضحك وداعب شعر ليو. كان يشعر بالارتباك مع ليو، وربما مع كل الأطفال. هناك جزء فيه, كما أشك, لم يكبر على حساسية المراهق التي تتجلى كعاطفة. لقد أضاع كثيراً من السنوات المهمة, سنوات قضاها في البحث عن طريق للخروج من الواقع, مقنعاً نفسه أنه ولد ليقف على المسرح، وآلاف المعجبين يهتفون عند قدميه بحماس. سنوات اختفت تحت طريق ضبابي ثمل من التعاطي والمتاجرة والإدمان. هنالك فجوة في نموّه مثل عطلة أسبوع طويلة. قد لا يستردها أبداً. جزء منه هو ذلك الصبي المفرط في الكبر،

الذي يعتقد بأنه يستحق اهتماماً أكثر من الترحيب. لو أغضبته سينقلب ضدي وَيزْرَق من الغضب. وبنفس الوقت إنه مثل عملاق لطيف مع ليو, قلق أن لا يكسر له عظمة إن لمسه.

أنهينا طعامنا وتمشَّينا على حافة الماء. رمى ليو صندله وذهب ليستكشف المناطق الصخرية في المياه الضحلة، وهو يخطو بحذر فوق الطحالب الخضراء، ويتوقف لينظر بمنظاره إلى السرطانات التي كانت تحفر بين قدميه.

(لقد حان دورك الآن) قال ميوك(متى ستحكي لي؟)

(عن ماذا؟)

(حسناً, عن كل شيء, لماذا قررت المجيء هنا, وكيف حصل ذلك) نقر بإصبعه على جبيرة الجبس التي على رسغي الأيسر.

(لقد أخبرتك بأننا تعرضنا لحادث صغير بالسيارة)

(إلى هذا الحد هو صغير؟) تفحصني لحظة ثم هزَّ كتفه لا مبالياً ونظر بعيداً (لقد كنتَ محظوظاً دائماً) كان هناك يخت يعبر مصب الخليج، بدا شراعه المنتفخ مثل هلال أبيض في الشمس.(أنت لم تعرف أبداً كم كنتَ محظوظاً. فأنت لم تؤمن بشيء أبداً, بأي شيء ولم تثق بأحد. لم ترغب بأن تكون إلى هذا الجانب أو ذاك. تثق بنفسك دائماً. الشخص المستقل دائماً. كان هناك غموض حولك دائماً كما لو كان لديكَ سرٌّ لا يعرفه أحد سواك. أما ياسمينة فقد كانت الآنسة التقليدية التي تفعل كل ما يطلب منها. أنا كنت المهرج فقد استطعت أن أضحك الناس. كان عليَّ أن أُضحكهم فقد كنت بحاجة إلى استحسانهم وإعجابهم وحبهم. لكن ليس أنت. لقد رحلت لوحدك ولم يستطع أحد تصديق ذلك. بدوتَ وكأنكَ نسيتنا في اليوم التالي لرحيلك. لم تكتب لنا رسائلاً إلا نادراً. كان عليك أن تهتف لنا مرة، كل مدة لكننا لم نسمع الكثير عن أي شيء. كانت أمي تبكي. هل عرفتَ بذلك؟ كانت تجلس هناك والرسائل في يدها وتبكي. سألتها مرة عن السبب وقالت إنك أمضيت حياتك بانتظار فرصة للرحيل عنا. لقد كانت تعرف بأنك رحلت إلى الأبد وأنك لن تعود أبداً. وأتذكر بأنني فكرت, إن كان لن يعود فما الذي أفعله أنا هنا؟ طبعاً بعد ذلك, ذهبتُ ونبذتُ كل شيء. ليس لدي الموهبة, عرفت هذا الآن، بالإضافة إلى أنه حتى الموسيقيين عليهم أن يقوموا بعمل ما. ظننت بأن الأشياء ستأتي إلي بنفس الطريقة السهلة التي أتتك بها)

كان يواجه البحر وهو يتكلم, تحدث بتجرِّد شخص تصالح مع كثير من الأشياء عن نفسه. (شعرت بأنني منبوذ. ظننت بأنني أستطيع التفوق عليك وأنجز شيئاً يسرق كل نجاحك ويزحلقك. هذا ما يريده كل واحد منا, أليس كذلك؟ أن نكون فوق الجميع, أن نكون أحراراً.)

مطَّ ذراعيه, أوشكتْ فرصة الغداء على الانتهاء. كان عليه أن يعود إلى العمل, إعادة بناء "ال دودي" كما لقبه باعتباره الأقرب إلى اسم فندق ديانا. لم يكن الروس يفهمون نوع مزاحه الغامض، فلم يضحكوا كما قال ميوك.

(أنا سعيد لأول مرة منذ أن كنت طفلاً, أنا في فضاء فارغ, غير مجبر على إرضاء أي شخص, لا أحتاج إلى المخدرات. ندخن قليلاً من الحشيش مرة كل فترة فقط. أشاهد شروق الشمس وغروبها وأعرف أنه لا يوجد مكان أجمل من هذا أود أن أكون فيه.) التفت ليواجهني (أنت تتساءل لماذا

أخبرك بهذا؟) أخذ نفساً عميقاً. (أنا لا أريدك أن تعكر علي أموري. أنت أخي وأنا أحبك، لكن عليك أن تبقى بعيداً عني. أنت حظ سيء لي)

هذا هو سبب عدم إخباره لي عن خططه. نظرت إلى ليو. كان بعيداً عن مرمى السمع, يقرفص في الماء. بعد أيام قليلة علينا أن نجد طبيبا ليزيل الغرز. كيف هم الأطباء الأسبان؟ نظر إلى الأعلى ورآني أراقبه. حمل شيئاً في يديه ثم قفز ورمى نفسه في الماء الضحلة ثانية.

(ليس الكل مثلك يا ياسين. لا نستطيع العيش على حمية من الهواء النقي. ابنك ذاك يحتاج إلى أم. إنه يحتاج إلى أناس حوله, نظام, شيء مفهوم وله معنى. لا تظلمه بجريرتك, لا يهم كم يشبهك. لا أحد مثلك)

راقبت ميوك وهو يبتعد لدقيقة أو اثنتين وأنا أحاول معرفة ما علي فعله.

(لا تذهب إلى أي مكان) ناديت ليو قائلاً.(لا تخرج إلى المياه العميقة)

(أين ستذهب؟)

(سأعود على الفور)

في البداية لم أرَ أين ذهب ميوك. لقد قطع مسافة أبعد مما تصورت ووصل إلى الطريق تقريباً. بدأت أهرول على الرمل، لكنه كان سيراً بطيئاً. لم أكن متأكداً بالضبط مما أردت قوله له, لكن كان علي أن أقول شيئاً. توقفت لألتقط أنفاسي واستدرت للوراء نحو ليو. لم أتمكن من رؤيته لمدة لحظة، ثم انتصب للأعلى ورأيته يراقبني بطريقة غريبة. استدار وخاض في ماء أعمق. لم يكن الطريق بعيداً الآن. ركضتُ حتى آلمتني رئتاي. لو سقط ليو في الماء، فلن أتمكن من العودة إليه في الوقت المناسب لسحب ذراعه وإخراجه. أوجعتني رئتاي وتعرقت بشكل غزير. لكنني أدركت بأن كل ذلك لم يعد يهم. كل ما يهمني وكل ما أملك هو هنا والآن. وميوك على وشك الفرار مني لأنه يعتقد بأنني سأفسد عليه أموره. ليس هناك ما أتمسك به. أنا متعب من إيذاء الناس. أريد أن أتوقف وأرتاح.

ناديته مرة أو اثنتين، لكن في الوقت الذي وصلت الطريق فيه كان هو على الجانب الآخر منه، يلتقط عربة ذات دولاب ويتوجه إلى الداخل، عبر البوابة، إلى باحة موقع البناء. صحت باسمه مرة أخرى, وسمعني هذه المرة, رأيته يستدير نحوي. اشتغلت خلاطة اسمنت وأصدرت جلجلة. كان يتفوه بشيء لكنني لم أكن أسمعه. رأيته يرفع يده في الجو بسرعة كبيرة. أقبلَ ظل نحوي وعرفت بأنه سيصدمني ولم يكن هناك ما أستطيع فعله. ضربني بين عيني مباشرة بقوة. ثم لم يعد هناك شيء.

الخاتمة

جلسنا وأنا أشعر بانقباض شديد في صدري، وكأن طائراً ضخماً اجتاح المكان الذي يتوضع فيه قلبي. كانت المحطة شبه خالية. هناك زوجان يحاولان أن يقررا أين سيقفان، المرأة تلعق شفتيها والرجل ينظر إلى ساعة يده. كان ليو يجلس بجانبي.

(سيكون كل شيء على ما يرام) قال وهو يضع يده على ذراعي(سترى)

لم أكن متأكداً كم جلسنا هناك، ربما نصف ساعة وربما وقتاً قليلاً بحدود العشرة دقائق، لكن فجأة جاء. ظهر شعاع من ضوء الشمس، ومَضَ على طول خاصرة المحطة وتعرج صاعداً السكة نحو المحطة، وفجأة عجَّ رصيف المحطة بالناس المتدفقين من داخل صالة الانتظار ومن النازلين من القطار. كان هناك جو من الاستعجال المحموم. حقائب كبيرة ذات أغلفة بلاستيكية قاسية على عجلات، أُسقطت على الأرض بطريقة تخلو من اللباقة، رفعت بالأيدي وأُنزلت لتتدحرج بعيداً. صيحات الترحيب وهتافات الاندهاش والفرح حين بدأ كل الناس المحيطين بنا يرحبون ببعضهم، يتعانقون ويبكون ويفترقون بكل تلك السهولة. وقف الأجداد والجدَّات ملوِّحين بأياديهم عند نوافذ عربات القطار، شباب يقفزون للأعلى والأسفل يهزون بعضهم البعض بانتشاء ويرقصون على شكل دائرة. ذهاب كان أم إياب ليس هناك فرق. كأنه احتفال، بالحركة، بالسفر، بالسعي الإنساني، بالضرورة المؤلمة لأن يكون المرء في مكانين في الحال، واحد من أجل القلب والثاني من أجل الرأس. رصيف المحطة، الذي كان مقفراً قبل دقائق قليلة، أصبح يتلاطم الآن بعواطف بشرية تغدو وتأتي بين جدران القرميد الباهتة وفولاذ العربات الأبيض. تشبثت بالماضي لكونه كل ما أملك. أنا لا أعيش بدونه وهذا ما اعتقدته به على الأقل. أنا خائف من إفلاته وتركه. كما لو أن ليو كان يقرأ أفكاري، التفت ونظر إلي.

كانت ايلين بجانب القطار من أجل الحقائب، تُخرج تذاكر السفر لتريها لرجل يرتدي زياً رسمياً، كان يقوم بتأشيرها. لوحت بيدها بأن العربة التي سيستقلانها هي التالية. كان المحرك يدور مسبقاً لكن لم يبدُ الاستعجال على أحد.

(بابا؟)

(نعم؟)

(لن يطول الأمر كثيراً، أليس كذلك؟)

(كلا) قرفصت ووضع ذراعيه حول عنقي (لن يطول)

(هنا) وصل إلى جيبه وأخرج الصدفة التي أخرجها من الشاطئ (احتفظ بهذه. وحين نلتقي في المرة القادمة يمكنك أن تعيدها لي و...) لم تكن لدينا الشجاعة للبوح بهذا. أعاد وضع ذراعيه حول عنقي ولم نقل شيئاً.

(سر. اركض وإلا فاتك القطار) وقفتُ وقلت.

مشى للخلف (لقد افتقدتك سلفاً) قال

(أعرف. سأفتقدك. انتبه إلى دربك)

ابتسم واثقاً، ثم عاد ليختفي وسط الزحام.

شعرت للحظة كأنني غواص مضى عميقاً وبسرعة في الماء ثم عجز عن العودة إلى السطح. لم أكن أرى شيئاً حولي سوى وجوه غير مألوفة. أشخاص لم أرهم في حياتي قط، وعلى الأرجح لن أراهم مرة أخرى أبداً. إحساس مفاجئ بالغرق لا يحتمل وسط هذه الكتلة الهائلة من النَّكِرَات. لكن تلك هي طبيعة الأشياء. لكل واحد منهم شخصيته وينتمون إلى أشخاص آخرين ولهم أبناء وبنات وآباء وأمهات وأجداد وجدات أيضاً. فالأمر متناسب ومفهوم، وله معنى حتى لي أنا.

سمعت صوت النداء من مكبرة الصوت. لم أرَ ليو لكنني رأيته في الداخل بعد ذلك. كان وأمه يقولان لبعضهما شيئاً، تراجعت ايلين وغابت عن النظر. رَفَعَ ليو ذراعه ملوحاً فلوَّحت له بيدي أيضاً. ثم أتى بعد ذلك صوت، حين أغلقت الأبواب، وحلَّ مكان وجهه انعكاس السماء الساطعة على الزجاج.

تدحرج القطار مبتعداً، وأصدرت عجلاته طقطقة على سكة التحويل، انحرفت العربات البيضاء خارجة من المحطة إلى ضوء الشمس، مثل حبات مسبحة من الأحجار الكريمة البيضاء بين أصابعي، بصوت خرير ثابت. واصلت المضي وزادت المسافة، بكرة من السيلوليد تُصدر أصواتاً قصيرة ورتيبة عبر أسنان العجلات. رأيت نفسي من بعيد شكلاً صغيراً جداً على رصيف المحطة، يتضاءل والعالم يتوسع من حولي.

كانت الشمس على وشك المغيب خلف التلال حين جاءت الحافلة التي ستقلّني إلى ركن الواجهة البحرية. مشيت باتجاه المكان الذي يعمل به ميوك فوجدته جالساً هناك على الجدار المنخفض بجانب حافة الماء، وسألته ماذا حدث.

(أعتقد بأنهم وجدوا شيئاً. شيء حمله الماء إلى الشاطئ)

تجولنا في المكان. مجموعة من الصبية المراهقين، مبللين بماء البحر، كانوا يقرفصون، وآخرون يندفعون من الماء ويرمون بأشياء فوق كومة متزايدة. دفعنا أنفسنا للأمام ومططنا أعناقنا من وراء ظهورهم لنرى حزمة ممزقة من النايلون وسط دائرة من المتفرجين الفضوليين، حقيبة تبعثرت محتوياتها على الشاطئ مثل أجزاء أحجية مفككة.

(تبدو وكأنها كتب) ضحك ميوك وقال. (وما هو هذا الشيء؟)

(آلة طباعة) قلت (من نوع ريمنغتون محمولة. سيركا 1964، بيعت مستعملة في محل اوكسفام في كانتربيري. ارتخى فيها أزرار حرف الألف وحرف الباء فكانا يعلقّان أحياناً) حدَّق ميوك بي كما لو أنني جُننت، ثم عَبَسَ وجهه وشق طريقه عبر الحشد وهو يصيح ويومئ. التقط من الكومة كتاباً انفتحت صفحاته العجينية المشبعة بالماء مثل بوليب بحري، قلبه إلى صفحة العنوان ليجد اسم المالك والسعر ممهوراً بخاتم مكتبة صغيرة مغبرة تبعد آلاف الأميال، يعود تاريخه الى أكثر من عشرين سنة فأطلق صيحة تعرُّف.

رمى الكتاب بين ذراعي لأمسك به وانحنى لينتزع كتاباً آَخَراً، ثم واحداً غيره، ثم غاب بعد ذلك ليظهر ثانية فجأة على الشاطئ، حاضناً الكتب بصدره، ويلوح بيده كلما وجد شيئاً ذو أهمية خاصة. بعد فترة قليلة أصبح خارج مدى السمع، وجُلّ ما كنت أراه ظل لهذا المخلوق المشعر في خلفية سماء أرجوانية فوق الصخور النائية، أشرقت الأضواء على طول الطريق. وبدأ الناس بالتشتت.

أصبح كل الشاطئ مقفراً تقريباً الآن. مدٌّ بسيط من الماء والرمل تلاقيا في هسيس مشع. لم يتبدل منذ مليون سنة، وسيبقى كذلك لفترة طويلة بعد أن نموت. أخي، شكل وحيد يهرول على طول الشاطئ الخالي، ينتزع أشياء غارقة في الأمواج المتكسرة. نظرت إلى الشيء الذي بين يدي، غير المميز، بعد أن جفف النسيم صفحاته.

شيء قاس يزعجني في عمودي الفقري، كان يشق طريقه للأمام والخلف. نظرت بكثير من الانتباه، ورأيت سرمدية حبيبات الرمل الصغيرة المتحجرة بين الصفحات، وبدت في ضوء المساء

الباهت تحترق بوهج النجوم الهاوية الدافئ وتنتظر من يمسك بها.

السفر مع الجن

السفر مع الجن، الكتاب الخامس لجمال محجوب، رواية رحلات طموحة، تأملية وأحياناً هزلية، ركزت على العلاقة الممتعة بين أب وابنه الصغير خلال رحلتهم في أوروبا بسيارة بيجو زرقاء فضية موديل 504، يكتشف الأب الراوي المولود بين الصدوع القارية والطبيعة في أوروبا أنه من "المطلعين" و"الدخلاء" بنفس الوقت.

ياسين ظاهر، رجل يحمل جوازي سفر ويتكلم بأكثر من لغتين، على وشك الطلاق من زوجته الانكليزية-الانكليزية ايلين. بتشجيع منها يمضي بعض الوقت مع ابنه ليو بينما تظل هي في الدانمارك تتبادل الأفكار مع أبناء عمومة بعيدين في الدانمارك، ينطلق ياسين وابنه ليو ذو السبع سنوات في رحلة تعليمية دافعها فيها الخوف من فقدان ولده.

ياسين الذي ولد في الخرطوم من أب سوداني وأم انكليزية في السابعة والثلاثين من عمره الآن، مجبر على مواجهة تعقيد أصوله ويصارع لاختيار الطريقة المناسبة لنقل هذا لابنه. عندما سأله ليو من هم العرب النهابين في الحروب الصليبية رد عليه الأب "إنهم.....نحن." حين مط ياسين رحلته من الدانمارك إلى ألمانيا ولوكسمبورغ وباريس وبروفانس ثم اسبانيا تخيل بأن تظهر الصحف بعنوان "متعصب إسلامي يخطف إبنه"

كتبت صحيفة الغارديان عن الرواية:

بغناها المقنع واللافت تنقل رواية السفر مع الجن صوتاً عطوفاً أصيلاً إلى عدد واسع من القراء.

وقالت صحيفة لاموند عن جمال محجوب:

" روائي بموهبة استثنائية"



للدراسات
والنشـــر
والتوزيـع